

دكتور على الحديدي

استاذ الأدب العربي الحديث
جامعة عين شمس

مجموعتي الباري ودني شاعر النهضة

يضم الكتاب ٤٥٠ بيتا مما لم ينشر من شعر البارودي

١٩٩٠

مكتبة الأنجلو المصرية

دكتور على الحري

استاذ الأدب العربى الحديث
جامعة عين شمس

مجموعه شعراء الباء ودي

شاعر النهضة

يضم الكتاب ٤٥٠ بيتا مما لم ينشر من شعر البارودى

١٩٩٠

مكتبة الأنجلو المصرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَانْظُرْ لِقَوْلِي تَجِدُ نَفْسِي مَصَوَّرَةً فِي صَنْحَتِيهِ ، فَقَوْلِي خَطُّ تَمَثَّالِي

البارودي

الطبعة الثانية . . وقد زيد فيها : تفصيلات من حياة البارودي وأحداث
عصره ، وكثير مما لم ينشر من شعره ، وبيان مؤلفاته ، ثم دراسة أدبية للشاعر
ومتابع شاعريته ، ومنهجه في الشعر ، وأثره في حركة التطور لشعرنا الحديث .

مُقَدِّمَةٌ

كان البارودي يشدني إليه دائماً وأنا أدرس أدبنا في مطلع النهضة ، وأبحث عن البيئة الأدبية في تاريخنا الحديث ، فقد كنت أجد الرجل — وهو بالانفاق إمام حركة التطور والبعث في الشعر العربي الحديث — وكأن سوء الطالع الذي لازمه في حياته لاحقه بعد وفاته ، فقد فارق الدنيا منذ أكثر من ستين عاماً ولما تشكلت عناصر البحث والدراسة لأدبه . فالمصادر الأصاية ، من ديوانه ، وكتبه ، ومنذ كراته مازال جزء منها غير ميسور للباحثين ، فطالع من ديوانه لم يعتمد كافية اللام ، وجاءت قصائده خالية من مناسباتها وتواريخها ، فمعرض تفسيرها وتحديد بيئتها ومناسباتها لمفان التخمين والاجتهاد ، أو لمواطن الخطأ ، حين اعتمد الدارسون على تاريخ « الثورة العرابية » الذي تدخلت فيه الأهواء والافتراءات ، وكتبت أصول أحداثه — في غفلة من الزمن ومن ضمائر العلماء والمحققين — « أفلام التشهير » و « أفلام التبرير » !!

كتبته أفلام التشهير للأجسورة من القصر أو الخترة من مؤرخي الاستعمار ، وقد استهلقت عقب هزيمة « الثورة العرابية » تشويه زعمائها في أشخاصهم وفي مواقفهم منها ، لتصاب الأمة بخيبة أمل في الزعامة المصرية ، فتخبو روحها المعنوية ، وتبتس من الكفاح ، وتستكين للاستعمار ، ولتجرب عن الأجيال المقبلة حقيقة النضال الوطني ، ومواقف البطولة التي وقفها الزعماء ، وما قدموه من تضحيات في سبيل تحرير وطنهم ، خشية أن تستهدى الأجيال الخطأ ، وتترسم الطريق ، ويظهر بينها زعماء آخرون يحملون الشعلة ويواصلون الجهاد

دفاعاً عن شرف الوطن الغلوب ، وحتى تضمن الرجعية والاستعمار بقاء
النكسة لصالحهما ، ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر .

وكتبته أفلام التحرير التي انبرى بها بعد وفاة الزعماء أصدقائهم وتلاميذهم ،
وقد أصيبوا بالأس ، واستكانوا للاستعمار ، يبررون اشتراك الزعماء في الثورة ،
ويدفعون عنهم ، أمام المستعمر وأعوانه في البلاد ، جررة وقوفهم ضدهم ،
ويعتذرون عنهم بأن انضمامهم للثورة لم يكن عن يقين أو طوعية ، بل حلهم
عليه كرهاً « رجال العسكرية » . وقد برر واعتذر محمد رشيد رضا عن الشيخ
محمد عبده في كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ، وأحمد سمير عن عبد الله النديم
في مقدمة كتاب « سلافة النديم » ، وياقوت المرسي عن محمود سامي البارودي
في مقدمة كتاب « مرآي الشعراء »^(١) . والذي يدعو إلى الدهشة حقاً أن
تاريخ الثورة العربية مازال يكتب إلى اليوم معتمداً في مصادره على ما افشته
أفلام التشهير من سموم ، وما تجنت به ونفقت أفلام التحرير !!

ووجدت الذين سبقوا بالنسبة عن البارودي قد اكتفوا بما ظهر من
الديوان ، واعتمد أكثرهم في تحديد بيئة النص ومناسبات القصائد على التاريخ
المغلوط . والقدر الذي ظهر من الديوان ناقص ومبتور ، وتناولته يد الاعتداء
بالحذف والتشويه ، فقد اكتشفت من مراجعة الأصل المخطوط على الجزء المطبوع ،
أن هناك من العوافي التي طبعت قصائد يرمتها حذفها الناشر وأسقطها من نشرته ،
ومن ثم كان الجزء المطبوع ناقصاً ؛ وكان مبتوراً لأنه حذف أيضاً أجزاء من
قصائد طبعت ، فبدت مشوهة لاتعطي الدلالة التي أرادها الشاعر لشعره ، وحذف
كذلك من عناوين بعض القصائد أجزاء توضح مناسباتها وتحدد تواريحها ؛

(١) جمع فيه خليل مطران مرآي الشعراء على قبر البارودي في ذكرى الأربعين لوفاته ،
وقد برر واعتذر لمحمود سامي - أيضاً خليل مطران ، أنظر : الجواثب المصرية عدد ٧٢٢ هـ في
١٣/١٥/١٩٠٤ ، وكذلك محمد رشيد رضا ، أنظر : المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ في ٢٣/١٢/١٩٠٤ .

مع أن ذلك المحذوف من القصائد ، وأجزاء القصائد ، ومن عناوين القصائد ، يمثل جزءاً مهماً من حياة البارودى ، ووطنيته ، وعقيدته الثورية ضد الاستبداد والفساد والاستغلال ، ويدفع عنه كثيراً من تبعات التجنى التى ألغاهما عليه المؤرخون والأدباء !

ومن أجل ذلك كنت أجدنى مشدوداً إلى الرجل ، لا أستطيع صرف نفسى عن التفكير فى استكمال جوانب البحث فيه شاعراً وسياسياً ، خاصة وقد درست تاريخ الثورة العراقية دراسة مستوفاة ، وواتنتى الفرصة للاطلاع على ماكتبه المؤلفون الأجانب عن هذه الفترة من تاريخ مصر - وما أكرمهم - وعلى الوثائق السرية لوزارة الخارجية البريطانية ، وعلى الصحف الأجنبية التى عاصرت الثورة العراقية وتابعت أحداثها .

والحق أن الذين سبقوا بالكتابة عن البارودى الشاعر لهم ، فوق فضل سبق ، يدعى هذا البحث ، فقد مهدوا له الطريق ، وذلّوا كثيراً من صوابه ، وكانت الفائدة التى جنتها من كتاباتهم كبيرة بحيث أجد هذا البحث مديناً لهم بالكثير . وكان بحث الدكتور محمد صبرى أول الدراسات الأدبية عن البارودى ، وهو من الأصالة بحيث ألقى الضوء ، فى إنجاز مفيد ، على مدى عمرية البارودى فى شعره ، أو بمعنى آخر على مدى صدق الشعور فى شعر البارودى . وبحث تال للدكتور محمد حسين هيكى جملة مقدمة للثورة الثانية من الديوان ، شرح فيه بعض جوانب حياة البارودى وشاعريته ، فحاصب فى بعضها ، ونظر إلى بعضها الآخر بعين سياسى الثلاثينيات من القرن العشرين ، فجانبه الصواب . ثم كتب الأستاذ عمر الدسوقي عجلة عن البارودى فى سلسلة « نوابع العرب » ، والتزم فيها ما فرضته طريقة السلسلة من استغراق أكثر الكتيب فى سرد متخيلات من شعر الشاعر ، وتوضيح حياة العصر الاجتماعية والسياسية والفنية ،

ومن ثم أوجز في دراسة الشاعر . ولكنه إيجاز البلاغة المفيد . وبحث تقدمت به الدكتور نفوسة زكريا سعيد ، لنيل درجة الماجستير^(١) ، تناولت فيه حياة البارودي وشعره . معتمدة على المصدرين السابقين . ثم كتب عنه الدكتور شوق ضيف كتابه القيم « البارودي رائد الشعر الحديث » ، وقد تدارك فيه كثيراً من نقص البحوث السابقة ، وكان ذا فائدة كبرى لهذا البحث .

وظهرت بحوث أخرى عن البارودي ، جاءت في ثانيا كتب تبحث في الأدب أو تاريخه ، أو في تطوره وتطور اللغة العربية ، ومن أهمها البحث الأدبي الرائد الذي كتبه عباس العقاد في كتابه « شعراء مصر وبناتهم في الجيل الماضي » . وبحث على آخر تتناول الجانب الأدبي والثقافي من شخصية ، البارودي ، ووضعه موضعه من حركة التطور في أدبنا الحديث لأستاذنا محمد خلف الله أحمد في كتابه « معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها » . وهذه الدراسات جميعاً وغيرها مما كتب في الدوريات ، كانت خير معاون لي على إتمام هذا البحث ، وإزاء صورة صادقة للبارودي الشاعر ، بين الأدب والسياسة .

وحتى أضيف جديداً إلى البحوث السابقة ، وجدت لزماً أن استكمل النقص في المصادر الأصلية والفرعية عن البارودي ، وأن أحصل على الديوان في صورته الكاملة قبل الحذف والتشويه ، وخاصة الجزء الذي ظل حتى اليوم مخطوطاً منه ، وعلى مذكرات أسرة البارودي ومعلوماتها ، وأن استدرك ما فات الباحثين قبلي ، من تحقيق الصورة السياسية والتاريخية الحقيقية للرجل ، من آثاره ومن التاريخ الصحيح ، حتى تتوفر البيئة السليمة لشعره ، فيمكن الوقوف على ما قصد الشاعر من دلالة له .

وقد تمكنت من الاطلاع على نسختين مخطوطتين للديوان : إحداهما كاملة ،

(١) تقدمت به لكلية آداب الاسكندرية عام ١٩٥٣ ومازال مخطوطاً .

والأخرى قريبة من السكال - ووجدت بعد الدراسة والبحث فيها أن البارودي لا يمكن استكمال صورته الأدبية والتاريخية ، دون الساقط أو المبتور من قصائد الجزء المطبوع ، ودون العناوين التي حذفت ، أو دون الجزء المخطوط من الديوان ، خاصة وقد تبينت أن أكثر ما حذفت من القصائد أو أجزاء القصائد ، يهاجم الأسرة الحاكمة المخلية وعملها ركائز القهر والاستبداد وعوامل الفساد في البلاد^(١). والعناوين المحذوفة تحدد مناسبات بعض ما طبع من القصائد ، وقد قالها « يُعرض يذكر للظالم على عهد الحكومة الاستبدادية^(٢) » ، أو قالها « يذم رجال الحكومة الاستبدادية على عهد إسماعيل خديو مصر^(٣) » . وظهرت النشرة الأولى^(٤) للديوان حتى قافية اللام خالية من هذه المحذوفات ، وظهرت النشرة الثانية^(٥) حتى قافية السكاف مقتضية سابقها في الحذف والإسقاط^(٦). أما الجزء المخطوط من الديوان ، فقد وجدت فيه أكثر غزليات البارودي وخمريات ، بحيث وضعت وتجلت نوازع الحب الحقيقية عند الشاعر ، وظهرت صبوات قلبه وتجارب غرامه وأحداثه ، ومماناة الصد ولذات الوصال ، وكانت من الصلوق بحيث لم تخف عنا حتى نزع الشيطان حين راوده مرة إلى الحب الأباحي فهل منه وارثي . وكذلك بدت لذته من الشراب تظهر بوضوح في معاقرة الراح وحيداً ليصرف بها همومه ، أو في مجالس الأُنس بين الرفاق

(١) كما في المخطوطة (ج) س ٣٦ - ٣٧ ، ٣٨ ، ٧١ - ٧٢ ، ٧٢ - ١٢٥ ، ١٢٦ ؛ ومن أجل المحذوفات في أغراض أخرى أنظر : نفس المخطوطة س ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ١٠٨ - ١٠٩ ، ١١١ - ١١٢ .

(٢) القصيدة بالديوان (الإمام) ج ١ س ٧٠ ، (الجارم) ج ١ س ١٣٩ .

(٣) القصيدة بالديوان (الإمام) ج ١ س ١١٦ ، (الجارم) ج ١ س ١٨٥ .

(٤) عام ١٩١٥ ولد تول شرحها والأشراف على طبعها عمود الإمام .

(٥) ١٩٤٠ - ١٩٤٢ وقد أخرجها وشرحها الأستاذ على الجارم والاستاذ محمد شفيق معروف .

(٦) عنا قصيدة واحدة التي يمرض فيها برؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العربية ، فقد كتب عليها الإمام في المخطوطة (ج) « لا تطعم » ، ولم تظهر في نسخة الإمام ، ولكنها ظهرت في نسخة الجارم ج ٢ س ٣٣٤ .

والساقيات والنفنيات ، ينتهب اللذة في فورة شبابه وبين دعوات الحروب انشبابا . وما جاء في الجزء المخطوط من صبوات البارودى وخمرياته ، يدفع الادعاء الذى ذهب إليه محمد حسين هيكل — وتبعه الكثيرون ممن جاءوا بعده — من أن البارودى في غزله وخمرياته ، لم يكن إلا مقلداً ينسج على غرار الأقدمين .

وفي الجزء المخطوط من الديوان ، بعض القصائد التى قالها في شبابه يروض القول ويفخر على طريقة شعراء العربية القدامى ، أو يسلك فيها مسالكهم في للدح والحرب وركوب الخيل ، تؤكد أن شعر البارودى في شبابه يتبعه جزء منه إلى « الكلاسيكية القديمة » ، يجارى فيها القدماء لفظاً ومعنى دون أن تنير جانباً من جوانب شخصيته أو عصره .

وفي الجزء للمخطوط كذلك دليل « للمادة والتنقيح » التى تناول بها البارودى شعره بعد أن تقدمت به الحياة ، فالتصائد التى جاءت في الوسيلة الأدبية (١٨٧٥ — ١٨٧٩) ، أو التى قالها في مناسبات عامة قبل النفي وحفظها الناس ^(١) ، تناولها بيد التخيير والتبديل ، فجاءت في الجزء المخطوط من الديوان منقحة بعض التنقيح ، فكانت قريبة من الأصل ^(٢) ، أو معديا عليها بالمعاودة فكانت تصبح قصيدة مستقلة عن أصلها السابق ^(٣) .

(١) انظر المخطوطة (س) ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ؛ و(ج) ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ؛ والنار جلد ٧ جزء ٢١ ق ١٩٠٥/١/٧ .

(٢) انظر قصيدة « أخذ الكرى بمقاد الأجفان » ، وقصيدة « يناغس الطرف إلى كم تنام » في الوسيلة الأدبية وفي الديوان المخطوط .

(٣) انظر قصيدة « محا البين ما أبقت عيون لها منى » في النار جلد ٧ عدد ٢١ ق ١٩٠٥/١/٧ ، وفي الديوان المخطوط ؛ وقصيدة « ذهب العبا وتوات الأيام » في الوسيلة الأدبية ، وقد جاءت في الديوان المخطوط بمطلع مختلف وتغيير كثير . ومطلعها في الديوان المخطوط :
أسل الديار عن الحبيب وفي الحشا دار له مأهولة ومقام

وانظر قصيدة « سبقت بالفضل فاسم ما وحا فنى » في الحلال السنة ٣٨ جزء ٤ أول فبراير ١٩٣٠ ، وفي الجزء المخطوط من الديوان ؛ وانظر قصيدة :

يا ذكراً أبصرت في مرآتها مسور التنى
في المتنصف المجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ ، وفي الجزء المخطوط من الديوان .

وفي الجزء المخطوط هجاء شائن « توفيق » وحاشيته ، وقد وقفوا ضد رغبة الشعب وأمانيه في الحكم الدستوري ، وربطوا مصيرهم بقوى النفوذ الأجنبي وهجاء فيه « رياضا » واستبداده هجاء فاحشاً بعد استقالته من وزارة الحرية (١٨٨١) . وهجاء فيه إسماعيل - وهو يعمل ياوراً له - بمد أن ساق البلاد إلى هاوية الخراب والإفلاس ، وأوقعها في براثن الديون والنفوذ الأجنبي .

وقارن البارودي نفسه ، وقد سمت به همته حتى ارتبأ ذروة المحامد والملاء ، بإسماعيل وقد تطل من كل فضيلة إلا وراثته الملك ، وقارن موقفه من الفساد وموقف رجال الحاشية منه ، وقد نصح وغشوا ، واستقام وفسدوا ، ونمى على الدهر أنه سواه بهم ، فجعله زميلاً لهم في حاشية إسماعيل . وحدد البارودي موقفه من معادل الرجعية والاستبداد وصنائع الاستعمار ، وثار عليهم ، ووقف مع الشعب في وجه الظلم والجور .

وفي الجزء المخطوط بقية مراسلات البارودي مع شكيب أرسلان في المنفى وبعده ، وفيه يحدد البارودي مذهبه في الشعر واتباعه طريقة الشعراء القدامى ، كابن هاني والمتنبي ، وأبي تمام ، والبحتري ، وسبقه لهم في بعض الوجوه كما يقول بمد أن ذكر لكل ميزته :

وَسَرْتُ عَلَى آثَارِهِمْ وَلَرَبَّاهُ سَبَقْتُ إِلَى أَشْيَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

وكذلك يحدد البارودي بنفسه في الجزء المخطوط مكانه في أدب النهضة ، فقد بحث الشعر وأحبي القريض ، وكان عبقرى القول الذي يبعث به في كل عصر . وفي الجزء المخطوط نفس تيار الزهد قوياً يطنى على حياة البارودي أو آخر عمره ، فيستغيث بالله وبآل البيت ويمدحهم ، ويتزهد ويبالغ في التزهد حتى يقرب من حد التصوف . وقد استعنت بذلك الجزء المخطوط في استكمال الصورة الأدبية والتاريخية

للبارودى ، واستشهدت بكثير مما لم ينشر من شعر الشاعر ، لتوضيح جوانب شخصية البارودى وشاعريته وتاريخه .

، وديوان البارودى جاءت قصائده — إلا ما ندر — غفلا من الناسبات والتواريخ ، وكان من الضروري تنمية للبحث ، الوقوف على هذه الناسبات والتواريخ ، وقد سلكت فى ذلك سبيلين :

أولهما الاستعانة بالصحف والدوريات التى عاصرت البارودى قبل النفي وبسده^(١) ، وقد وجدت مصدرًا مهمًا من مصادر الدراسة للبارودى ، وقد كانت توليه وهو الوزير ورئيس الوزراء وسياسى الثورة المرابية اهتمامها البالغ . وعقب الهزيمة شهرت عليه الصحف الرجعية والاستعمارية أقلام التشهير . وبمسد العوده كانت الصحف الأدبية تتسابق إلى نشر شعره ، وقد بلغ به الزعامة والإمارة بين الشعراء فى البلاد العربية . وكانت الصحيفة التى يخصها البارودى بمقطوعات من شعره تدل على زميلاتها وتغفر ، وتضفى العناوين الضخمة على القصائد التى تنشرها^(٢) .

وكانت السبيل الثانية ، هى الاستعانة بكرمى الشاعر ، « فاطمة ومشيئة » ، وقد أمدتني مشكورتين بمعلوماتهما — وما أغزرها مادة ونقما — لمعرفة مناسبات القصائد وتواريخها ، وتوضيح بعض الجوانب التاريخية من حياة أبيهما ، وأطلماني على مذكرات الأميرة الخاصة ، وعلى شجرة النسب ، وأفادتني معلوماتهما أيضًا فى تفسير كثير من المعانى التى قصد إليها أبوها رمزا وكناية^(٣) .

(١) انظر المفيد والطائف ١٩٨٩ — ١٩٨٢ ؛ والأهرام والمقطع سنوات ما بعد الهزيمة إلى العوده ؛ والجوائب المصرية ، النار ، اللواء ، الهلال ، المتطاف واللؤيد ، الوقائع المصرية ، المجلة المصرية ، مجلة المحلات العربية من ١٨٩٩ — ١٩٠٥ ؛ مجلة سر كيسى ١٩٠٦ ؛ المجلة المصرية ١٩٠٩ ؛ مجلة الزهور ١٩١١ — ١٩١٣ .

(٢) من ذلك : « إن هذا الشعر فى الشعر ملك » الجوائب المصرية ١٩٠٠/٨ ؛ « الجليل من القليل » المصدر السابق فى ١٩٠٠/١١/٣٠ ؛ « من سر الإعجاز » المصدر السابق فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

(٣) كان اتصالى بهما ومقابلاتى بهما خلال شهر مارس ١٩٦٦ ، وقد ساعدنى مشكوراعلى عقد هذه الصلة معها حفيد الشاعر الأستاذ حسن عصمت المستشار بوزارة الخارجية .

وهدنتى الدراسة والبحث إلى كشف اللبس الذى وقع فيه جميع الذين سبقوا
بالكتابة عن البارودى ، بعد أن انسقوا وراء « حسين الرصنى » فيما زعم : من أن
« محمود ساسى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن
التعقل ، وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع لبعض من له
دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بمحضته ، حتى تصور فى برهة يسيرة
هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات
حسب ما تقتضيه المانى والتمثلات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ^(١) ،
وسلوا دون مناقشة أو دراسة بالنتيجة التى تقود إليها مقدمات هذا القول ، وهى
أن البارودى فى تكوينه اللغوى قد اكتسب المعرفة بقواعد اللغة سليقة لا تعلمًا .
والواقع ينقض هذا الزعم من أساسه ، فالبارودى قد اكتسب قواعد اللغة
تعليما لا سابقة ، ذلك أنه قرأ من كتب اللغة : الأجرمية وشرحها ، ومثن البناء
والمقصود فى الصرف ، والكفراوى وشرحه ، وذلك فى المرحلة الابتدائية التى درسها
دراسة خاصة فى منزله ، مسطرة لمتيج هذه المرحلة فى « مكاتب البتديان » ^(٢) وقتئذ ،
واستعدادا للنجاح فى هذه الكتب وغيرها من كتب المواد الأخرى فى امتحان القبول
للمدرسة الحربية التجريبية . ونجح البارودى فى امتحان القبول ودخل « المدرسة
الحربية للغروزة » ، وقضى بها أربع سنوات قرأ فيها كتابى جملة الصرف وشرح
الكفراوى ^(٣) . فالبارودى إذن تعلم النحو والصرف فى المدرسة تعليما
مدرسيا ، وزادت قراءة شعر الأقدمين وكتب الأدب دريته على استعمال هذه
القواعد وتمكنه منها حتى تأصلت عنده . وللرصنى إنما ذكر هذه العبارة فى

(١) حسين الرصنى: الوسيلة الأدبية للعلوم العربية، ج ٢، ص ٤٧٤، القاهرة ١٢٩٢-١٢٩٦ هـ

(٢) انظر منهج الدراسة فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على : احمد عزت عبد الكريم ١٩٣٨
ص ١٧٤ ، ١٨٠ - ١٨١ ؟ والبتديان معناها البتديون .

(٣) انظر الجدول الدراسى كاملا فى تاريخ التعليم فى مصر : احمد عزت عبد الكريم ج ١ ص ٧٥ ،

معرض الثناء على ما كان للبارودى من أصالة الفطرة والطبع ، ولم يردبها ما أراده الذين كتبوا عن البارودى بعده .

ومن المسير أن نصدق أن البارودى كان يجهل ما لا يجوز جهله من أصول النحو والصرف والمعرض . وزيادة على الدليل السابق ، فهناك قرينة أخرى تدل على أن البارودى كان على علم بعلم اللغة ، ففي الرسالة المصورة بالزنكوغراف ، التى ساقها على الجارم ومحمد شفيق معروف فى مطلع نشرتهما للديوان نموذجاً لخط البارودى وفنه الكتابى ، نجد ثلاثة أخطاء نحوية^(١) التفت إليها البارودى أو ألفت إليها ، فحُزب على الخطأ وأثبت الصواب بخطه ، وكذلك غير من كانت ثلاث ليحرص على الازدواج والجناس والطباق^(٢) ، وذلك يدل على أن البارودى كان على بينة من علوم اللغة . وفى مقدمة الكتاب يمدحنا عن « ذكر الشيء باسم غيره لجوارته إياه » ، وفى قصائده يذكر « لزوم ما لا يلزم » ، وفى وصف شعره يقول :

لم تُبن قافية فيه على خَلَلٍ كلاً ، ولم تختلف فى رَصْفِها الجملُ
فَلَا سِنَادٌ وَلَا حَشْوٌ وَلَا قَلَقٌ وَلَا سُقُوطٌ وَلَا سَهْوٌ وَلَا عِلَلٌ

وذلك يدل على أن البارودى كان على دراية بعلوم اللغة العربية وإن لم يصل فيها إلى حد التفوق ، فقد كان يعتمد أكثر ما يعتمد على فيض الفطرة والطبع وهما أفضل أدوات للشعر .

وتبينت من الدراسة أن الذين كتبوا عن حياة البارودى مستدلين بشعره ، قد انسقوا وراء ما افتراه « كاتب يد الناظم » فى سنيه الأخيرة من شعر ونسبه إلى البارودى فى « حلة التعبير » . وكان « ياقوت للرسى » شاعراً كذلك ، ومن كثرة

(١) أنظر : مقامة الديوان (الجارم) ج ١ ص ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ .

(٢) أنظر : المصدر السابق ص ٤٩ ، ٥٠ .

مخالطته البارودي ، وقراءة شعره ، وكتابته ، استطاع أن ينظم شعراً فيه عناصر شعر البارودي ، من نغمة بنفسه ومن حسن الصياغة ورنين الموسيقى ، وينسب إلى البارودي دون أن يلحظ أحد افتقاره على البارودي وعلى التاريخ . وقد افترى خمسة أبيات وزعم أن البارودي قالها حين دُعي لحرب الأنجليز ، ولينظر بها عن البارودي في حربه المستعمرين ويثبت أنه لم يدخل هذه الحرب عن يقين ولا عن طوعية ، وقدم لها بقوله : بعد أن استعفى البارودي (من نظارة الوزارة مايو ١٨٨٢) لزم داره ، وتباعد عن الحكومة ورجالها ، وصار يتفقد مزارعه ومصالحه الخصوصية حتى شبت الحرب بين مصر وإنجلترا ، ودعى من رجالها لمساعدتهم ، فأجاب على كره منه بعد أن نصحه بالبعد عن الدخول في غمرتها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

نَصَحْتُ قَوْمِي وَقَلْتُ الْحَرْبُ مُفْجِئَةٌ وَرُبَّمَا تَاحَ أَمْرٌ غَيْرٌ مَظْلُونٍ
نَحْلُ الْقَوَى ، وَشَبَّوْهَا مَكَايِرَةً وَكَانَ أَوَّلُ بَقْوَى لَوْ أَطَاعُونِي
تَأْتِي الْأُمُورُ عَلَى مَا لَيْسَ فِي خَلَدٍ وَيُخْطِئُ الظَّنُّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْدُ فِي الْأَمْرِ مَنَزَعَةٌ وَأَصْبَحَ الشَّرُّ أَمْرًا غَيْرَ مَكُونٍ
أَجِيبُ إِذْ هَتَفُوا بِاسْمِي ، وَمِنْ شَيْئِي صَدَقُ الْوَلَاءُ وَتَحْقِيقُ الْأَعْيَانِ^(١)

ولم أجد لهذه الأبيات النخبة أصلاً في الديوان المخطوط ، ولا تعرف كريمنا الشاعر من أين آتى الكاتب بهذه الأبيات ولم يسمها بها في شعر أيهما^(٢) .

(١) أنظر : مقدمة كتاب مرآة الشعراء جع خليل مطران (١٩٠٥) ص ١٨ - ٢١ .

(٢) نسب الدكتور شوقي ضيف في كتابه عن البارودي يبين للشاعر لم أجد لها أصلاً في الديوان أو مذكرات الأسرة ومعلوماتها وما :

أنا لست عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا
حتى همة السلوك ونسي فس حريزى اللثة كفرا

انظر « البارودي رائد الشعر الحديث » ١٩٦٤ ، ص ٨٣ .

وحقيقة أخرى تبيّنهما من تتبع تاريخ أسرة الشاعر ، ذلك أن موهبته الشعرية تحدر إليه جزء منها عن طريق الوراثة . فقد كان خاله إبراهيم شاعراً مجيداً ، يعقد ندوته الأدبية للشعراء في قصره بباب الخلق ، وينظم بالعربية والتركية ، وأمله لولم تتخطقه اللثة في شبابه لاحتل مكانة البارودي في حركة بث الشعر العربي .

! والبارودي أول من حول تيار الكراهية عن « القدماء المصريين » وآثارهم في عصرنا الحديث ، بعد أن استعبدنا وهم التفسير الخاطئ للدين ، فصببنا جام الكراهية على أجدادنا القراعنة ، ولم نحترم آثارهم قروناً طويلة ، وأخذناهم جميعاً بجمرة فرعون واحد طرد موسى وبنى إسرائيل من مصره . وجاء البارودي فهتف بأبجادهم ، وأشاد بعلمهم على الدنيا ، وغنى للأهرام وأبى المول ولآثارهم الخالدة ، وجعلهم مناط الفخر الذي لا فخر بعده للمصريين ، ودعا قومه أن يسيروا على نهجهم في العلم والمعرفة ، حتى يصلوا مجددهم بأجداد جدودهم القراعين .

والبارودي أول شاعر في العصر الحديث تغنى بصبوات القلوب على ضفاف النيل ، وصدق بأوطار القلوب في معاهد الجزيرة والروضة وشبرا وحلوان ، وافتتن بهذه المعاهد والمغاني ، وقد أذكى جمالها في قلبه قبس الحب وجذوة الغرام ، فكانت مسرح هواه ومغنى لهوه ، وهى معاهد ندر من يعرف وجوها الصباح .

والبارودي أعاد لنا بشعره صورة الشعراء اللقيان من أغوار التاريخ ، وأقامها ماثلة في عصرنا الحديث ، ملأت الأرمجة المصرية عطفيه فيبعد الفتوة المصرية بفتوته وشماله وشيمه وفخره وفروسيته ، حتى غدا محسود الجلال وكأنه على كل نفس في الزمان أمير . وكانت فتوته تأخذ وقودها من القلب والروح

فهى التى أشقته بالجد ، وأخته بالنضحية والقداء فى سبيل وطنه .
والبارودى أول من طرق الشعر السياسى فى العصر الحديث ، فنادى بالثورة
المسلحة على الفساد والظلم (١٨٦٨) فى عهد إسماعيل ، والاستبداد فى عقوانه ،
والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم له عبيد .
وهاجم إسماعيل وحاشيته ، والفساد والإفلاس فى عهده ، وتوفيقاً وخذلانه
ووقوفه فى سبيل آمال الأمة . ودعا إلى النظام الدستورى ، ووقف مع الثورة
يدافع عن دينه ووطنه وحرية ضد الاستغلال والتحكم والاستعمار .
والبارودى أول الشعراء النقيضين فى العصر الحديث ، نال حظاً من الدراسة
المهنية والحربية ، وتلم اللغتين التركية والفارسية ، واطّلع على آدابهما ونظم
بهما . وقضى ثمانية أعوام بالآستانه ينهل من معين الثقافة التركية ، ويتزود
بالتجربة ، ويبحث عن دواوين الفحول من الشعراء العرب فى مكتبات الآستانه ،
وينسخ ما يستطيع من مخطوطاتها ، ويعود بها إلى مصر ليستكمل تكوينه
الفنى على النمط الطبيعى السليم ، فيقرأ دواوين الفحول من الشعراء ، ويحفظ مئات
القصائد ، ويستثبت معانيها ، ويدرسها دراسة أدبية - كما يقول أستاذه حسين
المرصنى - ناقداً شريفها من خبيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مدركاً
ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي ، وبذلك غذيت قريحته منذ
نضارتها على روائع الشعر العربى الكلاسيكى ، وعاش فى صحبة الشوامخ من
الشعراء ، وغنيت ذخيرة خياله الفنى بكل رائع معجب من الصور والأساليب ،
حتى أصبح كل ذلك جزءاً من ثروته اللغوية والأدبية ، وحتى أصبحت القدرة
على التمييز الأصيل طبيعة فيه . وطبيعى أن يسلك البارودى - وهذا تكوينه
الفنى - سلك القدامى فى الشعر ، فيحافظ على النسق الوروث فى القصيدة
الشعرية ، وتسرى فى شعره العناصر القديمة فى اللفظ والمعنى ، وبذلك يكون
إماماً « لدرسة المحافظين » فى الشعر الحديث .

والبارودى بالاتفاق رائد حركة التطور في الشعر العربي الحديث ، فقد طلع في سماء الشعر طلوع الفجر الجديد ، وكأننا بعثته السماء ليخرجه من ظلمات الهاوية التي تردى فيها أكثر من خمسة قرون ، تلهف أكفان الصنعة ، رندب القرائح ، وفساد الذوق ، إلى نور القطرة السليمة ، وبهجة الدباجة ، وصحة التركيب ، بموهبة عاتية ، واستعداد في وأدى متين . وقد انتهت بالبارودى موهبته وثقافته وتكوينه الفني والأدبي إلى رحاب الكلاسيكية ، فبدأ بها في شعرنا الحديث طوراً جديداً ، من جلال الصياغة ، ورنين الموسيقى ، وبجارية القدماء في صورهم ، ومحاكلهم في الأغراض والمغاني .

وقد تمثلت « الكلاسيكية » في شعر البارودى بنوعها أصدق تمثيل : قديماً ، أو ما يعبر عنها « بالكلاسيكية الضيقة » ، وهي التي تجارى انغماساً في اللفظ والمغنى ، دون أن تتصل من قريب أو من بعيد بالشاعر وتجاربه ، أو تنير جانباً من جوانب عصره . وذلك يظهر أكثر ما يظهر في شعر المرحلة الأولى من حياته ، وهو يمارس القدماء ، ويروض القول على نظمهم استنباطاً وامتحاناً لشاعريته ؛ وجديداً ، وهي التي تعتمد على جلال الصياغة والأطوار الأسلوبية القديم ، لتعبر عن عواطف الشاعر وتجاربه ، أو تتصل بأحداث عصره صراحة أو رمزاً . والبارودى في أكثر شعره تمثل القديم ورمز به لمواقفه ، واحتفظ فيه بشخصيته ، وأثار به جوانب عصره فرد إلى الشعر العربي أساليبه الناصعة التي كادت تندثر ، يعبر بها عن الحاضر في مجالاته المختلفة فيسحر بشعره الألباب ، ويأخذ به مجامع القلوب . سحرنا لأن شعره متصل بماضينا ، وبالروح للورثة المستكنة في أعمقنا ، وهي « الروح العربية الخالدة » ، فيمضا في واقنا ؛ وأخذ بمجامع قلوبنا لأنه لم يتحرر به ذلك التحرر الذي يقطع الصلة بين الماضي والحاضر ، بل أخرجه في إطاره القديم من واقع العصر وعواطف الشاعر ، وذلك جمال التجديد في شعر البارودى . وفي بقيتي أن البارودى بموهبته العاتية ، وبتكوينه الأدبي القوي ، ومحافظته

على النسق الموروث في الشعر العربي القديم ، وكلاسيكيته التي تعتمد على جلال الصياغة ورنين الموسيقى ، قد أحرَّ حركة التطور في الشعر الحديث أكثر من نصف قرن . ذلك أن المصطفى معالي النهضة كان يهفو إلى التغيير ، أى تغيير ، ينقذه من الغلظة التي تحيط بكل نواحي حياته ، وكانت ظلمة القوق الفنى والأدبى فى مقدمة قائمة التغيير . وصادف أن طلع البارودى على ذلك العصر بثقافته العربية الغالصة ، وبتكوينه الأدبى القديم ، فبدأ التغيير بداءة محافظة ، ورد الشعر أكثر من خمسة قرون إلى الوراء ؛ ولكن التغيير صادف هوى من عواطف الجماهير التي كانت ترزح تحت وطأة اليأس والضياع ، وتنظر إلى كل ماهو آت من عصور الجدل العظيمة نظرة التقديس ، لظروف من رواسب عقلم الباطن ، وأحلام عودة الجدل العربى القديم . وسجد رجال العصر لشعر البارودى سجدة الإجلال ، فقد جعل الأمل حقيقة وواقفاً ، ورد إليهم يقين الثقة بأنفسهم وبلفهم — لغة القرآن — ووصلهم بالجدل الذى كادت نخنقى ذكره من خيالهم ، فاستمسكوا به ، وطربوا لجلال الصياغة الشعرية ورنينها الموسيقى فيه ، ورضوا بحظهم من التغيير أو التجديد ، ورفضوا بملء كل تغيير .

ولو أن البارودى بموهبته العاتية ، وثقافته اللغوية والأدبية ، قد اطلع على الآداب العالمية ، واعتدى فيها إلى أغوار النفس البشرية ، وأسرار الطبيعة ومواضع الجمال ، ومثيرات الشجون والآلام ، وأسرار الصياغة الشعرية ، ووسائل التصوير والإيحاء ، لاستخرج من حياتنا ومن بلادنا أسراراً مماثلة ، ولكان من الممكن أن يستعين بالصيغ والقوالب التي استعان بها الغربيون ، وأن يبدأ التغيير بشكل آخر يختلف فى قليل أو كثير عما بدأ به ، ولو فر من حمر حركة التطور فى الشعر العربى نصف قرن قطعه مشدودة إلى مدرسته المحافظة لانتطيع الفكاك من سحرها ، ولا يمرؤ أحد من الشعراء بملء على مواجهة الجماهير بالتغيير .

ومن الناحية التاريخية ، أثبت البحث أن البارودى — تبعاً لقواعد النسب

المعروفة - كان أولى أن يسمى « محمدي سامي حسن حسني الجركسي الأثني » ؛
ذلك أن أباه حسن حسني لم يكن بارودياً ، وإنما انتسب - على عادة المالك
في ذلك الوقت - إلى زوجته « فاطمة البارودية » ، التي كانت تفوقه حساباً وجاهاً
ومالاً . ويرقى البارودي في نسبه لأمه - اسقداً إلى شجرة النسب التي اشترك
في إعدادها الشيخ محمد عبده - إلى أسرة صلاح الدين الأيوبي ، ومن ثم كان
الرجل - وحق له - نياهاً على الدنيا ، يفخر عليها بأجداده الذين ارتبأوا الدولة
من الملا والمجد .

والبارودي كان أول من نادى قومه « بالثورة للسلعة » ضد إسماعيل ،
وكان عمره إذ ذاك تسماً وعشرين سنة^(١) ، وذلك في قصيدته التي يقول فيها :
فَيَا قَوْمُ هَبُوا إِنَّمَا الثَّمَرُ فَرَصَةٌ وفي الدَّهْرِ طَرِيقٌ جَمَّةٌ وَمَنَافِعُ
أَرَى أَرْوَسًا قَدْ أَيْمَنَتْ لِحَصَادِهَا فَأَيْنَ - وَلَا أَيْنَ - السُّيُوفُ الْقَوَاطِعُ
ومع أن نداءه ضاع بين شدِّ الأمانى وعجز الوسيلة إلا أن الشمر السياسي
بدأ عهده في مصر العصر الحديث بهذه القصيدة ، فهي صيحة في وجه الظالم
للصارخ ، واستنهاض للهمم ، وحث على العمل من أجل الحرية .

وكان تطلع البارودي إلى مكان المجد من الإمارة في هذه الفترة ، بعد
أن وجد الدولة قد اضطربت فيها قواعد الملك من خلل ، وتولت زمام
أُمورها « الوزارة المختلطة » ، أو بالأحرى القوى الأجنبية ، ورأى في مكان الإمارة
والوزارة كل وغد يكاد الدست يدفعه بفضاً ، ويلفظه الديوان من ملل ،
وتسكنت طلائع الاستعمار من مرافق البلاد ، نتيجة للديون التي أغرقها
فيها إسماعيل : وساقها بها إلى الخراب والإفلاس . وكانت القوى الوطنية تنل
كل للرجل ، والتفكير في خلق إسماعيل يدور على كل لسان ، ولم يكن توفيق
إلا صورة مهزوزة من أيه ينوء بضعفه وجبنه تحت أمانيه في الدكتاتورية ،

(١) انظر الديوان (الجارم) ج ٢ ص ٢٠٧ ، وقد حدد سنه في القصيدة .

وكانت القوى الوطنية - الحركة الدستورية ، والحزب الحر الوطني ، وحركة تنظيم الضباط - تتحرك في اتجاه متشابه ، غير أنها كانت بموزها الربط والتجمع لأنها فقدت الزعيم ، ورأى البارودى فى نفسه ، وكان متصلا بهذه القوى جميعها ، هذا الزعيم الذى يستطيع أن يقود الوطن إلى حياة أفضل . ولكنه كان تفكيرا مرحليا لم يلازم البارودى طويلا ، فسريرا ما انضم إلى التنظيم السرى للضباط وألقى بالزعامة إلى أحمد عرابى^(١).

وذهب المؤرخون بالبارودى إلى مواطن الظن فى قبول الوزارة ، مرة تحت لواء توفيق (أغسطس ١٨٧٩) بعد أن رفض مطالب الأمة الدستورية ، ومرة أخرى قبلها تحت رئاسة رياض بالرغم مما عرف عنه من استبداده وخفقه للحريات ، ومعارضته للدستور . ولكن ولاء البارودى لحركة الضباط ، وكانت ماتزال سرية ، دعاه بتكليف من التنظيم إلى قبول الوزارة ليكون عيناً لها فى الحكومة . وأدى البارودى مهمته كاملة ، فقد كان ، وهو وزير ، الدرع الذى تحطمت عليه مؤامرات القصر وحاشيته ، ورياض وعملاته ضد حركة الضباط .

وكانت المصادر الأجنبية أكثر إنصافاً للبارودى^(٢) من مصادر التاريخ العربية ، فقد انبرت « أفلام التشهير » فى هذه الأخيرة ، تشوه كفاح الرجل وجهاده ، وتهمه بأنه انضم إلى الثورة لمطامع شخصية ومآرب ذاتية . أما الكتاب الأجانب من ذوى الأقلام الحرة ، الذين عاصروا الثورة ، وخالطوا زعماءها فى

(١) حين فكر مجلس النواب فى خلق توفيق ذهب البارودى إلى عرابى وأبنى استعداده لمباينة عرابى بالمدىوية لأنه أحق بها منه . أنظر : كلف الستار عن سر الأسرار لأحمد عرابى ج ١ ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٢) أنظر : يلت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ؛ بروملى : كيف دافنا عن عرابى ومحبه ؛ جون نيه : عرابى باشا ؛ أدوارد ديس : إنجلترا فى مصر ؛ ثيودور روتشتن : تاريخ المسألة المصرية ؛ ماكنتزى والاس : مصر والمسألة المصرية ؛ الكتب الزرقاء لوزارة الخارجية البريطانية (١٨٨١ - ١٨٨٢) ؛ وصف التيمس والاستانورد والبالمال غازيت وجملة القرن التاسع عشر البريطانية (١٨٨١ - ١٨٨٢) .

ذروة مجدهم وفي أعماق سجونهم ، فقد أشادوا بوطنية البارودى ، وجملوه مثلاً فلذا للسياسى الحر الذى يضجى بمصالح طبقته ، ويخرج على بنى جنسه - وقد قامت الثورة خدم - ليقف فى جانب العدل والساواة والحكم بالشورى . ونوهوا بمساندته للحركة الدستورية منذ نشأتها ، « وبأنه من مديرى الحركة الوطنية من عهد إسماعيل ، وقد كابد كثيراً من الشاق من أجل آرائه ، ولكنه لم يتزعزع . والخزب الوطنى مدين له بمساعدته ، وتأنيده ، وهو ينفق عليه جميع إيراده الضخم ، وهو فى قناعته ووطنيته فيلسوف الحزب الوطنى^(١) » .

ودفعت معرفة مناسبات القصائد وتواريخها غائلة الاتهام بموقف التناقض الذى بدا فيه البارودى ، بين تأييده للثورة ودفاعه بها عن دينه ووطنه ، وبين هجائه فى المراحل الأخيرة للثورة بعض زعمائها من زملاء الجهاد . فقصيدته « لعمري لقد أبقت من كان راقداً^(٢) » قالها بمناسبة رفض عرابى سدقانة السويس فى بدء الحرب مع إنجلترا ، وكان البارودى ومجلس الحرب قد أشاروا بسدها ، ولكن عرابياً خدعته وعود « دلبس » فلم يستمع لنصح البارودى . وقصيدته « صبرت على ريب هذا الزمان^(٣) » قالها وهو فى السجن إثر الهزيمة بعد أن سار أذئاب الخديو بين الزعماء بالوقية - ولم تكن بينهم وسيلة اتصال - وجعلوا كلا منهم يعتقد أن زملاءه يأترون به ليكون كبش الفداء ، حتى يتهم بعضهم بعضاً ، ونال البارودى نصيب من الأغراء والتهديد والوقية ؛ ولكن « فتوته » أثبت عليه أن يتهم زملاءه بالرغم من اعتقاده وتذاك أنهم يأترون به ليقدموه قرباناً لتجاتهم ، فهتف بموقفه وموقفهم عند الشدائد . والقصيدة الثالثة « لأى خليل فى الزمان أرافق^(٤) » قالها البارودى عقب معركة « القصاصين الثانية » ، وقد ظهرت آثار الخيانة فى صفوف القيادة

(١) بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر من ٢٤٣ مترجم .

(٢) الديوان (الجارم) ج ٢ من ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق من ١٠٠ - ١٠١ .

(٤) المصدر السابق من ٣٣٤ - ٣٤٠ .

المصرية ، حين فاجأ الجيش الإنجليزي الجيش المصري بمدفاهه ، وكان لتوقع أن تكون اللبادة من الجيش المصري ، ولكن الجيش الإنجليزي كان قد عرف الخطة والأسرار ، وفر الجيش للمصري من حول البارودى ، وبقي وحده يحارب حتى أصبح الصبر تهوراً فانسحب . وكان قد اجتمع مع القواد المصريين في الآلية السابقة في مركز القيادة العليا ، ونوقش موضوع تسرب الأسرار العسكرية ، فتحدث فيهم البارودى عن بوائق الخيانة وشروها بالنسبة للشرف العسكري ، وللوطن ، والآخرة^(١) . وتحركت عواطف البارودى للشرف العسكري والوطنى للضيع ، فهجا الذين خانوا ، والذين فروا وباعوا دينهم بدنياً سوام .

هذه بعض نقاط البحث البارزة ، وقد كان القبراس الذى استهديته والخطة التى اتبعتها قول البارودى نفسه :

فأنظر لقولى نجد نفسى مصورةً فى صُنعته ققولى خطئُ تمثالى
ومن ثم جعلت شعره المفتاح الذى أصل عن طريقه إلى مغاليق شخصيته ، والدليل الذى أهتدى به إلى شاعريته ، والإطار الذى أنفذ منه إلى حياته . فحياة البارودى وشعره يجمع بينهما نسب صادق ، ولا يمكن أن يستمتع أحد بشعره العذب حتى يرجع إلى الأصل الذى أنبته ، وهو الحياة التى عاشها الشاعر . وأحطت ذلك كله بأحداث العصر من التاريخ الصحيح حتى أوفر للنص بيئته السليمة .

وبعد ، فهذا جهد القل لا أدعى أننى أحطت فيه بكل شئ خبراً عن البارودى ، فطاقة ثورية لما كل هذه الحياة العريضة المضطربة كاللوح ، من شاطئ إلى شاطئ ، ومن الذروة إلى القاع ، والتى نسجتها يد الزمن من الأحداث والعبر ، ونظمتها يد القادير صفحة فى تاريخ مصر الحديث ، وموهبة فنية عالية جامتها

ريادة شعرنا العربي الحديث متفاداة ، لا يمكن أن يمحيط بكل مجالاتها
كتاب واحد ؛ ولكنى قدر الطاقة البشرية ، وحسبما سمحت به مصادر البحث
حاولت جاهدا أن ألقى أضواء جديدة على الفنان الرائد والتأثر الوطنى .
ولست أدعى أن البحث مثالى خال من العيوب والمآخذ ، ولكن حسبي
أننى بذلت الجهد ، وتوخيت الصدق والإنصاف ما وسعنى ذلك ، مبتغيا وجه
الحقيقة ، وأرجو أن أكون قريباً منها .. والله المستعان .

على الحديدي

أستاذ الأدب العربى المساعد
جامعة عين شمس - كلية البنات

[شكر وتقدير]

أود أن أذكر بالشكر والتقدير كريمي الشاعر الفاضلين ، فاطمة ومشيخة ، وحفيده الأستاذ حسن عصمت ، فقد كان للمعلومات ، والمذكرات ، وشجرة النسب التي أمدوني بها وأطلعوني عليها فضل كبير في إنارة الطريق لمعرفة الكثير عن الأب الشاعر والزعيم الثائر .

وأشكر كذلك الأستاذ محمد شفيق معروف حائز إحدى مخطوطات الديوان ، فقد أطلعني عليها وقضيت معها الأيام العديدة في الدراسة والمقارنة والبحث . وقد رمزت لمخطوطته بالحرف (ج) أول اسم الأستاذ « الجارم » صاحب المخطوطة .

وأذكر بالفضل المرحوم الأستاذ طاهر الطناحي ، فقد استعار لي مخطوطة أخرى للديوان من صديق له عزيز عليه ، ولم يشأ أن يكشف عن اسمه ، إشفاقاً وخوفاً من الإقتال عليه ، وهو رهن الحبسين : الظلمة والشلل ، فوق الكبر والشيخوخة . وقد استأذن لي من صاحب المخطوطة في نقل ما أريد ، فنقلت منها ما لم ينشر من شعر البارودي ، طيب الله ذكراه جزاء وساطته النافعة . وقد أشار على بأن أرمز لهذه المخطوطة بالحرف (س) أول اسم صاحبها ، رد الله إليه العافية وأضاء بالإيمان قلبه .

الفصل الأول

المولد والنسب والنشأة

أنا من تمشركرام على الله ر أفادوه عزةً وصلاً
فرعوا بالقنا قنات المعالي وأعدوا لباهم مفتاحاً
محمروا الأرض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحاً
فسقام منزل النيث سجلاً يجعل النبت للعراء وشاحاً

البارودي

أصل البارودى

المولد والنسبة :

شهد يوم الأحد السابع والعشرون من شهر رجب عام ١٢٥٥ هـ^(١) (٦ أكتوبر ١٨٣٩ م) مولد إمام الشعراء المحدثين ، ورائد النهضة فى الشعر العربى الحديث « محمود سامى البارودى » .

وسمى « سراى البارودى » ، قرب « باب الخلق » بالقاهرة ، باستقبال الوليد^(٢) الذى أعدته نفسه ليكون زعيماً من زعماء الحركة الوطنية فى مراحلها الأولى ، والذى صمته الأيام ليقدّم على مذبح الوطنية فداء من هممه واغترابه ، وتضحية من ماله وأهله ونور عينيه .

« وسراى البارودى^(٣) » التى ولد فيها الأمير الجركسى الصغير ، وصفها على مبارك فى « انعطاف التوفيقية »^(٤) ، بأنها معروفة « بدار السبى البارودية » ، وهى كبيرة جداً ، وبداخلها حديقة متسعة ، وقد استولى عليها للفرنساوية أيام احتلالهم مصر ، واتخذوها ديواناً « للفرقة » — الضرائب — وتقع بين حمام السبى البارودية وجامع السلطان شاه ، فى نهاية شارع « باب الخرق » من ناحية شارع « غيط العلة »^(٥) .

(١) يافوت المرسى وعليه حنين : مقدمة « مرآة الشعراء لمحمود سامى البارودى » ، جمع خليل مطران ؛ مطبعة الجوائب المصرية سنة ١٩٠٥ ؛ والمآثر مجلد ٧ جزء ٧٠ فى ١٢/٢٣/١٩٠٤ نقلاً عن مخطوطة تشرح نسب البارودى اشترك الشيخ محمد عبده فى كتابتها سنة ١٨٨١ م .
(٢) جورجى زيدان : مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ج ٢ فى ٢٩٩ الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٢ القاهرة .

(٣) اشتهرت بهذا الاسم بعد أن آلت لى عمود سامى بالميراث من أمه .

(٤) ج ٣ ص ٥١ ، الطبعة الأولى سنة ١٣٠٦ هـ القاهرة .

(٥) ما زال حمام السبى البارودية وجامع سلطان شاه قائمين ، أما الحارة فقد هدمت وأقيم على أرضها محارمات سكنية ومدرسة إبن بكر الصديق الاجتماعية بشارع غيط العلة .

وتسميتها بدار الست البارودية تسمية قديمة ، اشتهرت بها — كما يقول الجبرتي — منذ شيدتها « فاطمة خاتون » ، بنت البارودي وإحدى جدات الشاعر ، بعد أن تزوجت بالأمر المملوكي الكبير أمير الحج وشيخ البلد « إبراهيم كتنخدا مستحفظان القازوغلى^(١) » ، ثم تسلسلت ملكيتها إلى أن ورثتها « فاطمة هانم البارودية » والدة محمود ساي البارودي .

والبارودي من أسرة جركسية ، تجمري في عروقها دماء الأمراء من دولة المماليك الجراكسة ، الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف قرن (١٣٨٢ — ١٥١٨ م) . والجراكسة المماليك ، طبقة من المولدين الذين وفدوا إلى مصر بعد أن غزا التتار بلادهم^(٢) ودمروها ، وساقوا أهلها جماعات إلى أسواق الرقيق المروقة في آسيا فبكت بهم ، وباعهم التتار بأثمان بخسة ، واشترى سلطان مصر الملك العادل (١٢٣٠ م) اثني عشر ألفاً من شبابهم ، جعلهم حرسه وخاصة جنوده ، وأظلمهم بحمايته ، فقويت شوكتهم ، وعلت كلمتهم ، حتى صار لهم الأمر والنهي في المملكة ، وتصرفوا في جميع أمور السلطنة والسلطان .

وأصبح الاستكثار من شراء المماليك سنة السلاطين وذوى النفوذ في مصر ، يكونون بهم النصيب والأحزاب ، ويتخذونهم أداة إلى تولي السلطة . وبزغ نجم المماليك في الشرق العربي ، ووجدوا مستقبلهم في مصر ، فاتخذوها مهجراً

(١) توفي عام ١٧٥٤ م. أنظر ترجمته في « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » لعبد الرحمن الجبرتي ج ٢ ص ٩٠ — ٩٣ طبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٦٠ .

(٢) كانت تعرف باسم جركس Circassia أو Toherkesses وتعتمد على الشاطئ الشرقي لبحر الأسود وهي الآن تحتل جزءاً من بلاد الكرج وجورجياين بحر تزون والبحر الأسود من أقاليم الاتحاد السوفيتي .

يفقدون إليها فرادى وجهاعات ، يبيعون أنفسهم ، أو يبيعهم أهلهم ، أو تبخى بهم « الجلابة » من تجار الرقيق ، فيضهم السلاطين والأمراء وذوو النفوذ إليهم . واستطاعوا أن يزحفوا على مراكز النفوذ في مصر ، ويسيطروا على مصادر السلطة فيها ، ومن ثم أصبحوا يمثلون القوة الفعلية في البلاد . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن استولوا على العرش نفسه ، واستطاع « بركات » الملوكة الجركسي ، أن ينصب نفسه سلطانا على مصر عام ١٣٨٢م ، وبدأت به « دولة المماليك الجراكسة » التي ظلت في دست الحكم حتى الاحتلال العثماني عام ١٥١٧م .

وفي ظل الاحتلال العثماني ، تحول المماليك إلى واحدة من القوى التي جعلها العثمانيون ركيزة وأساساً لنظامهم السياسي في مصر . ولكن المماليك لم يلبثوا حتى استردوا نفوذهم وانفردوا بالحكم ، بعد أن شغل الوالي التركي ورؤساء الجند بالتنازع والصراع على السلطة ، واستأثروا بالمناصب الكبرى ، فكان منهم « السناجق » يحكمون المديريات ، و « الكفيا » و « الدقردار » و « الرزناجى » و « أمير الحج » و « الخازندار » و « قبودانات الثمور » و « الكشاف » . وصار رئيسهم « شيخ البلد » يمثل النفوذ الذى لا يعارض ، والكلية التي لا ترد ، ولم يترك للوالى الحقيقى إلا الاسم وقيام الولاية .

وحين جاء الاحتلال الفرنسى أواخر القرن الثامن عشر ، شن حملة تشييت وإبادة على أمراء المماليك ، ثم جاء « محمد على » فاستكمل هذه الحملة ، وقضى عليهم كقوة عسكرية لما وزنها المستقل على صعيد الدولة ، وإن احتفظ هو وخلفاؤه من بعده ، لبقاياهم ولأبنائهم الذين انضموا تحت لوائه ، بامتيازات السادة الحاكمين ، وأصبحوا هم والأتراك يمثلون الطبقة الأرستقراطية المسيطرة على مقدرات البلاد والعباد .

وبالرغم مما تشهد به الحقائق التاريخية من سياسة القهر والتسوة ، وأسلوب

العسف والطفيان الذى عامل به المماليك شعب مصر ، فمن الإنصاف أن يظهر الجانب المضيء فى حكمهم ، وقد حملوا مسئوليتهم كاملة بشجاعة نادرة ، وبطولة يشرق لها وجه التاريخ ، فى دفاعهم عن مصر بعد أن أصبحت ملاذ الإسلام وحماه . فقادوا الجيوش المصرية ليقضوا على الزحف الصليبي الذى جثم على صدر الدولة الإسلامية سنين عددا ، واستطاعوا أن يلقوا بفلوله إلى البحر ، وأوقفوا موجة الدمار والمهلك التى شنها التتار والمغول على الشرق العربى ، وصمدوا لجيوشهم التى لم تقهر ، وأذاقوهم معنى الهزيمة بعد أن كانوا لا يستطيعون إلا النصر ، وثأروا حلب ودمشق وبغداد .

ومع كثرة الواقفين على مصر من المولدين فى عصورها المختلفة ، إلا أن المماليك كانوا أكثرهم بها التصاقا . فقد امتزجت دماؤهم بترابها ، وأحسوا بانتمائهم إليها ، وارتباطهم بها ارتباط مصر ، ونما فى قلوبهم حبها ، وقد بدأ أول أمره خافتا ضئيلا تعجبه مظاهر السيطرة وعنصرية السيادة ، ثم أسفر عن ذاته حين دم الفرنسيون البلاد بالنار ، وظهر كأقوى ما يكون فى دفاعهم عنها ، ومناجاتهم لها ، وحينئذ إليهما بعد أن لحقت بهن الهزيمة .

وكشف حب المماليك لمصر عن نفسه فى أروع صورة على لسان الأمير « محمد الألبى » وهو يهتف باسم أمه مصر ويناجيها ، ويشهد على ما فعل الزمن بأبنائها المماليك وقد حضرته الوفاة ، وسقط عنه قناع الجلود المصطنع ، فيقول - كما يروى الجبرتي - : « يا مصر .. انظرى إلى أولادك وهم حولك مشفقون متباعدون مشردون ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود ، وأراذل الأوردناؤود ، وصاروا يقيضون خراجك ، ومحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويضيقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » . مفاجاة لا يهتف بها غير ابن من أبناء مصر ، يخلص لها الحب ، ويرقى لما تردت فيه من هوان . وكأن حجب التيب قد انكشفت للألبى وهو فى

الزع الأخير ، فرأى ما يوشك أن يحدث بالبلاد ، فبمضى فى متاجاته يقول :
« قضى الأمر وخلعت مصر ل محمد على ، وما ثم من يلزعه وينال به ، وجرى
حكمه على المالك للصرية فإظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم » .

والحق أن المالك لم يعرفوا لهم وطناً غير مصر منذ هاجروا إليها واستقبلوها
بوطنهم الأصيل ، فقد وجدوا فيها الحياة الرغدة والمستقبل الرموق . وكانوا
من أول يوم ينضمون فيه إلى رجالات الدولة وذوى السلطان ، يصبحون لهم
أهلاً وأتباعاً ، ينسبون إليهم ، ويحملون أسمائهم ، ويرثون عنهم بالولاء مناصبهم
وأموالهم ودورهم ونسأهم . وكانت رابطة الولاء للسيد والوطن الجديد
أقوى من رباط الأسرة والوطن الأم . ويصبح الملوك - وقد جاء فتي يافعاً -
لا يعرف له أهلاً غير أهله الجدد ، ولا موطناً غير مصر التى قدمت له المأوى
والجاء والسلطان .

ومن ثم لم تكن لنسبتهم وألقابهم قاعدة يلتزمونها ؛ بل ينسحبون إلى السيد
تارة وإلى الرئيس تارة أخرى ، وكثيراً ما ينسحبون إلى الوظيفة أو الإلزام ،
وقد يأخذ الواحد منهم لقب زوجته إذا كانت تفوقه شرفاً وغنى وجاهاً ؛
ولذلك غرض منشؤهم ، واختلطت أنسابهم ، وضاع التسلسل الأسرى بينهم ،
ولاقى الباحثون العنت والمشقة فى سبيل ردمهم إلى أصولهم ، ومعرفة آبائهم
وأجدادهم الحقيقيين .

وشاعرنا « البارودى » نفسه ، ذلك الذى تاه على الدنيا بنسبته إلى المالك
الجراكسة ، وملاً سمع الزمن نغماً بهم ، واجه هذه الصعوبات عندما أراد
تحقيق نسبه ، وكان شديد الحرص على معرفته وتبنيه إلى أصله ، فبذل الجهد
وبحث ونقب فى أنحاء القطر ، وراجع النصوص وحجج الوقت ، وسأل

أهل العلم والاسن والمعرفة ، وأتفق في سبيل ذلك ما يقدر بنحو ثلاثة آلاف جنيه^(١) . وبعد سنوات قضاها هو وفريق من العلماء^(٢) في الدراسة والتحقيق خرج لنا عام ١٨٨١ بصحيفة نسبته ، « ينتهى فيها - من جهة أمه - كما في حجة الوقف الشرعية المسطرة في محكمة مصر ، المؤرخة ١٨ من ذى القعدة عام ١٠٩٧ ، وكما في حجة التفسير المؤرخة ١٨ من صفر عام ١١٩٥ هـ إلى المقام المولوى الأميرى الكبيرى السيدى المالكى الحدوى المضدى الذخرى المجاهدى السبقى نوروز الأتابكى المالكى الأشرفى أخى برسباى قرا الحمدى^(٣) » . ويتصل نسبه أيضاً - كما تدل شجرة النسب المخطوطة^(٤) - إلى السلطان نور الدين شاهنشاه أخى السلطان يوسف صلاح الدين .

وحين يستعرض الباحث ما جاء بشجرة النسب ، وما ذكره ياقوت الرسمى وعطية حسنين كاتبا « البارودى » بمد أن كف بصره ، وملازمته في أيامه الأخيرة^(٥) ، وما أثبتته عمود الإمام راوية الشاعر وصديقه بعد النهي ، وبحقق جزأين من ديوانه وشارحهما^(٦) ، ومناذى كريمى البارودى وأحفاده من معلومات ومذكرات وأوراق خاصة ، ويطابق ذلك كله على الحقائق التاريخية يجد نفسه مضطرا إلى أن يأخذ الأمر بالحذر والحيلة . ذلك لأن الشجرة تحتاج إلى كثير من الإيضاح والتصحيح ، كي يوافق ما جاء فيها مبادئ التسلسل في النسب بقواعده

(١) جورجى زيدان : مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) اشترك معهم صديقه الشيخ محمد عبده وكتب صحيفة النسب بخطه . أنظر : النارجلد ٧ جزء ٢٠ في ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

(٣) مقدمة ديوان البارودى شرح الإمام .

(٤) شجرة النسب المخطوطة في حوزة كريمى محمد سامى البارودى ناطمة ومشيرة وهى تفرغ للاجاء في صحيفة النسب التى حققها البارودى في حياته .

(٥) كتب ترجمة حياة البارودى مقدمة لكتابه « مرآتى الشعراء » جم خليل مطران (١٩٠٥) .

(٦) مقدمة الديوان شرح الإمام مطبعة المبريدة

المعروفة . فكثيراً ما جعلت الشجرة الإبن بالتبني والولاء وهو المملوك أو التابع إبناً في النسب ، وأكثر من مرة تغطي لقب البارودي لمن ليس من أسرة البارودي نسباً بل ولاء ، وفي بعض الأحيان نجد انقطاعاً كاملاً بين من زعمت اتصال النسب بينهما . ومع ذلك فهي عمل كبير يساعد الدارسين ويمجبنهم كثيراً من المشقة والمجهود ، ويلقى الضوء على نسب شاعرنا العظيم .

نسب البارودي :

يبدأ نسب البارودي من جهة أمه « بفاطمة هاتم البارودية » . وكانت هي وأخوها إبراهيم البقية الباقية من أسرة « البارودي » ذات الجاه والنخار ، وكانا الورثين الوحيدين لضياح الأسرة الواسعة وقصورها المديدة للوقوف^(١) ، بعد أن قتل أبوهما « علي أغا البارودي » في مذبحة المالك بالقلعة عام ١٨١١ .

وعلى أغا البارودي جد الشاعر لأمه ، لم يكن من أسرة البارودي ؛ بل كان مملوكاً وخازن داراً « لحمد أغا البارودي^(٢) » ، وحين زوجه سيده « بفاطمة قادن البارودية » بنت زوجته « زليخة خاتون البارودية » من زوجها الأول « أحمد أغا البارودي » انتسب على أغا إلى أسرة زوجته فاطمة قادن البارودية ، ولقب بلقبها^(٣) .

والأمير أحمد أغا البارودي^(٤) والد فاطمة قادن البارودية — جدة الشاعر

(١) ضيعة بقرقية مركز أجا دقلية ، وقصر بياب الخلق وبجواره حمام الست البارودية وأرض واسمه ورنماها عن جدتها الأعلى رضوان أبي القوارب ، وقصر باروضة وآخر بمصر القديمة . أنظر : المخطط التوفيقية ج ٣ ص ٥١ — ٥٣ ؛ ومذكرات أسرة البارودي .

(٢) محمد أغا البارودي لم يكن من أسرة البارودي وإنما انتسب إلى سيده أحمد أغا البارودي وتوفي عام ١٧٩٠ . أنظر : الميراث ج ٤ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، وج ٣ ص ١١١ .

(٣) أنظر : الميراث ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٤ ؛ وشجرة النسب المخطوطة .

(٤) توفي عام ١٧٧٤ ؛ أنظر : الميراث ج ٣ ص ١١١ .

لأنه — لم يكن « باروديا » كذلك ، بل كان مملوكاً لإبراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلى ، وبعد أن تزوج بابتة سيده « زليخا خاتون البارودية »^(١) انتسب إليها وأصبح « باروديا » بالولاء .

والأمير إبراهيم كتخداوالد « زليخا خاتون » ، كان تابعا « لسلطان كتخدا القازدوغلى » فانسب إليه ، ثم تزوج بفاطمة خاتون المروقة « بالست البارودية » ، ولكنه لم ينتسب إليها ، وكان له من نفسه ومركزه وسلطانه وأتباعه ما يجعله أعلى مجداً وفخراً من زوجته ، وما يقنيه عن الانتساب إلى أسرتها ، فقد تولى إمارة الحج ومشيخة البلاد أرقى منصبتين في الولاية ، وعمر الدار التي « بباب الخرق »^(٢) وهي دار زوجته بنت البارودى ، والقصر المنسوب إليها أيضا بمصر القديمة^(٣) .

« وفاطمة خاتون »^(٤) زوجة إبراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلى بنت « مصطفى جلبي »^(٥) بن الأمير « قاسم إيواظ الجركسى » ، الذى تولى الإمارة عوضاً عن سيده « مراد بك الدفتردار » عام ١٦٩٦م ، وترقى فى المناصب إلى أن أصبح أميراً للصالح ، وشيخاً للبلد ، ورئيساً للمالكة القاسمية . ويقول عنه الجبرتي : « إن بيته كان بيت العز والإمارة والسيادة ، وكان أميراً شهما حزن عليه يوم قتل كثير من الناس ، وتسابق الشعراء إلى رثائه وتعميد مناقبه »^(٦) .

وتقول شجرة نسب البارودى إن الأمير « إيواظ » ابن للأمير « خوشقدم » بن الأمير « رضوان أبى الشوارب » ، ابن الأمير « مراد جلبي البارودى » . والواقع أن

(١) سنها شجرة النسب زليخا خاتون ، وسماها الجبرتي « هام » ج ١ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٢) التسمية القديمة لباب الخلق .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٩٠ — ٩٢ .

(٤) سجلها شجرة النسب بنت مصطفى جلبي ، وجعلها جورجي زيدان بنت محمد البارودى أحد

التجار الأغنياء . أنظر : تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ٥٠ ، مطبعة الهلال عام ١٩٢٥ .

(٥) ترجمته بالتفصيل في الجبرتي ج ١ ص ١٥٨ — ١٥٩ ، ١٦٣ .

(٦) ترجمته بالتفصيل في : الجبرتي ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٥٣ ؛ وأنظر جورجي زيدان : تاريخ

مصر الحديث ج ٢ ص ٢٥ .

الأمير « إيواط » كان في الأصل مملوكاً « لرضوان أبي الشوارب » ، ثم صار بعد ذلك تابعا « لمراد الفتردار » ، ومراد هذا تابع للأمير « أزيك » بن رضوان أبي الشوارب^(١) . والأمير « مراد جلبي البارودي » هو الذي بدأت به نسبة « البارودي » إلى الأسرة ، فقد كان ملتزماً^(٢) « لإبتائى البارود » بحافظة البحيرة ، فنسب إليها كما هي عادة الممالك في ذلك الوقت^(٣) .

وأم ما جاء في شجرة النسب أنها جملة « مراداً البارودي » يتصل بتسلسل النسب عن طريق يوسف جاويش إلى الأمير « برسبای قرا الحمدی » وزوجته « أصيل خاتون » التي ينتهي نسبها إلى السلطان « نور الدولة شاهنشاه » أخى السلطان « يوسف صلاح الدين الأيوبي » . ومن ناحية أخرى جملة شجرة النسب شاعرنا البارودي يتصل بنسبه بالأمير « نوروز الأتابكي » أخى برسبای ، وذلك عن طريق جدة الشاعر خديجة خاتون زوجة الأمير « إيواط » ، ثم إلى الأميرة « سعد الملوك خاتون » بنت « الأمير نوروز الأتابكي » . ولكن هذا الاتجاه في النسب لا يمر بالأمير « مراد جلبي البارودي » أصل أسرة البارودي وحامل لقبها الأول .

وإذا كانت الشجرة التي تموزها أسرة البارودي دقيقة وصحيحة ، فلا ندرى السبب في عدول الشاعر نفسه عن التسلسل الأقوى من جهة المصعب ، والأكثر فخراً ، وهو الذي يصله بجده الأعلى الأمير « مراد البارودي » ثم بالأمير « برسبای قرا الحمدی » وبأسرة « صلاح الدين الأيوبي » ، إلى تسلسل يصله من جهة الرحم بالأمير نوروز الأتابكي^(٤) .

(١) توفي رضوان أبو الشوارب عام ١٦٦٢ م. انظر: الجبرتي ج ١ ص ٢٣٧ ، ٢٤٨ .

(٢) الإلتزام هو تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها للحكومة ، ويشاركونها فيما يفلونه من الأموال . تفصيل نظام الإلتزام في تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الراقي : ج ١ ص ٣٢ - ٣٥ ، القاهرة ١٩٥٥ .

(٣) مقدمة مرائي الشعراء ؛ ومقدمة البيان شرح الإمام ؛ وللتأريخ ج ٧ جزء ٢٠ .

في ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

(٤) وذلك في الحقيقة التي كتبها في حياته ونشرتها للتأريخ ج ٧ جزء ٢٠ في ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

وفرق كبير بين « نوروز الأنابكي » وبين شقيقه الأمير « برسياني الحمدي » !
 أما نسب الشاعر لأبيه فالصادر التاريخية وشجرة النسب وصحيفته ،
 ومذكرات الأسرة ومعلوماته تقف بنا عند جده الأول « عبدالله الجركسي » .
 فقد استقدمه ، وهو شاب حدث من بلاد الجركس ، إلى مصر ، الأمير
 الكبير « محمد الألفي » ، وكاننا من بلد واحد ، وضمه الألفي إلى أتباعه وجعله
 كاشفا من كشافه^(١) ، فانتسب إليه ، وصار يدعى « عبدالله الجركسي الألفي »^(٢)
 وبعد أن توفي الأمير « محمد الألفي » أول عام ١٨٠٧ ، وكان يقود
 المماليك في معارضة عودة الحكم التركي بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، تألف
 « محمد علي » الوالي التركي الجديد قلوب من بقي من عماليك الألفي وأتباعه ،
 فأمنهم وخادعهم كي يستمد ثم لينقض عليهم . وعقد صلحا مع زعيمهم الجديد
 شاهين الألفي^(٣) ، وأسكنهم الدور ، وأجرى لهم الأرزاق ، واستبقى الكشاف
 منهم في وظائفهم ، فعزل « عبدالله الجركسي الألفي » كاشفاً لحمد علي أول حكمه .
 وفي عام ١٨١٠ ولد لعبد الله الجركسي ولد سماه « حسن حسني الجركسي
 الألفي » هو والد شاعرنا « محمود سامي البارودي »^(٤) .

ولم ينعم الطفل « حسن حسني » برعاية والده غير عام واحد ، فقد قتل
 مع كبار المماليك في للذبح التي دبرها محمد علي للقضاء عليهم عام ١٨١١ ،
 وقد بدأت بمكيذة القلم فقتل فيها نحو ٤٠٠ من زعمائهم ، ثم تلتها حملات
 الدم التي أعدها لمن يظفر به جنوده في البلاد من المماليك ، « فكانوا يأتون
 بهم أفواجا ويسوقونهم كالغنم إلى الذبح »^(٥) .

(١) الكاشف يائل مأمور للركز أو عاقل الحفاظة بجالس البلاد التي يكون كاشفا عليها
 ويحصل منها الأموال لسيد الصنق للقيم في القاهرة .

(٢) معلومات أسرة البارودي (٣) الجبرق ج٤ ص ٤١ طبعة ١٣٢٢ هـ .

(٤) جورجي زيدان مشاعر الشرق ج٢ ص ٢٩٨ .

(٥) جورجي زيدان تاريخ مصر الحديث ج٢ ص ١٦٢ ؛ بلغ عدد القتلى من المماليك في القاهرة
 والندريات نحو ألف من الأمراء والكشاف والجنود . أنظر : عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ١١١-١٨٤٢ .

مصر بين الاطماع والنكسة

آثار مذبحة القلعة :

ونكبة البارودي الشاعر في مذبحة القلعة نكبة مضاعفة ، فقد قتل فيها جده
لأمه « على أغا البارودي » ، وجده لأبيه « عبد الله الجركسى الألفى » ؛
واسكن نكبة الوطن من آثارها النفسية كانت أقتل وطأ وأشد خطراً ،
فقد فوجئ الشعب بأسلوب الفدر والخيانة والقهر من كان بالأس القريب
مناط الأمل في حكم أكثر عدلا ، وحياء يسودها الاطمئنان . وهزتهم الخيانة
إلى الأحمق ، وفشحت عيونهم على أسلوب المهادة والخداع للاســــتعداد
والانتفاض ، وتمكنت الرهبة من القلوب ، واستولى الرعب على النفوس ،
والأمة لم تنزل بعد على أول مراحل الطريق نحو الانطلاق ، للتعبير عما يعمل
في نفسها من الإحساس الوليد بالحرية ، وما تشعر به من الحاجة إلى أن تميز
أستار الجود والسلبية التي كانت تحجب عنها الحياة الكريمة في ظل الاستقلال ،
فتصنع حياتها ومستقبلها بنفسها ، وتكون لها الكلمة في فرض التغيير
باسمها ولمصلحتها .

قتلت « مذبحة القلعة » الأمل الوليد في النفوس ، وأخذت الروح الوطنية
التي امتلأت بها قلوب الأمة في مقاومتها خلال الاحتلال الفرنسى ، ورأى الشعب
فيها صورة الخداع التركي على حقيقته ، وقد كشف عن نياحه وأسلحته ليقضى
على من يتصدى لأطماعه ، أو يقف في طريق دكتاتوريته ، واختفت إلى الأبد
صورته بالأس وهو يلبس مسوح النفاق ، يخاطب ود الشعب ويستجدى
عطفه ، ويطمع في ثقة زعمائه ، ويغتلط بالعامية ، ويتعجب إليهم ، ويعتمد بالأ يبرم

أمرًا دون مشورة علماءهم وذوى رأى فيهم .

واسترد محمد على أفضاه اللاهنة وزاد أطاعه عقب مذبحه للمالك ، فقد كانت للنطلق الأخير الذى وثب منه إلى تحقيق مأربه فى بناء إمبراطورية له ولأمرته من بعده ، ومن قبلها قضى على المعوقات التى تنف فى طريق آماله ، فتخلص من تحكم سلطان تركيا فى مصر مصر ، وأمن نفسه ضده بتحالفه مع القوى الشعبية المصرية التى استغلها بدهائه وخداعه ، وظل يمالئها حتى أزاحت من طريقه كل العقبات ، ثم دفعت به إلى قمة الجحد وأجلسته على العرش . ولم يكن الدكتاتور الداهية يؤمن بها كحركة شعبية ترسى قواعد الاستقلال والديمقراطية ؛ بل بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه ، وقوة مساعدة تستهلك بعد أن تستنفد أغراضها عنده . ومن ثم ، وبعد أن استقر فى الحكم استدار إليها وانقض عليها وشقت زعماءها .

وما إن تسلم غارب الحكم ودانت له الأمور ، وأصبح الحاكم الفرد فى البلاد ، حتى أخذ يدفع بالمصريين دفعا لارأى لهم فيه ، إلى مفاخرات عقيمة تستهدف مصالح الفرد فى تأسيس ملك عريض ، وساقهم إلى معسكرات التجنيد لينبى بهم جيشا حديثا ، يكون قاعدة حصينة تحمى حكمه ، وأداة قوية يصل بها إلى طموحه فى بناء إمبراطورية على نمط حديث ، يفاخر بها أو يفاضل ملك سيده فى تركيا . واستقدم الخبراء العسكريين من أوروبا ، وأنشأ المدارس الحربية ، وسخر موارد الدولة المادية وإمكاناتها البشرية ، وعبأ قواها العقلية ، لتسكون جميعها فى خدمة الجيش وسيلته فى تحقيق أطاعه .

وغلبت المفامر الدكتاتور سجيته التركية ، فبذرت بذور التمييز

المنصرى فى الجيش من أول يوم فى تكوينه ، فالمدارس الحربية التى أنشئت لتخرج قادة للجيش ، بالرغم من تمددها ، كانت محرومة على المواطنين^(١) ، وأمر الحاكم المستورد أن يُختار لها طلبتها من أبناء الطبقة التى منحها امتيازات السيادة : من الأتراك ، والأرناؤود ، والأرمن ، واليونان ، وبقايا الجراكسة . ولا ندرى أكبر على الناصر التركى أن يرفع المصريين إلى القيادة ، أم أنه وهو الحذر الداهية ، قد استكشف حجب النيب ، واستطلع الأفق البعيد ، فوجد أنه بيده ، إن جعل منهم قادة ، يصنع المولى الذى يهدم به عرشه وأسرته فيزها فى عنف عام ١٨٨٢ ، ثم يلفظهما يوم الثورة الكبرى عام ١٩٥٢ ؟

وفى هذه المدارس الحربية تلقى « حسن حسنى الجركسى الألفى » فنون الحرب ، وخرج ليعمل ضابطا فى المدفعية المصرية الحديثة ، التى حملت الصبء الأكبر من معارك الجيش المصرى فى منطقة الشرق الأوسط قرابة ثلاثين عاما ، وقفزت به استمداداته الحربية وشجاعته النادرة درجات الترقى حتى صار من أمراء المدفعية ، وتقلد رتبة اللواء^(٢) .

فرمان النكسة :

أشترك الضابط « حسن حسنى » مع جيش مصر الفاتح ، فى المارك التى دارت على أرض سوريا ضد الجيش العثمانى ، وقاد فرقته ضمن المدفعية المصرية فهدت للنصر على الأتراك فى فتح عكا التى استمضت على نابليون عام ١٧٩٩ ، وساعدت فى تحرير سوريا من الاستعمار التركى ، واشتركت فى رفع البندود والأعلام

(١) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) مقدمة الديوان شرح الإمام ؛ ومذكرات الأسرة .

المصرية خفاقة على ربا الأناضول ، واحتلت « قونية وكوتاهية » على مسافة خمسين فرسخا من أسوار القسطنطينية ، وأفرغت طلاقات مدافعها سلطان تركيا في « قصر يلدر » فاستنجد بالدول الأوربية الكبرى لتوقف الزحف المصرى قبل أن يدك العاصمة التركية . وسارعت الدول الأوربية بالتدخل ، ولم يكن السلام العالمى أو المحافظة على كيان تركيا هو الدافع لتدخلها ، وإنما حركتها أطباعها المختلفة .

كانت روسيا تعتبر نفسها الوصية على « الرجل المريض » — تركيا — وتطمع في السيطرة على « البواغيز » لتنفذ إلى البحر الأبيض المتوسط . وتنهت إنجلترا إلى خطر مصر الذى يهدد مصالحها في الشرق ، بعد أن كشفت الحملة الفرنسية أهمية موقعها الجغرافى بالنسبة للقارات الثلاث ، وتحكم هذا الموقع في سياسة التوسع الاستعماري الأوربي في الشرق ، ومن ثم رأت ضرورة احتلالها؛ وقد جربت لذلك الحرب السافرة عام ١٨٠٧ ولكن المصريين رموا بمنودها إلى البحر ، وانتظرت ثقب بفزع نمو الدولة الناشئة ، وامتداد نفوذها على سواحل أفريقيا وآسيا ، وانطلاقها من الزاوية التي تتحكم في مستقبل التوسع الإنجليزي في هاتين القارتين . وواتها فرصة احتدام النزاع بين محمد على و سلطان تركيا ، فألبت عليه الدول ، وترعمت المؤامرة الدولية ضده ، وكانت تستهدف في المقام الأول إضعاف مصر حتى لا تزاحمها في السيادة على البحر المتوسط أو تكون عتبة في طريقها إلى الهند ، وتستهدف أخيراً احتلالها حين تواتبها الفرصة .

وأجبرت الدول الكبرى « محمد على » على الخضوع لشروط التسوية التي أملاها مؤتمر في لندن عام ١٨٤٠^(١) ، وصدر بذلك فرمان الباب العالي في ١٣ فبراير

(١) اشترك في المؤتمر إنجلترا وروسيا والنمسا وروسيا وتركيا .

١٨٤١ . وكان في هذا فرمان القضاء على آمال الوالى التركى وأطماعه . وقد تقلص طموحه من بناء إمبراطورية كبرى إلى ولاية وراثية في أكبر رجال أسرته . ولأن جهوده ومغامراته لم تكن تستهدف إلا مصالح الفرد ، لم يجد ما يبرر المضي في مشروع بناء « دولة حديثة » ؛ ذلك لأن المائد إليه من هذا المشروع لا يحقق ما تصبو إليه أطماعه .

وخشى الدكتاتور المهزوم على نفسه وأسرته من بذور العلم التى غرسها بين فريق من المصريين ، لتحقيق له حلمه الكبير ، وقد اتخذت طريقها الطبيعى فاحتضنتها التربة الثورية الغلبة لمصر ، لتخرج منها بشائر نبت ثقافى وصناعى وعسكرى وسياسى على ضفاف النيل تسهم في بناء مصر الحديثة . وأصابه الخوف بالجنون ، فأخذ ينقض عليها يهدمها ، ليعيد مصر إلى تخلقها الأول ، حتى يسلس قيادها ويسهل حكمها . قفل المدارس ، ووقف إرسال البعث إلى الخارج ، وألغى المشروعات العمرانية والصناعية . ثم برزت طبقة التاجر الخفية فيه تحت قباء الولاية فأخذ يحول مشروعات الدولة ومصانعها إلى عملية استثمار تحقق له ولأسرته الكسب المادى . وأصبحت مصر — وقد جعلها فرمان ١٨٤١ حكرأ له ولأسرته — مزرعة يستثمرها لحسابه ، وللزارعين والعمال من المصريين فوق الجهد والتعب الفقر والسفينة .

وكان فرمان ١٨٤١ فرمان نكسة لمصر ، فقد فرض عليها الجود والتخلف ، وارتدت البلاد بدمه إلى نوع من الخمود الذى عاق ما يمكن أن تستفيد مصر من الحركة الصناعية والتعليمية والعمرانية التى قامت في ذلك العصر ، وتجمل من كل ذلك أساساً لهضة كبرى . ولكن الوالى التركى ، حين أقام مروحاً للحضارة المادية والعمرانية ، لم يلق بالاً إلى تدعيم عمله ببناء الأذهان والعقول

عن طريق التربية الفكرية والاجتماعية ، ولم يلتفت إلى إعداد المصريين ليدركوا التغيير الذى يقوم به ويتحملوا معه مسئوليته . ولو فعل محمد على ذلك لضمن لإصلاحه قوة وثباتاً من روح الشعب وقوته ، ولو جدت بذوره تربية طيبة تنبئها نباتاً زكياً ، ولكان إصلاحه من الأساس دون السطح ، أما وقد أبعد أهل البلاد ، فقد جعل عمله سطحيّاً زائلاً ، يقوم بقيامه ويموت بموته ، ولو كان المصريون شركاء له فى العمل لما أنهدم عمله عن آخره بعد وفاته.^(١)

لم يفعل الطاغية التركى ، وكبر عليه ، أو لعل الخوف تملكه من أن تقوم بسبب إشراك المصريين فى تحمل المسئولية معه فى مشروعاته ، نهضة فكرية واجتماعية يعرف الشعب بها حقه ويكتشف ذاته ، فتكون القاضية عليه وعلى أسرته الدخيلة . ومن ثم آثر لسلامته أن تترد البلاد إلى الجلود والتغلف وظلام الظل الذى عانت منه مصر فى العصر العثمانى ، فكرهه الناس ، وأطاعوه بأجسام لا روح فيها تحت ضغط القهر والاستبداد . والواقع أنه كان يحذر المصريين ويخشاهم ، ويمس بينهم إحساس الغريب للنبوذ ، ويشعر بأن الثقة قد فقدت بينه وبينهم منذ تقضى عهده مع زعماء الحركة الشعبية التى أتت به إلى الحكم ، وقد صرح هو نفسه بذلك للقنصل الروسى فى مصر على عهده^(٢) .

بين التجنى والحقيقة :

اشترط البند التاسع من « فرمان النكسة » أن يخفّض الجيش المصرى إلى ١٨ ألف جندى ، بعد أن وصل تعدادُه عام ١٨٣٩ إلى ٢٧٦,٦١٦^(٣)

(١) حسين مؤنس : الشرق الإسلامى و مصر الحديث ص ١٤٥ ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٢) حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى . أعلام العرب عدد ٥٣ ص ٣٨ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) تفصيلات إحصاء الجيش المصرى فى عهد محمد على ؟ أنظر : الرافى « عصر محمد على » ص

جندياً . وكانت قوة الجيش المصرى الضاربة ، والروح الحربية الكامنة و
جنوده ، ومهارتهم العسكرية التى أبتوتها فى مجال الحركة وميدان القتال ، تمثل
أكبر إنخطر على سلطان تركيا ، وعلى مصالح الدول الكبرى فى الشرق كله ؛
ومن ثم كان إضعاف هذا الجيش هدفاً من أهداف التسوية الدولية التى فرضت
على « محمد على » . وفى خوف تركيا من الجيش المصرى ، وفزع الدول
الكبرى من الجنود القلاحين ، أبلغ رد على الادعاءات التى ادعاها الحكام
الدخلاء وبعض المؤرخين من الأجانب والغرب ، حين زعموا أن المصرى ينفر
بطبعه من الانتظام فى الجندية ، ويفضل عليها أن يكون عبداً للأرض والزراعة^(١)
ولمهم قد اتغذوا من نفور المصريين من الانتظام فى جيش الدكتاتور التركي
دليلاً على دعواهم ، غير ناظرين إلى الأسباب الحقيقية لهذا النفور ، ودون أن
يتلمسوا من أحداث التاريخ القديم والعربى والعديث الشواهد والأدلة التى تقوض
ادعاءهم من أساسه

والحقيقة أن شعب مصر ، قبل أن ينزل به ظلام الفزو العثمانى ، تحمل
بسالمة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها ، فأخذ على عاتقه
المسئولية المادية والعسكرية فى صد أول موجات الاستعمار الأوروبى ، التى جاءت
إلى الشرق العربى مستترة وراء صليب المسيح . وتحمل المسئولية الأدبية والعسكرية
فى رد غزوات « التتار » ، الذين اجتاحتها سهول الشرق حاملين الخراب معهم
والدمار . وفى مواجهة الاحتلال الفرنسى ، بعد أن رأوا هزيمة المماليك وعجز
الأتراك عن الدفاع عن الوطن ، دافع أهل الإسكندرية عن ثغرهم بقيادة
« السيد عمر مكرم » ، وقاوموا الفرنسيين فى شجاعة نادرة ، وخرج كل قادر

على حمل السلاح من المصريين ليدافع عن القاهرة ، ونظموا « ثورة القاهرة » الشهيرة ، ودارت بين رجال المقاومة الوطنية وبين الفرنسيين أكثر من ٣٠ معركة ، وظلوا في مقاومتهم حتى حمل الستمر عصاه على كتفه ورحل ، ثم رموا بالإنجليز إلى البحر حين جاءوا يحربون حظهم في الاحتلال عام ١٨٠٧ .

في كل هذه المارك كان المصريون يتسابقون إلى حمل السلاح ، ويتدافعون إلى الانتظام في الجيوش الحاربة ، وكأنهم جميعاً جنود تحت السلاح ، فما إن يدوى نفير الحرب حتى يصبح كل مصرى جندياً محارباً يهرع إلى الميدان . ذلك لأن العلماء والوعاظ وذوى الرأي كانوا يمتلئون منابر المساجد ، ويتصدرون المجالس ، ويحثمون بالناس يشرحون لهم الهدف من القتال ، والفكرة التي من أجلها يحملون السلاح . يعبثونهم روحياً وعاطفياً وعقائدياً ، فتمتلئ قلوبهم بنبل الهدف ، ويؤمنون بالدفاع عن شرف الفكرة ، وينفرون للقتال ليجاهدوا في سبيل الدين مرة ، وللدفاع عن الوطن أخرى ، يمدوم الأمل في النصر أو الاستشهاد في سبيل الله والوطن وهو خير وأعظم أجراً .

وتكشف المارك ونبل مقاصدها في هذا الشعب الأصيل عن حيوية لا تنفى ، ولم تستطع الحن والزوايا والظالم التي عصفت به أن تقضى عليها ، ولم يذهب بها مانات به البلاد من طينيان وفقر وانحطاط ذهني ، ولكنها كانت تتوارى حتى تكشف عنها الأحداث ، فتبعث أبناء مصر في يقظة يحسبها من لا يعرفهم أنهم بعثوا من جديد .

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للتجنيد الذي فرضه « محمد علي » على المصريين ، فقد أخذ الفلاحين قسراً إلى المعسكرات وقلوبهم فارغة من فكرة سامية يحاربون من أجلها ، وعواطفهم خاوية من هدف صكبير يدعوهم إلى حمل

السلح ، وأرواحهم خالية من وازع دينى يدفعهم إلى الاستشهاد فى سبيل الله . لم يعنى- الوالى التركى قلوب الناس وعواطفهم قبل أن يصدر أمره بالتجنيد ، ولم يشرهم فى تفكيره واتجاهاته وبقي بمعزل عنهم ؛ ومن ثم أخفق أول الأمر فى أن يحمل للمصريين على الإيمان بفكرة تجيش جيوش لا تحقق إلا أطماعاً شخصية .

والمصرى بفطرته السليمة التى تهديه إلى أسلوب العمل ، لم يجد للحروب التى يخوضها الحاكم التركى ويدفعهم إليها مبرراً من دين أو وطنية ، فليس هناك إسلام جريح يستغفر أتباعه للذود عنه ، ولا وطن مستعمر يناجى أبناءه لطرد الغزاة منه ، ولا جهاد أو غزو فى سبيل الله يطلب من المصريى أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ؛ وإنما هو لقاء للسلم للمسلم بالسيف ، فالقاتل والمقتول فى النار ؛ ومن ثم فلا يذهب ليقاتل أخاه للسلم إلا مضطراً . وحين أخرجوا كرها إلى ميادين الحروب ارتفع عنهم الأصر وزال عنهم الذنب ، فاندفعوا إلى القتال مطمئنين ، ورأوا بقطرتهم أنهم إن قاتلهم فى هذه الحروب الثواب والأجر فلا يفوتهم النصر . وأخذ بعض المؤرخين بطواعر الأمور، فظنوا امتناع المصريى عن التجنيد نقصاً فى الروح العسكرية . ولو أنهم بحثوا عن الأسباب الحقيقية ، ونقبوا عن الدوافع ، لوجدوا أن المصريى فعلوا ذلك فى كل مشروعات « محمد على » ولم يقبلوا عليها ، لأنه لم يشارك الشعب فى مسئولية بناء الدولة الحديثة ، فشاد فى الهواء وأقام بناءه فى فراغ .

وبين النهضة والتنمية :

والشائع المتداول أن « نهضة تعليمية » قامت على عهد « محمد على » ، ولكننا لو تمسقنا فى مظاهر الحركة التعليمية فى ذلك العهد ، وترقنا أسبابها ، وتبيننا أهدافها ومراميها بالدراسة والتحليل ، لما وجدناها تقوم على الأساس الذى تبنى عليه

النهضات؛ ذلك لأنها ارتبطت بتحقيق هدف معين حددته طموح شخصى ، وسأقت لها القوة كل الإمكانيات البشرية والمادية ، لتمد الفئتين لشتى الشروعات التى تعمد الحركة العسكرية ، وسيلته فى بناء إمبراطورية أحلامه . ومن ثم كانت للدرسة الخصوصية (العالية) أول ما أنشأ من المدارس ، ثم اضطر إلى خلق المدارس التجهيزية لتمدها بالطلاب ، ثم فتح مكاتب للتبديان لتغذى المدارس التجهيزية بالتلاميذ . وكذلك كان نظام تعليمه معكوساً أو على شكل الهرم المقلوب ، يبدأ بالقمة دون بناء القاعدة ، ومثل هذا البناء لا يمكن أن يكون نظاماً قومياً للتعليم ، بل نشاطاً مرتبطاً بهدف وطموح فردى ، فإذا ما أجبر على التخلي عن هذا الطموح توقف النشاط وأصبحت الحركة بالجمود والشلل .

لم تكن « نهضة تعليمية » بالمعنى الأصيل ، لأن مرد الأمر فيها كان إلى إرادة رجل واحد احتكرها كما احتكر مرافق البلاد جميعاً ، وطبعمها بطابع الفرد ، ووجه مصير البلاد فى السياسة والاقتصاد والزراعة والثقافة وجهة غمق الهدف الذى ينفذه ، وترضى غول الأطماع الذى استولى على حواسه ، فكان يتدخل فى أخص شئون الأهالى ، ويحتكر زراعتهم وصناعاتهم وتجارتهم وتعليمهم احتكاراً لا يهدف لمصلحة الأمة بل لمصلحته هو وأسرته ، فتولدت لذلك أزمة عدم الثقة بين المصريين وبين مشروعاته ، ومنها تعليمه الحديث الذى يعد له الأعوان من شباب البلاد على النحو الذى يشاء ليثبت فيه مبادئ الطاعة والإخلاص لنظام حكمه .

وبينا كان المصريون يتساقون فى إرسال أولادهم إلى الكتائب ، ثم إلى الأزهر الشريف والمدارس الملحقة به^(١) ، لم يجد محمد على من يقبل على مدارسه راغياً لعدم الثقة به ، « فكان يتزع التلاميذ من أهلهم انتزاعاً ومجبراً فى مكاتبه . ويختار لهم

(١) بلغ تعدادهم ٢٠ ألفاً ، بينما بلغ تلاميذ مدارس محمد على فى أوج نشاطها ١٠ آلاف طالب .

لون التعليم الذى تتطلبه الوظائف فى الجيش والصانع والاشغال والمصالح والدواوين^(١).
كان لا يبنى بهم كأفراد، أو يأخذهم بما يرهف حسهم وينسى قدراتهم ، بل كدروس فى
مجلة أهدافه ، فإذا ما ما اضطرت المجلة إلى التوقف أصبحت الترويض ولا جدوى لها .
والواقع أن الالتحاق بمدارس الحكومة كان يعنى الالتحاق بخدمة الباشا ، يستغل
التلاميذ بما أنفق عليهم ما وسعه الاستغلال^(٢) .

ولم تكن « نهضة تعليمية » لأنها لم يقصد منها تعليم أبناء الأهالى وكسب المعارف
لأبناء العباد ، كما يقول « رفاعة الطهطاوى » ، ولم تكن التربية الشعبية من أهدافها ،
بل كانت مترفة عن أن تمد يدها إلى نظام التعليم الشعبى الممثل فى الكتاتيب والأزهر
والذى قام بمصر من أجيال بعيدة . ومن ثم لم تمتد جذور التعليم فى عهد محمد على
إلى باطن التربة المصرية ، وبقي معلقا فى الهواء يترنح ويقبض أو ينبسط حسب مزاج
الحاكم ، وقد اقتضت مشيئته أن يقصره على فئة قليلة يختار أفرادها ، ويرسم لهم طريق
الحياة . وحتى هذه الفئة المختارة من أبناء الشعب ، لم يكن العلم نفسه هو القصد من
تعليمهم ، أو حتمهم فى الثقافة هو الدافع لتثقيفهم ، بل بوصفهم وسيلة لتحقيق أهداف
الوالى . وأشار إلى ذلك معلم النهضة « رفاعة الطهطاوى » فى قوله « وأما تربية الأهلية
وإدخال المعارف فى أفراد مراتب الرعية على اختلاف درجاتهم ، والتسوية بين الأعيان
والرعاع فى مادة التعليم الأهلى ، فلم تساعده [محمد على] اللقائير على كمال الالتفات
إليه » . وكتب سر العسكر إبراهيم بن محمد على إلى أبيه مرة مستحسنا ما سمعه من
سليمان الفرنساوى عن التعليم الشعبى فى فرنسا ، فرد عليه أبوه بلفت نظره إلى ما تعانيه
أوروبا من نتائج تعميم التعليم بين أبناء العامة ، وإلى أنهم كانوا قد تورطوا فى تعليم
الناس حتى أضحوا وليس فى طاقهم تلاقى ما فات . « فإذا كان هذا المثال أمام الأنظار ،

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على من ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق .

فن الواجب أن تنفضلوا فتكتفوا بتعليم القراءة والكتابة لعدد منهم يكفى لأعمال
الرياسة غير مولعين بتعميم ذلك التعليم^(١) .

والحقيقة أنها كانت « تعبئة تعليمية » وجزءا من مخطط يهدف إلى تحويل مصر
إلى دولة عسكرية تحقق للوالى التركى أطماعه وأحلامه ، وتحولات للدارس المدنية -
تبعا لهذا المخطط - إلى مدارس تسير بالنظم الحربية ، فأصبحت أشبه بشكبات
عسكرية تدوى فيها أبواق النفير تدعو إلى النوبات والطواوير ، وتعلم ، إلى جانب
مواد الدراسة ، إطلاق الرصاص والخطوات العسكرية ، وهو نظام يعود الطاعة واحترام
السلطة والرياسة دون تفكير .

أما التعليم فى المدارس الحربية ، فقد كان لأولاد الجراكسة والأتراك وعماليك
الوالى وحدهم ، وهو التعليم الذى لا يحترمون سواء ، ورونه طريقهم الطبيعى إلى
المناصب الكبرى فى الدولة ، يهبهم مظاهر السيادة ، ويتحكمون به فى مراكز القوة فى
البلاط ؛ ولذلك لم يصبه ما أصاب التعليم المدنى من جود واضمحلال ، وبقيت المدارس
الحربية فى عهد محمد على تستقبل أولاد الطبقة الحاكمة من الترك والجرركس . وكان
التعليم الحربى مرحلتين : التجهيزية الحربية ، والخصوصية (العالية) الحربية . أما المرحلة
التجهيزية - وهى فى مستوى المرحلة الثانوية - فقد كانت تعد الطلاب لمدارس
العليا (الخصوصية) ، وكانت تستمد تلاميذها من خريجى « مدرسة المبتدیان »
« بالقاهرة » « ومكاتب المبتدیان » بالأقاليم أو ممن أتموا الدراسة الابتدائية ، ويختار
العدد المطلوب ممن يجتازون امتحان القبول الذى يعقد للمتقدمين إليها .

(١) الوثائق التاريخية لمصر محمد على دفتر ٢١٢ (مية ١ رقم ٢٢٧) لى الباشا السرسكر
فى ٢٩ دى الحجة ١٢٥١ هـ .

النشأة ، والتعليم ، والتكوين النفسى

اليتيم الصغير فى مرحلة الطفولة :

تزوج أمير المدفعية اللواء « حسن حسنى الجركسى الألفى » ، وقد بلغ من العمر ٢٦ عاماً (١٨٣٧) ، فاطمة هانم البارودية ، وكانت تكبره بثمانية عشر عاماً^(١) . ولم تكن أسرته تضارع أسرة « البارودى » العربية فى الجهد الموعلة فى الجاه والواسعة الثراء ، ومن ثم اتسب إلى أسرة زوجته على عادة المالك وتقاليدهم . وأصبح منذ زواجه يعرف « بحسن حسنى البارودى » بدلا من « حسن حسنى الجركس الألفى » ، فهو بارودى ولاء لا نسباً . وفى ٦ من أكتوبر عام ١٨٣٩ ولد لهما ولد سى « محمود سامى » ومن بعده بنت سميت « فاطمة البارودية » .

ولو أننا أردنا أن نطبق قواعد النسب حسب المبادئ المعروفة ، لوجدنا أن شاعرنا « محمود سامى » قد اكتسب لقبه « البارودى » من أمه وليس من أبيه .

وفى عام ١٨٤٦ عين اللواء « حسن حسنى البارودى » مديراً لبربر ودققة بالسودان^(٢) . ولم يسعد حسن حسنى « بالندب الجديد » ، فقد أحس فيه عدم الرضى من « ولى النعم » ، والرغبة فى التخلص منه^(٣) ؛ غير أنه لم يكن يملك إلا الطاعة وشكر الباشا على مننته وفضله !

(١) توفيت عام ١٨٨٢ ، وقال البارودى فى قصيدة رثائها ، إنها بلغت ٩٠ عاماً ، فيكون مولدها عام ١٧٩٢ ، ومولده حسن حسنى عام ١٨١٠ .

(٢) مقدمة الديوان شرح الإمام . (٣) مطومات الأسرة .

وسافر « حسن حسنى » وحده على كره منه ، وترك ولده « محمود سامى » ولما يبلغ السابعة من عمره ، وودع أهله ونفسه تحذره بأنه الوداع الأخير . وما إن وصل إلى السودان حتى صدق إحساسه وتحقق ما كان يخشاه ، فقد أصيب بالحمى بعد أربعين يوماً من تسلمه عمله الجديد^(١) . وتمثل للريض نفسه وهو يعاني أوصاب الحمى وحيداً بعيداً عن الأهل والوطن ، واسترجع ماضيه حين قتل أبوه فى « مذبح القلعة » وهو وليد فتش فى ظلمات اليم وقست عليه الأحداث ، وتكشفت له الحجب عن المستقبل حتى صارت واقعاً مريراً فوجد التاريخ يعيد نفسه ، ويكرر المأساة مع ولديه وما زالا غريرين ليس لهما من راع ولا نصير . ولم تجد قوته ولا شبابه فى مقاومة المرض القاتل نفعا فقفى نحيبه ، ودفن فى دفقة^(٢) غريب الأهل والدار !

قفى « حسن حسنى البارودى » وخلف طفله « محمود سامى » فى السابعة من عمره ، تفتتح مداركه على حسرة اليم وألم الحرمان من عطف الأبوة . ويحفر الحوادث فى قلب الصبي الصغير ذكراه بمحروف من الأسى والحزن ، فقد مضى أبوه عنه وتركه أعزل دون حماية من أطاع البشرية ونوب الأيام ، وعرضه موت أبيه لتجربة مبكرة بالحياة والناس وما فيهما من شورو ، وما تتملى به النفوس من ظلم وغدر ومكيدة وعدم وفاء . وهى تجربة ظلت آثارها السيئة تعيش فى نفس الصبي حتى كبر ، ثم انقل بها فرددها فى شعره ، ولم تزدها الأيام وأحداثها إلا تأكيذاً ، فقد التفتة فى الأصدقاء ، وظل يبحث عن الخلل الوفى مع المتقاء . ويذكر « البارودى » موت أبيه ويستعيد الصورة الحزينة التى

(١) مذكرات الأسرة .

(٢) توفى وسنه ٣٦ عاماً ، وكان قوياً ضخيم الجسم متمكناً كما تقول حفيداته فاطمة ومشرية ؛ وانظر : مقدمة مرائى الشعراء ، جم خليل مطران .

طبعها الحادث في قلبه بعد ثلاث عشرة سنة فيجدها حية مكحلة بالأمسى في ذكره فيقول :

مات الذي ترهب الأقرانُ صولته ويتقى بأسه الضيرغامةُ العادي
مضى وخلفني في سنٍّ سابعةٍ لا يرهبُ الخضمُ إِرَاقِي وإِرَعاذِي
إذا تلفتُ لم ألمحُ أخاً قسِيَّ يأوى إلى ولا يسمي لإنجادِي
فالعينُ ليس لها من دعمها وَزَرٌ والقلبُ ليس له من حُرته فَادِي

وقد نرت الأم بعد وفاة زوجها بالسودان المسئولية التي ألقاها القدر على عاتقها ، وتحملت أمانة تنشئة وليدها وتعليمه بشجاعة دون إشفاق أو تردد . ومن الطبيعي أن تختار « فاطمة هاتم البارودية » لابنها طريق التعليم الحربي شأن أقرانه من أبناء الجراكسة ، وهو التعليم الذي يرونه طريقهم الطبيعي إلى المناصب الكبرى ومراكز القوة في البلاد . وكانت وهي توجهه إلى هذا الطريق ، وكأنها ملهمة بإحساس الأم المشفوع بروح التعقل وتقدم السن ، أن الصبي الذي في كفالتها تنتظره الأيام لتصنع منه قائداً عظيماً يخوض المعارك والحروب ، وزعيماً وطنياً يقوم بدور كبير على مسرح أمته السياسي ، وشاعراً رائداً يبعث النهضة في شعرها الحديث . فنذرت نفسها لرعايته ، ولم تشغل شأن النساء بصدمة الترميل ؛ بل عكفت على إعداد ولدها لمستقبل ينتظره ، فتخطت تربيته وتعليمه وتنشئته ، فما إن بلغ الثامنة من عمره حتى استقدمت إلى دارها معلمين خصوصيين يقومون على تأديبه في سنواته الأولى وتعليمه دروس المرحلة الابتدائية^(١) .

(١) مقدمة مراني الشعراء جمع خليل مطران ص ٧؛ ومقدمة ديوان البارودي شرح الإمام .

والتعليم انخاض على أيدي معلمين في المنازل كان سبيل الأسر الكبيرة من ذوى اليسار والنعمة لتعليم أبنائهم في الرحلة الأولى . ذلك أنه لم يكن بالقاهرة وقتذاك (١٨٤٧) من مدارس هذه الرحلة غير مدرسة واحدة هي « مدرسة المبتدیان »^(١) . وكان القبول فيها شبه محصور على عمالیک الوالی ، وإیتام الروزنامة^(٢) ، ومن يختارون من أبناء الفقراء الذين يعتبرهم ديوان المدارس من يوم دخولهم المدرسة غلماناً لولی النعم^(٣) .

وكان لزاماً على « محمود سامی » أن يدرس على يد معلميه الخصوصيين مواد الدراسة الابتدائية حتى يجتاز امتحان القبول للمدرسة « التجهيزية الحربية » . ومنهج الدراسة في « مدارس المبتدیان » وقتذاك موزع (بقانون نامه) المرتب من طرف شوری للدارس على فرقها الثلاث كما يلي :

الفرقة الثالثة (فرقة المبتدئين) : الهجاء ، وحفظ ربع القرآن الكريم ، وقصص الأطفال .

الفرقة الثانية (الفرقة المتوسطة) : القرآن الكريم ختم وإعادة ، والأجرومية (النحو والصرف) وشرحها ، والسوسية (في التوحيد) وشرحها ، والجغرافيا (قراءة) ، والأطالس ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب التوحيد (علم الحال) ، والحساب ، والهندسة ، والتمرین على خط الرقعة .

الفرقة الأولى (النهائية) : الكفراوى وشرحها ، والترجمة للمواطنين (كذا) والصرف والنحو للأتراك والعلمان الترك ، وانخط الثلث والرقعة ،

(١) أحد عزت عبد الكريم - تاريخ التعليم في عصر محمد علي من ١٢٣ ، ٢١٥ . والمبتدیان معناها المبتدئون .

(٢) الروزنامة : لمادة أموال الميرى ، والمراد بأيتام الروزنامة ألقال اللاجئ . اليتام الذين ينفق عليهم من أموال الميرى . (٣) تاريخ التعليم في عصر محمد علي من ٢١٦ .

وكتاب علم الحساب (المطبوع حديثاً) وقراءة كتاب علم الأخلاق ، وتضاف اللغة التركية في جميع السنوات للأتراك والعركس^(١) .

درس البارودي هذا المنهج في سنوات أربعة ١٢٦٣ - ١٢٦٧^(٢) هـ (١٨٤٧ - ١٨٥١) عالج فيها كتب النحو ، والصرف ، والتوحيد ، والأخلاق ، وحفظ القرآن الكريم . وكانت دراسته على نمط الدراسة في مكاتب الابتدائيين ، وهي دراسة مستمدة من الأزهر ومقلدة له مادة ، وطريقة ، ومعلمين ؛ لأن الحكومة حين أنشأت مكاتبها لم تجد أمامها من كتب غير الكتب الأزهرية ، ولم تجد معلمين غير المعلمين في الأزهر ، فكان طبيعياً أن تعتمد عليهما في مدارسها . ولقد تأثر البارودي كما تأثر تلاميذ عصره بهذه المحاكاة ، ومن ثم قد كان تأثر الأزهر في رواد النهضة قوياً وواضحاً .

البارودي في المدرسة الحربية :

بعد أن أتم محمود سامي دراسته الابتدائية عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١ م) ، وقد بلغ الثانية عشرة عن عمره ، وأصبح مؤهلاً لدخول المدارس الحربية ، كان « عباس الأول »^(٣) قد أمضى في حكم مصر قرابة عامين ، قضى فيها بحمقة وضيق أفاقه وتقصيه الأعمى لتركيبته على الدبالة المضيئة الباقية من معاهد التعليم ، وهدم القنومات الاقتصادية للبلاد ، وبلغ للدرجى في عهده غايته ومنتهاه . وقد كان « عباس » قبل توليته الحكم وبعد أن تولى خلاً من المزايا والصفات

(١) أنظر : تاريخ التعليم في مصر منذ علي م ١٧٤ ، ١٨٠ - ١٨١ ؛ وجورجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) مقدمة مرآة الشعراء ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٣) ابن طوسون بن محمد علي حكم من سنة ١٨٤٨ إلى ١٨٥٤ .

التي تجعل منه ملكاً يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة^(١)، وكان يضيق بالإصلاح ، ويرى في الهدم أقرب وسيلة وأيسرها إيثارة للعافية^(٢) . وقد أجمع اللورخون العرب والأجانب على أن عباساً هذا ولد رجحاً بطبعه ، وأن عهده كان الذروة في التخلّف والرجوع بالبلاد القهقري ، واجتلى بالمرض الذي أصيب به ملوك أسرته جميعاً وهو جنون العدواة لكل عمل قام به أسلافه ، دون نظر إلى مصلحة الوطن أو قيمة العمل نفسه ، فوقف موقف العداء لكل ما قام في عهد جده محمد على وعنه إبراهيم من مظاهر العمران . أهمل ما بقي من الجيش والبحرية حتى دبّت فيهما الفوضى وسوء النظام ، وأغلق — بحجة الاقتصاد — المصانع والمعامل والمدارس ، واستدعى معظم البعثات من الخارج ومنع سفر الجديد منها « مع أنه لم يعرف الاقتصاد في سلب الفلاح أمواله بالمنف والقسوة^(٣) » .

ومثل « عباس » الثمرة التركية والتعصب لجنسه أصدق تمثيل ، ومع أن جده محمد على كان قد سبقه في هذا السبيل ، إلا أنه لم يصل في تعنته إلى درجة الحفيد ، فقد كان عباس يتعصب للأستقراطية التركية تعصباً أعشى ، « فطرايش مستعدي الحكومة وأزيائهم يجب أن تكون على مثال ما يلبسه الموظفون في الباب العالي ، وعليهم أن يرسلوا لحام كما يفعل الموظفون في دار السعادة أيضاً^(٤) » . ولم يكتف عباس بالمظهر الخارجى وحده ، بل أراد أن يقضى على الروح القومية المصرية التي أخذ يسرى شعاع منها في قلوب منملعى الرعيل الأول من أبناء البلاد ، فقصر الوظائف على الأتراك والأرناؤود ومن يعرف

(١) عبد الرحمن الرافى : عصر إسماعيل (القاهرة ١٩٤٨) ج ١ ص ٩ — ١٠ .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر عهد عباس وسعيد ص ١١ .

(٣) جورج بيچ : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ، مترجم ص ١٧٩ .

(٤) أمين سائى : تقوم النيل ج ٣ ص ٢١ — ٢٤ . ودار السادة هي دار الخلافة بالإستانة .

التركية ويشبه الأتراك من المصريين ، وجعل التركية لغة التدريس والحديث بين تلاميذ المدارس .

وكان عصره امتداداً « لنسكة » الفكرية والثقافية ، وسار بها إلى آخر طريق الظلام ، فأعلن الحرب على معاهد التعليم ، وألغى ما لم يمتثل منها في عهد جده^(١) ليحرم الشعب من نور المعرفة ، ولم يُبق منها إلا ما يكفي لتخريج العدد الكافي من المهندسين لبناء قصوره ، ومن الأطباء لرعايته وكتابه وحياده وفرقة حرسه من الأرنؤود . ولم يكن ذلك غريباً من عباس « فقد كان يكره العلم والمتعلمين ، ولم يكتف بخلق المدارس بل أنفذ إلى السودان طائفة من كبار علماء مصر في عهده^(٢) » .

وبعد أن أغلق « عباس » المدارس الحربية من تجهيزية وخصوصية (عالية) أقام على أنقاضها مدرسة جديدة سماها « المدرسة الحربية المفروزة »^(٣) ، وآثرها الوالى بالاهتمام والرعاية ، فقد كان يحس أنها وحدها من صنمته ومن خلقه وإنشائه ، ومن ثم طلب أن يختار لها التلاميذ من أفضل العناصر التي احتوتها المدارس الملقاة والباقية من عسكرية ومدنية على السواء . وطاق رجال الحكومة « يفرزون لها الصفوة المختارة من التلاميذ »^(٤) . والتحق بها

(١) أُنشئت مدارس الشاة ، والفرسان ، واللقبة عام ١٨٤٩ ، والطب البشري عام ١٨٤٨ ، والمدارس البحرية ومكاتب الهندسة جيا ولألسن والمكتب المال بالإنشاء عام ١٨٤٩ ، والتجهيزية عام ١٨٥٠ والمحاسبة عام ١٨٥١ .

(٢) من بينهم رفاعة الطهطاوى ، ومحمد بيومى ، ودقة أفندى ؛ أنظر : عبد الرحمن الرافى : عصر إسماعيل ج ١ ص ١٦ .

(٣) أُنشئت عام ١٨٤٩ بالإنشاء ثم نقلت إلى الباسية ؛ محمد مختار : كتاب التوفيقات الإلهامية (القاهرة ١٣١٩ هـ) ص ٦٢٣ .

(٤) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (القاهرة ١٣١٧ هـ) ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وعلى مبارك : المخطط التوفيقية ج ٩ ص ٤٣ .

المتأزون من الطلاب، ولكن تقدمهم العلمى وامتيانهم الدراسى لم يفهم شيئا عند عباس، فقد كان يفنيه شكل الطالب ومظهره لا عقله وقدراته واستبداده . كان يريد أن يتركها أو شكل الأتراك « جمال الخلق ، وطول القامة ، وقوة الجسم وتنافس الأعضاء »^(١) . وبعد افتتاح الدراسة ذهب ليزور المدرسة، واصطف تلاميذها لصحية « ولى النعم الآصفى » ، فإذا به يطرد أكثر المصريين منها لأن شكلهم لم يطابق المواصفات التركية التى يريد، ويفض على المعلمين « لأن معظم التلاميذ الذين انقوم ليسوا إلا أولاداً للفلاحين ، جمعوا وأدخلوا المدرسة بدون نظر لما تقدم »^(٢) من أوامره، ثم أصبحت الأولية فى الالتحاق بالمدرسة لفلان المالك وأبناء الأتراك والجراكسة . وكان يستورد لها الطلاب من « قوله » وغيرها من البلاد التركية على منح خاصة من الوالى^(٣)

وعبد عباس أول إنشاء « للمدرسة المقروزة » إلى « على مبارك » بتعيين معلمها وترتيب دروسها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، لأجل الحصول على القصور واكتساب رضا ولى النعم الآصفى^(٤) . ونجد أثر « على مبارك » واضعاً قوياً فى منهج الدراسة الذى تقرر على طلاب هذه المدرسة ، بالرغم من الصبغة الحرية التى تميزت بها ، والنظام الحربى الذى خضعت له فى حياتها الدراسية والمعيشية ، « فقد كان طلبتها - إلى جانب الفنون الحربية - يقرأون الكتب التى يقرؤها طلبة المدارس المدنية كجملات الصرف ، والكفراوى ، وإنشاء المطار ، وكتب الهندسة ، والحساب ، والرسم ، واللغتين التركية والفارسية »^(٥) .

(١) أمر ولى النعم الآصفى إلى مديرية المهادية فى ١٢ ذى القعدة ١٢٦٥ هـ (محافظة : جهادية) أنظر : تاريخ التعليم فى مصر : عهد عباس وسعيد من ٧١ .

(٢) المصدر السابق . (٣) تاريخ التعليم فى مصر ج ١ من ٧٢ .

(٤) دفتر ١٥٣ (مدارس عربى) من ٢٧٩٦ رقم ٢٠٢٥ لى أميال إلى عاكس مقروزة فى ٣ شعبان ١٢٦٦ هـ والمخطط التوفيقية ج ٩ من ٤٣ .

(٥) تاريخ التعليم فى مصر ج ١ من ٧٥ : أنظر الجدول الدراسى كاملاً كما هو منقول من جداول الامتحانات بدفتر ديوان المهادية فى تاريخ التعليم فى مصر ج ١ من ٢٠٣ و ٢١٨ .

التحق البارودى بالمرحلة التجهيزية من « المدرسة الحربية المفروزة » عام ١٢٦٧هـ^(١) (١٨٥١) ، وانتظم فى سلك طلابها يتعلم فنون الحرب ، ويقرأ معهم القرآن الكريم ، وكتاب جملة الصرف ، وشرح الكفراوى ، وإنشاء المطار ، وكتب الهندسة ، والحساب ، والجبر ، ويتعلم الرسم ، واللغة التركية والفارسية . ولم يجد البارودى صعوبة فى قراءة الكتب المقررة ، ولم تمثل مناهج الدراسة العربية أو التركية مشكلة لديه ، فقد قرأ أكثرها من قبل فى دراسته الخاصة لمنهج المرحلة الابتدائية على عهد « محمد على » استمداً لا امتحان القبول بالمدارس الحربية^(٢) ، فلما تغيرت نظم التعليم فى عهد عباس كان المنهج الذى وضعه « على مبارك » للرحلة التجهيزية من المدرسة المفروزة فى اللغة العربية والمواد العلمية ، أقل فى المستوى من المنهج الذى وضعه « رفاعة الطهطاوى » للرحلة الابتدائية فى عهد محمد على . ولعل « على مبارك » أراد وهو يضع هذا المنهج لطلاب المدارس الحربية التخفيف فى المواد الثقافية حتى يتفرغوا للعلوم العسكرية ، أو لعله رأى روح العصر الذى تدهور فيه المستوى العلمى للمدارس والطلاب ، أو أنه رجا بذلك « اكتساب رضا ولى النعم الأصق » المتمصب لتركته على حساب اللغة العربية .

أيما ما كان السبب فقد نعم البارودى بالدراسة فى « المدرسة المفروزة » ، وسعد بالالتحاق بها ، وقد حققت له آماله فى أن يسير على نهج أبيه ليخرج منها ضابطاً فارساً مثله ، وأرضت رغبته ملحة فى نفس الفارس

(١) مقدمة مرائى الشعراء ص ٧ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٢) كان الاعتصان فى القرآن الكريم وفى قراءة كتب شرح الكفراوى وبتن الأجرومية (نحو) ومبنى البناء والقصود (صرف) وعلم الأخلاق والسنوسية وعلم المال (توحيد) وعلم الحساب والنحو واللسان التركية للأشراك وغلان الأتراك .

الصغير ، ذلك أن سهولة أكثر المواد الدراسية بالنسبة له زودته بفراغ من الوقت يقضيه في محبة دواوين الشعراء ، يقرأ شعرهم ويسعد بقراءته ويردده فيطرب لترديده ، ثم يحقق ذاته حين يستجيب لزبة الشعر وقد أخذ إلهاها يضبط على عواطفه ووجدانه ، ويسمع لتثيراتها نغماً دائماً في آذانه ، فيجرب موهبته فيه ، ويحاول الإنشاد ولكنه لا يجد من يستمع إليه ، فلداته وأقرانه من حوله في المدرسة عجم أو أشبه بالأعاجم ، لا يفهمون ما يلهج به لسانه ، يتعالمون بتركيتهم أو أرستقراطيتهم الجركسية ، وينظرون إلى من يتكلم العربية من الأتراك والجركس نظرة استقكار وسخرية « لأنه يتعاطى لغة الفلاحين العرب » . وبعيش البارودي معهم وحيداً ومحس بين زملائه إحساس الغريب وكأنه من غير جنسهم ، يقضى معهم أوقات الدراسة تليذ حرب ومشروع قائد ، ثم لا يلبث أن يروغ منهم وينأى عنهم ، يحاول التعبير عن أحاسيسه ، ويستجيب لانغمالاته ، وينفرد بشعره يجرب إنشاده لنفسه انتقاء السخرية وخوف العقاب^(١) .

وتدفع سنوات الدراسة الأربعة بالتلميذ « محمود سامي » إلى السنة النهائية من المرحلة التجريبية الحربية ، وقد وصل فيها إلى رتبة « باشجاويش^(٢) » ، وتسلمه الأيام إلى أحضان الشباب ، وقد بلغ ستة عشر ربيعاً ، ونفسه مفعمة بالطموح والأمل ، وهو على الطريق إلى القسم العالي من المدرسة الحربية ليخرج ضابطاً وقائداً . ولكن رياحاً تهب فتغير من اتجاه الطريق الذي رسمته الآمال ، فما إن يتخرج محمود سامي أواخر عام ١٢٧١^(٣) (يوليو ١٨٥٥) من المدرسة

(١) كان العقاب شديداً لمن يتكلم العربية في وقت الفراغ بين المحاضرات وبعد الدروس ؛ أنظر : البارودي راشد الشعر الحديث : شوقي ضيف (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٨ .
(٢) مقدمة مرآتي الشعراء ص ٧ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .
(٣) المصدر السابق .

المفروزة ، حتى يصدر « سعيد » ، وكان قد بدأ عهده ، أمراً بالإنفاذ^(١) . وأطلقاً
جود سعيد كل ضوء ينبعث منه شعاع من علم ، « فقد كان يعتقد أن تعليم
الناس يجعل حكمهم عسيراً ، ويمكنهم من نقد تصرفاته ، وبطلان بونه بمقوتهم^(٢) » ؛
ولذلك فقد حل « ديوان المدارس » وألغى ما بقى من معاهد التعليم ، « وباع
أثاثها وأبنيتها وأدواتها ومعاملها ومكاتبها ومطابخها بأغنى الأثمان حتى يقضى على
كل أمل في عودتها^(٣) » . والواقع أن سعيداً كان غير سوى في تفكيره ، وأكثر
جوراً ورجية مما سبقه من حكام أسرته ؛ فقد جعل التعليم ، والجيش ، وأمر
الدولة ملهاة يتسلى بها ، « وما كان على رأى ثابت في بقاء الجيش ولا في المدارس
المسكينة ومحلات التعليم ؛ بل كان كل يوم في تغيير وتبديل وإنشاء ، ونقض
 وإبرام وإلغاء ، وكان على الدوام مشتغلاً بلفو الجيش وإنشائه^(٤) » .

وخرج محمود سائى من المدرسة المفروزة ليجد سبيل إتمام الدراسة
الحربية أو الالتحاق بخدمة الجيش قد سدت منافذها دونه ، ويختم البارودى
حياته المعهية بشهادة التجهيزية الحربية ، وبلقب (باشجاوئش) فى الجيش
السلطانى . أما رصيده من الثقافة المدرسية فهو القرآن الكريم ختم وإعادة ،
وقراءة متن الأجرومية وشرحها ، وشرح الكفراوى ، وجملة الصرف ، وإنشاء
العطار ، وكتاب علم الأخلاق ، وكتاب السنوسية وعلم الحال فى التوحيد ،
إلى جانب الجغرافيا والأطالس والحساب والجبر والهندسة والالتين التركىة والفارسية^(٥)

(١) كتاب التوقيعات الإلهامية ص ٦٣١ ؛ وتاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) مصطفى بدران : تاريخ التعليم ونظامه فى مصر الحديثة (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٤

(٣) محمود فهمى : البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر (١٣١٢ هـ) ج ١ ص ١٩٨

(٤) المصدر السابق

(٥) حصيلة الدراسة فى المرحلة الابتدائية فى عهد محمد على والمرحلة التجهيزية الحربية فى

ومن هنا ننبين أن ماذهب إليه حسين الرصقي في كتابه « الوسيلة الأدبية » لا يمثل الحقيقة في قوله : « هذا الأمير الجليل ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن اللتباهى ذكاؤه ، محمود سامى باشا البارودى ، لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية ؛ غير أنه لما بلغ سن التمثل ، وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرتة ، حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع الرفوعات منها وللنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه اللغنى والتملقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن^(١) . وقد تبع للرصقي في هذه الدعوى جميع الذين كتبوا من بعده عن البارودى .

التمثلة النفسية :

تلقى « محمود سامى » تعليمه للمهدى على يد معلمين خصوصيين فترة وفي المدرسة الحربية المفروزة فترة أخرى ، وكان يتلقى في نفس الوقت دروساً من نوع آخر على يد معلمته الأولى ، أمه ، تلك التي وهبت حياتها له ، ووقفتها عليه . فنذ بدأت آفاق التفكير عنده تفتح ، وتوسع مداركه وتسفر عن تقبله للمعرفة ، شرعت تمدده إعداداً نفسياً وروحياً ، ليعتزل المسكناة التي تؤهله لميراثه من السيادة والعزة والمجد التليد ، فأخذت تشعن عواطفه ، وتعمى روحه بالقيم والمعايير التي تؤهله في نظرها لمستقبل يصل به إلى طريق المجد ، طريق آباءه من قبله .

فتحت له أمه صفحات من تاريخ قومه الذين تسنموا ذرة الفخار ، وحدثته

(١) حسين الرصقي: الوسيلة الأدبية العلوم العربية (القاهرة ١٢٩٢-١٢٩٦ هـ) ج ٢ ص ٤٧٤ .

عن أجداده الذين بلغوا الغاية من العلا والسيادة . وما يكاد يفرغ التلميذ الصغير « محمود سامي » من دروسه حتى يهرع إليها ، يطلب المزيد من قصص الذين ساروا على دروب الجهد من أهله ، فتضرب له على أوتار عواطفه أنشاما من عزة آبائه ، وتقص عليه طرقا من بطولاتهم ، فتملأ عطفه طموحا ، وتهز قلبه إعجابا ، وتذكى في نفسه التطلع إلى السؤدد ، وتربط مجده بمجدهم . وتسجل مصورة ذاكرته اللافتة أحاديث الأم ، وتختزن نفسه انفعالاتها ، لتسكون رصيذا ضخما له في مستقبل حياته حين تخرج على أسلة لسانه شعرا يضمه في قم الدنيا بقيه على الناس نخارا بأبائه .

من الفخر الفخر الذين سيوفهم	لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه	تفرعت الأفلاك ، والتفت الدهر
لهم عهد مرفوعة ومعقل	وأوبة حمر وأفنية خضر
وخيل يرج الخافقين صهيلها	نزاع مقود بأعراف النصر
أقاموا زمانا ، ثم بدد شملهم	أخوفت سكات في الكرام اسمه الدهر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة	تضوع براياها الأحاديث والذكر ^(١)

ويسأل الفتى « محمود » ولا يمل السؤال ، وتأخذ أمه بيده وتطوف به الدار التي شاركت أسرة البارودي . أكثر تاريخها ، وشهدت إقبال الدنيا على أهلها حتى وصلت بهم إلى قمة العلا وجمعوا الجهد من أطرافه ، منذ بناها جدم الأمير الكبير شيخ البلد « إبراهيم كفتدا مستحفظان القادوغل » لزوجته « فاطمة خاتون » بنت البارودي . فأدار منها دفة الحكم في البلاد ، وسير

(١) حسين الرضوي: الوسيلة الأدبية لعلوم البرية (القاهرة ١٢٩٢-١٢٩٦هـ) ج ٢ ص ٤٩١؛ ذكرت هذه القصيدة في الديوان (شرح الجارم) ج ٢ ص ٤٣-٤٥ مختلفة في بنى الألفاظ عن رواية الوسيلة .

فيما شئون الدولة بعد أن « انتهت إليه رئاسة مصر وسيادتها . . ونفذت
كلته وعلت سلطوته على بقية الممالك . . وأدرك من العز والمظمة وفضا
الكلمة وحسن السياسة واستقرار الأمور ما لم يدركه غيره بمصر »^(١) . وتصب
الأم في أذن ابنها صفحات من هذا التاريخ ، وتحكى له ما شاهدته الدار
من أحداث ، وتحدثه عن سكنها قبله من آياته ، ولكل منهم فيها أثر ،
وفي كل ركن عليهم دليل ، وفي كل غرفة من ذكرياتهم قصة . حتى فناؤها ،
كم استقبل من رجال الدولة وكم ودع ، وبين الاستقبال والتوديع كانت تصنع
السياسة في مصر وتتعدد مصائر الأمور .

قصت عليه يوم تجمعت أمراء مصر ، وسادتها ، وكبراؤها ، وعلمائها في
فناء هذه الدار احتفاء بزواج جدته فاطمة قادن البارودية بحمد الأمير
على أغا البارودي ، وقد أقام لهما الأمير محمد أغا البارودي ولي أمرها حفلا
عظيما « حضره شيخ البلد ، والأمراء ، والأعيان ، والعلماء وأرسلو إليه
المدايا العظيمة ، وكذلك جميع التجار ، والنصارى ، والكتاب القبط ،
ومشايع البلدان . وبعد تمام أيام العرس ولياليه بالسماعات ، والآلات والملاعب ،
والنقوت ، عملوا للعروس زفة بهيئة لم يسبق نظيرها ، ومشى جميع أرباب
الحرف وأرباب الصنائع مع كل طائفة عربية ، وفيها هيئة صناعتهم ومن يشغل
فيها مثل القهوجى بآلته وكانونه ، والحلوانى ، والقطاطرى ، والحباك ، والفزاز
بنوله ، حتى مبيض النحاس والحيطان ، وللعاجينى ، وبياعى البز ، والنساء
للثانى ، وأرباب اللامى وغيرهم . كل طائفة في عربية ، وكان مجموعها نيفا
وسبعين حرفة ، وذلك خلاف للعاجين والبهلوانات والرقاصين والجنك ، ثم
الركب ، وبعده الأغوات والحريم ولللازمون والسعاة والجاوبشية ، وبعد ذلك

عربه العروس من صناعة الإفرنج بديمة الشكل ، وبعدها ممالك الخزنة . . .
وبعدهم النوبة التركية والتفريات . وكانت زفة غريبة الشكل والوضع لم يتفق
مثلها بعدها^(١) .

ومع الأيام حدثته أمه عما رآته رأى العين من تدافع أهل الحى كل حين
إلى فناء هذه الدار يحتمون بها من إيذاء « المساكير القنساوية » . وبعد أن
تكررت شكوى الناس ، أمرت جدته « فاطمة قادن » بمالكها وأغواتها أن
يتصدوا « سر عسكر القنساوية » ، فإذا أفرق موكبه بشارع باب الخلق اعترضوا
طريقه وأنابوه بأن سيدهم تريد الحديث إليه ، ويدخل نابليون دار الست
البارودية ، فتحدثه من وراء ستائر اللشريبة ، عن طريق ترجمانه ، عما يفعله بالأهالي
الآمنين جنوده حين يخرجون من الحانات سكارى تدور برؤوسهم الحجر ،
فيجمعون على الأسواق والناس ، ويلحقون الإيذاء والضرر بهم وبأموالهم ،
وترهب الجوع الفزعة التي هربت إلى دارها لاجئة مستجدة وقد رأت موكبه
قادما . ولا يبرح نابليون الدار حتى يكتب منشورا يعلق على بوابة شارع
« باب الخلق^(٢) » يمنع مرور الجنود الفرنسيين فيه إلا لعمل رسمى^(٣) .

ولا يمر وقت طويل حتى تكتشف (الاستخبارات) المخابرات الفرنسية
أن المقاومة الشعبية في جهة « باب الخلق » تتخذ من دار البارودية مركزا
لقيادتها ووكرا لاجتماعها ، آمنة من عيون الفرنسيين الذين جرم عليهم دخول
الشارع إلا لعمل رسمى . واحتشدت الاستخبارات كذلك إلى أن « على أنغا-

(١) الجبرى ج ٤ ص ١٩٤ .

(٢) التسمية القديمة لباب الخلق .

(٣) ظل هذا المنع في حوزة أسرة البارودى وقد علق نابليون صورة منه على باب دار البارودية ،

ثم سرق مع ما سرق من أوراق البارودى يد القيس عليه إثر هزيمة التل الكبير كما ذكر في مذكرات
الأسرة .

البارودى « رب الدار يقاتل فى جيش المالك بالصعيد ويصنع لهم البارود ، فأصدر نابليون أمره بالاستيلاء على الدار » واتخذت مقراً لديوان القردة^(١) « - الضرائب - ، واضطرت الأسرة إلى الانتقال إلى دار أخرى لما بجزيرة الروضة^(٢) .

وقصت أم البارودى عليه قصة مقتل جده « على أغا البارودى » ، وقد غدر به محمد على مع من غدر بهم من أمراء المالك فى مذبحه القلعة المشهورة بعد أن تمهد لهم بالسلام والأمان : ولم يكن جدك مع الأمراء الأربعمائة الذين استأصلهم الطاغية فى حمامات الدم بالقلعة ، فقد كان متغيباً فى الريف بصرف أمور ضيعته ، ثم مرض هناك فلم يستطع تلبية دعوة محمد على للاحتفال بوداع ابنه طوسون قبل سفره على رأس حملة تحارب فى الحجاز . ولم يصل إلى علم جدك على أغا فى ضيعته ما خبأه القدر لبني جنسه على يد جزار المالك ، وعاد إلى القاهرة ، وكان الجنود الألبان يحرسون أبوابها ومنافذها ، ويترصدون للمالك فى كل مكان للقضاء عليهم . وما إن أشرف جدك على باب النصر حتى تلقاه الجنود بالسيوف وتناولوه بالرماح ، وكان قوى البنية طويل القامة ضخيم الجسم ، فتجمل الطعنات القاتلة ، واستطاع الفرار من قناتليه ، وأطلق لجواده العنان فأسرع به والدم ينزف من جراحه حتى وصل إلى هذه الدار ، ووقف فى هذا الفناء ثم نادى على أمى فخرجنا إليه فزعين ورأينا يسقط من على الجواد قتيلاً لاحتراك فيه^(٣) .

وتفعل نفس الصبي بما حدثته أمه عن جده على ، يوم زواجه ، وفى حربته الفرنسيين ، وبوم مقتله ، وتظل عواطفه تموج بهذه القوة الوجدانية نحوه حتى يرتفع به خياله فيصهله بالتربا ، وحين استطاع التمييز فيما بعد ، قال فيه من قصيدة يفخر فيها بأهله :

(١) المخطوط التوفيقية ج ٢ ص ٥١ .

(٢) مذكرات الأسرة .

(٣) مذكرات الأسرة على لسان فاطمة هاتم البارودية .

وَنَمَّا جَدِّي عَلَىٰ يَطْلُبُ النِّعَمَ فَتَنَّا^(١) اللَّهَ
فَهَوَّلَىٰ إِرْثُ كَرِيمٍ سَوْفَ يَبْقَىٰ فِي السَّلَاسِلَةِ

ويقف « محمود ساسى » طويلا أمام اللوحات الرخامية التى زينت بها حجرات الطابق العلوى من الدار ، وقد نقشت عليها بالحقر اللطلى بالذهب قصائد نظمها خاله « ابراهيم »^(٢) ، فيقرأها ولا يمل قراءتها . ويطلب من أمه الزيد من أخبار خاله الشاعر ، فتحدثه عن النابغة الذى ذهب فى زرعان الشباب ، وعن حياته القصيرة التى قضى أكثرها وهو عاكف يقرأ دواوين الشعراء من العرب والأتراك ، وعن القصيد الذى كان ينساب على لسانه ، والندوات الأدبية التى كان يعقدها فى الدار مع الشعراء والأدباء . ولكن القدر لم يجعله حتى يشتد عوده ونشبت قدمه فى دولة الشعر فيخلد مع الشعراء ، بل تخطفه الموت فجأة ، ولم يترك من ذكراه إلا دواوين الشعراء التى كان يعيش معها وفى صحبتها ، وقصائد من نظمها قامت أمه النكلى بنقشها على اللوحات الرخامية المذهبة ، وزينت بها حجرات طابقه العلوى من الدار أثرا له وذكرى^(٣) .

(١) ذكر محمود الإمام أن المراد بلى هو أمير المؤمنين وابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، « فإن نسب البارودى ينهى إليه »؛ الديوان ج ٢ ص ٥٥٣ . وقد جانب الإمام الصواب فى ذلك ، فالبارودى لم يدع ذلك ولم يتبنه شجرة نسبه . والمعروف أن البارودى من الممالك المراكية ، وقد كان شديد الاعتزاز بنسبه ، ولو كانت له صلة بالرسول لأشار إليها ونادى بها على الدنيا . والدليل القاطع على أن البارودى لا يعتبر نفسه عربى الأصل ، تشبيه نفسه وهو يستعبد بالرسول فى تصيغه « كشف القصة » بطلان الفارسي يقول :

ياسيد السكون عقوا إن أمت قلى بحبكم صلة تفنى عن الرحم
كنى بسلطان لى طرأ إذا اشبت قسى لكم مثله فى زمرة المحشم

(٢) كانت اثنتى وثلاثين لوحة ضاعت كلها عقب محاولة الاستيلاء على الدار بعد نقى البارودى ، ولم يبق منها غير لوحين أهدتهما الأسرة إلى متحف الآثار العربية ثم اكتشف ضياعها بعد مدة ؛ مذكرات الأسرة الخاصة .

(٣) مذكرات الأسرة ومعلوماتها ؛ ومات ابراهيم وسنه ٢٥ عاماً .

ويشعر « محمود ساسى » بقوة خفية تشده إلى ذكرى خاله « إبراهيم البارودى » وبصلة قوية تربطه به ، ويمحس بأن بينهما شبا كبيرا ، وكأن قول القداى « تكاد الرأء أن تلد أخاها » قد تحقق فيه ، فهو نفسه يحب قراءة الشعر ولا يمل قراءته ، ويحفظ ولا يرهقه حفظه ، بل يجد لذلك فى نفسه طلاوة ، ويمحس للشعر فى فمه حلاوة ، وهو يحاول أن يقلد قصائد خاله إبراهيم فيقلح مرة ويحقق مرات . ويرف البارودى فيما بعد ، سر القوة الخفية والرباط التين الذى شده إلى خاله بعد أن اكتشف نفسه وشاعريته ، فاعترف له بفضل السبق وبالأصالة فى الشعر والشهرة فى القصيد ، وجعل الشعر نسباً متصلاً بينهما وميراثاً امتد إليه منه فقال من قصيدة يفخر فيها بنفسه وبأهله :

أنا فى الشعر عريقٌ لم أرته عن كَلالة^(١)
كان إبراهيمُ خالى فيه مشهورَ القالة

ومن الطبيعى أن يسأل الفتى عن مكان أبيه بين هؤلاء ، وقد كان له خير الآباء وأعظمهم ، يملأ عليه دنياه ويشغل حياته ووجدانه ، وينشر عليه الحماية والرعاية ، ويمحس وهو إلى جواره بالاطمئنان ، فإذا به يذهب ولا يعود . ويتركه وحيداً لأحداث الزمن ونوب الأيام . ونقص عليه أمه قصة أبيه « حسن حسنى » وقد نشأ يتيماً بعد أن قتل أبوه عبد الله الجركسى الألفى فى مذبحه القلعة ، قد اختير مع خمسمائة من أترابه ليدخلوا المدرسة الحربية التجريبية بقصر المينى أول إنشائها (١٨٢٥) ، وعندما تخرج تخصص فى مدرسة للدفنية بطره مع ثلثائة من زملائه ليكونوا « ضباطاً للطوبعية النظامية فى الجيش الحديث » . وأخبرته عن أبيه القائد وشجاعته التى كانت ترهبها الأقران وعن بأسه

الذى كان يتقيه الأبطال ، وعن المارك التى خاضها فى سوريا والأناضول .
وينفذ الحديث إلى شفاف القلب من الفتى الجركسى الناشئ ، ويخزن فى نفسه
البراث المتصل إليه من الفروسية وحب الحروب حتى يجد ، فيما بعد ، متنفسا
له فى شعره ، فيغنى على قيثاره الفخر بأبيه وأجداده فى مثل قوله :

إذا نأمت الأضغانُ عن وتراتها قَوْمِي قَوْمَ لَا يَنَامُ لَهَا دَحْلٌ^(١)
رجالٌ أولو بأسٍ شديدٍ وتَجْدَةٍ قَوْلُهُمْ قَوْلٌ وَقَمْلُهُمْ فَمْلٌ
إذا غَضِبُوا رَدُّوا إِلَى الْأَفْقِ شَمْسَةً وَسَالَ بِدُقَّاعِ الْقَنَا الْحَزَنُ وَالسَّهْلُ^(٢)
مَسَاعِيرُ حَرْبٍ لَا يَخَانُونَ ذِلَّةً أَلَا إِنَّ تَهَيَّابَ الْحُرُوبِ هُوَ الْقَلُّ
فَزَرَمَ ، تَجِدُ مَعْرُوفَهُمْ دَانِي الْجَسَنِ عَلَيْكَ ، وَبَابُ الْخَيْرِ لَيْسَ لَهُ قُلُّ

وتكشف الأم لابنها عن جانب آخر من جوانب العظمة فى أبيه يختلف
به عما عرفه الناس من طباع جنسه الجراكسة ، فقد كان لئين الجانب ، تقاب
عليه الأناة والصبر ، لا تطير به الأحداث أو يركب الحق والعداء رأسه ، مهذب
النفس ككرم السجاياء ، عطوفا على جنوده للصريين عادلا فى مهامهم ،
نفورا من قسوة زملائه الضباط الجراكسة عليهم . وكان يجالس أهل العلم
ويستقبلهم فى دراه بباب الخلق ، ويفضل محضرم على السى وراء أبواب السلطان^(٣) .
ويستمع الفتى « محمود سامى » إلى الحديث عن أبيه بإعجاب وشفق ، فقد وجد فيه
مثله الأعلى فارسا وإنسانا ، ويهتف فخرًا به حين يبلغ العشرين من عمره فيقول :

أبِى ، وَمَنْ كَأَبِى فِي الْحَيِّ نَمْلُهُ ؟ أَزَقْنِ وَأَكْرَمُ فِي وَغْدِ وَإِيعَادِ
مَهْذَبُ النَّفْسِ غَرَاةَ شَمَائِلِهِ بَيْدُ شَاوِ الْعَمَلِ طَلَاعُ أَنْجَادِ
لَا يَسْتَبْدُ بِرَأْيِ قَبْلِ تَبْصَرَةٍ وَلَا يَهْمُ بِأَمْرِ قَبْلِ إِعْدَادِ

(١) الدحل : الثأر . (٢) الدقاع : دفعة للوج والليل .

(٣) مذكرات الأسرة .

وترقب الأم بعين يقظة ساهرة تأثير تعيبتها النفسية في فتاها ومحور حياتها ، وقد خشيت أن يسلك طريق خاله إبراهيم ، فيشمله حبه لدواوين الشعر عن المستقبل الذى ينتظره ، أو تلهيه التصائد المنظومة عن الجندية سبيله وأقرانه من أبناء الجراكسة « لينهضوا بالناسب الرئيسية في الدولة » ؛ غير أنها وجدت في وحيدها وهى تحذره عن أبيه ، الفارس الصغير الذى يتمجل الزمن ويتلف على اليوم الذى يبلغ فيه السن ، ليلحق بشأو البطل الذى ذهب ، ويصبح امتداداً لبطلته ، ويسير على نفس طريقه ، فينتظم في الجيش ضابطاً وقائداً مثله ، يخوض للمعارك ويمرر الانتصارات ، وحينئذ يحق له أن يقول :

تَبِعْتُ نَهْجَ أَبِي فَضلاً وَحُمِيَّةً حَتَّى بَرَعْتُ وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْبَادِي

وحين تحذره عن خاله تجدد فيه القارىء النهم الذى يود لو استظهر شعر العرب والترك جميعاً ، ويتمنى لو أنه شدا كخاله فعلم الحمام الأغافى . وبدأت الأم نفساً ، وأطمأنت بالا ، وعرفت أنها أدت الرسالة كاملة ، وخامرها إحساس غريب حبيب كان لها فيه بعض العوض والمزاء ، وانتابها شعور غامض بالرضى والسعادة أزاح عن قلبها أكثر الحزن الذى يعصرها ، والألم الذى تعانیه ، منذ فقدت أخاها الوحيد ومن بعده زوجها الحبيب . وكأن الفاتنين ماداً إليها وبثناً من جديد ، فقد وجدتهما معاً في ولدها محمود ، في جانب منه ترى صورة أبيه الفارس ، وفي الجانب الآخر ترى صورة خاله الفنان الشاعر .

الفصل الثاني

البارودي ومرحلة الشباب

ولما تداخى القوم ، واشتبك القنا
وذُيِّنَ للناس الفرارُ من الردى
صبرتُ لما حق تجلّت سماؤها
ودارتُ كما تهوى على قطعها الحربُ
وماجتُ صدور الخيل والتمب الضربُ
وإني صبورٌ إن ألمَّ بى الخطبُ

* * *

يلومون أشواقى كأنى ابتدعتها
وما لى ذنبٌ عندهم غيرَ أننى
وهل يكتمُ للرءى الهوى وهو شاعرٌ؟
ولو علّوا لآموا الظباء الجوارحا
شدوتُ فعلمتُ الحمام الأغنيا
ويثنى على أعقابهم القوافيا

* * *

صبرتُ إلى المدامة والقوانى
وقلتُ لعنقى بعد امتناع
أعاذلُ خلنى وشئون قلبى
وحكمتُ الفوايه فى عيافى
إليك فقد عثانى ماعثانى
وخذ ماشقة فى أى شانى
وأغرى بالحبيبة من نهانى

البارودي

التكوين الأدبي والثقافي

مولد الشاعر :

ويخرج البارودي من المدرسة الحربية للفروزة إلى الحياة العامة ، فيجد الآمال
المریضة قد أصبحت فراغا ، وميادين القتال قد أفرقت من الأبطال ، وألوية
النصر وبفوده قد طويت ، ويرى زملاءه قد استكانوا إلى الواقع ، وسكنوا
إلى دعة العیش ورخاء الحياة ، واطمأنوا إلى الخمول ، وأقبلوا على اللهو ومتع
الشباب . ويجد البارودي نفسه ، وفيها أعراق الإمارة والجد ، تنأى عن هذا
السبيل ، وتمور بما فيها من آلام الأمل المحطم ، وتنور لما أصابها من عزتها الجريحة
وقد أرغمت على حياة التعمطل والفراغ ، وهي ترى طريقها غير هذا الطريق .
فغيره بالذات قد يلهو ويمجّب ، وسواء يتحنن الأغاريد قد يجد متعته ويطرب ،
أما هو فتمتعه وطربه في شيء آخر يصوره بمد ذلك في قوله :

سِوَايَ يَتَحَنَّنُ الْأَغَارِيدُ يَطْرُبُ	وغيري بالذات يلهو ويلعبُ
وَمَا أَنَا مِنْ تَأْسَرُ الْحُرِّ لَبِّهِ	وَمَعْلُكُ تَمْنِيعِ الْبِرَاعِ الثَّقْبُ
وَلَكِنْ أَخُوهُمْ ، إِذَا مَا رَجَعَتْ	بِهِ سَوْرَةٌ نَحْوُ الْأَمْلَاءِ رَاحَ يَدَابُ
نَفَى الدُّوْمَ عَنْ عَيْنِهِ نَفْسَ آيَةٍ	لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ الْأَسْنَةِ مَطْلَبُ
وَمَنْ تَكُنِ الْإِثْلِيَاءَ هَمَّ نَفْسِهِ	فَكُلُّ الَّذِي يَلْقَاهُ فِيهَا مَحَبُّ
إِذَا أَنَا لَمْ أَعْطِ لِلْكَارَمِ حَقَّهَا	فَلَا عَزَّيْ خَالٍ وَلَا ضَمْنِي أَبُ

ولكن الأسباب وإن قصرت عن تحقيق أمانى البارودي المراض ، فلها

قد مدت له في شيء آخر تستمتع به روحه وترضى به نفسه ، وجده في مكتبة خاله إبراهيم وهو يقرأ كتب التاريخ ودواوين الشعراء . وكانت المطابع قد أخذت تعني بنشر التراث العربي من موسوعات ودواوين الفحول من الشعراء وكتب التاريخ والأدب ، واقضى البارودي منها نفائس الثقافة العربية التي ما تزال مخطوطة فكانت الفرصة للثقافة الذاتية والاطلاع الخاص .

شف البارودي بقراءة التاريخ والشعر ، فقد وجد في كتب التاريخ سيرة آبائه وأجداده ، وقرأ بقية القصة التي لم تنمها له أمه وتركها ليستكملها بنفسه . وتظهر له في الأفق القريب صور آبائه الأقربين وقد انتهت إليهم رئاسة مصر ومشيختها ، ثم يتراءى له في الأفق البعيد صور السابقين من أجداده ، وقد حازوا الجدل فرساناً تحت ألوية النصر الحراء ، يرمون بالصليبيين إلى البحر ، ويحسون بشجاعتهم الشرق العربي من زحف التتار والنفول للدمر ، ويهزمونهم في « عين جالوت » ، ويرفون أعلام مصر على ربوع الشام وجزر البحر المتوسط ؛ فيقول فيهم بعد أن تفجرت ينابيع اللوعة عنده :

وفتية كأسود الغاب ليس لهم	إلا الرماح إذا احمر الوغى أجم ^(١)
إن حاربوا معشراً في جحفل غلبوا	أو خاصموا فئة في تحفل خصموا ^(٢)
مرقون حسان في مجالسهم	وفي الحروب إذا لاقيتهم بهم ^(٣)
من كل أزهراً كالذي يثار غرته	يحملو الكريهة منه كوكب صرم ^(٤)

(١) الأجم : مأوى الأسود ؛ والأجم بالضم : الحصن .

(٢) خصمه : غلبه في المصومة .

(٣) البهم : جم بهمة ، الشجاع الذي لا يهتدى من أين يؤتى أو الصخرة .

(٤) كوكب صرم : مشتعل متوهج .

ماتوا كراماً وأبقوا للعلا أثراً نالت به شرفَ الحرية الأم^(١)

وبقية الشاب غفراً وتفتى أعطائه زهواً بأجداده ، ويحن إليهم ويود لو أنه نعم بمشاركتهم حياتهم تلك التي لا يرى غيرها حياة . ويطير إليهم على جناح النقي ، والمنى حلم مسعد ما اتصل بمستقبل يرجو الإنسان فيه مجداً وعزا ، لكنه غصة وألم حين تقصر عنه السبل ، ويكون الطريق إليه مظلاماً عبوساً .

ووجد الفارس للعطل العوض والعزاء حين اهتدى بفطرة الشاعر فيه إلى شر الفرسان يقرؤ ويعيش معهم فيما يقرأ ، فيطوون الزمن ويحملونه بخيالهم وتصويرهم ، على بعد ما بينه وبينهم ، إلى معاركهم ، فيسمع قفقة السلاح ووقع الأسل ، ويشترك بوجدانه معهم في مواقعهم ، ويحتفل معهم بالنصر وينفوق ألم المزيمة . وتهز حماسياتهم روحه وتلهب عواطفه وتملك عليه قلبه ، وتسير بخياله على دروب المجد والبطولة التي سار عليها آباؤه بما صورت من معارك وبما حققت من بطولات .

استهوى البارودي هذا اللون من الشعر ، ووجد فيه نفسه الخائرة ، وألقى معانيه تفصل من ذاته ، وتصدر من بين جنباته ، وتمبر عن الحياة التي يهواها ويريد أن يحياها ، فتوة تمش مع الحب والجمال والطرود والشراب ، وحكمة تنسرب إلى حنايا قلبه وعقله . واندفع الشاب ينهل من هذا اللبن محمولا إلى قلبه ووجدانه هذا السيل الفزير من العواطف والصور ، فتفتزن مخيلته للصورة وذكريته اللاقطة كل ما استهواه من أشعار البطولة والحاسة ، ويتأثر مزاجه وقلبه وخياله بذلك كله ويفعل له ، ويحفظ من شعرهم ما يوافق ذوقه وميوله

(١) هذه الأبيات لم يبق نغمرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من تصيدة تحت عنوان « وقال ينتخر » وعدد أبياتها ١٨ بيتاً؛ المخطوطة (س) ٢٥٨-٢٥٩؛ والمخطوطة (ج) ٣٦٤-٣٦٥.

فيلجج لسانه بما يقرأ وبما يحفظ ، ويحاكي بعد ما يختزن ، ويفنى بعد ما يتأثر ،
ويوفق تارة فيزهو بنفسه إعجاباً ، وتهجره ربة الشعر أخرى فيتمثر لسانه ومن
كل ذلك يتعلم . ولكن زهو البارودي بنفسه وكبرياءه يمنعانه من أن يصعد
عن القشل أو عن التجربة في أول مراحلها ، فيستبقها لنفسه حتى تنضج القريحة وترشد ،
ويسلس له قياد الشعر وتنقاد له القوافي ، وحتى يجد نفسه في مستوى هؤلاء الذين
يقرأ لهم .

وبقبل البارودي على القراءة والحفظ ، فتزداد ملكة الشعر منه قرباً ، وتظل
به حتى تملك عليه نفسه ، وتملا عليه وجدانه ، وتحنف به ربة الشعر وتأخذ
عليه كل طريق ، فيستجيب لها ، وينشد ما توحى به إليه ، ويتقن بما تلهمه ،
ويفيض النبع من وجدانه ويسيل النور على لسانه ، ويتجاوب الشاعر الناشئ ،
ويدرك من غير وعى أن هذا بابُه وفنه ، وأن في طبعه رصيداً ضغماً من هذا
النن ، وموهبة شعرية أصيلة ، وملكة شاعرة دفاقة . وتعرف ربة الشعر على
قيادتها لحن البعث والخلود ، وتعلن ميلاد شاعر عظيم .

النهج والطريقة :

ومن حسن حظ الأدب والشعر أن البارودي قد استهواه شعر الأقدمين ،
واتخذ منه المثل الذي يسير على نهجه ، ولم يلتفت ، في فترة تكويته ، إلى
شعر المحدثين ، ذلك الذي يمثل فترة الانحطاط والتدهور في تاريخ الأدب العربي
كله ، سواء في الأغراض أو للماني والأساليب . أما الأغراض فقد كانت ضيقة
تافهة لا تخرج في جملتها عن اللح أو القول في الناسيات ، وللماني معادة مطروقة
أو مبتذلة ساقطة ، وأما الأساليب فكانت ثلاثة الأثافي متكلفة مثقلة بأغلال
من البديع ، فيها جناس وطباق وازدواج ، وفيها إشارات ورمز وتورية ومطابقة

وحساب الجمل ، وما إلى ذلك من مجسّات النظم التي كانت أشبه بالزينة الفاضحة والملابس الزركشة لمروس قل حظها من الجلال .

كانت دواوين المحدثين من الشعراء للتداولة في ذلك العصر من أمثال إسماعيل الخشاب ، والشيخ المطار ، والشيخ محمد شهاب الدين ، والسيد علي الدرويش ، نظماً اقتضته معرفة العروض ودراسته ، وصوراً لفظية تدرت بمجسّات البديع ، وخلت من العاطفة والشعور . ومن أين لهم بالشعور وقد قتله تصف العمانيين واستبداد الأتراك ، وأحاطوا القول بظلمة الجهل ، وجذبوا المواطنين برهبة الخوف فأنهى كل شيء إلى الخود والجمود حتى تبلّدت الحياة ! ولم تمد للشعراء قدرة على خلق المعاني وابتكار الصور فجنحوا إلى التقليد ، واجتروا معاني السابقين بالتشطير والتخيس والتضمين ، وهو تقليد يشهد بالمعجز والقصور عن استيعاب المحسوسات والمعاني أو قدرة التعبير عنها في قالب جميل .

لكن البارودي الناشئ كان من طراز غير هؤلاء جميعاً . كان غيرهم ينظرته إلى الشعر نفسه ، فهو يقول سمو بأغراضه عن أن تصاغ إلا في أجمل لفظ وأروع عبارة ، كان غيرهم بتفكيره ويمثله الأعلى في الشعر وفي الحياة . لم يقله إلتماساً لمطعم حاكم أو عطاء أمير ، وإنما تنفى به كما تنفى من سبقه من الأمراء الشعراء ، الذين خلد الدهر شعرهم ، وأثبت التاريخ في أعبد صفحاته أسماءهم ، وقد كان ابن للعز ، والشريف الرضي ، وأبو فراس ، وامرؤ القيس من قبله شعراء . قرأ شعرهم جميعاً فطرب واهتز ، وتمثل ثم احتذى ، وغنى كما غنوا ليخلق من خيال الشعر ميادين لمجد بموضه ما قات سيفه في ميادين القتال ، بمد أن ردت الأقدار سيوف مصر إلى أعقادها . لم يتعلم البارودي العروض والقوافي ليقول الشعر شأن معاصريه ، وإنما تنفى لأن موهبته

الشعرية فرضت عليه التعبير عن المواقف والأحاسيس التي تموج في نفسه ،
ولأن الشعر في سلفيته ولا بد لابن الأيكة أن يتزعم ، فجاء بأنظام في
الشعر لم يألئهما أهل زمانه ، وسما به إلى مكان الفحول من الشعراء الأولين
في الجاهلية والمصور الأولى من الإسلام . وكان الذي ألقى بشتته العناية الإلهية
لينفخ في الشعر العربي روحاً تنشره من الضعف الذي انطوى عليه القرون
الطوال ، وتبعته من جديد .

وفيض آخر يفخره من قراءاته فتتسرب ينابيع « العروبة » إلى خلایا
روحه ووجدانه ، وتتمتع المصرية في حنايا ضلوعه وجنانه ، ويتأمل فلا يجد
له بلداً سوى مصر ، ويفكر فلا يرى موطناً يستأمله غيرها ، استقبلت أجداده
حين جاءوها مهاجرين ورفقهم إلى مكان السيادة ، فمنحوها حياتهم وقدموها
قداء في الدفاع عنها ، ولف جدتهم ثراها . ومن بعدهم جاء هو فرأى نور
الحياة بين أهلها ، وعرف الدنيا في جنباتها ، وهو اليوم يرقل في الثراء والغنى
الذي تقدمه إليه ، ويمجد نفسه لصيقها يرتبط بأرضها وأهلها ارتباط مصر ،
ويختلط حبها بلحمه ودمه ، وعواطفه وشعوره ، ويلهج بهذا الحب ما عاش في
شعره ويهتف به طوال حياته من مثل قوله :

سكن مصر عني إن جهلت مكانتي	تخبرك عن شرف وعز أقدم
بلد ^(١) نشأت مع الثبات بأرضها	ولمعت ثمر غديرها للتبسم
فسيما روحى ، ومعدن تربها	جسى ، وكوثر نيلها محيا دمي
فإذا نعلت فبالثناء على الذى	أولته من فضل على وأنعم
أهل بها وأحبى ، وكفى بهم	نغراً ملكت به عيان الأجم
وأحق دار بالكرامة منزل	لقلب فيه علاقة لم تُعزَم

مَيَّ جَنَّةُ الْحُسْنِ الَّتِي زَهَرَتْهَا حُورُ الْمَهَا، وَهَزَّارُ أَيْكِيَّتْهَا فَمَيَّ^(١)

آفاق ثقافية في الأستانة ١٨٥٧ — ١٨٦٣ :

رأى البارودي حكم « سميد » وقد أسلم مصر الحبيبة إلى نكسة أخرى هي نكسة الجمود والتخلف ، ولم يمد في جوها الآمن الظلم شعاع من أمل يصل به إلى ما تطمح إليه نفسه من خدمة وطنه ، فقد أثنى الجيش ، وتغلغل في طلائع الاستعمار من الأجانب في اقتصاديات البلاد ، وتملكوا الأراضي ، وتمسكوا في مستقبل الفلاح والأمة بأسرها ، واستولوا على مقاليد الأمور في البلاد بعد أن كبلها الوالي بالديون ، ولم يمد لابن الوطن منفذ لمستقبل كريم . ومن سوء الحظ أن النكسة وقعت في مرحلة هامة من مراحل تطور الاستعمار ، فإن الاستعمار كان قد تطور في ذلك الوقت من مجرد احتلال مستعمرات واستنزاف مواردها إلى مرحلة الاحتكارات المالية لاستثمار رؤوس الأموال المنهوبة من المستعمرات . وكانت النكسة في مصر باباً مفتوحاً لقوى السيطرة المالية . وبدأت الاحتكارات المالية الدولية دورها الخطير في مصر ، وكان من أهم الاتجاهات التي ركزت فيه نشاطها حفر قناة السويس ، ومن ثم عاشت مصر في هذه الفترة تجربة مروعة استنزفت فيها كل إمكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية ، ولمصلحة عدد من المغامرين الأجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أفراد أسرة محمد علي . وضاق البارودي بكل ذلك وهو صاحب النفس المتأججة النائرة ، والهمة التي لا تمشي في الركود ولا تطيق التخلف ، ومن ثم فكر في أمر نفسه وهداه تفكيره إلى أن يرحل عن مصر

(١) المزار : طائر غرد ؟ هذه الأبيات لم يبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان ومن قصيدة عدد أبياتها ٥٤ بيتاً : المخطوطة (س) ص ٢٥١ — ٢٥٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٧ — ٢٥٩ .

إلى حين ، حتى تنكشف الغمة التي يعيش فيها الوطن ، وينزل كابوس
التخلف الذي يحتم عليه . وشد الرحال إلى الآستانة عام ١٨٥٧^(١) . وأعاقبه
إجاداته للتركية ومعرفته للفارسية على الاتحاق « بقلم كتابة السر بنظارة
الخارجية التركية^(٢) » .

كان بين عمل البارودي بالخارجية في الباب العالي وبين اللغات علاقة وثيقة ،
منحته الفرصة ليدعم صلته باللغة التركية ، وهي يومئذ في إبان نهضتها ، فبحر
فيها^(٣) ، وكان من الطبيعي وهو الشاعر المبتدىء والأديب الناشئ أن تستهويه
آدابها ، وتجذب به أندية أدبائها ، فتقوم وشائج العلاقات بينه وبين شعرائها ،
يسمع منهم ويحزن ، ثم تغلب عليه طبيعة الشاعر فيحاكي ، وينطلق لسانه
بشعرهم ونثرهم^(٤) ، ويجد في معرفة اللغات متعة لنفسه ، ودفعة في عمله ،
ويرى آفاق ثقافتها ثروة لفسكره وغنى لخيلاه ، ويحس في إجاداتها انطلاقا من
الإقليمية العربية إلى عالم أوسع يزيد من خبراته وثقافته ، فيمد آفاقه إلى اللغة
الفارسية ، وكان قد تعلم مبادئها في المدرسة التجيميزية ، فيأخذ في إتقانها
والاطلاع على آدابها وقراءة شعرها ، « وينظم بها من القصائد ما يستدل شعراء
الفرس بأمثاله^(٥) » .

وأغلب الظن أن ما صنعه البارودي من شعر ونثر باللغتين التركية والفارسية
لم يكن صادرا عن طبيعته الشاعرة ، بل كان محاكاة دعاء إليها التقليد
وإثبات القدرة في النظم بين الشعراء ، أو لعله تجارب لم ترق إلى المستوى

(١) مذكرات الأسرة.

(٢) مقدمة مرآتي الشعراء ص ٨ .

(٣) مقدمة الديوان شرح الإمام ؟ وجورجي زيدان : تاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤) مقدمة مرآتي الشعراء ص ٨ . (٥) المصدر السابق .

الذى يشده لنفسه ، فأغفلها من حسابه مع ما أغفل من تجارب الشعر العربي أول عهد الصبا ولم يسجلها ، ومن ثم سقطت من يد الزمن .

على أن نفس البارودى النزاعة إلى اكتشاف الحياة الجديدة في تركيا ، وإلى معرفة دولاب العمل في وظيفته « بقلم كتابة السر » وما فيه من أسرار تتعلق بسياسة الدولة ، وإلى التزود من الآداب التركية والفارسية — كانت تنزع به إلى كل ذلك بقدر ، لكنها كانت تدفع به دناً إلى مكنتات الآستانة وقد حوت كنوز الثقافة العربية التى أعتصمها الأتراك من مصر والبلاد العربية في إبان الفتح المماني ثم نقلوها من خزائن المدارس والمساجد ، ونقلوا معها كثيراً من العلماء والأدباء ، والمهندسين ، والوراقين ، وأرباب الحرف ليجعلوا من عاصمتهم حاضرة الإسلام الثقافية والسياسية معاً^(١) . وعاد البارودى إلى مصاحبة الفحول من الشعراء العرب ، يقرأ دواوينهم الجاهلية والأموية والعباسية ، ويستظهر ما يطيب له من روائعها ، ويحاكى ما يوافق ذوقه من قصائدها .

والملاحظة الجديدة بالاهتمام أن البارودى يقيم على ضفاف البسفور نحو سبع سنوات (١٨٥٧ — ١٨٦٣)^(٢) ولا تترك هذه الإقامة بصماتها واضحة على فنه ، أو تخط في شعره مدينة آراء نفسه . بل لا نجد في ديوانه انطباعة واحدة خلفتها في مواطنه وشعوره الآستانة بماهجها ومقاتنها ، وحياة السلاطين الأتراك وما فيها من أسرار ، أو سحر الشرق في العاصمة التابعة على ضفاف البسفور ، الشاخنة بجمال قصورها وروعة مآذنها ، لتمثل حضارة فريدة وسط حضارات أوروبا ، أو المجتمع التركي بتقاليده وعاداته ، أو أسلوب العمل في قلم « كتابة السر » ذلك الذى توجهه الخديعة والدهاء والمؤامرات من قصر « يلدز » ،

(١) عمر السوقي . في الأدب الحديث (١٩٤٨) ج ١ ص ١١٠ .

(٢) مذكرات الأسرة ؟ ومقدمة مرآى الشعراء ص ٨ .

لتخضع به ولاياتها بمد أن ضعفت وأعوزتها القوة لتسيطر عليها . وعلى الطرف الآخر البعيد أمه وأخته وأهل وصحبه ووطنه الحبيب لا نجد لهم في هذه السفرة ذكراً بين أعماره .

وكان البارودي لم يمان الاغتراب والنوى عن الأهل والوطن ، وذلك غير مألوف من طبعه أو شاعريته الحسية للصورة ، فهو لم ينفأ عن وطنه بمد هذه السفرة إلا هتف وتأوه في شعره ، وشكا وتوجع ، وحن واستمبر لفراق الأهل والصحب والوطن ، وسالت عبراته شعراً ينفث به عن قلبه ألم البعد وجوى الفرة لم يشغل عنهم بحرب ، ولم يوقف عبراته وأنيبه بأس من العودة إليهم . والبارودي للصور البارع الذي رسم لنا بشعره لوحات من كل مكان حل به من كريد ، وروسيا ، وكولومبو ، وكاندي بمرنديب ، وإنجلترا ، ومواطن الصبا في مصر ، لم تسجل عدسة إلهامه صورة من « عروس الشرق » في أوروبا تلك التي يضرب لها الناس أكباد الإبل ، ويقطعون القارات ويركبون البحار ليستمتعوا بسحرها المزدوج ، سحر المدينة وسحر الحياة فيها .

والديوان لا يهدينا على سبيل القطع إلى شيء قاله الشاعر وهو بالآستانة ، إلا قصيدة واحدة عنوانها بقوله « وقال يمدح إسماعيل خديو مصر » دون أن يعين المناسبة أو يحدد المكان . ومن سياق القصيدة وحده ، نستدل على أنه نظمها ليستقبل بها الخديو إسماعيل ، وقد جاء إلى الآستانة^(١) عقب توليته عرش مصر ، ليقيم للسلطان عبد العزيز فروض الولاء والطاعة ، وليمكن لنفسه لدى الباب العالي ، وببذل الرشاوى لرجالاته ثمن السكوت على دكتاتوريته واستنزافه أموال مصر ومصادر خيراتها ، ليعمثرها على ترفه وملذاته ومساخره . وتبدأ القصيدة بقوله :

لِيزَّةِ هَذِي الْأَهْيَاتِ النَّوَامِ
تَذِلُّ غَزِزَاتُ الْفُوسِ الْكَرَامِ
فَمَا كَانَ لَوَاهُنَّ تَهْتَاغُنِي الصَّبَا
أَصِيلًا ، وَبُشْجِينِي هَدِيرُ الْحَمَامِ
وَلَا شَاقِفِي بَرَقُ تَأَلَّقِ مَوْهِنَا
كَزَنَدٍ تُوَالِي قَدَحَهُ كَفُّ ضَارِمٍ ^(١)
وَبَيْضَاءُ رِيًّا الرَّدْفِ مَهْضُومَةِ الْحَشَا
يُقَلُّ ضُحَاهَا جُنْعَ أَسْوَدَ فَاحِمِ
مِنَ الْعَيْنِ يَحْمِي خَذَرَهَا كُلُّ ضَيْفَمٍ
بَعِيدٍ مَشَقُّ الْجَفْنِ عِبَلُ الْمَعَاصِمِ ^(٢)
فَلَوْلَا هَوَاهَا مَا تَفَنَّتْ حَامَةٌ
بِفُضْنٍ ، وَلَا انْهَلَتْ شَثُونُ النَّمَامِ

ثم يمضي فيشبب على النسق التقليدي في أكثر من ثلاثين بيتاً إلى أن يقول :

وَمَا هَاجَنِي إِلَّا عُصْفِيرُ رَوْضَةٍ
عَلَى مَلْعَبٍ مِنْ دَوْحَةِ الضَّالِّ نَاعِمٍ ^(٣)
يَصْبِيحُ فَمَا أَدْرَى لِفُرْقَةٍ صَاحِبِ
كَرَمِ السَّجَايَا ، أَمْ يُفَنِّي لِقَادِمِ
كَأَنَّ الْمُصْفِيرَ اسْتَطِيرَ فُؤَادُهُ
سُرُوراً بِرَبِّ الْمَكْرَمَاتِ الْجَسَامِ

ويمضي في مدح إسماعيل وتهنئته بالخلدية حتى يقول :

فَلَوْ مَصْرُ تُدْرِي أُرْسَلَتْ لَكَ نِيلَهَا
لِيلِقَاكَ فِي جَنَحٍ مِنَ اللَّيْلِ قَانِمِ
وَجَاءَتْ لَكَ الْأَهْرَامُ نَسْعَى نَشْوَقًا
إِلَى دَارِ قُسْطَنْطِينٍ سَعَى النَّسَائِمِ ^(٤)

وهذان البيتان هما الفريضة الوحيدة التي تذلل على أن القصيدة قد قيلت في الأستانة ، وليس في بيئة النص ولا جوه العام دلالة أخرى ثم عن مكان القصيدة وهو الأستانة .

(١) موهناً : في منتصف الليل .

(٢) العين : الحور العين أو بقرة الوحش ؛ عبل المعاصم : غليظها .

(٣) الضال : الطيب من شجر السر (النبق) .

(٤) هذه الأبيات لم يسبق نفعها وهي من الجزء المخطوط من الديوان ، والقصيدة تحت عنوان « وقال

مدح إسماعيل خديو مصر » وهي ٧٥ بيتاً ؛ المخطوطة (س) من ٢٢٦-٢٣٠ ؛ والمخطوطة (ج) ٢٣١-٢٣٥ .

ونتهدى على شليل الظن ، من ترجمة البارودى لحياته التى أعدها معه الشيخ محمد عبده^(١) ، إلى أنه قال قصيدة أخرى بالآستانة قبل قصيدته فى مدح إسماعيل ، وهى القصيدة التى رثى بها أباه^(٢) . فقد ذكر فى الترجمة أنه « رثاه بها لما ناهز العشرين » وقد كان بالآستانة فيما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين من عمره .

ومع أن القصيدتين لا تمتازان بصلة فنية أو ييشية أو تصويرية إلى الآستانة إلا أنهما ، وهما من أول ما سجل من إنشاده ، تدلان على نضج الشاعر واستواء شاعريته ، وعلى أنه تخطى مرحلة المحاولة والتجربة وأصبح على جادة الطريق مع كبار الشعراء . ومن ثم يمكن أن يقال إنهما ليستا أول شعر قاله ، وإنما سبقهما غيرهما من شعر التجربة الذى لم يسجله فى ديوانه .

ويمكن تحليل سكوته فى الآستانة بواحد من أمرين :

أولهما : أنه غنى بالضرورة ، وما كان يستطيع السكوت ولو أراد ، ولكنه غنى لنفسه ، ولم يصدق بشعره على الملأ أو يظهره للناس ، لأنه فى نظره لم يكن قد جاوز مرحلة التجربة ، أو وصل إلى ما ينشده من المستوى الذى يريد أن يطاول به أولئك الذين يتمثل بهم من الشعراء ، ويساند هذا رأى قول البارودى فى مقدمة ديوانه : « إن المرء وإن كثر إحسانه ، لا يسلم من الزلل لسانه ، وقل من توغل فى حرجات القريض^(٣) ، فنجا قبل أن ينص بالجريض^(٤) » ، ولقد ذكرت مرة قول أبى النبال بن بقليلة الأكبر^(٥) .

(١) المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٢/٢٣ - ١٩٠٤ . (٢) الديوان شرح الجارم ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) الحرجة : المكان الضيق الملتصق بالشجر ، والقريض : الشعر .

(٤) الجريض : الرقيق ، والمراد قبل أن يصاب بالي والتقصير .

(٥) عاش فى زمن عمر بن الخطاب ، واسمه بقليلة الأكبر أبو النبال .

وإنما الشعر لبُّ الرءِ يعرضه . على المجالس إن كَيْسًا وإن حَقِيًّا
، وإنَّ أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ بيت يقال إذا أشدته صدقًا

فعمزت على الإقصار قبل الإحصار^(١) ، تفاديا من خطأ ربما عرض ، أو ناقدر بما
اعترض ، ، ويقويه أيضًا اعتراف الشاعر نفسه في « قصيدة إسماعيل » بما يدل على
الترجس والتردد وعدم الثقة بالنفس حين يقول :

وَمَا الشَّعْرُ مِنْ دَأْبٍ ، وَمَا أَنَا شَاعِرٌ وَلَا عَادَتِي نَمْتُ الصَّوْىِ وَالْمَالِمْ^(٢)
وهو الاعتراف الأول والأخير في حياة البارودى الشاعر .

وثانى الأمرين : أنه سكت عن الإنشاد مضطراً أثناء المرحج وللمبايرة ،
وقد كان الأثرak والمجراكة يعيرون من يكتب بالمرية أو يتكلمها منهم ،
فما بالكَ بإنشاد الشعر والتغنى به ! وحين تحررفيا بمد من هذا المرحج كانت
الجملة المأثورة التى بشير بها هؤلاء إليه فى معرض التنفير قولهم باللغة التركية :
« م كاتب م ابن بلد »^(٣) . وقد رد عليهم بقوله :

تَكَلَّمْتُ كَالْمَاضِينَ قَبْلِي بِمَا حَجَرْتُ بِهِ عَادَةُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَكَلَّمَ
فَلَا يِعْتَمِدُنِي بِالْإِسَاءَةِ غَافِلٌ فَلَا يَدَّ لِابْنِ الْأَيْكِ أَنْ يَتَرَمَّا

وقد غنى بالشعر ملوك وأمراء وفرسان من قبله .

واختارت نظارة الخارجية التركية محمود سائى البارودى ليكون ضمن بضعة
الشرف التى ترافق إسماعيل عزيز مصر أثناء مقامه بدار الخلافة^(٤) ، وعرف

(١) فعزمت على الامتناع عن القول قبل أن أساب بالجز والى .

(٢) الصوى : جم صوة المجر يكون دليلا فى الطريق ؟ هذا البيت لم يسبق نمرة .

(٣) عمر الدسوقى : محمود سائى البارودى ، سلسلة نوايخ الفكر العربى (القاهرة ١٩٥٨) ص ٢٣ .

(٤) مذكرات الأسرة الخاصة .

البارودى أنها الفرصة التى لا تسنح إلا نادراً ، ولا تسوقها الأقدار كثيراً ، فاهتملها ووضع خبرته ومعلوماته تحت تصرف الخديو الجديد ، وقام بما وكل إليه على وجه يرضى خديو بلاده . وتوسم إسماعيل فى البارودى سداد الرأى وحسن التصرف ، ولح فيه النجاة والذكاء ، وأعجب ببراعته فى الخط والإنشاء التركى^(١) فقربه إليه ، ومنحه من المعاف ما جعل البارودى يلجج بالثناء عليه ، فقدم نفسه إليه شاعراً مصرباً من رعاياه ، وأهدى إليه قصيدة جعلته خير للوك وهو فى دار الخلافة . والتقليد « الميمونى » يقضى بأن الشعراء فى دار السعادة لا يعرفون إلا ملكاً واحداً وعمدوا فرداً هو الخليفة ، ولميت القصيدة على أوتار النور فى إسماعيل فازداد بصاحبها إعجاباً ، ووجد فيه كسباً لديوانه ، فألحقه بمشايته لينتفع بخبرته وثقافته التركية ، وعاد به إلى القاهرة فى فبراير ١٨٦٣ .^(٢)

بين الحاشية وطريق الأمل :

عاد البارودى إلى الأهل والوطن شخصاً آخر غيره منذ سبعة أعوام ، عاد وفى أعطافه آمال كبار بعد أن هدته للقادير إلى أقصر الطرق لتحقيقها ، عاد وقد بلغ الرابعة والعشرين حيث ريمان الفتوة واندفاع القرية بقرار القوة ، وقد أكسبته التجارب ، والعمل ، والإطلاع ، والتعامل مع الناس الثقافة من بابها الأوسع ، عاد وقد ذاعت قصيدته فى استقبال إسماعيل بالآستانة فقدت السنة الشعراء من الدهشة ، ذلك لأنهم رأوا فيها شيئاً غير ما ألقوه فى عصرهم ، ووجدوها بمثابة جديد لماضى الشعر المجيد ذلك الذى ظنوه ذهب ولن يعود ، وعرفوا فيها الأصالة التى عجزوا عن الوصول إليها ،

(١) الجواب المصرية ، عدد ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .

(٢) مقدمة الديوان شرح الإمام .

والنساية التي تقصر مواهبهم عن إدراكها ، والأمل الذي ينشدونه لشعرهم فتقف بهم ملكاتهم دونه ، وأصبحت القصيدة حديث الأدباء في مجالسهم ، ورواية الشعراء في مجامعهم ، وأثارت للناقشة والجدل ، وأخذ الشعراء في تقليدها والسير على منوالها ، ولكنهم قصرُوا وما بلغُوا شأوها .

اطمان البارودي إلى أن فترة التجربة قد آذنت بالانتهاء وأنه قد بلغ مرتبة المجيدين من الشعراء ، وقد ألفت ربة الشعر أزمته بين يديه ، وأسلت له القريض ، وملكته ناصية الشعر ، وقدمت قيثارتها إليه ، فصار « يلحج به لحج الحام بهديه ، ويأنس به أنس العديل بهديه » . وأخذ يسجل ما يقول « ولا بدع فلانسان فتون بشعره ، وولوع بينات فكره ، ولولا ذلك مادون الناس أشعارهم ، ولا اتخذوا حلية الأدب شعارهم ، كيف لا ؟ وبقاء الذكر حياة الأبد ، وحب الخلود أطعم لقمان في لبد^(١) . »

وجد البارودي نفسه أسير معروف إسماعيل بعد أن رده إلى وطنه عزيزاً كريماً ، وبذل حزن الغربة بفرح العودة والاستقرار « وعينه معينا لأحد خيري باشا على إدارة السككيات بين مصر والآستانة العلية^(٢) » . والمروف يستوجب الشكر والعرفان ومن ثم نظم البارودي قصيدة ثانية في إسماعيل يشكره على جميله ، ويتمنى لمصر على يديه حكماً سعيداً عادلاً يقشع الظلمة والخطوب التي غشيتها في حكم سعيد . ويقدم البارودي الشاعر قصيدته هذه المرة غير هياب ولا وجل ولا متردد تردد في سابقها ، بل تملأً جنبيه ثقة الشاعر الذي أثار الإعجاب بشعره ، وتزداد الثقة حتى تصل به إلى حد النورور فيدعي أن قصيدته فاقت شعر البحترى وأبى تمام فيقول :

(١) محمود سائى البارودي : مقدمة البروان .

(٢) الجواب المصرية عدد ٥٧٢ في ١٩٠٤/١٢/١٥

وإليك من حوكِ اللسان حَبِيرَةً يفتيك رونقها عن التَّشْبِيرِ^(١)
 حضرة الأنساب ، إلا أنها بدوية في الطبع والتركيب
 ولدت بمنطقها النفوس غرابة والنفس مولمة بكل غريب
 كليم أثرت بها جواد براعة لا يُقْتَنَى في الحضر والتقريب^(٢)
 ترك « الوليد » ملثماً بفُبارِه ومضى فكفكف من عنان « حبيب »^(٣)

ولا يستريح البارودي إلى العمل الديواني وروتيته لأنه لم يخلق له ، ويضيق
 بما يسود جو الفاعلين فيه من الرياء والنفاق والدس والوقعة ، ويظهر هذا
 الضيق في صورة شعر ينظمه في رئيسه « أحمد خيرى » بأسلوب التورية فيقول :

فَعَلْتُ خَيْرًا بِقَوْمٍ فَمَا لُونِي بِضَيْرٍ
 فَلَا تَلْنِي إِذَا مَا أَصْبَحْتُ أَلْمُنُ خَيْرِي

وينظم في سلوك رفاقه وزملائه بالديوان الخلدوي هجاء يقول فيه :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنِّي بَيْنَ مَعْشَرٍ سِوَا لَدَيْهِمْ طَيْبٌ وَخَبِيثٌ
 لَمْ أَلَسْ إِنْ رُمِّنَ أَمْرًا بَلَفَنَةً مِنَ النَّفْسِ ، مَصْنُوعٌ لِمَنْ حَدِيثٌ
 بَرِمْتُ بِهِمْ حَتَّى سَتِمْتُ مَكَانَتِي وَأَنْكَرْتُ طَيْبَ الْعَيْشِ وَهُوَ دَمِيتُ
 إِذَا لَمْ يُنَيِّنِي اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ فَمَا لِي بَيْنَ الْعَالَمِينَ مُنِيتُ

وتنزع نفس البارودي الطموح إلى الأمل الذي يصبو إليه طوال حياته ،

(١) الحوك : التسيج ؛ الحبيرة : الجديدة من الثياب .

(٢) الحضر : ارتفاع القوس في عمود ؛ التقريب : عدو القوس وهو يرفع يديه مما يضعها مما ؛

(٣) الوليد عبادة البجترى الطائر ؛ حبيب : هو حبيب بن أوس الطائي المروفي باني عام ؛

والمنى أن قصيدة البارودي نالت شعر الشعراء .

وإلى الحلم الذى يراوده منذ شب عن الطوق ، ذلك هو سبيل الجيش والحرب .
ويجد البارودى طريق الأمل مفتوحاً أمامه ، بعد أن أخذ إسماعيل فى إعادة
تنظيم الجيش وتقويته ، ليكون نقطة ونوب إلى مطامعه ، وأداة تحقق ما فشل
فيه جده محمد على من بناء إمبراطورية فى الشرق يكون إمبراطورها التتوچ ؛
غير أنه غير من خطة جده بعض التغيير ، فجعل امتدادها فى أفريقيا بدلاً من
البلاد العربية والأناضول ، وأباد لعاصمتها أن تكون قطعة من أوروبا ، وبذلك
يقف على قدم المساواة مع غريمه وصديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، وسيد
السلطان عبد العزيز الإمبراطور العثماني . ويسعى البارودى حتى ينقل إلى الجيش
فى يوليو ١٨٦٣ ، بمنح رتبة البكباشى العسكرية (مقدم) ويلحق بالآل
الحرس الخديوى ، ويمن قاندا لسكرتيرين من فرسانه^(١) . وتستثمر نفس
البارودى الهدوء وقد أصبح على جادة الطريق الذى يريد أن يسلكه ،
وتفتحت آفاق الأمل رحبية فى وجهه ، بعد أن أسفنته التى فهدلت وهم حقيقة
وتصوره واقعاً ، وأزالت المعوقات التى منعت من تحقيق ذاته الفارسة ، وقيدت
فروسيته بالأغلال وأحالتها إلى ضرب من الخيال . وأصبح البارودى قاندا .

(١) مقدمة مراثى الشمره بـ ٨ ؛ ومقدمة الحيوان شرح الإمام .

القائد والمحارب

في بعثة عسكرية إلى أوروبا :

وأعلنت مواهب القائد الشاب عن طبيعته الحربية الأصيلة ، وظهرت روح القروسية المختزنة في طوايا نفسه ، فتقدم سريعاً إلى الصدارة ، وأرسل مع خمسة عشر ضابطاً من خبرة ضباط الجيش في بعثة عسكرية إلى فرنسا وإنجلترا ، ليقضوا فترة في مشاهدة نظام الجيش الفرنسي والجيش الإنجليزي ، واقتباس خبرة قوادحهما^(١) . « وأبحرت البعثة العسكرية على ظهر السفينة الحربية المصرية (شير جهاد) إلى فرنسا ، فاستقبلتهم الحكومة الفرنسية بالخفاوة ، ودرسوا النظم العسكرية الفرنسية ، والاستحكامات ، والناورات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال ، وجسوا طائفة من اللؤقات الحربية الشتملة على أساليب الجيش الفرنسي ونظامه^(٢) » . واتجهت البعثة بعد ذلك إلى إنجلترا فزارت بعض معسكرات الجيش ومنشآته الحربية فيها . وقبل مفادرة البعثة إلى الوطن دعى أعضاؤها إلى ضيعة أحد النبلاء في الريف الإنجليزي حيث أقيمت لهم حفلات التكريم ، وخرج الفرسان على ظهور الخيل يزاولون رياضة الصيد في الحقول والأحراش على عادته النبلاء الإنجليز وتقاليدهم .

وإذا كان هناك من استمتع من الرفاق بحفلات التكريم ، وبالخروج إلى رياضة الصيد فذلك هو البارودي . فليس أشهى لديه من أن تظهر فروسيته الكامنة إلى عالم الواقع ، ومن ثم كرع للعبة حتى الثمالة ومارس رياضة الصيد

(١) مقدمة مرآة الشعراء ص ٨ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٢) الرافعي : عصر اسماعيل ج١ ص ١٧٧ — ١٧٨ .

والقنص ، واختزنّت سخيّته صور ما مارس وما شاهد ، ثم أسفرت عن نفسها معاني تنساب في عواطفه ، وخرجت لوحات فنية يرسمها بألفاظه ، بصور الرفاق وقد لبوا الدعوة سراعاً وخرجوا إلى الأعراس فيقول^(١) :

بجمل كآرام الصّريم ، وراءها ضواري سلوقي : عاطلٌ وملبّ^(٢)
من اللّاء لا يأكلن زاد أسوى الذي يُضرّضنه ، والصيّد أشهى وأعذبُ
تري كلّ مُحمرّ الحماليقِ فاخر إلى الوحش ، لا يألو ، ولا يتنصّب^(٣)
يكادُ قوتُ البرقِ شدّاً إذا انبرت له بنتُ ماء ، أو تمرّضَ ثعلب^(٤)

وتطلق البزاة والأكلب على الفريسة من الثعالب والطيور ، وينتهي العيد وينتفضي المأرب ، ويعود الركب إلى دار الضيافة ، ويصف الشاعر العودة فيقول^(٥) :

فلما رأنا صاحب الدار أشرقت أساريره زهواً ، وجاء يُرحبُ
وقال انزلوا ، يا بارك الله فيكمُ فعندى لكم ما تشتهون وأطيبُ
فياحسن ذاك اليوم لو كان باقياً ويأطيب هذا الليل لو دام طيبُ

والذي لا شك فيه أن زيارة البارودي لقرنا وإنجلترا — وما معقلا الحضارة الغربية — قد أغنت خياله كشاعر ، وأثرت ثقافته الحربية كفائد ، فقد رأى حياة تختلف في صورها وتقاليدها عما ألفه في مصر وتركيا ، وشاهد مظاهر حضارة قطعت شوطاً في التقدم ، واستجلت « زحاجة عينيه » طبيعة خلاصة

(١) مناسبة القصيدة من معلومات الأسرة .

(٢) الآرام : الثياب الخالصة البياض ؛ عاطل : غير مطوق ؛ ملبب : مطوق .

(٣) الحماليق : ياخذ مقلّة العين كناية عن ضراوة كلاب الصيد ؛ لا يتنصّب : لا ينعض .

(٤) بنات الماء : الطيور المائية .

(٥) التلاع : هم تلمة وهي ما ارتفع من الأرض ؛ والعصب : برد يصعب غزله ثم ينفس .

ساحرة تذكى إلمام الشاعر ، وأكفت مشاعره ذكريات ترفه إحساسه وتشعن عواطفه بصور وانفعالات جديدة ، واستوعب عقله خبرات عسكرية ومعلومات عن الفنون الحربية في الجيوش الحديثة تمتع استمداداته كقائد . وكلف البارودي نيابة عن البعثة بكتابة تقرير عن الزيارة للجيشين الفرنسي والإنجليزي^(١) ، وتمديد النظم التي يمكن الاستفادة منها في بناء الجيش المصري . وينال التقرير إعجاب المسئولين وتقدير قادة الجيش ، فيرقى البارودي إلى رتبة عقيد (قاعقام) في نوفمبر ١٨٦٤ ، ثم إلى رتبة عميد (أميرالاي) ، وولدت إليه قيادة الفيلق الرابع من الحرس الخلدوي في إبريل ١٨٦٥^(٢) .

ألا إنه المجد الذي سعى إليه البارودي صبيًا ، جاء اليوم يسمى بين يديه حفيًا ، وعرف له الدهر مكائنه ، وأمد له في أسباب العظمة طائفاً مختاراً .

في حرب كريد ١٨٦٥ - ١٨٦٧ :

حقق البارودي شطر النى بعد أن أصبح فارساً شاكى السلاح ، وقائداً ترهب الأفران صولته ، وظل الشعر الآخر يضغط على عواطفه وأحلامه ، وألحت عليه فروسيته العارمة في أطواء نفسه تريد أن تثبت ذاتها في ميادين الحرب ، فيلجج بذلك في عالم خياله راجياً أن يستكمل مناه ويقول :

فَمَنْ لِي وَالْأُمَانِي كَاذِبَاتٌ يَوْمَ فِي الْكَرْبَةِ أَوْ دِنَانٍ^(٣)
الْأَلَمُ فِيهِ أَطْرَافُ التَّوَالِي وَأُطْلِقُ بَيْنَ هَبْوتِهِ حِصَانِي^(٤)
تَرَانِي فِيهِ أَوَّلَ كُلِّ دَاعٍ وَيَرْتَفِعُ الْفَبَارُ فَلَا تَرَانِي

(١) مذكرات الأسرة . (٢) مرآى الشعراء ص ٨ .
(٣) في المتحولة (ج) أدونان . (٤) الهبوة : التبار يرتفع في الجبل .

إِلَى أَنْ تَنْجِلِ الْفَرَاتُ عَيْنَهُ وَيَعْرِفَنِي بِتَسْكِي مَنْ بِلَايَ
أَنَا ابْنُ الْإِيلِ وَالْحَلِيلُ الْمَذَاكِي وَيَضِي الْمُنْدَ وَالشَّرَّ الدَّانِ (١)
إِذَا عَيْنٌ أَجَدَّ بِهَا طِمَاحٌ جَعَلْتُ مَكَانَ حَبِيبَا سِتَانِي (٢)

وكان الأقدار كانت تسمح لندائه فاستجابت له ، وقد شبت « بحزيمة كريد »
في البحر المتوسط ثورة عامة على الحكم التركي أواخر عام ١٨٦٥ ، وعجز
الجنود الأتراك عن إخمادها فاستنجد السلطان بمصر . وخرجت إليها حملة مصرية
بينها « آلاي » من فرسان الحرس يقوده محمود ساي البارودي بوظيفة رئيس
لأور حرب (٣) ، « وكان خيالة ذلك الآلاي أبسل للعربيين جنوداً ، وأطولهم بدوا ،
اختارهم على ما أحب من كافة ألوية الجيش ليكون قائدهم يوم السكينة
والطمأن (٤) » . وأقلمت الحملة من الاسكندرية والبارودي أسعد رجالها ، يتوق
شوقاً إلى يوم يمرك فيه سيفه وقد طال سكونه في غمده ، ويلعب فيه أطراف
العوالي ، ويلقى أولئك الذين خرجوا على سلطان المسلمين .

وتظهر كفاءة البارودي العسكرية أيام القضاء ، وتسفر للمارك عن القائد
البطل ، « وأجل ما يذكر له في تلك الحرب واقعة احتال بها على الثائرين ،
حتى أدخل منهم نحو الثلاثين ألفاً في مضيق بين جبلين ، وقطع عليهم الرجعة
بقسم من عساكره ، وسلط القسم الآخر نيرانه على العدو من قمة الجبل فالتقوا

(١) المذكر جمع مذكاء : ما تمتسته وكلت قوته .

(٢) الطامح : : الكبير والفرح . هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من
قصيدة عنوانها قوله : « وقال في سباه » وعدد أبياتها ٣٨ بيتاً . المخطوطة (س) من ٢٧٥ —
٢٧٦؛ والمخطوطة (ج) من ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٣) مقسمة مراني الشعراء ص ٩ . (٤) الجوابب المصرية عدد ٥٧٢ في ١٦/١٢/١٩٠٤ .

السلح ، وطلبوا الأمان ، وساقهم أسرى «^(١). وكان يخوض المارك في هذه الحرب « وهو راكب على جواد أدم شاهراً سيفه أمام جيشه يشجعهم ويقوهم ، رابط الجأش ثبت الجنان ، يهزم من كان أمامه من العدو^(٢) » ، ويحني لمصر الفخار .

وأحرز الجيش المصرى النصر للأتراك ، واستسلم الثوار ، وانتهت مهمة الباردى الفارس ، وفرغ منه الشاعر لخياله وخواطره يستجمع الذكريات ، ويستعيد المشاهد والصور ، وتووج عواطف الفنان فيه بشحنات مختلفة من الانفعالات سرت إليه من المعركة ، والتقطها من الطبيعة الجيلة ، وسعت إليه من الوطن البعيد . وتحرك ربة الشعر أوتار قيثارتها تستثير الشاعر ليفنى ، ويستجيب البارودى فيصور إحساسه وسلوكه في مأزق تعرض له هو وجيشه فيقول :

ولما تداعى القوم واشتبك القتأ	ودارت كما تهوى على قطبها الحربُ
وزين الناس الفرار من الردى	وماجت صدور الخيل والنهب الضربُ
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا	سقيناً بكأس لا يُنقى لها شربُ
صبرت لها حتى تجلست سماؤها	ولمأنى صبور إن ألمت بي الخطبُ

ثم يرسم بالألفاظ والعبارات لوحة للمعركة بأبعادها وألوانها وظلالها ، وبانفعالاتها والحركة فيها ، فتكون الخلق الفنى قد وهبه للبديع الحياة فبعثه صورة مجسمة للعيان ، فيها لمسات النوم تداعب جفون الفرسان وقد أجهدم السير ، ولقهم الظلة تحجب عنهم الرؤية فلا ينظرون على امتداد البصر غير أسته الزماح وكأنها مشتعلة ، وتأتيهم من بعيد أصوات السار والمارفين وصهيل الخيل وصياح

الحراس مختلطة من معسكر الأعداء ، ويقرب الشاعر للصور منهم حتى يشرف عليهم
فيرام على مشاعل النيران :

مَلُّوْا القِصَاءَ فَابْيَنُ لِنَاطِرِ غَيْرُ التَّمَاعِ الْبَيْضِ وَالْخُرْصَانِ (١)
فَالْبَدْرُ أَكْدَرُ وَالسَّمَاءُ مَرِيضَةٌ وَالْبَحْرُ أَشْكَلُ وَالرَّمَاحُ دَوَانِ (٢)
وَالْخَلِيلُ وَاقِفَةٌ عَلَى أَرْسَانِهَا لِطَرَادِ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَرَهَانِ (٣)
وَضَعُوا السِّلَاحَ إِلَى الصَّبَاحِ وَأَقْبُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنِ النَّيِّرَانِ (٤)

وحين يسفر الصبح تزوج الصورة ، وتتضح الرؤية ويردد النظر
بين الربا والمجاني (٥) :

فَإِذَا الْجِبَالُ أَسْنَتْ ، وَإِذَا الْوُهَا دُ أَعْنَتْ ، وَالْمَاءُ أَحْمَرُ فَإِنْ

ثم يهيج البارودي شوقه إلى الوطن فيخله على جياذ الحرب وكأنها من
شوقها حرت وامتنت على اللجم ، ورجسته أينما وشجنا من الأشجان . وتداعى
الذكريات من الوطن ، وما أسرع ما تأخذ الذكريات بعضها برقاب بعض والرهان
عن الوطن بعيد عنه . وتقفز إلى خاطر البارودي ذكرى تفشى سمادته بالحرب
والنصر بموجة من الألم ، ذلك أن رئيسه في نظارة الحربية (٦) كان ينقم عليه
كبريائه واعتداده بنفسه ، فسمى لدى الخلدو إسماعيل حتى أقفعه بإرسال فرقة من
حرسه الخاص إلى كريد لإخضاع الثورة لتلبية لطلب السلطان ، وإظهاراً للمودة
وإيماناً في الأخلاص له . واختير « آلاى » البارودي أملاً في إبعاده والتخلص

(١) الخُرْصَان : جمع خرص وهو الرمح القصير السنان.

(٢) أكدر : مقبر من القبار المتآثر ؛ أشكل : يضرب لونه إلى الحمرة.

(٣) الأرسان جمع رسن : الجمام ؛ الطراد : المطاردة في الحرب .

(٤) المجاني : جمع مجنى وهو موضع جنى الثمار .

(٥) وكيل نظارة الحربية ؛ مذكرات الاسرة .

منه^(١) ، وما درى أنه حق للبارودى شطر أمانيه ودفع به إلى المجد يمينيه
بسيقه ولسانه ، وما كان أحد أشد لفقة على الخروج إلى الحرب من البارودى
ولكن آله حقد الرئيس ، وأثار انفعاله رغبته فى التخلص منه وهلاكه ، ويشير
البارودى إلى ذلك فى قوله بعد ذكرواته عن مصر :

فارقتمنا طلباً لما هو كائن^٢ والرد طسوع^٣ تقلب الأزمان
حمل الزمان على ما لم أجنه^٤ إن الأمائل عرضة الحدائق
نقموا على ، وقد فسكت ، شجاعتى إن الشجاعة حليمة الفتيان
فليهنأ الدهر^٥ التيور^٦ برحلى عن مصر ، وتهدأ صروف زمانى
فلن رجعت ، وسوف أرجع واقعاً باقه ، أعلنت الزمان مكاني
أنا لا أزل^٧ وإنما يزغ^٨ القسى قد الرجاء وقلة الأعوان^(٩)
فعلام يلتسى^{١٠} الصدو^{١١} مساوى من بعد ما عرف الخلائق شأنى
فليعلم^{١٢} أخو الجبهة قصره عى ، وإن سبقت به قدام^(١٣)

ويثقت البارودى حوله فلا يحمد كل الزملاء ، لقد أغتالت الحرب فريقاً
منهم ، قدموا حياتهم فى الليدان قرباناً للشجاعة وفداء للدين . ومن الذين طاح
بهم الردى قائد فرقته^(١٤) ، فينشده « نشيد الغروب » يندبه ويرثيه ، ويقول :

أى قسى للعظيم نندبه^{١٥} شاط على أنصلي^{١٦} الرماح دمه^(١٧)
أسلمه صحبه ، وما علوا^{١٨} أن سوف يحو وجودهم عدمه

(١) مذكرات الأسرة .

(٢) يزغ : يكف ويمنع (٣) القصيدة كاملة انظر الرواية الأرمية ج ٢ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٤) اسماعيل سليم ناظر المهادية وقد اشترك فى الحرب ، مذكرات الأسرة ؛ وأحمد عرابى :

كف الشار عن سر الأسرار ج ١ ص ٢٣ .

(٥) شاط السماء : خاطها كأنه سفك دم القتلى على دم القتول .

زالَ الأولى حاذَرُوا مصارعَهُمْ ولم تَزُلْ عن مكانها قَدَمُهُ
طاحَ بجِثانِهِ الرَّدَى ، وَرَقَاً إلى تَمَسُّوات رَبِّهِ نَسَمُهُ
ماتَ ، وأَبْقَى شَجَى لِقَرَقَتِهِ يكادُ يَفْرِى قُلُوبِنَا أَلَمُهُ^(١)

ولا تعجب فراسة البارودي القائد ، وهو يستكشف أرض العدو ويصدر الأوامر ليجعل منها المواقع ، عن عين الفنان فيه جمال الطبيعة حتى في مكان الخطر ، فيرى إبداع الخالق في أجمة احتلها فجراً في « قنذية »^(٢) ، وتنتهي للمركة ، وتعجب روح الفنان السبعة عن شاعريته ماعاناه وجيشه وهو يحتلها ، ولا يذكر من للكان إلا الجمال الذي سحره وهز مشاعره ، فرسم له لوحة من شعره يقول فيها :

وَمُرْتَبِعٌ لُدُنَا بِدِ غَيْبٍ سَحَرَةٍ وللصبح أنفاسٌ تزيدُ وتَقْصُ
وقد مال للغربِ اللالُ ، كأنه بمنقاره عن حبةِ النجمِ يَفْجَسُ
رقيقِ حواشي النَّبْتِ ، أما غصونه فربما ، وأما زهرُهُ فمَنْصَصُ^(٣)
إِذَا لَا عَيْتَ أَفْئَانَهُ الرِّيحُ خَلَّتْهَا سلاسلُ تُلُوْى ، أو غداً تَرُفَقُ
كَأَنَّ صِيحَافِ الزَّهْرِ وَالطَّلُ ذَائِبٌ عيونُ يَسِيلُ الدَّمْعُ مِنْهَا وَتَشْخَصُ^(٤)
كَأَنَّ شَمَاعَ الشَّمْسِ وَالرِّيحُ زَهْوَةٌ إِذَا رَدٌّ فِيهِ سَارِقٌ يَتَرَبَّصُ^(٥)
يَمْدُ بَدَأَ دُونَ التَّمَارِ ، كأنما يُحَاوِلُ مِنْهَا غَايَةً ، ثُمَّ يَكْصُ

(١) هذه الأبيات لم يسبق نصحها وهي من الجزء المخطوط من الديوان وقد عنون لها بقوله « وقال يرى أحد قواد الجيش وقد مات بأفريطش » المخطوطة (ج) ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ؛ والمخطوطة (س) ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) مدينة شمال جزيرة كريد .

(٣) المتصن : الظاهر المرفوع أو الذي يسه فوقه .

(٤) تشخص : تفتح . (٥) رهوة : رقيقة .

وتستغرق حربُ كريد قرابة عامين يتأجج فيها قلب البارودى حينئذ إلى الوطن ، ولأول مرة يشدو بحبه له ويتغنى بشوقه إليه ، فتشهد « جزيرة كريد » مولد التغنى بمشاعر البارودى الوطنية ، وترى أول قطرات الفيض الذى تغجر فى عواطفه نحو بلاده ، وظل يملأها بالنور والحب والفداء طوال حياته . يذكر النيل ويدعو لمصر بالسقيا ، ثم يحس بأنه أغرق فى وصف بلاد الرومان وجملها فليفت ليعلن أن بلاده أجمل بلاد العالم ويقول :

دَكَرْتُ مَوَادَّهَا بِمِصْرَ وَأَيْنَ مِنْ	ماه بِمِصْرَ مَنْزِلُ الرُّومَانِ
فَسَقَى السَّمَاءَ مَحَلَّةً وَمَقَامَةً	فِي مِصْرَ كُلِّ رَوِيَّةٍ مِرْثَانٍ ^(١)
حَتَّى تَعُودَ الْأَرْضُ بَعْدَ ذُبُولِهَا	شَتَّى النِّمَاءِ كَثِيرَةَ الْأَلْوَانِ
بَلَدَ خَلَمْتُ بِهَا عِذَارَ شَبِيبَتِي	وَطَرَحْتُ فِي يُمْنَى الْفَرَامِ عِنَافِي ^(٢)
فَصَمِيدُهَا أَحْوَى النَّبَاتِ ، وَسَرْحُهَا	أَلْمَى الظَّلَالِ ، وَزَهْرُهَا مُتَدَانِي ^(٣)

وتتوالى الذكريات من الوطن يستعطفها الشوق والحنين إليه فتثيره كل نسمة تأتي من ناحية مصر ، ويؤرقه كل برق يظهر من جهتها ، فيسأله عن الأهل والصحب ، وعن روضة اللقياس ومن فيها من الأحبة ، ونصف ذلك كله فى قصيدة عنوانها بقوله « وقال وهو بأقريطش أيام الحرب يتشوق إلى مصر سنة ١٢٨٢ هـ » — أوائل عام ١٨٦٦ — ومطلعها :

سَرَى الْبَرْقُ مِصْرِيَا فَأَرْقَى وَحْدَى وَأَذْكَرَنِي مَا لَسْتُ أَنْسَاهُ مِنْ عَهْدِ

(١) السماء : المراد هنا السماء . وهناك سماكان ويكنى بهما أو بأحدهما عن العلو والرفعة ، والروية : الحابة الكثيرة المطر ؛ الرتان : المنة من شدة وقع المطر على الأرض .
(٢) خلعت عذاري : انبت هواي ، والسنار : ما سال من اللجام على خد القرس .
(٣) ظل ألى : كئيف أسود من كثرة الشجر ؛ وأحوى النبات : أسوده من كثافته .

فيا برقُ حدثني، وأنتَ مُصدِّقٌ عن الآلِ والأصعابِ ما فعلوا بِيَدِي
وَعَنْ رَوْضَةِ الْمُقْيَاسِ نَجْرِي خِلَالَهَا جداولُ يُسْذِيها الفِغَامُ بِمَا يُسْذِي
وَأَنْتَ الحربُ ثُمَّ عادَ البارودي إلى الوطن مع الجيش الكلل بالنار وقد
أحرز البصريين معاً : أحرز النصر الحربي فمنحه السلطان في أول أكتوبر ١٨٦٧
الوسام المثنائي من الدرجة الرابعة^(٣) ، وأحرز النصر الأدبي فتقلد زعامة الشعر
وأصبح للثل الأعلى لشعراء .

البارودى بين غواية القصر ومقاتن الحياة

فى قصور إسماعيل :

بعد عودة البارودى من حرب « كريد » نقل من آلاى فرسان الحرس إلى المعية الخديوية ياورا خاصاً ضمن ياوران الخديو^(١) ، وكان إسماعيل قد قفى فى الحسك ما يقرب من خمس سنوات ، استطاع فيها ، بأسلوب الرشوة والساومة مع الباب العالى ، أن يكسب لنفسه من الامتيازات ما يجعله الحاكم المطلق فى البلاد . وكان خياله المحموم بأطماعه يفزع سامعيه ، فى صيف عام ١٨٦٤ لم يكن يفكر فى أن يحمل القاهرة باريس أخرى على النيل غصب ، بل فى أن يجعل من نفسه أيضاً إمبراطوراً لأفريقيا بأى ثمن وعلى حساب الشعب وطاقاته^(٢) ، وتوهم أن بثرة أموال الدولة على المظاهر السطحية لإرهاق الزوار الأجانب ، سوف تحيل له القاهرة باريس ، وتجعله نابليوناً ثالثاً آخر . ومن ثم كان يرى للمال وسيلة إلى تحقيق آماله ، فأهاب به استعداده التجارى أن يستخدم سلطته المطلقة فى جمع المال بوسائل النهب والسلب والإذلال من المواطنين ، وبالداهاء والرواغة والتحايل والقلة من الرايين الأجانب^(٣) .

وحق عام ١٨٦٧ كان إسماعيل قد جمع لنفسه من الأهالى ما يزيد عن عشرة ملايين من الجنيهات ، واستدان من يوت الأموال الأجنبية اثنى عشر

(١) كان زملاؤه فى الباوران مصطفى فهمى ، وعبد القادر حلى ، وزهراى : الجواب المصرية عدد ٥٧٣ فى ١٥ / ١٢ / ١٩٠٤ .

(٢) دافيد لاندز : فوك وباحوات ترجمة عبد العظيم أنيس ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٩٤ .

(٣) القريد سكاون بلنت : التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى ، تعريب جريدة البلاغ ١٩٠٨ ص ١٦ .

مليوناً أخرى ، بدوها ذات اليمين وذات الشمال على ملاذه الشخصية ، وطيشه مع النساء الأوربيات ، وسفه في إقامة الحفلات الملكية^(١) . ونجحت في إسماعيل قدرة مفرقة على إضفاق للالين حتى اعتبره التاريخ آية الآيات في الإسراف ، يئذر اللال بنير حباب ، ويعشق البذخ الطائل . فتأنق ما شاء في زينة اللك وزخرفة ، وأكثر من تشييد القصور ، وملأها بالجوارى الحسنان من أطراف الدنيا ، وكان ثالث ثلاثة تملكهم حب الأبهة والإسراف في العالم : السلطان عبد العزيز ، والإمبراطور نابليون الثالث ، وإسماعيل خديو مصر^(٢) .

وأصيب إسماعيل بهوس بناء القصور فبنى نحو ثلاثين قصرًا من القصور الفاخرة . منها قصر الجزيرة^(٣) وقد شيده على مثال قصر الحمراء بالأندلس ، وأقام حوله حديقة مساحتها ستون فدانا تسير فيها الوحوش الكاسرة والستأنسة . وقصر الجزيرة^(٤) وقد استورد لبنائه وتخطيطه مهندسين وعاملين من الآستانة ، وأنشأ بستان الأورمان ملحقا به ، وجلب له الأشجار من جزر الروم . وعلى مثال هذين القصرين بنى إسماعيل قصر القبة ، وقصر حلوان وسراى الإسماعيلية ، وسراى الزعفران ، وغيرها من القصور العديدة في القاهرة والإسكندرية والأقاليم . ويصف شاهد عيان^(٥) الحياة في هذه القصور ، فيقولنا إلى خيالات تنوارى الأساطير الشرقية . والفرية خجلا أمامها ، فألوف الجوارى الحسنات ، والوصفات الجميلات ، « والقلعوات » اللثقات ، « والشاويشات » المذبذبات ، ثم فريق الرقصات ، والفنيات ، والمثلات ، والمازقات على الآلات الموسيقية

(١) المصدر السابق ص ١٨ .

(٢) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن (١٩٣٤) ج ١ ص ٢٤ .

(٣) استورد للمهندسين من فرنسا لبنائه ، ومقره الآن فندق عمر الغيام على النيل بالزمالك ، القاهرة .

(٤) مقره الآن حدائق الحيوان . انظر تفضيلات وصف هذين القصرين في الضبط التوثيقية ج ١

من ٨٤ — ٨٥ . (٥) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ٥٠ — ٨٦ .

التعاسية والوترية ، يستورهن من أوروبا وتركيا وبلاد الجركس (يبرجية)
علاء ، ويدربونهن على العمل في هذه القصور . وكانت زوجات الخديو
الأربعة يتنافسن في اقتناء أجمل الجوارى وأرشق الوصيفات ، ويلبغفن بخدمتهن
حتى يبلن الخطوة لدى إسماعيل .

البارودى والنزل :

في هذه البيئة البذخة اللاهية ، وبين ردهات القصور الفاخرة ، وفي حدائقها
الفناء للزهرة ، وعلى مرأى من طيورها النردة وحيواناتها الفادرة ، عاش
البارودى ثمانية أعوام من شبابه وصباه ، ضابطاً بالحرس الخديوى وباورا
خاصاً لإسماعيل وافته الأسباب كلها لتشد الفيد الحسان إلى مداره ، ويصبح
مناط الأمل ومهوى القلب لدى كل رداح هيفاء . ، وتجمعت له السبل لينعم
بمحاسن اللهو والشراب والفناء : شباب يتفجر صبا وفتوة ، وثرء يسلكه في
عداد عليّة القوم ، ومجد يملو به إلى المام ، وغفار يكلل جبينه ببطولة في الحرب
يقيه بها على أقرانه وتحبيه إلى قلوب العذارى ، وشعر يخلب الأب ويسلب
القلب من الضلوع . ألا إنها حياة اللهو أنقت بكأسها بين يدي البارودى في
شبابه فسكرها حتى الثمالة ، بقوده فيها - كما يقول - شيطان الخلاعة والسكر^(١) ،
يتصيد قلوب الغانيات فيشقى بمجن تارة ويسعد أخرى ، ويمب من
الصهباء حتى تغزل به الأرض الفضاء تدور^(٢) ، ويميش ما يشاء من ليل إلى الأوس
ومحالى اللهو والفناء .

ويستثير هذا اللون من الحياة شاعرية البارودى فيمنى ، ويعصغ تجاربه
صوراً يصف فيها الجمال الذى يستمتع به والأحاسيس التى تغمره ، ويفرد لكل

متعة صورة ، فهو عاشق سعيد مرة ، ومعذب أضناه الجفاء أخرى ، وشارب تارة ، ومستمتع بالطبيعة رابعة ، أو يمزج كل متعة في صورة واحدة حين تلتقى معانيها في عواطفه وتختلط أحاسيسها في نفسه ، يعيش كل ذلك ، ويشدو به على قيثارة شعره ، ويخرجه إلى الحياة ليبقى ، ونقرأ فنحن بأن البارودي كان في شبابه ابن كأس وللة^(١) ، يستأثر لنفسه بملذات الحياة ، ويهتيل المتعة ويمتصرها لينعم بآخر قطرة فيها .

والواقع أن البارودي بفتوته العارمة ، وصبوة الشباب فيه عاش هذه السنوات من عمره بشراً وشاعراً ، يستمتع بلهو الصبا ومفاتيح الحياة ، ويمرر على طبيعته مع الغواية والصبا في سباق^(٢) ، لا يسأم اللهو ولا يسأم اللهو منه^(٣) ويعلم ذلك كله فيقول^(٤) :

عَصَيْتُ نَذِيرَ الْحِلْمِ فِي طَاعَةِ الْجَهْلِ وَأَغْضَبْتُ فِي مَرْضَاةِ حُبِّ الْمَكَا عَقْلِي
وَنَازَعْتُ أَرْسَانَ الْبَطَالَةِ وَالصَّبَا إِلَى غَايَةٍ لَمْ يَأْتِهَا أَحَدٌ قَبْلِي
وَكُنَّ الْبَارُودِي كَانَ يَرَى الْاسْتِمْتَاعَ بِالشَّبَابِ هُوَ السُّوَى مِنَ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِي
فيجهر بذلك في قوله :

إِذَا الْمَرءُ لَمْ يَطْرُبْ إِلَى اللَّهِو وَالصَّبَا فَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ عِدَادِ الْبَهَائِمِ^(٥)
أو يرى المرء بين سبلين في الحياة عليه أن يختار بينهما ، اللهو أو الهم ، فاختر البارودي الأولى كما يقول :

إِذَا الْمَرءُ لَمْ يُعْطِ الْحَيَاةَ نَصِيحَتَهَا مِنَ اللَّهِوِ قَادَتْهُ الْمُؤْمُ إِلَى الشُّكُو^(٦)

(١) أنظر : ديوان البارودي (الإمام) ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٢) أنظر : ديوان البارودي (الجرام) ج ٢ ص ٢٩٤ . (٣) المصدر السابق ص ٢٩٥ .

(٤) ديوان البارودي (الإمام) ج ٢ ص ٣٣٩ — ٢٤٠ .

(٥) هذا البيت لم يسبق نشره وهو من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً عنوانها بقوله (وقال يقتصر) ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٨ .

(٦) هذا البيت لم يسبق نشره وهو من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٢٢ بيتاً ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٤ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣١٠ .

وكان البارودي وهو شاب يؤمن بأن الحب ضرورة لازمة لأنه فطري
وغريزي ، ويرى أنه لا حيلة للإنسان في صد الترام ، أو حفظ القلب من أن يقع
في شرك الهوى ؛ بل كان لا يصبر على العيش خلى الفؤاد من الحب والجوى ،
ويرى أن الإلحاح في اللوم وكثرة النصيح يفران بالصبوة والنوابة كما يقول :

صَبَّوْتُ إِلَى الْمَدَامَةِ وَالْفَوَائِي وَحَكَمْتُ النَّوَابَةَ فِي عَيْنَايَ
وَقُلْتُ لِمَقَى بَعْدَ امْتِنَاعِ إِلَيْكَ ، قَدْ عَنَانِي مَا عَنَانِي
فَمَا لِي عَنْ هَوَى الْحَسَنَاءِ صَبْرٌ يُوقِرُ عِنْدَ سَوْرَتِهِ سَجْنَانِي
وَكَيْفَ يُفِيقُ^(١) مِنْ دَارَتِ عَلَيْهِ كَثُوسُ هَوَى مِنَ الْحَدَقِ الْحَسَنِ
أَعَاذَلُ ، خَلَنِي وَشُتُونِ قَلْبِي وَخَذْ مَا شَتَّتَهُ فِي أَيْ شَانِ
فَقَدْ شَبَّ الْهَوَى مِنْ رَامِ نُصْحِي وَأَغْرَى بِالْحُبِّ^(٢) مَنْ نَهَانِي

والشباب كما يراه البارودي عارية مستردة ، لا يلبث أن يذهب وتبقى منه
الذكريات والحسرات فليغم الأذى ويخلع عذاره فيه كما يقول :

إِنْ عَصَرَ الشَّبَابِ فِينَا مُعَارٌ وَالْإِيَالِي تَرْدُ كُلِّ مُعَارٍ
فَامْرَحًا وَامْرَحًا ، فَقَدْ آذَنَّا نَمَاتُ الصَّبَا بِمَخْلَعِ الْعِذَارِ

ويقتل قلبه في هوى المذارى ، يتعرض له فتصور حسنهن بلورتا عينيه
في صفحة القلب ، ويصوبن إليه سهامهن المريضة فيصمين فؤاده ويروح فريسة
الأهداب ، ويخلع البارودي في حب النيد رسنه ، ويبيع بالسهد في ليل الهوى
وسنه كما يقول :

(١) في المخطوطة (ج) يضيق .

(٢) في المخطوطة (ج) وأغرى في الهبة ، وهذه الآيات الستة لم يسبق نشرها ، وهي من الجزء
المخطوط من الديوان من قصيدة عنوانها « وقال في صباه » ، وعدد أبياتها ٣٨ بيتا ؛ المخطوطة (ج)
ص ٢٨١ — ٢٨٢ ؛ والمخطوطة (س) ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

خَلَعْتُ فِي حُبٍّ غَزْلَانَ الْحِمَى رَسَنِي وَبَعْتُ بِالسَّهْدِ فِي لَيْلِ الْهَوَى وَسَنِي^(١)
وَأَعْجَبْنِي حَمْلَى دَمِّ الْمَذُولِ لَهَا صَبَابَةٌ نَقَلْتُ سِرْعَى إِلَى الْقَلَنِ
قَلِيلًا مَنِ الْمَذْلُومُ مَا أَرَادَ ، فَقَدَّ أَسْلَمْتُ لِالشَّوْقِ رُوحِي ، وَالضُّغْنَى بَدَنِي^(٢)

ولكنني بالبارودي وقد علق قلبه بواحدة من الوصيفات في قصور إسماعيل
وأصل الود بينه وبينها ، ثم تخشى عليه العميون والأرصاد وبطش إسماعيل
فتمتنع عنه ، ويهيج به الشوق فيغنى لحن المجران والصد في قصيدة مطلعها^(٣)

عُودِي بَوَصْلٍ ، أَوْ خُذِي مَا بَقِيَ فَقَدْ تَدَاعَى الْقَلْبُ مِمَّا لَقِيَ
ويشكو لها الجوى وما يقاسى قلبه حين يذكروها قهوى الزفرات بدموعه ،
ويستعطفها وقد طمته القل وكان لا يعرفه ، ثم يذكر مكانها في القصر وقد
حاطت الفرسان به فيقول :

حَاطَتْ بِهِ الْفَرَسَانُ حَوْرَ اللَّهَا يَا مَنْ رَأَى الرَّبَّ رَبَّ فِي الْفَيْلَقِ^(٤)
أَرْنُو إِلَيْهَا وَهَى فِي شَأْنِهَا كَنَظَرَةِ الْعَائِي إِلَى الْطُلُقِ
يَارَبَّةَ الْقُرْطُقِ هَلْ نَظَرْتُ أَحْيَا بِهَا ؟ يَارَبَّةَ الْقُرْطُقِ^(٥)

وتزداد الحبيبة صداً فينفطر قلبه أسمى وحزناً ، ويشكو تياريح المجر ، ويبكى
بدموع غزار ويصرخ^(٦)

(١) الرسن : القود ؛ الوسن : النوم .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عنوانها « وقال
أيضاً في صباه » ، وعدد أبياتها ٣١ بيتاً ؛ المخطوطة (س) : س : ٧٧٩ ؛ والمخطوطة (ج) : س : ٧٨٥ .

(٣) الديوان : (المبارم) ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٤ .

(٤) الربوب : التطبيع من الضياء .

(٥) القرطوق : القرابية ذات الأكام الراسية ، وكانت لبس الجركيات والتركيات في القصور .

أنظر : مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ٥١ .

(٦) القصيدة كاملة في الديوان : (المبارم) ج ٢ ص ٣١٥ — ٣١٧ .

أَيُّ قَلْبٍ عَلَى صُدُوكَ بَقِيَ ؟ أَوْ لَمْ يَكُنْ أَنِّي ذُبْتُ عِشْقًا ؟
لَمْ تَدْعُ مِنِّي الصَّبَابَةَ إِلَّا شَبَعًا شَفَّهِ السَّقَامُ قَدْ قَا

وترحل عنه حبيبة أخرى فيحيل رحيلها حلاوة الحب التياغا وعذبا ، لكنه
يرضى بما يلقاه في سبيلها من العذاب ، ويمنى نظرة منها يقنع بها على البعد فيقول :

يَا رَاحِلًا غَابَ صَوْرِي بِمَدِّ فُرْقَتِهِ وَأَصْبَحْتَ أَصْهَمُ الْأَشْوَاقِ تُصْنِئِي
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ مَا أَلْقَاهُ مِنْ كَدٍ فِي الْحُبِّ مَذْغَتٌ عَنِّي فَهَوُ يُرْضِيئِي
لَمْ أَلْقَ بَعْدَكَ يَوْمًا أَسْتَبِينُ بِهِ وَجْهَ الْمَسْرَةِ إِلَّا ظَلَّ يُكَيِّبُنِي
قَدْ كُنْتُ لَا أَكْتَفِي بِالشَّمْلِ مُجْتَمِعًا فَالْيَوْمَ نَظَرُهُ عَيْنَ مِنْكَ تَكْفِيئِي^(١)

وتعاطله تلكه وتجده له الوعود فيعيش على الأمانى ، ثم يطلب منها أن تمنحه
« القبلية » التي وعدت ، فتزور عنه وتهجره ، فيشكو ويستنجد ، ويندم ويطلب
الغفرة في قصيدة يقول فيها^(٢) .

وَبَلَاءُهُ مِنْ نَارِ الْهَوَى وَأَمْرٍ مِنْ طَوْلِ الْجَوَى
أَرْسَلْتُ طَرْفِي رَائِدًا فَمَا عَلَا حَقِّي هَوَى
وَسَاكَ قَلْبِي خَلْفَهُ فَلَمْ يَدُنْ حَقِّي كَتَوَى
قَدْ طَالَمَا زَجَرْتُهُ يَا لَيْتَهُ كَانَ أَرْعَوَى
لِسُكُلٍ شَيْءٍ آفَةٍ وَآفَةُ الْقَلْبِ الْهَوَى

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ، وهي من الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان « وقال
يشوق إلى لائف له » ؛ المخطوطة (س) ص ٢٨٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٩٣ .

(٢) هذه القصيدة في الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان « وقال في الفزل » وهي ١٩ بيتا . وقد
نشرت الجواثب المصرية منها في عددها ٥٧٢ في ١٥/١٢/١٩٠٤ عشرة أبيات وهي من الأبيات الستة الأولى
والأبيات الأربعة الأخيرة ، والبقية لم يسبق نشرها ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص :

أَمَا كُنِّي هَذَا الْجَنَّا	حَقِّي أَعَاتَهُ النَّوَى
وَوَلَّيْتُ أَنِّي مُمْتَهُ	إِنْجَازَ وَعْدِي فَلَاوَى
تَلَبَّيْتُ مِنْهُ قُبْلَةً	فَازُورًا عَنِّي وَالتَّوَى
وَمُصْمِتَهُ وَعَدَ الْغَنَى	فَأَعْمَازَ عَنِّي وَأَنْزَوَى
يَا سَائِلِي عَنْ حَالِي	دَعَى فَصْبَرِي قَدْ ذَوَى
أَصْبَحْتُ فِي تَبْهُورَةٍ	يَسَامُ فِيهَا مِنْ نَوَى ^(١)
لَا صَاحِبٌ وَاقِي وَلَا	خِلَإٌ إِلَى حَالِي أَوْى
فَيَا إِلَهِي رَاحِمِي	وَادْفَعْ عَنِ النَّفْسِ التَّوَى ^(٢)
وَلَا تَكْلِفْنِي لَلْبَقَى	لَوْ صَادَقَتْ بِمَآخَوَى ^(٣)

وتعرض فانتنه قلبه فيهلح ، ويريد زيارتها فيمنع ، ولا يملك من أمرها
وأمره إلا الشكوى من العذاب والدعاء لها بالشفاء فيقول :

دَعُ حَيِّبَ الْقَلْبِ لَا سَقَمَ	قَبْنَفْسِي لَا بِدِ الْأَلَمِ
كَيْفَ حَلَّ السَّقَمُ فِي بَدَنِ	خُلِقْتُ مِنْ حُسْنِهِ النِّعَمِ
يَا لَهَا مِنْ لَوْعَةٍ شَعَبَتْ	رَكْنَ قَلْبِي وَفَوَ مَلْنَتِي ^(٤)
مَتَمَسُونِي مِنْ زِيَارَتِهِ	وَرَحِمِي قَلْبِي لَهُ حَرَمُ
تَهْمُونِي فِي مَسْودَّتِهِ	وَالْمَوْى مِنْ شَأْنِهِ التَّهْمُ
رَبِّ قَنَمُهُمْ بِقَرَّتِهِمْ	وَأَتَنَصَّفُ مِنْهُمْ بِمَا زَعَمُوا
وَأَشْفِ نَفْسًا أَلْفَ بَارِئَهَا	فَإِلَيْكَ الْبَرَاءُ وَالسَّقَمُ ^(٥)

(١) في تبهورة : في متاعه (٢) التوى : الضياح والمسارة . (٣) خوى النجم : سقط .

(٤) شعبت : صدمت وقرقت .

(٥) هذه الأبيات لم يسبق لمرحها وهي من قصيدة من الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان « وقال فيدهوى له وقد مرض » : المخطوطة (س) ص ٢٤٤ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٩ .

ويأتي دور البارودي فيمرض من الحب ، ويعصيه المشق بالعة ، ويسرى
في جسده الضنى ، ويصل حتى تبين أعظمه ، فيضرع إلى حبيته لمن عليه بالوصل
حتى لا يتحكم فيه المرض ، وينشد لنا مرقصا يقول فيه :

عَلِيلٌ أَنْتَ مُسَقِّمُهُ	فَمَا لَكَ لَا تَكَلِّمُهُ
سَرَى فِيهِ الضَّنَى حَتَّى	بَدَتْ لِلْعَيْنِ أَعْظَمُهُ
فَلَا إِنْ بَاحَ تَعَذُّرُهُ	وَلَا إِنْ نَحَّ تَرْجُهُ
إِذَا كَانَ الْمَوَى ذَنْسِي	قُلْ لِي كَيْفَ أَكْتُمُهُ
وَدَمِي أَنْتَ مُرْسِلُهُ	وَقُلِّبِي أَنْتَ مُؤَلِّمُهُ
وَلَا وَاللَّهِ مَالِي فِي الْهَلَاكِ	هَوَى ذَنْبٌ فَأَعْلَمُهُ
فَوَيْلِي مِنْ غَرِيبِ الدَّلَا	لِي أَبْلَانِي نَحْكَمُهُ
تَرَدَّدَ فِي مَحَبَّتِهِ	وَلَمْ يَسْمَعْ بِهَا فَمُهُ
نَسَبْتُ بِهِ ، قَبَّانَ عَلَى	جَبِينِ الشَّعْرِ يَبْسُمُهُ
فَمَا لِي فِي الَّذِي أُنْذِرُ	يَدٍ مِنْ فَضْلِ فَاغْنَمُهُ
وَلَكِنْ حُسْنُهُ يَبْدُو	إِلَى عَيْنِي فَتَرْتَمُّهُ
وَيَنْفَرُ لِنَفْظِهِ دُرًّا	عَلَى سَمْعِي فَأَنْظِمُهُ (١)

وتسمع لضراعته الحبيبة فتعوده ، ويصف لنا ما دار في هذا اللقاء فيقول :

قَالَتْ أَرَاكَ عَلِيلَ الْجِسْمِ ، قُلْتُ لَهَا	مِنْ شَفَةِ الْحَبِّ أَيْلَى جَسَدِهِ السَّقَمُ
قَالَتْ فَهَلْ مِنْ دَوَاءٍ يُسْتَطَبُّ بِهِ	قُلْتُ الْوَصَالُ ، فَوَاحَتْ وَهَى تَبْتَسِمُ (٢)

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ، وهي من الجزء المخطوط من الديوان من قصيده عدد أبياتها ١٦ بيتا ؛ المخطوطة (س) س ٢٤٥ ؛ والمخطوطة (ج) س ٢٥٠ .
(٢) البيتان لم يسبق نشرهما وهما من الجزء المخطوط من الديوان من مقطوعة عدد أبياتها أربعة ؛ المخطوطة (س) س ٢٤٦ والمخطوطة (ج) س ٢٥١ .

ويكتب لمن أعرضت عنه وظلمت هواه ولم ترد نحيته رسالته فيقول :

ذنبى إليك غرامى فهل يحلّ ملامى ؟
يا ظالماً فى هواه هلاً رعبت ذمامى
حَتَامٌ تُعْرِضُ عَنِّى ولا تردّ سلامى ؟
وكيف تُنْكِرُ وَجْدِي أما رأيت سقامى ؟
فَيَاسِيرٌ فُوَادِي فى يَفْقَظِي وَمَسَامِي
مَتَى يَفُوزُ بِوَصْلِ أسيرُ لَحْظِكَ (سَامِي) ^(١) ؟

ويشهد البارودى على بكانه بحام الأيك فكلهما يشدو ، ولكن البارودى يشدو نواحاً وألاً من الوجد ، وحام الأيك على الفصن ينفى ، ويظن البارودى أنه وجد فيه قريباً وشريكاً فى الألم لتخفف للشاركة من عذابه ، ولكنه لم يحده مثيله فى الصبابة والوجد ، فانصرف عنه وهو يقول ^(٢)

سَلِّ حَتَامَ الْأَيْكِ عَنِّى إنه أدرى بِحُزْنِي
نَحْنُ فى الْحُبِّ سَوَاءٌ كلُّنَا يَبْكِي لِفُصْنِ
غَيْرِ أَنْ الْوَجْدَ مِنْهُ ليسَ مثلَ الْوَجْدِ مِنِّى
أَنَا أَبْكِي مِنْ غَرَامِي وَهُوَ فى الْفُصْنِ يُفْنِي
وَهُوَ بِاللَّدَمْعِ بِخَيْلٍ ودُمُوعِي ملء عَيْنِي
لَسْتُ فى الصَّبْوَةِ مِثْلِي فَانصَرِفْ يَا طَيْرُ عَنِّي

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ؛ وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ١٠٠ أبيات ؛ المخطوطة (س) ٢٤٦ ، والمخطوطة (ج) س ٢٥١ .
(٢) هذه القطعة لم تسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان ، المخطوطة (س) س : ٢٩٠ ؛ والمخطوطة (ج) س : ٢٩٦ .

وغزليات البارودي في ديوانه المطبوع والمخطوط تدل على أنه نقل فؤاده حيث شاء من الموى ، وكابد الغرام الحقيقي مع أكثر من حبيبة في سنوات شبابه . « وظلية المقياس » كانت آخرهن عنده ، ومن ثم كانت أكثرهن ذكراً في شعره ، ولعلها أول من تفتحت لها عواطفه فتصكت من فؤاده وظل يذكرها طوال حياته ، وقد كان لأسرته قصر بمصر القديمة بطل على روضة المقياس ، وكان للخبديو إسماعيل قصر في روضة الجزيرة نفسها ، والبارودي فارس من فرسان حرسه وياور من باوراته . ثم « مهاة شيرة »^(١) ، وشبرا في عصر البارودي ، كانت للسكان المطروق للتنزه في مزارعها النضرة ومناظرها الجميلة ، وكان يقصدها أفراد الأسرة الخديوية ، والسراة ، والأعيان ، مشاة وركبانا وللحريم عربات خاصة^(٢) ، وبها قصر النزهة^(٣) لإسماعيل . « وغزالة الجزيرة »^(٤) ولعلها من وصفات قصر الجزيرة تخرج مع صوحيباتها إلى متنزهات القصر تسترق النظر إليه خوف الرقيب ويقدمها قلبه ثم تذهب ، ويقف مطلوباً على كد . ثم « ليلي حلوان » ، وللبارودي في شبابه صولات وجولات بين غادات هذه الضاحية الجميلة من عربيات^(٥) وتركيات ، وكانت في وقته مسكن الأسر العركسية والتركية ، وبها قصر لإسماعيل ، ويسجل البارودي ليلة أنس قضاها مع « ليلي حلوان » في قصيدة يقول فيها :

في نشوة الحمر سرٌّ من مرآشفيها وفي الأراكة شكلٌ من تهاديها^(٦)
يا ليلةً بِتْ أسقى من بسانتيها ومن لواظها خراً ومن فيها

(١) أنظر: الديوان (الجلد ٢) ج ٢ ص ١٠٨ . (٢) مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ٥٥ .

(٣) مقرة مدرسة التوفيقية . (٤) أنظر: الديوان (الجلد ٢) ج ٢ ص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٥) أنظر: الديوان (الجلد ٢) ج ١ ص ٥٨ .

(٦) الأراكة : شجرة طويلة الباق كثيرة الورق والأغصان خواراة المود يتخذ منها السواك .

حَتَّى إِذَا رَفَّ خَيْطُ الْفَجْرِ وَابْتَدَرَتْ حَامُ الْأَبْكِ تَشْدُو فِي أَغَانِيهَا
قَامَتْ تَمَازِيلُ سَكْرَتِي فِي مَازَرِهَا وَالرَّوْعُ يَبْفُتْهَا طَوْرًا وَيُنْشِيهَا
ثُمَّ اشْتَدَّ وَبَدَى قَيْدُ نَخَامِيرِهَا كَالْخِلْزَانَةِ رِيًّا فِي تَنْشِيهَا
فِي بُلْجَةٍ لَا تَكَادُ الْعَيْنُ تُفَكِّرُهَا وَسُخْرٍ رَبَّمَا شَفَتْ نَوَاحِيهَا
سَحَتِي تَجَاوَزَتْ أَحْرَاسًا عَلَى شَرَفِ يَكَادُ يَمْنَعُ مُمْ الْفَنَسَ دَاعِيهَا
وَحَرَكْتُ حَلَقَاتِ الْبَابِ فَانْفَتَحَتْ عَنْ سَاحَةِ سَكْنَتْ فِيهَا تَرَاقِيهَا
فَعَدْتُ وَالْعَيْنُ غَرِقَ فِي مَدَامِعِهَا وَالْقَلْبُ فِي لَوْعَةٍ تَنْزُو فَوَازِيهَا
فِيهَا لَيْلَةٌ كَانَتْ بِوُصْلَتِهَا تَارِيخَ لَهْوٍ يَهْبِجُ الْفَنَسَ دَاوِيهَا^(١)

وروعة النزول عند البارودي أنه صادر عن قلب لا يتكلف الحب بل يفيض به ويترعرع ، فإذا نعم بجلالته ولذته سال نضما يتدفق سلاسة وجالا ، وإذا عذبه الصد والشوق والهجران صاغ الألم في عواطف لازعة يمازجها حس دقيق ، يصور ذلك في سهولة ويسر ، لأنه يصور واقعا تنبض به أحاسيسه ، فلا تلبث حين شروءه أن ينفذ إلى أحقادنا ، ويتجاوب معه مشاعرنا . ويجب البارودي ويفرق في الحب ، ويجهر بذلك ويعلنه على اللا دون تحفظ أو خشية من لوم ، فهو يؤمن بأن الحب ضرورة لازمة لأنه فطري في المرأة والرجل ، وألم العصابة هو الألم العبقري الذي نغيا به نفس الشاعر الملهمة^(٢) . وكان يرى أن القتي الكريم لا يعيبه اللهو والتصاني فكل مسوق لما أريد له^(٣) ، ويتصدى للآثمين ويطلب إليهم أن يدفعوا عنه العصابة إن استطاعوا ،

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة تحت عنوان « وقال يذكر ليلة أنس بجوان » ، وعدد أبياتها ١٤ بيتاً ؛ المخطوطة (س) : ٢٩٦ ؛ والمخطوطة (ج) : ٣٠٢ .

(٢) أنظر الديوان : (البارم) ج ١ ص ١٢ - (٣) الديوان : (البارم) ج ١ ص ٢٤٤ .

فإن لم يستطيعوا ولن يستطيعوا فليدعوه وشأنه ، فليس له على الهوى أمر ولا نهى^(١) . ولم يوجه إليه في حبه اللوم ؟ ولو أنصفوا لسكانت النfid الحسان أول بهذا اللوم منه ، فمن اللائى يصين قلبه بسهام حبهن كما يقول :

يُؤْمُونَ أَشْوَاقِي كَأَنِّي ابْتَدَعْتُهَا وَلَوْ عَلِمُوا لَامُوا الظُّبَاءَ الْجَوَازِيَا .
وَمَا لِي ذَنْبٌ عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّنِي شَدَوْتُ فَمَلْتُ الْحَامَّ الْأَغَانِيَا
وَهَلْ يَكْتُمُ الرَّمْلُ الْهَوَى وَهُوَ شَاعِرٌ وَيَسْنِي عَلَى أَعْقَابِهِنَّ التَّوَافِيَا^(٢)

والبارودى في أكثر حبه كان غنيا لا يزيد مطلبه في معشوقته عن اللمسة أو اللمسة ، وللناجاة أو البسة ، وأكثر ما يكون مناه « قبلة » تطفى لب الشوق وحرارة الجوى . وكان البارودى يقيه بعفته في حبه ، ويراها موضعا لفقره ، ففي قصيدته « أربعة العود^(٣) » يصرح بأنه أباح للعين فيها ما تفر به ، لكنه زاد كنف الصبا عن معقد الأرز^(٤) ، وفي قصيدة « أبى الشوق إلا أن يحن ضمير^(٥) » بعد أن قضى الليل يشرب مع حبيبته خرج حين أسفر الصبح يمر الدليل تيبها ، وإنما يقيه الفتى إن عف وهو قدير^(٦) .

ويظهر مذهب البارودى في اللهو والخلاعة والحب صريحا في قوله :

وَمَاذَا عَلَى مَنْ خَافَ الْحُبُّ قَلْبَهُ إِذَا مَالَ مَعَهَا لِلْخُلَاعَةِ وَالصَّبْوِ
وَهَلْ فِي الصَّبَا وَالْفُتُورِ عَلَى النَّفْسِ إِذَا الرِّضْ لَمْ يَدْنَسْ بِأَنَامٍ وَلَا بَهْوِ^(٧)

(١) المصدر السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٧ . (٢) ينش على أعقابهن : يرفها ويمتها ؛ هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المفلوط من الديوان من قصيدة ٢٤ بيتا تحت عنوان « وقال في ذكر الشوق » ؛ المفلوطة (س) ص ٣٠٦ ؛ والمفلوطة (ج) ص ٣١٢ .
(٣) الديوان (الجزء ٢) ص ٨٨ . (٤) المصدر السابق ص ٩٠ .
(٥) المصدر السابق ص ١٨ .
(٦) المصدر السابق ص ٢٤ . (٧) البهو : التصدى .

لَعَمْرُكَ مَا قَارَفْتُ فِي الْحُبِّ زَلَّةً . وَلَا قَادَتِي مَعَهَا إِلَى سِوَاكِ خَطْوِي
وَلَسَكُنِّي أَهْوَى الْخُلَاعَةِ وَالصَّبَا . وَأَتَّبِعُ آثَارَ الْفَضِيلَةِ وَالسَّرْوِ (١)

والواقع أننا نجد البارودي الحب في أكثر تجارب حبه فأنك الصبوات
في قدسية وجلال ، عرف الحب شريعة وجدانية فلم يتردد في اعتناقها ولو كان
رئيس وزراء ، فالحب عنده جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود وترفعه
إلى أوج المجد والخلود كما يقول :

وَالشَّقُّ مَكْرَمَةٌ إِذَا عَفَّ النَّفْسَ عَمَّا يَهِيمُ بِهِ النَّوِيُّ الْأَصُورُ (٢)
يَقْوَى بِهِ قَلْبُ الْجَبَانِ ، وَيَرْعَوَى طَمَعُ الْخَرِيسِ ، وَيَخْضَعُ الْمُتَكَبِّرُ

ولكن دعواه العفة المطلقة وعدم مقارفته زلة في الحب وأنه لم يبدس
غرامة بأثم ، ينقضها اعتراف صريح منه بأن الشباب قد نزى به مرة فارتقى ،
وخرج عن خط العفة الذي رسمه لنفسه . وصراحة البارودي في الاعتراف تدل
على أنه كان أميناً مع عواطفه ، وصادقاً في التعبير عنها كما في قوله :

وَمَسَّسٍ عَفَّةٍ قَدْ نَلْتُ مِنْهُ . بِأَيْدِي اللَّهِ مَا شَاءَ التَّمَنَّى
مَلَكَتْ بِهِ عَيْنَانِ الشُّوقِ حَتَّى قَضَيْتُ لُبَّانَتِي وَأَرْحَتُ ظَنِّي
فَلَا تَسْأَلْ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ . وَلَا تَسْأَلْ عَلَى مَا كَانَ مِنِّْي
فَقُلْ لَوْلَا أَنْ جَنَدَ الصَّبْحِ وَافَّتْ . طَلَانُهُ وَزَالَ الْبَيْلُ عَنِّْي
لَدُمْتُ عَلَى مُعْتَرِ الْأَمَانِي . وَلَكِنْ رَبِّمَا عَاوَدْتُ فَنِّي (٣)

(١) السرو: الفضل؛ هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من تسمية
عدد أبياتها ٢٣ بيتاً ؛ المخطوطة (س) س ٣٠٤ ؛ والمخطوطة (ج) س ٣١٠ .

(٢) الأصور : التعرف عن الرعاد .

(٣) هذه المخطوطة لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س)
س ٢٨٧ ؛ والمخطوطة (ج) س ٢٩٣ .

وقد بدا لبعض الكتاب أن يؤكدوا أن البارودى لم يكن صادقاً في غرامياته ، وقد جزموا بأن قصائده في هذا الفن لم تكن إلا محاكاة لأساليب الأقدمين ، ولا ندرى كيف جاز أن تقوم هذه الدعوى بالرغم من صدق العاطفة التي تفيض بها غزليات البارودى ، فتصل إلى قلوبنا ، وتشركننا معه في آلام نفسه ومشاعره وملاذاته ووساوسه ، ونجملنا نحس بالدموع التي يعبى بها عن بأسه نارة ولهب الشوق في حناياه تارة أخرى ، وبرغم ما تذكرنا آيات شعره في النزل بغراميات « الشريف الرضى » في كثير من الأحيان ، وبالرغم مما يصرح به البارودى نفسه في شعره بأنه أحب ، وتنقل ، وتمذب ، وهجر ، وبكى ، وتأنى ، فتأنى الدعوى وتقول له : لا ، إنك لم تفعل ولكنك تقلد الأقدمين ! وفي مقدمة ديوانه يقول البارودى نفسه عن دوافع قول الشعر عنده ، « إنما هي أغراض حركتى ، وإباء جمع فى ، وغرام سال على قلبى » ولكن الدعوى تهمة بالكذب وتقرر أن الغرام سال على قلب غيره وما هو إلا ناظم ومقلده . ورائد هذه الدعوى محمد حسين هيكل^(١) السياسى الوزير ، ولعله بمقلية السياسى الوزير فى عصره أراد تنزيه البارودى عن مآثم الفتيان ، فقد كتب عنه وقد نسى أن البارودى مر بفترة الشباب ، وبقي فى مخيلته أنه وصل إلى رئاسة الوزارة ، ويجب على الوزراء ورؤسائهم — فى تصويره — أن يعيشوا بلا قلوب !

البارودى والخمر :

وكذلك ذهبت الدعوى فى خمرات البارودى ، قد آهمت بالزيف هذا النقيض القوى من حب الحياة والبهجة ، وتمشق متعة الشراب وظلال أمنه

(١) فى مقدمته لليونان البارودى شرح الجارم ومبروف .

الورافة ، وجعلته تقليدا لا ينبغي من جس ، ولا يصدر عن عاطفة صادقة ، وذلك لأن محمد حسين هيكلم لم يتصور ، بمقلية عصره ، أن يجهز رئيس الوزراء بمعاذرة الخمر ، أو أن يعرف الناس عنه أنه يشرب الراح ، ومن ثم ذهب في دعواه إلى أن خرياته البارودي كانت تقليدا ، مع أن البارودي تغنى بالخمر وآثارها في القول والأمحاسيس ، وبأوصافها ألوانها في جدتها وعتمها ، غناء خبير مارس الشراب حتى عرف أسرار التجربة . كل ذلك في عاطفة تفيض قوة وحيوية ، بل تفيض فرحا وبهجة ولذة ، وكأنما يريد أن يمنحنا عبق الحياة . وديوانه مليء بمجالس الشراب في ليالي الأوس ، تارة في ثنايا قصائمه وطورا في مقطوعات وقصائد مفردة ، يصف دنائها وندمانها وكثوسها وسقاتها وحتى صوت عطاسها حين تفتح للشاربين^(١) وصفا رائعا يعود أكثره بنا قرونا إلى الوراء لتستعيد ما نظمها فيها أبو نواس وابن المعتز . وقد يقال إن بعض قصائد البارودي في الخمر لا تخلو من ضعف ، وذلك أمر مسلم به ، ولكن هذا الضعف لا يرجع إلى أن الخمر لم تذهب بعقل البارودي كما تقول الدعوى ، وإنما يرجع إلى أن الشاعر لا يمكن أن يكون مجيدا في جميع الأغراض وفي جميع الحالات ، وقد يصيبه الفتور والضعف لظروف طارئة ، أو يرجع إلى أن وصف الخمر فن لا يحسنه جميع الشعراء ، وإن كان في حياها من الصادقين .

وأكثر ما يكون البارودي مبدا حين تقترن نشوة الشباب فيه بفرحة الحياة ، وتستوعب أحاسيس ذلك كله : الطيبة وفتنة الحسان الجميلات ، ويفنيه العاشق الكرم نضما يذفع قلوب السامعين إلى مشاركته حبه رستمته نستعرض قصائده

« غَارِ النَّدى بِالْجِيْزَةِ الْفَيْحَا »^(١) ، أو « أَلَا عَيْنِي تَزِيْمُ تَزَوِجَت »^(٢) ،
 أو « وَلَيْلَةُ أَنْسٍ قَصْرُ الْهَوَى طَوْلَهَا »^(٣) ، أو « أَدْرِ السَّكَّاسَ يَا سَيِّمُ رَحَاتِ »^(٤) ،
 أو « زَمَزَمَى السَّكَّاسُ وَهَاتِي »^(٥) ، أو « إِمْلَأِ الْقَدَحَ »^(٦) ، أو « تَقْنَى الْحَمَامُ وَتَمَّ
 الشَّدَا »^(٧) ، أو « نَمَّ الصَّبَا وَانْتَبَهَ الطَّاوُرُ »^(٨) ، أو « حَبَّذا الرَّاحُ فِي
 أَوَانِ الْبَهَارِ »^(٩) ، وغيرها نجد أن البارودي كان يحيا حياته في شبابه كما يهوى ،
 يستأثر لنفسه بكل نعيم في دنياه ، « ويجمع جمعا بديعا بين الطبيعة والحب
 والخمر ، وكأنما تلتقي معانيها في نفسه لقاء واحدا »^(١٠) . ومن جميل ما وصف
 لنا فيه ليلة من ليالى شرابه وأنسه قوله :

لَا عَيْبَ السُّكْرُ قَدْ فَتْنَى ودعاه فرط السرور ففَسْنَى
 رَسَا تَعْبُدُ التَّوَاظُرُ مِنْهُ واحدا في الجمال ليس يُشْنَى
 أَنْتَ الْحَسَنُ فَوْقَ خَدْبِهِ وَرَدَا ليس إلَّا بَغْمَزَةِ اللَّحْظِ يُجْنَى
 لَمْ يَزَلْ يَرْضَعُ السَّلَافَةَ حَقًّا غَابَ عَنَّا ، كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَّا
 فَأَتَمَّنَاهُ فَوْقَ دُرِّ زَهْرٍ برهة كَيَّيفِيْقْ ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا
 فَلَبِسْنَا هُنَيْيْهَ ، لَمَّا خَفَّ مِنْ سُكْرِهِ وَأَقْبَلَ كُفْنَا
 وَأَدْرَنَا الْكُؤُوسَ حَتَّى تَوَلَّى أَنْجَمُ اللَّيْلِ مِنْ أَحَادٍ وَمِثْنَى
 كَالْمَا لَيْلَةً أَحْبَبْنَا بِهَا اللَّهَ وَ إِلَى وَرْدَةِ الْقَدَاةِ وَتُبْنَا »^(١١)

(١) الديوان ج ١ ص ١٩ . (٢) الديوان ج ١ ص ٢٦ . (٣) الديوان ج ١ ص ٦٩ .

(٤) الديوان ج ١ ص ٨٩ . (٥) الديوان ج ١ ص ٩٢ . (٦) الديوان ج ١ ص ١٢١ .

(٧) الديوان ج ١ ص ٢٦٠ . (٨) الديوان ج ١ ص ١١٦ . والمراد زمن تفتح الأزمار في فصل الربيع .

(٩) الديوان ج ١ ص ١٤٢ ، والجوار : نبت طيب الرائحة . (١٠) شوقي « البارودي » ص ١١٣ .

(١١) هذه المقطوعة لم يبق نصها ، وقد عثون لها في الجزء المخطوط من الديوان بقوله « وقال

بعض ليلة أنس » ؟ المخطوطة (س) ص ٢٨٥ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٩١ .

ولم تكن الخمر عند البارودي في كل أوقاتها للنعم والتمتع ، فقد كان يشربها بعض الأباين ليمقد لسانه ساعة النضب حتى لا يظهر سره ، أوليدراً بها الهم ويسرى عن نفسه الحزن ، فإذا غنى ليصف أو ليقول وهو في هذه الحالة ظهر على شعره التهاك والضعف كما في قوله :

وَمَا شُرِبِي لِلدَّامِ هَوًى وَلَكِنْ عَقِدْتُ بِمَحْدٍ سَوَرَتَهَا لِسَانِي
خَافَةً أَنْ تَهَيِّجَ بَغَاتُ صَدْرِي فَيُظْهِرَ بَعْضُ بَرِيءِي لِلْعَيَانِ
دَعِ الدُّنْيَا وَسَلِّ الَّتِي عَنْهَا إِذَا اعْتَكَرَتْ بِصَافِيَةِ الدَّانِ
فَإِنَّ الرَّاحَ رَاحَةً كُلَّ نَفْسٍ إِذَا دَارَتْ عَلَى تَقَمِّ الْقِيَانِ
مَنْ الْخَمْرِ أَلَى دَرَجَتٍ عَلَيْهَا أَفَانِينَ مِنْ الْمُسْرِ الْفَوَاقِي
تَخَالُ وَمِيزَتَهَا فِي الْعَكَّاسِ نَارًا فَلَمَسَهَا بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ
فَخَذَهَا غَيْرَ مُذْخِرٍ نَفِيسًا فَلَيْسَ الْعَمْرُ يَدْخُلُ فِي ضَمَانٍ (١)

وكذلك شأن الفرسان من رجال الحروب يستغفون بالحياة حين تورى الحرب زندها ، ويفرقون في جها ومتمها حين تنيب السيوف في أعمادها ، وكأنما يموضون أيام الشدة بالرشاء ، وأيام الخطر بالتمتع والنعم ، أو لعلهم ينتهبون اللذة واللهو قبل أن تفاديهم الخطوب مرة أخرى فلا يدرون ماذا يكون مصيرهم فيها . وهي حال خليفة بالجندى للفظور على الجندية ، والشجاع للنعم بالنوازع القتية ، ومن أهمها الأخذ بالتقريب الحاضر والبعد عن الإطالة والتمتع والاستقصاء ، فليس من اللازم اللازب لصاحبها أن يتغلغل في التفكير إلى الدقائق والخفايا ، وأن يتوسع في الخيال والفلسفة ، وإنما اللازم اللازب له أن

(١) هذه الايات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد آياتها ٢٨ بيتاً ومضون لها بقوله « وقال في صباه » ؛ المخطوطة (س) ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

يكون عند دعوة الإتيام والفخار والقوة ملياً ، وعند دعوة للرح والغرام والفتوة مجيئاً . وكذلك كان البارودي كما يدل على نفسه شعره وكما يجبر عنه عارفوه ومعاشره وأبناء عصره^(١) . ويحمد البارودي فارس القرن التاسع عشر لثالث الرفيع للفارس العربي منذ روت عنه الأساطير ، وحين دخل التاريخ من بابه العربيض في القرن السابع مع امبراطوريته الواسعة إلى حروب الصليبين والتتار ، ويعيد إلى واقعا صورته بجميع خطوطها وألوانها النفسية بعثاً ونشوراً ، حتى الظلال التي قد تعلق بالصورة من طريقة تناوله الحياة العامة والخاصة ، فتعكس السمو في شخصيته ، والنور الذي يضيء جوانبها من عشقه وخره وحبه لجمال الطبيعة وفخره وإيمانه وكرمه .

على هذه الصورة كانت قيثارة البارودي أثناء عمله بالقصر ضابطاً وياوراً للخدو ، تعزف أنغام الحياة التي يعيشها مستمتعاً بحبه وحبوانه ، متقللاً بين مجالس اللهيومجنى اللذة ويكرع للتعمة . ويظل البارودي منطلقاً في لهوه يشئ ، حتى أواخر عام ١٨٦٧ فتفتقد حامة الأبك أنغام الهوى من صديقها الشاعر ، ولا تعود تسمعه بنقل من حبيب إلى حبيب ، يشدو بنفحات الحب ويبكي ألم الصدد وينرف الدمع من لوعة الأسى ونار الهجران ، ثم يأتيها صوته من بعيد يعزف لحن الاستقرار والعيش الهنيء في قفصه الذهبي الجديد ، فقد وجد البارودي إلفه ، واهتدى إلى القرنين ، وتزوج بعديله هانم يكن^(٢) .

ومع أن أسرة البارودي تنفي نفياً قاطعاً أن شاعرنا تزوج قبل « عديله هانم

(١) عباس محمود العقاد : شعراء مصر وثلاثهم ص ١٢٤ .

(٢) بنت أحمد يكن ، « يكن » منها ابن الأخت ، وقد كان أحد يكن بن أخت عمه علي ، واعتمد عليه في بناء ملكه ، وولاه إمارة الحجاز ، وتوفي عام ١٨٥٧ .

يكن^(١) . إلا أن بعض المصادر التاريخية ذكرت أن «عديله» كانت الزوجة الثانية للبارودى^(٢) ، وأنه تزوج قبلها بإحدى جواريه لمدة قصيرة ، ثم اختفت هذه الزوجة في ظروف غامضة^(٣) ولم يعد أحد يذكرها أو يذكر عنها شيئاً . وتروى بعض هذه المصادر^(٤) أن البارودى ذكر هذا الحادث في بيت واحد له يقول :

أنتلبنى ذات الدلال على أمرى إذا أنا أولى بالقناع والسَّتر

ندوة البارودى الأدبية :

كان بالقاهرة على عهد البارودى كثير من المجالس الخاصة ، من منتديات للأدباء ، ومجالس للفقهاء ، ومجتمعات للظرفاء أو المقتنين ، وندوات خاصة يجتمع فيها رجال الفكر وشيوخ العلم وعشاق الأدب . وهم مزيج مختلف ، منهم الثرى الوجيه ، والأديب الفقيه ، والأزهري المغمم ، والموظف المطربش ، والعالم والشاعر والقديم وطالب الحاجة ، والمزدلف إلى القوة والثروة ، ويجتذب كل مجتمع صاحبه الذى يناسبه حتى ليسكاد كل واحد يعرف مكانه من هذه المجالس حسب ذوقه وحاجته

أما المجالس العامة فكانت تجتمع دون نظام وعلى غير موعد ، يحضرها للتشاعرون ، ويؤمها البتدئون وأدعياء الفن والأدب ، تعقد فى اللقاهى

(١) ولم يرد في مذكرات الأسرة ذكر لزواج له قبل عديله هانم يكن .

(٢) برودى : كيف دافنا عن عراقى وصعبه ، لندن ١٨٧٤ بالإنجليزية س ١٨٧ ؛ والدكتور

محمد صبرى السريونى من حديث معه فى مايو ١٩٦٧ .

(٣) يرد الدكتور محمد صبرى أسباب الاختفاء إلى أنها قُتلت لأمر متعلق بالشرف ؛ ويذكر برودى

أحد أعداء البارودى ، بعد هزيمة التل الكبير واعتقاله ، كانوا يرددون قصة تراجيدية عن انتقام البارودى

من زوجته الأولى بسبب أمور متعلق بالشرف ، ولكنه بعد أن رأى البارودى ووهنه وضعفه ورفته كان

يجهد صعوبة فى تحقيق القصة . (٤) د . محمد صبرى السريونى فى الحديث الذى جرى معه .

والتزهات وفي الأفراح والمآتم . ويصف هذه المجالس واحد من روادها^(١) فيقول : وجدت فيها صنوفاً ممن يدعون الأدب وهم جهلة بلهاء ، صناعتهم للفتالة والخط وهم كثير منهم التكسب ونيل المطاء ، فإن أعطى رضى وإن منع يظهر السخط والمهزاء يسمون شقشقة اللسان - عنوان البيان ، ورون البلاغة والنصاحة في المهجاء والوقاحة ، ويمدون الفلظ الشنيع من أنواع البديع يسطون على أدب غيرهم ، ويدعونه لأنفسهم : ثياب منقوشة وعمام منقوشة ، وأعياب كبيرة ممثلة كبيرة ، لا يعرفون من العلم إلا اسمه ولا من الأدب إلا رسمه ، إذا رأوك على بساط الأدب تطفلوا فإن أخذت في البحث تنصلوا ، على أن شهرتهم أكبر من الأجرام ولحام أطول من إلية الأغنام . . . »

وأما المجالس الخاصة فكانت صورة مصغرة من مجلس الخليفة أو الأمير في الزمن القديم ، وقد كان عظماء القرن الماضي يستريحون إلى عكاكة عظماء القرون السابقة ، ويحبون أن يروا أنفسهم في حالة تضارع تلك الحالة ، ومجالسهم تحمي مجالس الإمارة وتروى الأدب الذي معموا به أو قرأوه عنه . ورواد هذه المجالس من ذوى الميول العلمية والأدبية والفنية من طبقة الأوساط والأغنياء ، ممن تثبت جدارتهم ويعرف مقامهم في هذه الميادين . وقد جرت العادة في الندوات الأدبية وقتذاك ألا يحضرها غريب عنها إلا بصحبة عضو منها يركبه لروادها ، فيأخذون في مناقشته حتى يقتبوا من بضاعته ، خشية دخول المزيفين وأدعياء الصناعة الذين كثروا في تلك الأيام^(٢) .

وكانت ندوة البارودي الأدبية قمة الندوات في عصره يعقدها في داره يباب الخلق ، ويؤمها صفوة القوم من أعيان للنشئين والشراء والعلماء وعشاق الأدب

(١) عبد الله النديم : سلافة النديم ج ١ ص ٢٤ - ٢٩ .

(٢) المصدر السابق .

والعلم^(١) . ومن هؤلاء الشيخ حسين الرصفي ، والسيد علي أبو النصر
وعلى اللبني شاعرا الميمية الخديوية ، ومحمود صفوت الساعاتي ، والشيخ أحمد
الزرقاني الكاتب الأديب ، ومحمد سميد بن جعفر مظهر الشاعر الناصر ، وشيخ
الأدباء عبد الله فكرى ، وأحمد وهبي الشاعر « الطرايشي »^(٢) ، وطالب العلم
الشيخ محمد عبده . وفي الندوة أمهات الكتب الأدبية تقرأ ، ودواوين النحول
من شعراء العربية تشدد ، ومعارضات لها تنشأ ، وعرض للمعنى الواحد في
صين مختلفة ، وأساليب تمثل فيها ألوان البديع ، ونقد لكل ذلك تتخلله
النوادر والملح الأدبية ، ثم يأتي دور اللهم فبرين الصمت ، ويتحول المجلس
إلى آذان مطلقة لسماع للمعجز من نبي الشعر الجديد . ويعود بهم البارودي -
حين ينشد - قرونا إلى وراء عبر التاريخ ، وكأنهم في حضرة الشريف الرضي
تارة ، أو مجلس للثني أخرى ، أو على الركب مع النابغة الذبياني ثالثة ، أو
يشاركون أبانواس دثته ، أو يحملون السيوف إلى الغارة مع أبي فراس ، أو
ينعمون بالطبيعة مع البحتري^(٣) . وفي كل مرة تهزم شخصية البارودي
فتوقظهم من الحلم وتردم من الرؤى والتصور إلى الحقيقة وهم لا يكادون
يصدقون أن هذا شعر ينشده شاعر يعيش بينهم ، ويرويه القمة التي تثبت
ذاتها دون أن تكون ظلا لشاعر سبقه ، والمعجز الذي بعث الشعر العربي بمد
طول رقاد ، والرائد الذي قاد نهضة شعرية في العصر الحديث .

(١) عبد الله النديم : سلافة النديم ج١ ص ٢٤ .

(٢) كان يبيع الطرايش في دكان بالنورية ؛ أنظر : أحمد نيمور: تراجم أدباء القرن الثالث عشر
وأوائل الرابع عشر ص ١٤٤ .

(٣) عارض البارودي هؤلاء الشعراء في بعض قصائد لهم وقد نشرت المارشات في كتاب الوسيلة
الأدبية وقد بدى في طبعه عام ١٨٧٥ ، وذلك يدل على أنه نالها في شبابه منذ عاد من تركيا حتى وقت الطبع .

الفصل الثالث

البارودي على طريق الثورة

فيا قوم، هُبُوا، إنما المرءُ فرصةٌ
أصبراً على تمسُّ الموانِ وأنتمُ
وكيف دون القلَّةِ دارَ إقامةٍ
أرى أروساً قد أينعت لحصادها
فكونوا حصيداً خامدين، أو افزعوا
أدبت، فساد الصوتُ لم يقض حاجةٌ
وفي الدهر طرقُ جهةٍ وسافعُ
عديدُ الحصى؟ إني إلى الله راجعُ
وذلك فضلُ الله في الأرضِ واسعُ
فأين - ولا أين - السيوفُ القواطعُ؟
إلى الحربِ حتى يَدْفَعَ الضيمَ دافعُ
إني، ولبناني الصدى وهو طائِعُ !

البارودي

مولد البارودي الشاعر

التحول الكبير :

ويقبل عام ١٨٦٨ فإذا به من الأعوام الحاسمة في حياة البارودي ، فقد أعلن في قصيدتين أن السنة التاسعة والعشرين من عمره سنة فاصلة بين عهدين من حياته: عهد الصبا والهور والفؤاد ، وعهد الجد والستولية والمداية^(١) كما يقول :

نَزَعْتُ عَنِ الصَّبَا ، وَعَصَيْتُ قَمِي وَدَافَعْتُ الفَوَاةَ بِالتَّسَامِي
وَمَنْ يَكُ جَاوِزَ العِشْرِينَ تَتَرَى وَأَرْدَقَهَا بِأَرْبَعَةِ وَخَمْسِ
فَقَدْ سَفَرَتْ لِعَيْنِهِ اللَّيَالِي وَهَانَ لَهُ الْمُدَى مِنْ بَعْدِ أَسْرِ

وكان من الممكن أن نصدق البارودي وهو يذكر لنا في هذه القصيدة البواعث الظاهرة لهذا التحول حين يقول :

نَظَرْتُ إِلَى المِرَاةِ فَكَشَفْتُ لِي قَنَاعًا لَاحَ فِيهِ قَتِيرُ رَأْسِي^(٢)
وَكُنْتُ وَكَانَ فَيِّنَانَا أَثِيثًا أَنَا زَعُ شِرَّتِي ، وَأَذُودُ بَأْسِي^(٣)
فَعَدْتُ وَقَدْ دَوَّى مِنْ بَعْدِ لَيْلٍ أَدَارِي صَبَوْتِي ، وَأَسِيرُ بِأَسِي

ولكننا نحس ربحاً ملتهبة بالمحاطفة الوطنية والشعور الصادق بمصاناة الوطن وعذابه تطالنا بها قصيدته الثانية التي يقول في أولها :

مَتَى أَنْتَ عَنْ أَحْمَقَةِ المَيِّ نَازِعُ وَفِي الشَّيْبِ لِلنَّفْسِ الأَبْيَةِ وَازِعُ^(٤) ؟

(١) الهيران : الجارم ج ٢ ص ١٦٠ ، ٢٠٢ .

(٢) القنير : أول ما يظهر من الشيب .

(٣) أنسان الشجر : أغصانه ، وشعر فينان كثير ؛ وأثيث : كثير طويل ؛ الشرة : النفاط

وقوة الشباب .

(٤) الأحمقة : قلة العقل وسعة الخفاقة .

ألا إن في تسع وعشرين حجة لكل أخى لهو عن الله رادع
فخاتم نصيبك الغواني بدلتها ونهفو بليغك الحام السواجم ؟
وهل يستفيق المرء من سكرة العبياء إذا لم تهذب جانبيه الوقائع ؟
أما لك في الماضين قبلك زاجر يكفك عن هذا ؟ بلى ، أنت طامع

والقصيدة تشهد ميلاد ثورة أخذت تحتاح البارودى وتملأ عليه نفسه ودينياه ،
وتفقه من عالم الفردية الذاتية التى يمش فيها إلى محيط العمل من أجل الجميع ،
ومن محور الحياة الخاصة الذى يدور فيه إلى مجال النضال الوطنى الكبير . ثورة يريدنا
أن نمتد من نفسه إلى مواطنيه فتوقظهم ليستأصلوا أسباب ذلهم وعلة ظلمهم ،
وبيشلوا ناراً تذهب بأسباب العذاب والظلم . ومثل هذا التحول الكبير لا يمكن
أن يحدث للبارودى فجأة ودون بواث ومقدمات ، أو أن يسببه بلوغه سناً
معينة فى حياته ، بل لابد أن دوافع قوية كانت وراء هذا التحول ، وتجارب
معينة عاشها البارودى فافطمت بها نفسه وشغنت بها عواطفه حتى وصلت إلى
درجة التشبع فأفاق . والبارودى منذ عاد من حرب « كريد » أصبح يحكم
عمله قريباً من مركز السلطة ومحور السياسة والحكم فى البلاد ، يلزم صانعها ياوراً
ويعيش مع مستشاريه من رجال اللعبة قرناً وزميلاً ، ويرى البارودى الأحداث
تسرع من حوله منذرة بانفطر ، حتى لتكاد تسلم الوطن إلى نهاية مفزعة من
الإفلاس والخراب والوقوع فى أغلال النفوذ الأجنبي ، فشدته إليها فزعاً مشفقاً .

رأى البارودى « إسماعيل » وقد قرب إليه طفمة من التمسرين والأجانب ،
بقودم العميل الأرمنى نوبار ، وجملهم رسلاً يحيلون له الملايين من البيوتات
للالية الأجنبية ، قروضا تسوق البلاد إلى الهاوية ، وتجرحها إلى مهاوى الاحتلال
لينفقها على ملاذ ومبازلة ، يبنى بها القصور ، ويقم بها الحفلات ، ويمسرها
فى أوروبا على مضارباته ومظاهر النطلة للفتون بها .

وشهد البارودى قبضة إسماعيل وهى تقطر بدم الضحايا من الفلاحين الذين اعتصرهم جباته وجلادوه حتى آخر درهم يملكون ، فى صورة ضرائب لم تسنها إلا شهوة الطاغية إلى المال . وزين له مستشاروه طريق الفساد ، ونأوا به عن الرشاد ، وهربوا إليه بالخبث والكر والخديعة والغدر ، وأخترعوا له الأساليب التى ترضى أهواءه وتمد بالمال معدة أطماعه ، وذكروه بما فعل جده محمد على من مصادرة الأراضى لتكون ملكاً خاصاً للوالى ، « فهو نائب السلطان فى البلاد خليفة الله فى أرضه والعباد ، فأرسل إلى الأقاليم من لهم قلوب كالصخور وخلق معروف بالوحشية والفجور ، أرسل عكوش وعمر لطفى وعمد سلطان لإكراه الأهالى على تسليم الأطنان ، فاغتصبوا له ثقاتيش الصميد .. واستعمل حسن راسم على الأقاليم البحرية ليتمم الخراب ويمم الرزية^(١) » .

وراقب البارودى إسماعيل وهو يستقبل فى قصوره الأفاقيين من الأجانب ، ساسرة وتجاراً ولصوصاً محترفين ، وييمثر عليهم أموال الدولة دون حساب . وكم من قادم جاء إلى مصر لا يملك قوت يومه ، فماهو إلا أن يأوى إلى إحدى قاعات الانتظار بقصر الجزيرة أو عابدين حتى يصبح من كبار التجار الموردين ، والفلاح المصرى رابض فى الطين مسخر دون مقابل للشركة الفرنسية فى القناة ، وفى حقول الخديو وحاشيته من الطفاة الظالمين^(٢) .

وعاسره البارودى « وهو يبيع الرتب يبع القماش إلى الأوغاد والأوباش ، ويستعملهم فى الأحكام وم لا يعرفون ماخطت به الأقلام . كل ذلك ومعدة ظله تهضم الحديد ، وجهنم أطماعه تقول هل من مزيد^(٣) » . وخاب فال البارودى فى إسماعيل واخطأت فراسته فيه ، وقد ظننه — يرم استقبله فى

(١) عبد الله التدم ومذكراته السياسية (١٩٥٦) ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق .

الاستانة وعاد في حاشيته - الحاكم للرتقب الذى تنتظره البلاد ليجرى فيها نسيم الأمن بعد ركود ، ويفيض عليها ماء المدل بعد نضوب ، وليبدل الاستبداد إنصافاً ورحمة ، فلا تمضى سنوات خمسة من حكمه إلا والبلاد على سمة أطرافها كليان أعد للذنين يظل سماؤها الطفيان ، ويستبد بها الظالون^(١) .

يرى البارودى كل هذه الأحداث ويرقبها . ويشهد خفايا الأمور ويسمعها ، وهو صاحب النفس الأبية الحرة فيمضه الظلم ، ويغزه القصاد وخز الإبر ، ويفيق من سكرة العبا ، ويجفو النوم عينيه كما يقول :

فَسَمِعَ أَنْيْنَ الْجَوْرِ قَدْ شَاكَ مَسْمَى وَرُؤْيَا وَجْهَ الْمَدْرَحِلِ عُرَى جَنْبَى^(٢)

وتشده الأحداث بقوة إلى دائرتها ، وما كان ليستطيع ولو أراد أن يكون بمنأى عنها ومعزل . فهي أحداث يعلق بها مستقبل أمته ، يراها ولا يستطيع أن يدهمها ، فتدوج في نفسه ثورة مكبوتة وتضيق عليه الأرض بما رحبت كما يقول :

وغدوتُ حرَّانِ القَوَادِرِ كَأَنَّمَا ضَاقتُ عَلَى رُجْبِهَا الْآفاقُ .

وتزداد الأحوال سوءاً خلال عام ١٨٦٨ ، « فقد حدث فيه حادث كان له شأن كبير في زيادة القروض وانحطار مالية البلاد إلى الهاوية » وهو إسناد وزارة المالية إلى إسماعيل صديق المفتش^(٣) . . وكان هذا الرجل في ذاته من الكوارث التي حلت بمصر^(٤) . ويصاب البارودى بالقزع من هذا التعيين فهو يعرف إسماعيل المفتش حق المعرفة ، ويعرف أسلوبه في العمل ، ويعرفه منذ كان « مسيراً للركائب^(٥) » في عهد عباس ، جباناً يخاف ظله أمام الأقوياء

(١) جريدة الطائف ٦/٥/١٨٨٢ .

(٢) هذا البيت لم يسبق نشره وهو من الجزء المضطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٥٥ بيتاً : المضطوط (س) من ٣٦٩ : والمضطوط (ج) من ٢٧٥ .

(٣) أخو إسماعيل من الرضاع مجهول الأصل ، ويقال إنه جزائرى المولد .

(٤) الراضى : عصر إسماعيل ج ٢ ص ٣٢ . (٥) يبت : التاريخ السرى ص ٣٤ .

طاغية مستبدا مع الضمءاء ، يعرفه وهو يشق طريقه بالدس والوشاية والخلدية واللق ، ويموز عطف إسماعيل وهو التقدير على استطلاع رغبات سيده ، ويملك الأسلوب الذى يروقه ، ويمد له المتع ألوانا ، ويفتن فى جمع المال من الأهلين - فى صورة ضرائب - بوسائل التعذيب والأرهاب . ومن ثم كان إسماعيل يجد لديه الراحة ومفتاح عقده ومشكلاته ، وكان المفتش يأخذ نصيبه من الغنيمة فأثرى وعاش حياة الترف والبذخ ، وبنى القصور واقتنى الجوارى والحظايا^(١)

وبين البارودى والمفتش عداة قديم^(٢) ، قد يكون سببه السكراهية التقليدية أو الطبيعية بين الفارس الشجاع والجبان الرعيد ، وبين الرفيع والوضع ، وبين صاحب الحسب وساقط النسب ، والفخور بمروءته وزمائه والمتخذ من ذلته وفساده وكذبه وريائه بضاعة ووسيلة للوصول إلى مآربه . وكثيرا ما كشف البارودى دسه لدى الخديو ورجال الحاشية وهو يحاول أن يوقع الفتنة بينهم جميعا^(٣) . ولكن هذه الصفات كانت لدى إسماعيل مواهب رفعت للمفتش إلى وزارة للمالية ليصبح شيطانه على خزائن مصر للفلسة ، وليصير الرجل الثانى فى البلاد^(٤) ، فتزداد به وطأة الظلم ، ويستدين للخديو ١٢ مليوناً من الجنيهات^(٥) . ويرى البارودى البلاد تهوى إلى الكارثة وقد انتهت مقاليدها إلى ثالث الطغنيان ، يجم فى قاعدته إسماعيل للمفتش ونوبار ويقبض على قته الخديو لإسماعيل . ويكشف البارودى حجب الغيب ببصيرة الشاعر ، فيرى سفينة البلاد تسرع بقياده الثالث

(١) أنظر : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٣٠ ؛ وبلنت ص ٤٦٨ ، ٤٧٠ .

(٢) مذكرات الأسرة .

(٣) مذكرات الأسرة ؛ وانظر : الرافى : عصر إسماعيل ج ١ ص ٢٣٧ .

(٤) بلنت ص ٣٤ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ .

(٥) الرافى : عصر إسماعيل ج ٢ ص ٣٢ - ٣٥ ؛ وجورج يانج : تاريخ مصر ص ٣٤٤ - ٣٥١ .

إلى صخور الهاوية لتتحطم ، وتهز الأحداث البارودى فيبقى من سكرة الصبا ،
ويقلبه الفزع والخوف على وطنه فيتغير ، كما يقول :
وإلى يستفيق البرء من سكرة الصبا . إذا لم تهذب جانيه الوقائع
وتشهد سقته التاسعة والمشرور من عمره هذه الإفاقة وذلك التغيير والتحول
الكبير ، فتعطل بمولد البارودى التأثير .

ويفكر البارودى ويطلق التفكير فى عمل يقف به تيار الفساد الاقتصادى
والاجتماعى والسياسى الذى يجر البلاد إلى الهاوية ، ويحاول أن يجمع زملاءه
وأقرانه من رجال اللبى ومستشارى الخديو على فكرته ، ويخصص أبحاثهم
ويجلس آراءهم فى حرص وحذر ، فلا يجد منهم إلا آذانا موقورة ، وقلوبا قد
غلبها الخوف وران عليها الفساد ، سادرن فى عمايات النواية والنش والتضليل
معاونين الطاغية فيما يفعل بالبلاد ، راضين من التهمة بنصيبهم . ويجد نفسه بينهم
غريب الروح والشيم فيهتف :

تغير الناس ما كنت أسمعهم	واستحكم القدر فى السادات والخشم
وظل أعدل من تلقاه من رجل	أعدى على الخلق من ذنب على غنم
من كل أشوة فى عز نبيه فطس	خال من الفضل مملوء من النهم ^(١)
سود الخلائق دلاجون ما طمعوا	على للحارم هداجون فى الظلم ^(٢)
فلا دمامة فى قول ولا عمل	ولا أمانة فى عهد ولا قسم ^(٣)
بلوت منهم خللا لو سمع بها	وجه الفزالة لم تشرق على علم ^(٤)
لا يدرك المجد إلا من إذا نهضت	به الحية لم يقعد على رخم ^(٥)

(١) الأشوة : ذو الشوه أو المشوم ؛ المرين : الأنث .

(٢) الدلاج : الذى يسير بالليل ؛ والهداج : الذى يمشى مشية الشيوخ فى ارتعاش وخوف .

(٣) القمامة : العهد ، (٤) الفزالة : الشمس ؛ العلم : الجبل .

(٥) هذه الأبيات لم يسبق نصحها وهى من الجزء المخطوط من الديوان . من قصيدة عدد أبياتها

وينزه البارودي نفسه عما بدنسون به أنفسهم ، ويعجب للأيلام بجمالهم مدة
للك ومستشاريه ، وتنظمهم معه في سلك واحد ليعيش بينهم والفرق شامع والهن
بعيد فيقول :

قَبْلَ أَنْ كَانَ سَوَى الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَرَى مِنْ بَنِيهِ فِي الْمَخْطُوطِ فَكَأَنَّ سَوَى
نَصَحْتُ وَغَشَوْتُ وَاسْتَقَمْتُ وَرَاوَعْتُ وَهَلْ مِنْ هَدَى بَيْنَ الْأَنَامِ كَنْ أَعْوَى ^(١)

ثم يعود إلى ندوته الأدبية في داره بباب الخلق عليه يجد استجابة عند من
يمثلون فسكر الشعب من مثقفيه ، ولكنه يهدم لا يملكون من الحجة إلا
ما وضعه المزيفون في آذانهم يضلون به شعب المسلمين باسم الدين ، من مثل قولهم
« إن طاعة الحاكم — مهما ظلم — من طاعة الله ، وإن كل شيء بقضاء
وقدر » ^(٢) ؛ ومن ثم « كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى
ومن يستنبيه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته ، ويمتقدون أن
سمادتهم وشقاهم ، وكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيائته وظلمه ، ولا يرى
أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبيديه في إدارة بلاده . أو إرادة يتقدم بها
إلى حل من الأحوال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يملكون من علاقة بينهم
وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به
وتضربه عليهم ^(٣) » .

الثورة المكبوتة :

ويمود البارودي إلى نفسه فيجدها وحيدة عاجزة عن أن تفعل شيئا ينقذ

(١) هناك البيان لم يسبق نشرهما وما من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة بعنوان « وقال
يقترع » وعدد أبياتها ١٨ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .
(٢) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٧٦ .
(٣) الشيخ محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٦ .

الوطن من الذئاب التي تكاثرت عليه فيتألم ، وتضطرب جوانحه « بثورة مكبوتة » . ثورة على الحاكم الظالم وعلى الجاشية الفاسدة ، وثورة على المواطنين الذين أذلهم الطغيان حتى فقدوا الأبحاس بأسانيثهم ووجودهم ، وتسعفه رية الشعر بفتارتها لينشد عليها « نشيد الثورة للبكوتة » ، يذكر فيه إسماعيل وجشمه في جمع الأراضي وللال ويتنبأ له بالنهاية المحتومة لكل جشع ظالم فيقول:

يودُ الفتى أن يجمعَ الأرضَ كلها إليه ، ولما يذرُ ما الله صانعُ
فقد يستعملُ المالُ حَقْفًا لربِّه وتأتى على أعقابهن الطامعُ
ولستُ بعلامِ النُيوبِ ، وإنما أرى بإحاطِ الرأى ما هو واقعُ
فَدَرَّهم يَخوضوا ، إنما هي فتنةٌ لهم بينها عمَّا قليلٍ مَصَارِعُ

ويتحدث عن الرتب والنياشين التي يبيها لإسماعيل للذين ألهمهم مظاهر الحياة فشفلوا بها عما يقاسيه الشعب ، يتحلون بها وهم معطلون من كل خير أو فضيلة فيقول:

لواعبُ بالأسماءِ يَتَبَدَّرُونَهَا سَفَاهًا ، وبالألقابِ ، فوى بضائعُ
وهل في التحلُّ بالكُنَى من فضيلةٍ إذا لم تُزَيَّنْ بالقَمَالِ الطَّبَائِعُ ؟

ويمكن حالة النزاع والاضطراب وعدم الأمان أو الاستقرار التي يعيش فيها المواطنون فيقول :

فبارئًا بات الفتى وهو آمنٌ وأصبحَ قد سُدَّتْ عليه المطالعُ
ويذكر ما هبأ به نفسه وأعدّها للأمر الذي فكر فيه غير أن الذين من حوله لم يساندوه في الرأى جبنًا وضغًا فيقول :

وما أنا - والدنيا نعيمٌ ولذةٌ - بذى تَرَفٍ تَحْنُو عليه المضاجعُ
فلا سيفُ مُفْضِلٍ ، ولا رأى عازِبٌ ولا الزندُ مُفْضِلٌ ، ولا السَّاقُ ظَالِمٌ
ولكننى في مشرٍ لم يَمُهم كرمٌ ، ولم يركب شِبَا السيفِ خَالِمٌ
(٩٢ - البارودى)

ويضئ البارودي لو أن معه زميل فضال يشاركه فكره وإحساسه وتذكرو
في قلبه ثورة على الأوضاع كالتى تلهب جوانحه ، يشاطره الرأى ويقضى إليه
بسريرة ونجواه ، ويرسم معه خطط للمستقبل لهذا الوطن للثقب ، إذن لتحمل
نصيباً من عبء الشعور الذى يطويه البارودي بين جنبيه ، ولاستراحت نفسه
لوجود من يشاركه آلامه وآماله ، ولكنها أمنيات كطيف الحالم تكذبه اليقظة كما يقول :

فمن لى سورور عاكُ إلى طيف حالم - بذى خلة تزكو لديه الصنائعُ
أشاطرهُ ودّى ، وأفضى لسمه - بسرى ، وأمليه إلى وهو رابعُ
لملى إذا صادفتُ فى القول راحةً - نضعتُ غليلاً ما روتهُ الشارعُ

ثم يبلغ الشعور الوطنى البارودي ذروته فيدعو قومه إلى الثورة على الأوضاع
الفسادة ، دعوة تثير فيهم الحية ، وتهزم من مضاجع الفتنة ، فيمس مواطن
الغزى التى يعيشون فيها من هوان وذلة وظلم ، ويحاول أن يدفع عنهم الخوف
الذى ملأ قلوبهم بتقدير موقفهم ، وم كثرة عديدة أمام الظالم ، وهو وأعوانه
قليلون ، ويدعوهم إلى حمل السلاح لتكون « ثورة مسلحة » تقضى على رؤوس
الفساد فيقول :

فيا قوم - هبوا ، إنما المرفضة - وفى المهر طروق جمّة ومنافعُ
أصبراً على مسّ الهوان وأنتم - عديدُ الحمى ؟ إلى الله راجعُ
وكيف ترون الذلّ دار إقامة - وذلك فضل الله فى الأرض واسعُ
أرى أروساً قد أينست لحصادها - فأين - ولا أين - السيوف القواطعُ ؟
فكونوا حصيداً خامدين ، أو افزعوا - إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافعُ

ولكنها سرخة تذهب قبض الريح ، ويمود صدادها يتعثر فى أذيال الخيبة
وحيداً كأنه مر بصعراء بققع ، ويتلفت البارودي حوله فلا يجد سميماً لئدائه

ولا يجيبا له ، وكان مواطنيه قد وضعوا أصابعهم في آذانهم كيلا يسموا ، وآثروا أن يكونوا حصيلاً خامدين فيثور البارودي عليهم ويقول :

أَقْبَتُ ، فماد الصوتُ لم يقضِ حاجةً إلى ، ولَبَّاني الصَّدَى وهو طائِعٌ
فلم أذرْ أن الله صورَ قبلكم تمائيلَ لم يُخلقَ لمن مَسَامِعُ
فلا تدعُوا هَذِي القلوبَ ، فإنها قواريرُ عَنِّي عليها الأضالُعُ^(١)

وثورة البارودي على الأوضاع الفاسدة عام ١٨٦٨ ودعوته قومه إلى الثورة واستعمال القوة حدث وطني يستحق المراساة والاهتمام . فالبارودي لم يكن من الطبقات للظلمة التي تماهى إرهاب الضرائب أو محنة السخرة ، ولم يس عرضه بأذى من فجور الخديو وبطالته ، ولم يهضم حق من حقوقه في الرتب العسكرية أو المراكز المدنية ؛ بل كان على النقيض من ذلك ، كان من الجراكمة وم الطبقة التي حظيت بالامتيازات في الدولة ، والتي يختار منها أنصار الخديو ومعاونوه وضباط جيشه ، يرقل في الثراء والنعيم ، ويعمل حارسا للخديو ثم ياورا ، ويصاهر الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن ابن أخت محمد علي .

ولو أننا تممنا في دراسة « القصيدة العينية » التي خرجت منها صيغته الأولى للثورة ، وما أحاط بها من ظروف نفسية للشاعر نجدها صرخة صادرة عن وطنية صادقة ، أطلقها البارودي الشاعر ذو الإحساس المرفه والنفس الحرة الكبيرة ، وانبعثت من شعور الفنان للتألم للحرية الذبوحة في وطنه ، وللظلم الذي يحشم على صدر مواطنيه ، وللإرهاب الذي يفرى كرامة المصريين وقلوبهم فيهب بهم أن يهبوا للثورة . وهنا يظهر البارودي الفارس فيمد الفنان بالوسيلة والأداة وهو لا يعرف في هذه المرحلة من حياته إلا السيف والرمح حلا للمشكلات

السياسية ومن ثم دعا قومه إلى الحرب ، وإلى معركة تطيح برؤس الإرهاب وتخلصهم من الفساد .

والذين كتبوا عن البارودى من المؤرخين السابقين ساروا على النهج الذى رسمته « حملة التشويه » للدبرة ، تلك التى سلطت على زعماء الحركة الوطنية المرائية سموم أفلامها ، ووجهت إليهم أكاذيبها ومفترياتها حتى تقال من سمعهم وتشوه من وطنيتهم ، فقتل فيهم المثل العليا للأجيال التى بدمهم حتى يفتقدوا الثقة فى الزعامة الوطنية ، فتخمد فى نفوسهم روح الكفاح ، ويموت فى قلوبهم نهض الحاس للوطنية الذبيحة على يد الاستعمار وأعوانه . زعمت « حملة التشويه » وتبمها — بحسن نية — مَنْ كتب بعدها من المؤرخين ، أن صرخة البارودى لإنقاذ وطنه ورفع شعار الحرية فيه لم تكن من أولها صرخة بريئة لوجه الوطنية والحرية ، بل دفنته إليها أغراض شخصية من أطماع ذاتية وآمال تراوده فى تولى الملك !

والحقائق نجملنا نختلف مع أولئك الذين ذهبوا هذا للذهب فى إلقاء التهمة جملة دون تفصيل أو توقيت . فالبارودى حين صرخ صرخته الوطنية الأولى عام ١٨٦٨ وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ودعا إلى « ثورة مسلحة » لم يكن يهدف إلا إلى صالح وطنه وإنقاذ مواطنيه ، فأطلقها نفثة مصدور ألم قلبه الظلم وشاك سمعه أنين المظلومين . وظروف البارودى وقتذاك من صغر سنه ، ومركزه الوظيفى ، وعدم توافر إمكانيات الثورة الحرية ووسائلها من قوة عسكرية ، أو قوة شعبية تؤيده ، أو أنصار وأعوان يقفون إلى جواره وهو يقود انقلابا يزيل به النظام القائم ويتولى على أثره الملك بمجمل الأمل للزعم ضريبا من الوم أو نوعا من الخبال ، ولم يعرف عن البارودى أنه كان موهوبا أو مغبولا !

وحقيق بالبارودى أن يجد الإنصاف من وطنه ، فيعترف له بأن صوته كان
أسبق الأصوات فى الدعوة إلى « الثورة المسلحة » على الفساد والظلم فى مصر
الحديثة . وجدير بالتاريخ أن يسجل له هذا سبق ، ويذكر له بالتقدير
شجاعته الوطنية فى وقت « بلغ فيه الاستبداد أشده ، والظلم جاوز حده ،
والطغيان فى عنفوانه ، والقهر قابض على صولجانه ، وبد الظالم من حديد
والناس كلهم عبيد له أى عبيد^(١) » حقيقة أن صيحته الأولى لم تجد صدى فى نفوس
الشعب ، ولم يشفع البارودى قوله بعمل إيجابى سريع قلقة العيون والأنصار ،
ولكن صيحته غلقت تلدور فى سماء الوطن تطن فى أذن المواطنين حتى تبعها
صيحات آخر منه ومن غيره ، وارتفعت الصيحات حتى اخترقت الآذان ومست
القلوب ، وأزالت عن الأفئدة خوفها واستردت شجاعتها فقامت بالثورة
المسلحة عام ١٨٨١ .

وكان البارودى ذا بصيرة ورأى ، فمايش الاستبداد والرجعية وأهلها
وهادنهم مرحليا رغما عنه كما يقول :

أعاشرهم رَغْمًا ، وودَّى لَوَّانَ لى بهم نَعَمًا أدْعُو به فَيُسَارِعُ
ولعله عايشهم ليجد فرصة ينشر فيها رأيه ويجمع الأنصار من حوله ، أو
لعله خشى أن يقابل رضا إسماعيل وعطفه بالتخلي عن خدمته ، فيستجلب
نعمته ، أو يثير من حوله الشكوك وما أكثرها فى عهد إسماعيل ، ذلك الذى
يجعل النفي والتشريد لمن لا يحوزون رضاه ، ويأخذ الناس بالظنه ، ويقتلهم
بالشبهة . فقد كانت إرادته المطلقة تحكم الخالص والمأم ، وما كان لأحد أن
تساوره نفسه بأن يعمل ما يخالف رأيه ، أو يرفض أمراً صدر منه ، أو
يمارض دكتاتوريته المطلقة ، أو يلفظ بينت شفة نقداً لأعماله ، فقد كان

بجانب كل لفظة نقي عن الوطن أو إزهاق للروح أو تجريد من المال^(١).
آثر البارودي سياسة للدأرة والصبر ولللاينة والعمل في صمت ، عل فرصة
تواتيه ، فيجمع من حوله الأعوان ليقودهم إلى عمل كبير يخلصون به الوطن ،
وحتى لا يفتن إسماعيل إلى ما في نفسه فيطير به طيرة بطيئاً سقوطها . وفي
ذلك يقول :

مدارةُ الرجال أخفُ وطناً على الإنسان من حربِ الفسادِ
وما كان العداءُ يخفُ لولا أذى السلطانِ ، أو خوفُ المعادِ^(٢)

ومع ذلك فلم يكن — وهو الشاعر — بمستطيع أن يكتم الثورة التي
تحتاج نفسه ، فكانت تخرج سا في شعره ، وشواظا من نار سخرته وهجائه ،
بطلقها على ثالث الفساد والظلمة وأعدائهم ، ويصلهم بزمه ويصهم بالمار
ويسجل مثالبهم للتاريخ . يهجو نوبار بالقصيدة التي مطلعها^(٣) :

وَصَالَكْ لِي هَجْرٌ وَهَجْرَكَ لِي وَصَلٌ فزدني مُصدوداً ما استطعت ولا تَأْكُ
وفيها يقول :

وكيف أودُّ القربَ من مُتَلَوِّنْ كثيرِ خَبَايَا الصدرِ شَيْئَتُهُ انْتَلُ
خَبِثْتُ فَلَمْ تُطَهِّرْتِ بِالماءِ لَا كُنْسِي بكِ الماءِ خُبَيْثًا لَا يَحِلُّ بِهِ الْفُسْلُ
فوجهُكَ منحوسٌ وَكَمْ بَكَ سَافِلٌ وَقَلْبُكَ مَدْعُولٌ^(٤) وَعَقْلُكَ مُخْتَلُ
بكِ اسودَّتِ الأيامُ بِمدَى ضيائها وَأَصْبَحَ نَادَى الْفَضْلِ لَيْسَ بِهِ أَهْلُ

(١) محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص ٣٦ .

(٢) الديوان : الجزء ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٣) دلتى كريمة الشاعر الفاضل فاطمة ومعية من أن هذه القصيدة قيلت في نوبار .

(٤) القلب المدغول : الفاسد المفقود .

فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي الدَّهْرِ مَا أَهَضَّ حَادِثُ . . . بَقُومَ ، وَمَا زَلَّتْ بَذَى أَمْلُ نَعْلُ
فَا نَكْبَةُ إِلَّا وَأَنْتَ رَسُولُهَا وَلَا خِيَةَ إِلَّا وَأَنْتَ لَهَا أَصْلُ
أَدَمُ زَمَانًا أَنْتَ فِيهِ وَبِلَهَةٍ طَلَعَتْ عَلَيْهَا إِتَهُ زَمَنُ وَغُلَّ (١)
وَقِي إِسْمَاعِيلُ صَدِيقُ الْفَتَشِ يَقُولُ (٢) :

يَا سَابِقَ الشَّيْطَانِ فِي فِعْلِهِ أَمَا كُنَّيْ أَنْتَ مِنْ حَزْبِهِ ؟
لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي الدَّهْرِ مُسْتَوَزَرًا مَا حَارَعَ النَّاسُ إِلَى سَبِّهِ
فَأَخْسَأُ فَمَا الْخُزِيرُ فِي نَوْعِهِ أَخْسَأُ طَبَعًا مِنْكَ فِي لُبِّهِ
أَنْتَ الَّذِي تَوَلَّى خَوْلُ الْوَرَى مَا نَامَ مِنْ أَمْنٍ عَلَى جَنْبِهِ
بِفَعْلُ النَّاسِ أَفَاعِلُهُ وَلَا يَخَافُ اللَّهَ مِنْ ذَنْبِهِ
فَالْخَيْرُ وَالنِّعْمَةُ فِي بُنْدِهِ وَالشَّرُّ وَالنُّقْمَةُ فِي قُرْبِهِ
أَشَدُّ خَلْقِ اللَّهِ كِبَرًا فَإِنْ قَاتَلَتْهُ كَرَّ عَلَى عَقْبِهِ
لَوْ بَلَغَتْ هَمُّهُ كَوَكْبًا فَرَّ مِنَ الْجَوِّ إِلَى شَرْبِهِ
هَجَوْتُهُ لَا بَالًا لَوَمِّهِ لَكُنَّيْ كَفَكْفَتْ مِنْ غَرْبِهِ
فَإِنْ أَكُنْ قَدْ نَلْتُ مِنْ عِرْضِهِ فَإِنِّي دَلَّسْتُ شَعْرِي بِهِ (٣)

(١) القصيدة كاملة تحت عنوان «وقال بهجو» ج ٢ ص ٩٦ — ٦٠٠ من الديوان شرح الإمام

(٢) ذكرت لي كريمة الشاعر أن هذه القصيدة قيلت في إسماعيل صديق الفتش .

(٣) الأبيات الثانية الأولى لم يسبق نشرها، وهي من قصيدة عنوانها في المخطوطة (ج) «وقال

بهجو» ثم ضرب بالقلم على كلمة «بهجو»، والقصيدة ١٧ بيتاء مضروب بالقلم على ١٤ بيتاً منها، ولم نستطع قراءة الستة الأبيات الأولى لشدة طمسها، واستطعنا قراءة الأبيات الثانية التالية لما وهي هنا من ١ إلى ٨ . والأبيات الثلاثة الباقية من القصيدة موجودة في الديوان المطبوع (الجارم) ج ١ ص ٨٢ ومنها البيت التاسع والمائس هنا . ولم يذكر من القصيدة في نسخة الجارم وفي الديوان الذي شرحه الإمام إلا الأبيات الثلاثة التي لم تطبق في المخطوطة (ج) . ولم يذكر في المخطوطة (س) من القصيدة، إلا الأبيات الثلاثة الأخيرة تحت عنوان «وقال» ص ٣٦ .

ويمتد هجاؤه إلى الذين يماونون في الحكم جميعاً » وبذم سيرة رجال
الحكومة الاستبدادية على عهد إسماعيل » فيقول :

وَأَناسٌ صَحَبَتْ مِنْهُمْ ذُنَابًا تَحْتَ أَثْوَابِ أَلْفَةِ وُودَادِ
أَظْهَرُوا زُخْرَفَ الْغِدَاغِ ، وَأَخْفَوْا ذَاتَ نَفْسٍ كَالْجُرِّ تَحْتَ الرَّمَادِ
فَقَرَى الرِّءُوسُ مِنْهُمْ ضَاحِكٌ لَمْ نَ وَفِي ثَوْبِهِ دَمْلَةُ الْعِبَادِ
مَعَشَرٌ لَا وَلِيْدَهُمْ طَاهِرُ الْمَهْ لَمْ ، وَلَا كَهْلَهُمْ عَفِيفُ الْوَسَادِ
حَكَمُوا مِصْرَ وَهِيَ حَاضِرَةُ الدُّنْ يَا وَقَدْ سَمَّا حُسْنَهَا فِي الْبَوَادِي
أَصْبَحَتْ بِمَقْدَمٍ جَمِيعًا وَكَانَتْ جَعَةً لَيْسَ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ
وَقَعُوا بَيْنَ مُدْنِهَا وَقَرَاهَا يَضْرُوبُ التَّفْسَادُ وَقَعَ الْجَرَادِ
فِي زَمَانٍ قَدْ كَانَ لِلظُّلْمِ فَيْدِ أُرْوِ النَّارِ فِي هَشِيمِ الْفَتَادِ
حِينَ لَمْ يُرْحَمِ الْكَبِيرُ وَلَمْ يُعْ طَفَ عَلَى الْأُمَهَاتِ وَالْأَوْلَادِ
بِمُرْجِعٍ مِنَ الْعَذَابِ مُهِينِ وَمُبِيرٍ مِنَ الْأَذَى رَعَادِ
تِلْكَ آثَارُهُمْ تَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ جَفْوَةٍ وَتَبَادِي^(١)

ظلت نفس البارودي تموج بالثورة المكتومة وهو يرى إسماعيل سادرا
في أحمقة التبذير والإسراف واللعب بمقدرة البلاد، ينفق الملايين في الرشوة
والهدايا لسلطان تركيا ورجال الباب العالي ، لينال لقب الخديو ، ويحصر
الخديوية في أبنائه ، ويبيثر المال على مظاهر الترف والبذخ ، فخلات افتتاح قنات

(١) عنوان القصيدة في المخطوطة (ج) » وقال يذم سيرة رجال الحكومة الاستبدادية على عهد
إسماعيل باشا خديو مصر » ثم شطب على ما بعد كلمة « وقال » من ٧٢ وجعل لها الديوان المطبوع عنوانا
مختلفا فني طبعة الجارم جعل لها « وقال في « تم » ، وطبعة الإمام جعل لها « وقال يذم أناسا » ، والقصيدة
في المخطوطة (ج) ٣٠ بيتا ثم شطب على أبيات ستة من ٢٠ إلى ٢٥ ، وهي هنا الأبيات من ١٠ إلى ١٠ ؟
وقد ذكرت القصيدة كاملة في المخطوطة (س) من ٧٠ ، على غير ما جرى عليه الناسخ ، تحت عنوان « وقال يذم » ،
وهذه الأبيات الستة لم يسبق نشرها .

السويس بسفه جمل الخبراء الأجانب يصفون هذه الحفلات بسلسلة متصلة من أعمال جنونية لم تزل البلاد منها أية فائدة مقابل فقاتها الفادحة ، « ووراء واجهة الحفلات شعب وصلت به المبودية وال فقر إلى الحضيض ^(١) » . وعلى بعد خطوات منها عشرات الألوف من قبور المصريين الذين ماتوا وهم يملون مسخرين في خمر القنائة .

ولا تستطيع خزانة الدولة أن تواجه تبذير إسماعيل وخداع الأجانب وتمايلهم في النهب الإجرامى واستنراف دماء الشعب المصرى ، فتمد له البنوك والبيوت المالية الأجنبية حبل تغفلل النفوذ الأجنبى - فى صورة قروض - ليربط به مستقبل البلاد . ويبتكر له وزير ماليته إسماعيل المفتش الحليل التى يبتز بها أموال المواطنين حتى آخر درم لديهم . وبلغ ما اقترضه اسماعيل حتى عام ١٨٧١ من الأهالى والأجانب ٤٦ مليوناً من الجنيهات . أما الأهالى فقد استطاع أن يخرسهم بإرهابه وظلمه ، وأما رجال المال والمرايين الأجانب فقد أوقفته حماقتهم تحت سيطرتهم بعد أن عرفوا اللغة التى يفهمها وهى لغة النقود ، فعندما يريد الخديو أن ينفق كانوا مستعدين لتقديم القروض إليه مقابل فوائد وعمولات قد يصل إلى قيمة نصف القرض نفسه ، وعندما يتباطأ فى الاقتراض كانوا يدفعونه دفعا إليه بوسائل الضغط والتهديد ، ومن خلال القروض وبسببها استطاعوا أن ينفقوا إلى مرافق الدولة ويقبضوا على مقاليد الأمور فيها .

على الطريق مع الأحرار :

فى عام ١٨٧١ بدأت تهب ريح من فكر جديد على مجالس المثقفين فى مصر ، وأخذت المناقشات تدور حول الأفكار الجديدة وصاحبها « جمال

(١) بنوك وباشوات ص ٢٥٠ .

الدين الأفغانى « وقد نزل بمصر ضيفا فأكرمت منواه . » ويشدد الجدل حتى لتكاد تحدث فتنة بين القوم ؛ بين معارضيه الذين يصفون كل ما لا يحدونه فى علمهم التقليدى ضلالا ومروقا ، وبين ذوى البصيرة من الشباب الذين يتلسون معالم الطريق ليخرجوا من الظلمات التى تحيط بهم من كل جانب . الظلمة السياسية ، والظلمة الاجتماعية ، والظلمة الدينية ، والظلمة الفكرية ، ينشرها عليهم ديجور الظلام الأكبر من استبداد الحاكم وطفئانه . واستهوت المناقشات حول « جمال الدين الأفغانى » وأفكاره محمود سامى البارودى ، كما استهوت صنوفا من المثقفين وذوى النفوس المتطلعة إلى الحرية الذين يتوقون إلى المعرفة الحقيقية وقد أضنت الحيرة قلوبهم ، أو يتوقون إلى الحرية الفكرية والسياسية وقد طعموا مذاقها وهم يتعلمون فى الخارج .

وكان القدر كان يمد جمال الدين الأفغانى ليقوم بدور كبير فى مصر ، فقد وصل إليها وفى قلوب كثرة من شبابها عزيمة تنوق إلى العمل حتى تخرج الوطن من الظلمة التى يعيش فيها إلى النور ، وفى أفئدتهم ومضة من أمل فى فجر جديد تلقى به مصر عن كاهلها كابوس الفساد ، ويتحقق لها المستقبل الكريم . غير أنها كانت عزمات فردية ليس بينها تكتل وتعاون ، وآمال متفرقة لا يجمعها لقاء ، ومن ثم لم نستطع أن تؤثر فى ميزان القوى الوطنية ، ولم تجرؤ على الظهور على مسرح العمل أمام طغيان إسماعيل وعيونه ، فكان جمال الدين محور التعجيب ، وكانت حلقاته مجالا للتماريف بين الطاقات المحترزة المتحفزة للانطلاق ، وفى مجالسه التقى الأحرار .

وتردد البارودى على مجالس جمال الدين الخاصة^(١) ، واستقبل البارودى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٦٤ ؛ وأحمد أمين زعماء الإصلاح فى مصر الحديث (١٩٦٥) ص ٦٧ .

جمال الدين في ندوته الأدبية بداره في باب النخاع ، واستمع إليه وهو يتدفق كالسيل من قريضة لا تعرف السكلال ، يسط ما ينير القول أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور ، أو يستلقت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد^(١) ، وإلى ما وصل إليه أهلها من ذل المبودية وبؤس التحكم .

كان الأفغانى ييسط لساميه آراءه في الدين فيدعو إلى ضرورة تجديد الفكر ، فيتناول تعاليم الإسلام وشرائعه بروح متفتحة بمسيرة للمعصر والمدنية الحديثة ، وينادى بحركة تجديد ديني تطلع مارسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي . ويشرح لهم وجهة نظره في الأدب فهو يرى ضرورة تحويله لخدمة الشعب ، يطالب بحقوقه ، ويدفع الظلم عنه حتى يكون أدباً منبثقاً من آلام الشعب وآماله معبراً عنها ، وليس أدباً أرستقراطياً يعيش في ركاب الحاكم يمدحه ويهنئه ويستغلفه ويعتذر إليه ، وبذلك يصبح أدباً هادفاً يعالج مشكلات الأمة الاجتماعية والسياسية والماطفية ، وينشر بين الناس في الصحف والندوات والمحاضرات والشعر . في سياسة يريد أن تتحرر الشعوب الإسلامية من عبوديتها للحكام ، وأن يفهم موقفها من الحاكم وموقف الحاكم منها ، وأن يكون لها رأى عام قوى واسع الثقافة ، حازم يستطيع أن يقرر مصيره في شئونه الداخلية والخارجية .

ويسمع الباروى « جمال الدين » وكأنه يعرفه من أمد بعيد ، وتتلاقى زواجها وكأنهما يصدران من إحساس واحد . إحساس التألم لما يقو به القوم من الظلم والمبودية ، ومن العقول التي تنلفت بالجهل والأضاليل ، ومن

السياسة الخرقاء التي تسوق البلاد إلى الهاوية . إحساس النفوس الحرة تتعذب لمذابات البشر وإن لم يصبها الضرر ، فتعمل لخلاصهم وتسعى إلى شفاؤهم مما يتألمون منه ، وإن اختلفت الدوافع وتباينت الوسائل . فالبارودي تدفعه العاطفة الوطنية ، والتطلع إلى الحرية ، والإخلاص للأرض التي حلت بها توائمه ، والأفئاني تدفعه النزعة الدينية والرغبة في نهضة العالم الإسلامي في وجه الدول الغربية ، وفي وجه ملوكه وأعدائه المتألبين عليه ، بل في وجه أبنائه الكارهين للإصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق اللواء . والبارودي يرى — بعقلية رجل الحرب — أسلوب التفسير في القوة وفي دعوة قومه إلى الثورة المسلحة والإطاحة بدموس الفساد ، والأفئاني — وهو فارس أيضا شهد الحروب وحضر الوقائع^(١) ومارس الحياة السياسية فزادته تجربة ومرانا — يرى التفسير في إيقاظ عقول الخاصة من أبناء الأمة وتدويرها حتى تتضح لهم الرؤية أولا ، ويعرفون مواقعهم من الفاسيين الأجانب والمستبدين من الحكام ، ثم يعمل هؤلاء لتكوين الرأي العام في الأمة وتجميع الشعب من حولهم فيكون الإصلاح أو الثورة^(٢) .

ويلتقى البارودي في مجلس جال الدين بالصفوة المتحررة من المثقفين وقد شدم جميعا إليه بسحر كلماته ، وكأنها المفاتيح الصغيرة التي تدار فتنبعث منها قوى الكهرباء لا يستقر لها قرار . وتمس جرائته وآراؤه قلوب الشباب ، وتجاوب مع الأفكار التي يكتتمونها في نفوسهم حذر الدكتاتور الطاغية ، « والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لكل رجل يتكلم في مصر بصراحة ، ولم يكن إسماعيل يسمح بأقل معارضة ، وكان حكمه مطلقا حتى فقدت الألفاظ

(١) عباس محمود العقاد : عهد عبده ، سلسلة أعلام العرب ص ١٢٤ .

(٢) زعماء الإصلاح ص ٢٩٧ وتاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٧ .

المستقلة من أفواه الرجال^(١) . ويعترف البارودي على الذين يشاركونه أحاسيسه الوطنية المكبوتة^(٢) - تلك التي أفسد بها قلبه منذ عام ١٨٦٨ - وإن أخرج الخوف ألسنتهم وأضعفتهم التفرقة !

كان جمال الدين ذا بصيرة نافذة تلمح في كل مريد غاياته ومواهبه ، فينبه فيه ملكات ذهنه ، ويستحث في قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة حسب فطرته واستعداداته ، وقد لمح جمال الدين في البارودي طموحا يذهب به إلى معالي الأمور ، ويدفعه إلى القيام بعمل كبير يخلص به الوطن من الفساد والذل ، وعرف فيه الهمة التي تنهض بصاحبها إلى الغاية العصية والمطلب البعيد ، والثقة التي لا غنى عنها لمن يتصدى للمعظّم من الأمور فاصطفاه ، مع قلة من مريديه ، على غيرهم وأعطاهم من الاهتمام والوقت قدراً كبيراً . وكأن الأفغانى رأى بظفر النيب أن للبارودي رسالة في وطنه ودوراً في سبيل تحرير أمته ، ووجده على ثقة بنفسه في أداء الرسالة فقد نهياً لها بنزعاته وآماله ، وانتسدر عليها بطموحه واستعداداته .

ويكشف الأفغانى عن آرائه الحرة فيجد فيها البارودي كثيراً من ذات آرائه ويكتشف أنهما يسيران على نفس الطريق مع الأحرار ، فالأفغانى يهدف إلى نهضة العالم الإسلامى في وجه الدول العظمى ، وخطته في ذلك أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة على الأقل صالحة لقيادة العالم الإسلامى كله في معترك السياسة الدولية ، وفي تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية ، وأن تكون هذه الدولة الزائدة مصر . وتلتقى الخطة مع مايرمى إليه البارودي من تخليص

(١) التاريخ السرى ص ٧٩ .

(٢) من رواد حلقة جمال الدين الأفغانى : محمد عبده ، عبد السلام الوياشى ، إبراهيم الوياشى ، إبراهيم اللقانى ، سمد زغلول ، على مظهر ، حنى ناصف ، أديب اسحاق ، عبد الله التميم ، عبد الكريم سلمان ، إبراهيم الهياوى وغيرهم .

وطنه من الظلم والدكتاتورية المستحكمة فيه، وإنفاذه من النفوذ الأجنبي الذي أخذ يستشري في مراقبه .

ويقتنع البارودي بأسلوب العمل السياسي للأقناني وهو التفسير عن طريق تجميع الرأي العام بإثارة العقول ، وإيقاظ الشعور ، وكشف حجب الغفلة عن القلوب حتى تحس بالظلم وتتألم للذلة ، فتثور على الظالم وهناك معجزة التفسير . ويشهد إعجاب البارودي بجمال الدين ، وبسيطرته على القلوب والعقول ، وبمحجته وبيانه حيث « تلقى إليه أدق المسائل فيحل عقد أشكالها . . . بلسان عربي مبين لا يتلثم ولا يتردد وكأنه عربي اللسان واللبت ^(١) » . وتحول معاني الإحجاب إلى شعر يصفه به البارودي فيقول :

يَا لَكَ مِنْ ذِي أَدَبٍ أَطْلَقْتَ ^(٢) فِكْرُهُ ثَابِتُهُ الْإِنْجُمُ
حَازَ مَدَى قَمَرٍ عَنْ شَأْوِمِ كُلُّ أَخِي سَابِقُهُ يَرْجُمُ ^(٣)
فَهَوَ إِذَا قَالَ عَلَا ، أَوْ جَرَى بَرَزَ ، أَوْ تَنَاضَلَ لَمْ يُحْجَمِ
ذُو فِكْرَةٍ قَاضَتْ بِمَا أُودِعَتْ مِنْ حِكْمَةٍ كَالْمَارِضِ الْمُتَنَجِّمِ ^(٤)
دَانَ لَهُ بِالْفَضْلِ عَنْ خِيبَةِ كُلِّ فَصِيحِ الْقَوْلِ أَوْ أَهْجَمِ
دَلَّ عَلَى مَعْدِنِهِ فَضْلُهُ دَلَالَةُ التَّضَرُّعِ عَلَى الْمُنْجَمِ ^(٥)

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤٤ . (٢) في المخطوطة (ج) أطلقت بالعين .
(٣) حاء الناطم بالنيل المضارع مكسوراً وهو غير مسبوق بجازم ، وقد جاء في شعر العرب كثيراً ومنه قوله النابغة :

بَحْضُ رَحِمٍ كَانَ بَنَانَهُ عَمَّ يَكَادُ مِنَ الْإِطَافَةِ يَقْدُ
وَقَالَ زُهَيْرٌ (عَلَى خِلَافِ) :

سَأَلْنَا فَأَعْطَيْنَا وَعَدْنَا فَعَدْتُمْ وَمِنْ أَكْثَرِ النَّآلِ يَوْمًا سَجِمُ
(٤) العارض للنجم : السحاب السريع للطر .

(٥) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها عشرة بعنوان « وقال مدح » ؛ المخطوطة (س) ص ٣١١ ؛ والمخطوطة (ج) ٢٦٧ . وقد دلت كرمنا الشاعر على أنها قيلت في الأقناني .

نيرون عهد للاحتلال :

في ٨ يونيو ١٨٧٣ صدر فرمان الجامع وفيه تغير أسلوب ورائة العرش في مصر فانهصر في الإبن الأكبر ، وتحدثت به ولاية العهد في محمد توفيق بن إسماعيل ، وعين محمود ساي البارودي كبيراً لياوران ولي العهد^(١) الجديد ، وتهايات بذلك فرصة للبارودي عرف فيها توفيق عن قرب ، ووضع يده على مقائسح شخصيته التي تحمكت فيها هوامل كثيرة سببتها نشأة توفيق وعلاقته بأبيه ، فأخرجت منه إنساناً ضعيف الرأي متردداً قليل الشجاعة والحزم^(٢) ، وكان قد ولدته لإسماعيل إحدى سراريه^(٣) فلم يعامله المعاملة الخليفة بولي عهده ، ولعت أمه « الجارية » نذر الشر تريد أن تعصف بولدها فأدخلت في روعه وهو طفل صغير أن والده يريد التخلص منه حتى لا يكون وريث عرشه ابن جارية ، فعاش توفيق والرعب يملأ قلبه من أبيه . ولم تربطه بهذا الوالد رابطة الإخلاص أو للودة ، وكانت نشأته بين سيدات الحريم أكثر عماهى بين الرجال ، ومن ثم نشأ ضعيفاً لا يسمه إلا الإذعان لأية إرادة أقوى من إرادته ، ولكنه يسمى بعد ذلك لتنفيذ ما يريد بالطرق اللتوية الخفية^(٤).

ولعل البارودي حاول أن يقف إلى جوار ولي العهد الشاب وأن يقيمه على الطريق السليم ، أو ييث فيه شيئاً من الثقة بالنفس ، أو يبعث في قلبه بعضاً من الشجاعة والحزم أملاً في أن يكون عاجلاً لستقبل أفضل ، ولكن

(١) مقنة مرأى الشراء من ١١ ؛ ومقنة الديوان شرح الإمام .

(٢) عبد الرحمن الرافى : الثورة المارية والاحتلال الإنجليزي (١٩٤٩) ص ٢٧ .

(٣) بعد صدور فرمان الجامع أشار السلطان على إسماعيل بأن يعقد عليها حتى ترتفع إلى مرتبة الزوجة ، فصارت الزوجة الرابعة لإسماعيل ؛ مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ٨١ .

(٤) التاريخ السرى ص ٩٥ - ٩٦ ؛ والرافى : الثورة المارية ص ٢٢ .

توفيقاً كان كما صمته الأقدار « سلبى الطباع ، هم الأول أن يخفى حقيقة نفسه ، ويلقى على الغير تهمة الفشل الذى يحدث بسبب خطئه ، وكذلك بفضه للشئ لم يكن يظهر برفضه إياه صراحة بل باصطناع الأقاويل والوقية والتفرقة . . لم يخلص لشيء قط ، ولم يثق به أحد إلا غدر به ^(١) » . عرف البارودى عنه كل ذلك خلال الشهور الثلاثين ^(٢) التى قضاها كبيراً لياورانه ، فلم يحمل له احتراماً طوال حياته . وفى أكتوبر ١٨٧٥ نقل البارودى إلى حاشية الخديو ليصير كاتب السر الخاص (سكرتيراً) لإسماعيل ^(٣) .

عاد البارودى إلى معية إسماعيل فوجده وكأن الشيطان يتخبطه من المس ، بعد أن بلغت ديونه ٩٦ مليوناً من الجنيهات رهن فيها كل موارد الدولة ، وأحاط به الدائنون من كل مكان وشدودا عليه قبضة السداد ، وهددته الدول التى ترعى مصالح الدائنين بإشهار إفلاسه ، فارتكب الجريمة الوطنية الكبرى وباع أسهم مصر فى قناة السويس (نوفمبر ١٨٧٥) لأجملترا ، فهدد الطريق أمامها للاحتلال الذى أصبح بعد هذه الجريمة أمراً لا مفر منه . وتتابعت جرائم إسماعيل السياسية فطلب من أجملترا إيفاد موظف مالى يدرس مالية البلاد ، وجاءت « بعثة كيف Cave » فى ديسمبر ١٨٧٥ لتضع خطة التدخل الأجنبى ، وتحقر لإسماعيل قبره كما اعترف هو بذلك ^(٤) . وبدأت الخطة بإنشاء « صندوق الدين » عام ١٨٧٦ فكان أول هيئة رسمية أوروبية تفرض التدخل الأجنبى وتبدأ بهما الرصاية الأوروبية على مصر ، وتلاها تكوين مجلس أعلى مختلط للمالية ، ثم توحيد الديون وإنشاء المحاكم المختلطة . سلسلة من الجرائم السياسية والوطنية

(١) التاريخ السرى ص ٩٦ .

(٢) مقدمة مرائى الشعرا ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) كوشى : المركز الدولى لمصر والسودان (١٩٠٣) ص ٥٧ .

مكنت للنفوذ الأجنبي فاحتل بها مواقع جديدة على حساب استقلال البلاد .

وتتحالف القوى المستنزفة المالية للصربية وتحتل المعاصر للرهقة لانتصايات الدولة لتقضى على معنويات الشعب ومادياته ، فيبدأ ترزح البلاد تحت ديون إسماعيل ، ويفتلك التدخل الأجنبي استقلالها — تطلب تركيا نجدة من الجيش المصرى لتعينها على ثورة الهرسك وبلاد الصرب ، ولا يجد إسماعيل فى خزائن الدولة الخلاوة ما يمد به الحملة ، فيوفد البارودى إلى الأستانة برسالة خاصة على السلطان يقبل اعتذار مصر ويضيفها من المبدء الجديد ، ويقيم البارودى فى الأستانة ثلاثة أشهر^(١) ثم يعود إلى مصر يحمل تهديد السلطان ووعيده ، فيفرض إسماعيل على الشعب الرهق « ضريبة الجهاد » . وتسافر الحملة لتقدم التشيية المصرية ضحايا لحرب لاناقة لهم فيها ولاجل . ويوفد البارودى إلى الأستانة برسالة أخرى تختص بالفتنة البلغارى وخروج الجبل الأسود على تركيا^(٢) ، ويكاد الردى يلحق بالبارودى أثناء عودته من هذه السفرة (ديسمبر ١٨٧٦) « فقد اصطلح القطار الذى أقله من الاسكندرية بقطار بضاعة على كوبرى كفر الزيات فززل حديد الكوبرى ، وتوقست أعمدته الضخمة ، والتوى بعضها على بعض ، وتجا البارودى بمعجزة وكان على قيد أنامل من الموت ، ولكن هول الصدمة لم يفقده جنانه ، ولم تفارقه فروسيته والوت ينفرد له فاه ، فقد استنجدت به فتاة جركسية من ركاب القطار ، فلم ينتج إلا بعد أن اقتشلتها من جميع الموت^(٣) .

(١) مقدمة مرآئى الشعراء ص ١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الجوائب المصرية عند ٧٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .

نجا البارودي ليعود إلى الوطن فيجد ما هو أشد على نفسه من الموت وأضر به من حمام يؤده ، وجده وقد زحف عليه أخطبوط الاستعمار الأوروبي سافرا في صورة « الرقابة الثنائية » من فرنسا وانجلترا (نوفمبر ١٨٧٦) . وفي القصر وجد إسماعيل ، نبرون مصر ، ينقض على صحبه وأوليائه ، ليتخلص منهم في جنون الخائف وفزع للسبب الذي ضف أمره ، وضيق عليه الخناق فانكشفت جرائمه ، ولا يجد له مهربا إلا في القضاء على شركائه ثم إلقاء التهمة عليهم فلا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم . عرف البارودي قصة اغتيال إسماعيل صديق اللفتش (نوفمبر ١٨٧٦) بعد أن اختلف اللسان ، الميل والسيد وقد حاصرتهما الاتهامات بسرقة أموال الدولة وتبديدها خلال مفاوضات الرقابة الثنائية ، وطلب كل منهما النجاة لنفسه فألقى التهمة على أخيه . وأدرك الخديو أن وزير ماليته الأمين قد استغفد أغراضه ، وأن في موته نجاة من الفضيحة ، فاستدعاه إلى قصره وقتله وأتباعه غدرا ورموا بجثته إلى النيل^(١) ! ويعاف البارودي القصر ومن فيه ، ويسكره العمل الذي يربطه به فيطلب العودة إلى الجيش .

فيض المعركة :

وتوأتى البارودي الفرصة في إعلان الروسيا الحرب على تركيا (إبريل ١٨٧٧) ليعود إلى الجيش ، وتستلج تركيا بمصر فتتجدها بحملة من اثني عشر ألف مقاتل^(٢) ، ويلتزم البارودي إلى الحملة قائدا من قوادها لعل الحرب تفضل آلام نفسه ، أو تنسيه ما حل بوط من الذل والهوان ، وما ينزل به من عذاب على يد جلاديه « رجال الحكومة الاستبدادية » .

(١) التاريخ السرى ص ٤٦٨ - ٤٧٠ : والرأي : عصر إسماعيل ج ٢ ص ٦٢ - ٦٤ .

(٢) قدر محمود فهمي الحملة بخمسة وعشرين ألفا كتابه البحر الزخار ج ١ ص ٢٠١ .

أُقِلَّت الحملة في مايو ١٨٧٧ إلى الآسنة ثم إلى « واره » على البحر الأسود^(١) ، ولا يلبث البارودي الفارس حتى يجد نفسه على أرض المعركة قاب قوسين من اللقاء الذي يتوق إليه ، يصحبه فيه « حمام وطرف أعوجى ولهم » ، ويأخذ البارودي في الاستعداد للمعركة فلا يترك انصراف الفساجة منفذاً ، ولا يهدأ حتى يعد لسكل أمر عدته ، ثم بأوى إلى خيمة القائد فيسمع نشيجاً يحاول مرافقه أن يكتمه حتى لا يسمعه قائده ، وتهتز عواطف الفنان في البارودي القائد ، وتستثار شاعريته ، وتسرع إليه ربة الشعر بقيثارها لينقى ، فيبدأ بصلاة واجتهال قربانا للوطن البعيد ولغنى حبه وصباه في « روضه للقياس » ، تلك التي ما إن فارقتها حتى أخذ يمن لها شوقاً ، ودون مزارها مسالك يأويها الردى ومناح ، ويكشف عما يقفاهه من شرف الواجب والحظين إلى الوطن فيبعث لبلده بالدعاء ، ويؤثر البقاء ليندو على جمع العدا فيكافح ، ويرسم لوحة لأرض المعركة وكيف وجدها :

تَصِيحُ بِهَا الْأَصْدَاءُ فِي غَسَقِ الدَّجَى صِيَاخَ الشَّكَاىِ هَبَّجَتْهَا النَّوَاحُ
ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَعْدَ أَنْ عَسَرَ جِيشُهُ فِيهَا :

مَهَالِكُ يَنْسَى الْمَرْءُ فِيهَا خَلِيلَهُ وَيَنْدُرُ عَنْ سَوْمِ الثَّمَلَا مِنْ يُدَانِغِ^(٢)
فَلَا جَوَّ إِلَّا بَمَهْرَى وَقَاضِبٍ وَلَا أَرْضَ إِلَّا شَمْرَى وَسَايِغِ^(٣)

ويحدد ملامح الصورة فيضع فيها تنظيم الجيش وخطته للمعركة المقبلة بتفاصيلها فيقول :

تَرَانَا بِهَا كَالْأَسَدِ تَرَصَّدَ غَارَهُ يَطِيرُ بِهَا فَتَقُّ مِنَ الصَّبْحِ لَامِعِ^(٤)

-
- (١) ذكرت الجوائب المصرية في عددها ٧٢ • في ١٥/١٢/١٩٠٤ أن مركزه كان في « واره » ثم في « رسيق » وآخر الحرب في « فيليه » .
(٢) ينانح : يكافح في طلب الرقة .
(٣) السهرى : الرمح الصلب ؛ والقاضب : السيف القاطع ؛ والشجاع : المحارب .
(٤) فتق من الصبح : انشقاق الصبح .

مَدَانُنَا نُصَبَ الْعِدَا ، وَمَشَانُنَا قِيَامٌ ، تَلِيهَا الصَّافِيَاتُ الْقَوَارِحُ^(١)
ثَلَاثَةُ أَمْصَافٍ تَقِيْنِ سَاقَةَ صِيَالِ الْعِدَا إِنْ صَاحَ بِالشَّرَاخِ^(٢)
ثم ينفق إلى بكاء الرقيق ، ذلك الذى يحشى عليه من الردى ، وهو
يعرف أن البارودى القائد يتقدم جيشه فى المعركة ، والعدو يستهدف
القائد بالإصابة ، فيسدى إليه النصح . ويحكى البارودى مادار بينه وبين الرقيق
فيقول :

وَلَمْ يَكْ مُبْكَاءُ خُوفٌ ، وَإِنَّا تَوَمَّ أَنَّى فِي الْكَرْهَةِ طَائِحُ
فَقَالَ اتَّيَدَّ قَبْلَ الصِّيَالِ ، وَلَا تَكُنْ لِنَفْسِكَ حَرْبًا ، إِنِّى لَكَ نَاصِحُ
أَلَمْ تَرَ مَعْقُودَ الدُّخَانِ ؛ كَأَنَّمَا عَلَى عَاتِقِ الْجَوْزَاءِ مَعَهُ سَرَائِخُ^(٣)
فَلَا رَأَى إِلَّا أَنْ تَكُونَ يَنْجُوَةٌ فَإِنَّكَ مَقْصُودُ الْمَكَاةِ وَاضِعُ
فَقُلْتَ تَعْلَمُ إِنَّمَا هِيَ خُطَّةٌ يَطُولُ بِهَا مَجْدٌ ، وَتُخْشَى فُضَاخُ
فَإِنْ عَشْتُ صَافَحْتُ الثَّرِيَا ، وَإِنْ أَمْتُ فَإِنْ كَرِهًا مِنْ تَضُمِّ الصَّفَاخِ^(٤)

وبعد أربعة أشهر^(٥) يصل الجيش للمصرى إلى مقاطعة « سرنسوف »
بأوكرانيا ، ويقبل « عيد الفطر » ، وكان البارودى فقد الشعور بحساب الزمن
بعد أن استحوذت الحرب على قلبه وعقله وأعطاه كل نفسه ، ولم تمد الحياة
عنده إلا صبيحاً يغير فيه على الأبطال وليلاً يأوى فيه إلى الأدغال^(٦) ، وتستغرقه
للمارك فلا يدري من أمر العيد شيئاً حتى يخبره به مراقبوه ، وفجأة ينحسر

(١) الصانعات القوارح : الحيلولة الأصيلة التى بلغت الخامسة من عمرها .

(٢) ساقاة الجيش : مؤخرته .

(٣) السرائخ : القطع من القماش ، والمراد قطع الدخان .

(٤) الصفاخ : حجارة عريضة رقيقة ، وللرعد القبر .

(٥) أكتوبر ١٨٧٧ شوال ١٢٩٤ .

(٦) الديوان ج ١ ص ١١٣ .

عنه ثام الفارس ، ويظهر من تحت السرد الأب الحنون والحبيب للشوق والصدق والمواطن ، وتترى الذكريات إليه من كل جانب : ذكريات الحى والأهل والصحاب ، وتهجمه الغربة والوحدة بالأمها وعذاباتها فى بلاد لاصلة تقرب بينه وبين أهلها . يمور كل ذلك فى حوافله ، وتضبط الآلام على نفسه ثم تجد للتنفس فى لسانه فيحكى وينشد ما فلت به ذكريات العيد وهو غريب فيقول :

أَلَا أَيُّهَا الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لَهُ ذَكُورًا ، سَوَى أَنْ قِيلَ لِي هُوَ عِيدُ
أَتَسْأَلُنَا لُبْسَ الْجَدِيدِ سَفَاهَةً وَأَتَوَاتِبُنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ حَدِيدُ
فَحُطُّ أَنْاسٍ مِنْهُ كَأَنَّ وَقِينَةً وَحُطُّ رَجَالٍ ذُكْرَةً وَنَشِيدُ
فَمَنْ لَغَرِيبٍ « سِرْنَسُوفُ » مُقَامُهُ رَمَتْ شَمْلَةَ الْأَيَّامِ ، فَهُوَ لَهِيدُ^(١)

ثم يصف البلاد التى يقضى بها العيد مقاتلا ومحاربًا وصفًا تخالما مائلة لك فيه ، ويصور الحركة والصورة بحيث تتوهم أنك ترى وتسمع فيقول :

بِلَادٌ بِهَا مَا بِالْجَعِيمِ ، وَإِنَّمَا مَكَانَ الظَّلَى ثَلَجٌ بِهَا وَجَلِيدُ
تَجْمَعُ الْبُلْغَارُ وَالرُّومُ بَيْنَهَا وَزَأَمَهَا التَّاتَارُ ، فَهِيَ حُشُودُ
إِذَا رَاطَنُوا بِمَضَا سَمِعَتْ لَصَوْتَهُمْ هَدِيدًا يَكَادُ الْأَرْضُ مِنْهُ تَمِيدُ^(٢)
قَبَاحُ التَّوَامِ وَالْوَجُوهِ ، كَأَنَّهُمْ لَنِيرِ ابْنِ هَذَا الْأَنَامِ جُنُودُ^(٣)
وَيَبِينُ الذِّكْرِيَّاتِ الْحُلُوَّةَ وَالْوَاقِعَ الْوَحْشَ تَظْهَرُ الْهَفَّةُ إِلَى الْعُودَةِ وَأَمْنِيَّةُ
الْلِقَاءِ فَيَقُولُ :

فَمَنْ لِي بِأَيَّامٍ مَضَتْ قَبْلَ هَذِهِ بِمَصْرَ ؟ وَعَيْشِي لَوْ يَدُومُ حَيْدُ
عَسَى اللَّهُ يَقْضَى قُرْبَةً بَعْدَ غُرْبَةٍ فَيَفْرَحَ بِالْقِيَا أَبُؤْ وَلَيْدُ

(١) لهيد : مقتل مجبور .

(٢) الهديد : القوى أو الصوت التليظ كهدير البعير ؛ وعميد الأرض : تضرع .

(٣) كأنهم ليسوا من أبناء آدم .

ويكتب البارودي إلى الصاحب والرفاق في الوطن على حديث الشوق منهم
 يطفى لوعة الوجد عنده ، غير أن البريد يتأخر ، ويعنى زمن لا يأتيه فيه قادم
 يبشر ولا يطفئ عليه رسول ، فيؤرقه القلق ، ويبرحه الشوق ، فيفنى آلامه
 ومواجهه ، ويكتب إلى صديقه وأستاذه « حين للرصني » ، ولكن كتبه
 تنوى شهراً وليس لها رد ، فيهرع البارودي إلى قيثارته ، ينشد عليها عاتبا
 ومغاضبا ، ويفيض في وصف إحساسه وشوقه إلى الوطن حتى ليكاد للرء
 يسمع من شعره صوت « الواوور » يتمب بالبين والفراق ، ويلبس من أفاغله
 لوعة التألى وحرقة الاغتراب ، ويحس فيه القلق والتربق للبريد للتأخر ، ويرى
 صورة متحركة للمعركة مع أمة الروس والبلقان فيقول :

فيا ساكني القساطر ! ما بال كُتبتنا	توت عندكم شهراً وليس لها رد ؟
نأت في عنكم غربة ، وتجهمت	بوجهي أيام خلافتها نكد
أدور بعني لا أرى غير أمة	من الروس والبلقان يُخطئها المد
جواث على هام الجبال لفارقة	يطير بها ضوء الصبح إذا بيدو
إذا نحن مبرنا صرح الشر باسمه	وصاح القنا بالموت ، واستقتل الجند
فأت ترى بين الفريقين كبة	يحدث فيها نفسه البطل الجمد ^(١)
على الأرض منها بالدماء جداول	وفوق سراق النجم من تقيها ليد ^(٢)

وبين كل ذلك يظهر البارودي الفارس وسط المعركة .

شول ولأبطال هس من الواني ضروب وقلب القرن في صدره يمدو^(٣)

(١) الكبة : الحلة يحملها الجيش ويندفع بها على عدوه ؛ والجمد : الفجاج الكريم .

(٢) اللبد (بالكسر) : ما يطير من شعر وصوف .

(٣) الرني : الضف والأصياء ؛ القرن : من يقاوم وهو نظير في الشجاعة .

فما مبيجة إلا ورعى ضيبرها ولا لبة إلا وسفى لما عقد^(١)
ثم ينتقل البارودى إلى إقليم (دبرجة) فى بلغاريا ، وعن البريد فى
التأخر فلا يصله رد من أبناء وده ، ويظن البارودى أن رسائله وصلتهم وأنهم
مقصرون عن المبادرة بالإجابة^(٢) ، فيكتب قصيدته الثانية إلى اللزقى^(٣) ومطلها :
ياناعس الطرف إلى كم تلام أسهرتق فيك ونام الأنام
وفىها يقتب ويشكو ويتألم ، ويصف حاله على البعد وقد انقضت بشاشة
الميش وساء اللقام ، ويعنى أن يكون خرفا من حروف التفراف أوريشة بين
خوافى الحمام .

حتى يوفى مصر فى لحظة بقضى بها فى الله حقّ القمام
وطلت « الحملة الصرية » تحارب نحو عام فى بلغاريا وأكرانيا بشجاعة
وجرأة ، وأبلى الجنود للصريون بلاء حسنا حتى وضمت الحرب أوزارها ،
واضطر الترك إلى معاهدة « سان استقانو » المشهورة فى مارس ١٨٧٨ . وأنعى
على البارودى برتبة اللواء والوسام الجيدى من الدرجة الثالثة ونشان الشرف
لقاء ماقدمه من ضروب الشجاعة وألوان البطولة والإقدام^(٤) .

(١) القصيدة كاملة فى الديوان المطبوع (الإمام) و (الجلام) ٦٣ بيتا ، أما فى الوسيلة الأدبية
فهى ٦٧ بيتاً فقط .

(٢) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٩٧ .

(٣) القصيدة كاملة فى الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ وهى ١٩ بيتاً ، والقصيدة فى
المخطوطتين ١٨ بيتاً فقط ، وترتيبها فيها يختلف عن ترتيبها فى الوسيلة ونظرة واحدة مستبلة فى البيت
السابع عشر من المخطوطتين . (٤) مقدمة مرآتى الشعراء ص ١٢ .

مقدمات الثورة الوطنية

واستيقظ المارد :

ترك البارودي تركيا وهي تجر أثواب المهزبة في حربها مع روسيا ، وعاد ليجد في مصر نصراً مؤزراً . . نصراً حققته الصحافة وأقلام الكتاب في إيقاظ الرأي العام وتجميعه وتحريكه . ويسع في ندوته الأدبية أخبار ذلك العصر ، ويمحكي له صديقه « محمد عبده » قصة التطور فيقول : « منذ نشبت الحرب بين تركيا والروسيا وجد الناس من أنفسهم لغة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا ، ففتعلوا إلى ما يرد من أخبار الحرب ، وسهلت كثرة الأجانب في البلاد ورود الجرائد الأوروبية إلى طلابها من الأوربيين ، ومهدت مغالطتهم للعامة والخاصة الطريق إلى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشهور إلى بعض الجرائد العربية التي كانت لا تزال إلى هذا العهد قاصرة على مالا يهم ، فانطلقت في إيراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الليل إلى إطرء ما كانت تأتي به المساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب إلى الجنود العثمانية ، فوجد في الناس الناظم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدل لم يكن معروفاً من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الأخبار ، ومزاواتها في اللشرب ، واندفعت الرغبات إلى الاشتراك فيها إلى حد لا يمكن مقعسه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الإرادة القاهرة .

« ولم يكن ما يتشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب ، بل اجتراً

الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والمعيشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد حدث في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد . وأخذ للشيخ جلال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق ، فتسابق إلى ذلك الكتاب ، وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخيال^(١) .

ثم سمع البارودي تلك المناشآت تدور جواراً في المجالس والمنتديات ، ولكنها تتعاشى ذكر إسماعيل بنقد أو التعرض له بدم على الملأ ، فخلوف منه مازال يعتقد الألسنة وعيون الطائفة في كل مكان ، وهو لا يرحم مصريراً يرفع راية العصيان . وينصت البارودي إلى المس يسرى في المجالس الخاصة حول الدكتور اتور الذي أذل المصريين بظله وقد ركع اليوم هواناً وضماً أمام لجنة التحقيق الأوروبية ، التي تغفل فوذها في البلاد وأصبح سلطانها فوق كل سلطان . ويتوقع البارودي بلعاط رأيه نهاية إسماعيل ، وترى بصيرته — ولما من وراء النيب أذن سمعة وعين ترى ما لا يراه بصير — قرب الخلاص من حكمه ، ويذكر يوم نادى الأحرار ليمجوا هذه النهاية بالثورة المسلحة فلم يستمروا لدائمه^(٢) ، واضطر وقد خذله قومه أن يغمض عينه على القذى ، فيشكر لقيارته ويقول :

(١) محمد عبده في تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٧ — ٣٨ .

(٢) أغر (ص ١٢٨ — ١٣٧) من الكتاب .

لَسَمَرَى لَقَدْ نَادَيْتُ ، لَوْ أَنَّ سَامِعًا وَنَهَوْتُ بِالْأَحْرَارِ ، لَوْ أَنَّ مُنْقَذًا
وَطَوَّفْتُ بِالْأَفَاقِ ، حَتَّى كَانَتِي أَحَاوِلُ مِنْ هَذِي الْبَسِيطَةِ مَنَقَذًا
إِذَا مَا رَأَيْتُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ وَلَمْ أَسْتَطِعْ رَدًّا ، طَرَفْتُ عَلَى قَدَى
وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ تَبَدَّلَ الْأَمَالُ الْعَرِاضُ تَرَاوَدَ الْبَارُودَى فَيُزَجُّهَا بِدَعْوَتِهِ إِلَى
نُورَةٍ لِلْإِصْلَاحِ ، وَيَكْشِفُ عَنْ مَكَانِ الْجَدِّ الَّذِي تَنَازَعَهُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، حَتَّى
تُجْرَأُ أُمَّتُهُ مِنَ الْخِطَةِ الَّتِي تَطْعُمُهَا ، وَيُقَوِّدُهَا إِلَى الْجَدِّ السِّيَاسِيِّ ، وَيُخْلَصُهَا مِنْ
لَحْمَةِ الْجَوْرِ فِي قَوْلِهِ :

فَعَقْتُ مَتَى يَا دَهْرُ أَكْتَمَ لَوْعَةً تَكَلَّفْتُ قَلْبِي كُفَّةَ الرِّيحِ بِالشَّدَا ؟
أَلَمْ يَأْنِ لِلْأَلَامِ أَنْ تُبَصِّرَ الْمُدَى فَتُخَفِّضَ مَا فُوتَنَا ، وَتَرْفَعُ جِهَنَّمَ
إِذَا لَمْ يَكُنْ بِاللَّهْمِ خَبِيلٌ لِمَا غَدَا يَسِيرُ بِنَا فِي ظِلْمَةِ الْجَوْرِ كَهَكَذَا

وَفِي أَبْرِيلِ عَامِ ١٨٧٨ يَمِينُ الْبَارُودَى « مَدِيرًا » لِلشَّرْقِيَّةِ ^(١) ، فِيمَكِّثُ بِهَا
رَبْعَةَ أَشْهُرٍ ، وَيَرَى فِيهَا رَأْيَ الْعَيْنِ صُنُوفَ الْمَذَابِ وَأَلْوَانَ الْإِرْهَاقِ الَّتِي
بَعَانِيهَا الْفَلَاحُ ، مِنْ أَجْوَانِ الْخَلْدِ تَارَةً وَمِنْ مَنَدُوبِي التَّحْصِيلِ لِلرَّقَابَةِ الثَّنَائِيَّةِ
نَارَةً أُخْرَى ، « قَدْ كَانَ هَذَا الْعَامُ شَقَاءً عَلَى مِصْرَ ، وَلَمْ يَكُنِ الْحَصُولُ عَلَى
مُبْلَغِ الْجَسِيمِ الَّذِي وَضَعْتُهُ اتِّفَاقِيَّةً (جُوشَنَ وَجُوبِيرَ) ^(٢) عَلَى كَاهِلِ الْفَلَاحِينَ
لِمُفَاسِدِينَ مِمَّا كُنَّا إِلَّا بِإِكْرَاهِهِمْ تَحْتَ الْكِرْيَاجِ عَلَى ارْتِهَانِ أَرْضِيهِمْ وَمَمْلُوكَاتِهِمْ
لِلرَّايِيزِ الْيُونَانِيِّينَ ، الَّذِينَ يَرِافِقُونَ جَبَاةَ الضَّرَائِبِ وَهُمْ يَجُوبُونَ الْقُرَى ، وَكَانَتْ
مَدُنُ الْأَقَالِيمِ أَيَّامَ الْأَسْوَاقِ تَقْصُصُ بِالنِّسَاءِ بِيَعَهُنَّ مَلَابِسَهُنَّ وَحُلِيِّنَّ لِلرَّايِيزِ الْأُورُوبِيِّينَ ،
فَالْأَزْوَاجُ وَالْأَقْرَبَاءُ مِنْ وَرَثَتِهِمْ قَدْ احْتَدَتْ جَانِبَ جَانِبٍ وَالْكَرَائِيجُ مَشْهُورَةٌ فِي

(١) مقدمة مرائي الشعراء ص ١٥٠.

(٢) من أم بنود الانفاقية فرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية .

أبليسهم لتمزق جلودهم إن لم يذهبوا^(١) » .

وشاهد البارودى عمارة الاستعداد على الطبيعة حين يساق الفلاحون قطعاً إلى « أبعاديات » الأمراء والحكام « وباشوات » البلاد للعمل مسخرين لقاء كسرة الخبز التى تمسك الروح بالجد .

ويسود البارودى إلى القاهرة فى سبتمبر ١٨٧٨ بعد أن عين رئيساً لضبطيتها - محافظاً^(٢) - ليجهدها تتأجج برد الفعل الذى أحدثته تأليف وزارة مختلطة (أغسطس ١٨٧٨) ، ويمور « الرأى العام » فيها بثورة تكسر آخر قيد يمنع المارد من الانطلاق ، وإسماعيل سفاح الشعب بالأمس بجار إليه ويستنجد به اليوم ليفقه منه فى محنته ، وليشد أزره أمام النفوذ الأجنبي الذى يغفر له قبره ويدفنه إلى نهايته المحتومة . « ويشعر الشعب بقوته وحاجة الحاكم إليه ، ويتنبه الرأى العام فيه إلى أنه يستطيع أن يقف الظلم ويطالب بحقوقه ، وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ، ورفع صوته بقدمه^(٣) » .

وتبدأ الصحافة السياسية العربية قتهاجم النفوذ الأجنبي ، وتمد تشكيل الوزارة المختلطة انشاثاً على استقلال البلاد وتدخلا سافراً فى شئونها ، وتنمى على الحكام ضعفهم أمام الدخيل ، وتقارن بين الطيش والجبروت فى الداخل والقلة والاستسلام فى الخارج . ويقف مجلس شورى النواب موقف المعارضة من الوزارة ويمسك بحقوقه وسيادته على البلاد . « ويحضر مشايخ البلاد وأعيانها إلى القاهرة فى مظاهرة وطنية يطالبون وزير المالية الإنجليزي بخصف الضرائب وتعميد مواعيد ثابتة لتحصيلها ، ومنع السكراباج والقهز فى جيابها^(٤) » . ويدخل « الحزب

(١) التاريخ السرى ص ١٣ ، ٢٧ .

(٢) مقابلة مرآة الشعراء ص ١٥ .

(٣) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٢١٩ .

(٤) التيس ١٨٧٩/١/٢٣ .

الوطني الحر^(١) » في السياسة ، وينتقل إلى المرحلة الثانية من خطته فتختفي كتب العلم ، وينتهي الحديث عن الإصلاح الديني كأساس للإصلاح السياسي والاجتماعي ، ويبدأ الأتقاني وأعضاء حزبه يناقشون القضاء من جذوره ، ويردونه إلى أسبابه الحقيقية . من الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي والتدخل الأجنبي ، ويرون الطريق إلى الإصلاح في التحرر من ذلك كله بالثورة^(٢) . ثم يتحول الحزب إلى « محفل ماسوني وطني تابع للشرق الفرنسي » ، وتقبل عليه نخبة من المفكرين والفاوضين المصريين وأصحاب المناصب المالية في الدولة والبارودي منهم^(٣) ويبلغ أعضاؤه أكثر من ثمانمائة عضو^(٤) .

عبأت الوزارة المختلطة ، بتكوينها للمين للكرامة القومية وبأعمالها المثيرة للخطوط ، شعور الشعب نحوها بالكراهية من أول يوم لها ، وزادت الكراهية حين ظلت تمنع في إذلال الأمة وتغايي للمصالح الأجنبية حتى لم يبق للصبر منزع ، فتفجرت الثورة عليها في صفوف الجيش وخرج الضباط يستردون كرامة الأمة ويطيحون بنوبار ووزارته الأوروبية .

وظهرت بوادر الخطر واضحة في الانبعاث الوطنية الجديدة بين الأمة على أصحاب المصالح المشتركة من الرجميين والاستعمار ، فأسرعوا إلى الاتفاق حتى يكونوا جبهة يوقفون بها تيار الشعور الوطني قبل أن يجرفهم جميعاً ، وامتصوا دفعة الكراهية وفورة الثورة بتغيير الواجهة والمظهر الخارجي ، فعين محمد توفيق ولي العهد رئيساً لمجلس النظار (مارس ١٨٧٩) . ولكن توفيقاً لم يكن بأكثر وطنية من نوبار ، ولم تكن وزارته بأحسن حالاً من الوزارة السابقة

(١) مدرسة جمال الدين ومريدوه وأتباعه .

(٢) د. علي المديني : عبادة التمدد (١٩٦٢) ص ٧٧ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام (إضافات) ج ١ ص ٤٦ ؛ وأحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٧٤ .

(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٤٠ - ٤١ .

بل كانت أسوأ منها ، ذلك أنه فوق تعيين الوزيرين الأوروبيين مثار الشكوى ومناط الإهانة الوطنية ، فقد تقرر أن يكون لها في مجلس النظر الحق في وقف كل عمل لا يوافقان عليه . وعادا أقوى مما كانا عليهما قبل ، وصاروا صاحبي الكلمة النافذة في شئون الحكومة جمعا ، فقعدت الوزارة صبتها القومية ، وأمنت في الإسادة إلى الرأي العام فقضت مجلس شورى النواب بمسد خمسة أيام من تشكيلها ، وظل مسلكها على أنها تبني حكم البلاد بإرادة المستعمرين^(١) .

نداء الثورة:

رأى الشعب من أعمال توفيق وهو رئيس لمجلس النظر أنه دكتاتور تحت التمرين ، ولن يلبث حتى يتمثل فوق خضوعه للنفوذ الأجنبي طينيان أبيه واستبداده ، فاضطربت الأفكار وثارَت انطواطر وقويت في النفوس فكرة « الكرامة القومية » ، واتجه الرأي العام إلى مناقشة السبل التي تخصهم من التدخل الأجنبي كله ، ومن الوزارة الأوروبية الثانية وقد أصبحت امتداداً أكثر مهانة لوزارة نوبار الأولى . ويجتمع ذور الرأي من أعيان البلاد ونوابها بدار إسماعيل راغب على هيئة « جمعية وطنية^(٢) » ، ويضمون مشروع

(١) كتب البارودي يبين التين بهذه المناسبة عنوان لما يقوله « وقال في عهد توفيق حين عين ناظر النظر »

يك استقامت مصر حتى غدت يحسها الوارد والصادر
وكيف لا تبصر قصد الهوى حكومة أنت لها ناظر ؟
ولو دقتنا النظر في البيت الثاني لوجدناه ذما بما يشبه المدح ، فهو استغناء بالنفي على سبيل التبريم والتزييح ، وكتابة يبين اثنين في هذه المناسبة الكبيرة بالنسبة لتوفيق تدل على تدمير العلاقة بينه وبين البارودي .

(٢) كان الاجتماع في ٢ أبريل ١٨٧٩ ؛ التجارة عدد ٢١٤ ، ٢١٦ في ٧ ، ٩ / ٤ / ١٨٧٩ .

« اللاتمة الوطنية »^(١) . للإصلاح المالي والاشغوري . ويقاشر حزب الأحرار والحفل الماسوني . أبعاد الوقت بجرأة ، ويتبنون المواقف الوخيمة التي تنزل بالبلاد . إن طلال يحكم إسماعيل^(٢) . « ويصنذ العلماء فتاواهم بأن استبداد أمراء المسلمين مخالف لتعاليم الإسلام ، وأن الحكم الإسلامي إنما هو في الحقيقة شورى لا تمتد سلطة الحاكم فيها إلا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة ، وبيعة الناس له بالإمارة . ثم ينتهون إلى وجوب إزاحة إسماعيل عن الحكم بالزل أو القتل »^(٣) .

وكذلك كانت مراكز القوى الوطنية كلها تتوج بالنضب والثورة ، ومع أنها كانت تتعرك متفرقة ولكن حركتها كانت في اتجاه متشابه ، ومن ثم كان يعوزها الربط والتجمع حتى تتكفل في حركة واحدة توجه بها رأس الحربة إلى قلب الرجعية والاستعمار ، وكانت في انتظار الزعيم الذي يوحد الصفوف ثم يقودها في ثورة تستأصل الفساد وتطهر الوطن من أعدائه الرجعيين وطلائع الاستعمار .. الزعيم الذي ترضى عنه صفوف القوى الوطنية لفيرته القومية وحميته الوطنية ومكانته وسمته بين مواطنيه .

وفي ظني أن أنظاراً كثيرة من شباب « حزب الأحرار » ومن « الحفل الماسوني » وغيرهما تطلعت إلى البارودي ليكون هذا الزعيم . والبارودي جدير بهذا الظن ، فقد كان وقتذاك كما وصف نفسه ومكانته بقوله :

وأصبحتُ محسودَ الجلالِ كأنني على كِبَلٍ نفسي في الزمان أمير^(٤)

(١) تفصيلات اللاتمة في عصر إسماعيل لقرافي ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨٥ .

(٢) بغداد : عهد عبده ص ١٢٨

(٣) بلنت : التاريخ السري ص ٩٥ ، والقائد : عهد عبده ص ١٢٨ - ١٢٩ وانظر أيضاً :

Mc Coan, Egypt Under Ismail, P. 89, (London 1889).

(٤) نشرت القصيدة التي منها هذا البيت بالوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٧٩ . ولد طبع عام ١٨٧٩ .

وكان كما قال عنه صديقه الشيخ محمد عبده « كلمة أمير في مصر كثيرة التداول ، ولكن مصداقها محمود ساي البارودي^(١) » . وكان البارودي قد أحس بالأمال التي نيطت به ، وبالأفكار التي تطلعت إليه فخرج على الأمة « بداء الثورة » . يبئثه فيقدم نفسه إلى مواطنيه ليعرفوا فيه الأمير الحق والقائد المرجو ، وليقارنوا بينه وبين من هم في دست الحكم ، فهو الذي وهب نفسه للمجد وطلابه حتى بلغ منه قمة الشقاء ، وأعد للحياة سيفه ورأيه وهمته التي لا يشغلها الصنير من الأمور ، وهو الشجاع الذي لا يقهر والحذر الذي لا يخدع ، وقد علمته التجربة وكفه حله عن التهور ، فما كشف قناع الحلم عن سفه ، ولا مسح جبين العز من خجل ، ثم يشرح الأسباب التي يدعو مواطنيه من أجلها إلى الثورة ، وكيف استهدفهم بالإذلال والقرح حكام بلغ بهم الفساد والثالة لطلائع الاستعمار درجة عاقهم بسببها كراسي الحكم وكادت أن تفلظهم فيقول :

حلبتُ أشطرَ هذا الدهرِ تجربةً	وذقتُ ما فيه من صائبٍ ومن عسلٍ ^(٢)
فما وجدتُ على الأيامِ باقيةً	أشهى إلى النفسِ من حُرْبَةِ العملِ
لكننا غرضٌ للشرِّ في زمنٍ	أهلُ العقولِ به في طاعةِ العُملِ
قامت به من رجالِ السوءِ طائفةٌ	أدعى على النفسِ من بُوسٍ على تَكَلِّ
من كلِّ وغرٍ يكادُ الدَّستُ يدفعه	بغضاً ، ويلقظه الديوان من مَلَلٍ ^(٣)
ذلت بهم مصرُ بعد العزِّ واضطربت	قواعدُ الملكِ حتى ظلَّ في خَلَلٍ
وأصبحت دولةُ القسَاطِ خاضعةً	بعد الإباء ، وكانت زهرةُ الدُّولِ

(١) طاهر الطناحي : الهلال ، جزء ٤ سنة ١٣٨٠ أول فبراير ١٩٣٠ م ٤٧٤ .

(٢) يقال حلب فلان الدهر أشطره إذا خبر شرويه .

(٣) الدست : فارسية تستعمل المجلس والديوان .

ويضرب على أوتار العزة والكبرياء في مواعينه ، فيصور ما أصاب
بلادهم حين تسلط عليها الطغاة ، وتحكوا فيها بظلمهم ، ففسدت الأخلاق ،
وتخبط الناس في ظلمات اليأس ، ثم يستثيرهم ويشعل لمهب الكرامة فيهم
ليصبوا جام غضبهم على ظالمهم ويندفعوا إلى الثورة فيقول :

بئس المشير وبئس مصر من بلد	أضحت مناخاً لأهل الزور وانطَلَبَ
أرضٌ تأثَّلَ فيها الظلمُ ، وانقذت	صواعقُ العذرين السهل والجبل ^(١)
وأصبح الناسُ في حُمياء مظلمة	لم يخطُ فيها أمرؤُ إلا على زَلَلٍ
لم أدر ما حلَّ بالأبطال من حَوَرٍ	بعد الرّاسِ وبالأسياف من قَتَلٍ
لا يدفعون يداً عنهم ولو بَلَّتْ	مَسَّ العفافة من جِبٍ ومن خَزَلٍ
خافوا للثيَّة فاختالوا ، وما علوا	أن لانيمة لا ترتدُّ بالحيلِ
هيهات يلقى الفتى أمناً يَلدُّ به	ما لم يخضْ نحوه بحرأ من الوَهَلِ ^(٢)

ثم يحاول البارودي أن يعيد الثقة إلى نفوسهم فيضع أمامهم صورة من
أمجاد أسلافهم الذين أقاموا المدل وسادوا الأمم وقاموا ببطولات قدموا
فيها أنفسهم قرباناً للشجاعة فيقول :

وتلك مصرُ التي أُنقِىَ الجِلالُ بها	لتيف أسلافكم في الأعصر الأولِ
قومٌ أقرّوا الحقَ وامتلكوا	أزِمّةَ الخلقِ من حافٍ ومنطلِ

ويصرخ فيهم داعياً إلى للبادرة بالثورة قبل القوات ، وإلى انتزاع
قيود الخوف والرهبة التي تعوقهم عن التفكير والعمل السريع ، ومطالباً بأن
يولوه أكرم دون ما تردد أو لجة ، ليقودهم في ثورتهم ، ويتخطى بهم ظلمات
الاستعباد والخوف إلى نور الحرية والمدل والاستقلال ، وترد لهم بها حقوقهم
الضائعة وكرامة الوطن السلوبة فيهتف :

فبادروا الأمر قبل الفوت، وانزعوا
وقلدوا أمركم شهراً أخاً ثقة
ولا تليجوا إذا ما رأى لاح لكم
وطالبوا بمقوق أصبعت غرضاً
لا تتركوا الجيد أو يبدؤا اليقين لكم
حتى تمود سماه الأمن ضاحية
شكالة الريث فالدينا مع العجل^(١)
يكون رذاً لكم في الحادث الجلل
إن العجاجة مدعاة إلى الفشل
لكل منزع سهاً وغتيل
فالجد مفتاح باب الطلب المفضل^(٢)
وبرقل العدل في ضاف من الحلل

ولكن نداء البارودي إلى الثورة يذهب كما ذهب أخ له من قبل لا يرتد إليه صدهاء وإن اختلف السبب وتغيرت الظروف . ذلك أن الرجعية قد أحست بمواقفها تنزل من تحتها أمام هدير الأمة ، فهاذت لتستعظم لتتقض ، وعادت إلى الخديعة والراوغة لتيسع الدفع الثوري وتفتت قواه وتغير اتجاه الحركة الوطنية . فغدت إلى موقع النواب والمطالبين بالمستور حين قبل إسماعيل « ولي النعم » اللامعة الوطنية ، وكلف « محمد شريف بتشكيل الوزارة فرضوا وشكروا . وتسلت كذلك إلى الحزب الوطني الحر بأن هرع توفيق - دكتاتور الأسس والمعتدى على مجلس النواب بفضه - إلى الحزب بقرب إلى زعمائه ووطن انضمامه تحت لوائه ، ويتصل بحال الدين وينضم إلى محفله الماسوني ويعيد آراءه في الإصلاح^(٣) ، « وصار جمال الدين صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدم توفيق مرة بعد أخرى بأنه متى وصل إلى العرش فسوف لا يعيد قيد شعرة عن جادة الحكم الدستوري^(٤) » .

(١) الشكالة : الرثاق بين يدى الدابة وأرجلها ، وشكالة الريث : قيد البطء والتأخر .

(٢) للطلب المفضل : المستغلق .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام : ج ١ ص ٤٩ ؛ وزعماء الإصلاح ص ٧٦ ، ٢٢٠ .

(٤) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٥ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ١٣٦ .

أسلوب الرجعية :

كان أسلوب توفيق في خداع القوى الوطنية ومجاهرتة بالإصلاح حينئذ يولى العرش ووعوده بإقامة حياة دستورية يدل على دهاء شديد ، فقد استطاع أن يحول تيار الكراهية عنه ، ويستبدل به التقدير والمودة . وتطلعت إليه القوى الوطنية على أنه الأمل الرقيب ، فسمت إلى عزل أبيه (٢٦ يونيو ١٨٧٩) وأقامته على عرش مصر ليأتى الإصلاح على يديه^(١) . ورحب المصلحون جميعاً بارتقاء توفيق أريكة الحكم ، واعتبروه دليلاً على حسن الطالع ، وتطلعو إلى المصير الجديد بثقة الرجال الذين خطوا خطوة في سبيل تحقيق أمانهم^(٢) . واستطاع توفيق أن ينتقد إلى البارودى أيضاً ، وقد أدرك أن في اكتسابه إلى صفة كسباً لأرض جديدة يدعم بها موقعه ، وينال بها تأييداً شعبياً من القوى الوطنية التي تثق فيه ، فمينة وزيراً للمعارف والأوقاف^(٣) . وتمكن بمكره أن يخدع البارودى كما خدع بقية العناصر الوطنية ، وحسب البارودى كما حسب غيره من القادة الوطنيين أن توفيقاً خلص في دعواه الإصلاح وفي إقامته - حياة دستورية سليمة ، وظن كما ظنوا أنه قد بلغت به الآمال أبعد غاية ، وبزغت به شمس الهداية بعد ما أفلت ، وخرج الناس به من ظلمات الظلم ، وتوهم كما وهموا أن مصر قد بدأت به عهداً جديداً من الحرية والعدالة^(٤) وهو ما يريد البارودى لوطنه على يد أى إنسان . ومن ثم أيد « البارودى » توفيقاً وسانده .

وبعث توفيق إلى محمد شريف بالكتاب التخليدى لتشكيل الوزارة ، وكان بمثابة جس للنفض الوطنى لدى القوى الوطنية ولمعرفة مدى تمسكها بمطالبها

(١) جريدة مصر : عدد ٤ في ٢٥ يولي : ١ أغسطس ١٨٧٩ ؛ وتاخر الأستاذ الإمام ج ١ ص ٧٤-٧٥ . (٢) بلغت : الدريج انسى : ص ٩٥ .

(٣) في وزارة محمد شريف : الوقائع المصرية • يوليو ١٨٧٩ .

(٤) أنظر قصيدة تهنته توفيق بتولى العرش : الديوان (البارم) ج ١ ص ١٣٨ .

السابقة ، وجاء الكتاب خالياً من الإشارة إلى الإصلاح الدستوري والحكم النيابي ، واكتفى بالإشارة إلى الأزمة المالية والإصلاح الإداري^(١) . ولكن الأمة كانت في فورة الحماس ولم تكن مستعدة للتفريط في الحقوق التي جاءت بتوفيق إلى العرش من أجلها ، وقد لمت في نفسها القوة التي تعزل بها صاحب العرش وتولى غيره ، وبدأت سلسلة من الاجتماعات والمشاورات ، ونجحت النجوم في الأفق ، وأحسن توفيق بالخطر ، والرجعية إذا أحسست بالخطر لجأت إلى سياسة الخداع .

استقدم توفيق إلى القصر جمال الدين الأفغاني ، وأكد له ثباته على خطة الإصلاح ، وزاد في مخادعته فقال له « إنك أنت موضع أمل في هذه الأمة أيها السيد »^(٢) . واستدعى شريفًا ووعدته بكتابة « أمر سام » بشرح فيه خطته في الحكم بعد تأليف الوزارة^(٣) ، وصدر الأمر السامي مؤيداً لشورى النواب ، وحاشا على الإصلاح المالى والقضائى وزيادة التعليم وكثير من الإصلاحات^(٤) ، حتى ليخيل لمن يقرؤه أن توفيقاً غدا مبعوث العناية الإلهية للإصلاح الذى انتظرته مصر حقاً وأجيالاً . وكذلك كان أسلوب الرجعية من قديم ، تسرف في الوعود الغلابة الكاذبة حين ترى الخطر محدقاً بها لتمتص تيار الغدا ، ثم لا تحقق منها شيئاً . وهلل الشعب وكبر وفرح بواليه الجديد ، وقد خيل الوم الذى أحالته الخديعة يقيناً عند المصريين أن عهد الاستبداد الفردى قد زال إلى الأبد ، وأن الحكم الدستورى قد أظل البلاد . ونال البارودى نصيب كبير من هذا الوم فأنشد مطولة يمجى فيها توفيقاً « وبهنته بجلوسه على الأريكة الخديوية » ، ولعل خاطراً طاف به مما يعرفه عن

(١) صدر في ٢ يوليو ١٨٧٩ : انظر والكتاب كاملاً في مصر للمصريين لبليم خليل النعاش ، (١٨٨٤) ج ٤ ص ١٠ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٧٧ ؛ ومذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ١٠٩ .

(٣) مذكرات سائح : شارلوت يانج بالإنجليزية ص ٥٨ (١٨٨٤) .

(٤) نشر الأمر السامى في الوقائع • يوليو ١٨٧٩ .

حقيقة توفيق المتأفق النادر والناكر الخادع ، فاستدرك وذكره بما كان وعد به من إنشاء مجلس نواب الأمة المصرية^(١) وهو وعد مؤيد من الشعب ومن الله فقد أوصى به الإله نبيه « وشاورهم في الأمر » ، وجعله قاعدة الحكم في الإسلام « وأمرهم شورى بينهم » . وسجل البارودي على توفيق أمره السامى باتخاذ للشورى قاعدة لحكمه وكأنه قد أصبح أمراً واقعا وقانوناً مقضياً لا مفر من تنفيذه ، ومن أجل ذلك كله فهو يهتبه ويمدحه ثم يقول :

سنّ للشورى ، وهى أكرمُ خطةٍ يجرى عليها كلُّ راعٍ مُرشِدٍ
هى عصمةُ الدينِ القدِّ أوصى بها ربُّ المبدأ إلى النبيِّ محمدٍ
فمن استعانَ بها تأييدَ ملكه ومن استعانَ بأمرها لم يرشدٍ
أمرانِ ما اجتماعاً لقائدِ أمةٍ إلا جئى بهما ثمارَ السؤددِ
جمعُ يكونُ الأمرُ فيما بينهم شورى ، وجندٌ للعدوِّ بمرصدِ
هيئاتٍ يحيا الملكُ دون مشورةٍ وبمِرْ ركنُ المجدِ ما لم يُعمدِ

والواقع أن توفيقاً لم يكن في يوم من الأيام مؤمناً بالحكم الدستورى بل كان في خاصة نفسه تواقاً إلى الحكم المطلق ، لكنه كان يلجأ إلى أسلوب النفاق والمهادنة والنذر لضعف عزيمته وقلة حزمه وسقوط همته . وعرف فيه وكلاء الدول هذه الرغبة فشجعوه ليتحكموا في السلطة باسمه^(٢) ، ولحقوا فيه الضعف والجبن فاستغلوا حادث عزل أبيه في الضغط عليه ، وأخذوا يلوحون به كلما أرادوا منه إذعانا لأوامرهم فينكب على وجهه خوفاً وجبنا ، « وظل همه الأول طوال عهده في النزول على إرادة الدول الأوروبية^(٣) » .

(١) في المخطوطة (ج) مضروب على جزء من عنوان التصديق وهو « وذكره بما كان وعد به من إنشاء مجلس نواب الأمة المصرية » ؛ والمخطوطة (س) ليس بها هذا الجزء من العنوان .

(٢) الرافى : الثورة العرابية س ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ؛ وبلت : التاريخ السرى س ٩٥ — ٩٦ .

(٣) الرافى : الثورة العرابية س ٢٢ .

وبينما يحتفل الشعب بمكاسبه القومية كانت القوى الاستعمارية والرجعية ، بقيادة توفيق ، تقوى مواقعها وتنظم صفوفها وتتعاثف فيها بينها . ومن أعضاء هذا التحالف الحاشية الخديوية ، وكان جبال الدين الأفغانى قد أشار من قبل على إسماعيل بتغيير هيئتها ، فقد خالط الفساد والاستبداد الدم واللحم من رجالها ولم يعودوا صالحين للعهد الجديد ، ومن ثم غضبوا على الحركة الوطنية وقمعوا عليها^(١) . وكذلك مندوبو الدول وطلّاع الاستعمار الأوروبى فقد رأوا فى الحركة الوطنية شللا لفوزهم وإفساداً لخطتهم فى التدخل توطئة للاستعمار الحقيقى ، ومن ثم جردوا فى وضع العراقيل وإقامة الوانع أمام طريقها . وتحالف رجال الحاشية الخديوية ومندوبو الدول وطلّاع الاستعمار ضد الحركة الوطنية ، وظلّوا وراء توفيق حتى أقنعوه بضرر الأوضاع الجديدة^(٢) .

وأخذ توفيق ينقض وعده ولما يمض شهر ونصف على إعلان منشور الدستور وينقض على مواقع القوى الوطنية فرادى . ففى اليوم الذى اطمأن فيه على عرشه بوصول النرمان السلطانى أعلن رغبته فى التخلص من « محمد شريف » ، فاستدعاه ووزراءه وطلب إليه الاستقالة بعد أن رفض البرنامج الدستورى الذى أعده^(٣) . وحين شعر « الحزب الوطنى الحر » بالخطر على الآمال الدستورية وأخذ أعضاؤه يشعنون المواطنين ويبشون الرأى العام بخطبهم وأحاديثهم ليطالب الشعب بتنفيذ الدستور ، استدعى توفيق « جبال الدين الأفغانى » إلى قصر عابدين وقال له : إبنى أحب كل خير للصيرين ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلتقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال للهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة . ورد عليه جبال

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٢٢٠ ؛ ومذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٣) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٩٢ ؛ ومصر للصيرين ج ٤ ص ٢٠ .

الدين بلسان حزبه يقول : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود النخائل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعامل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصيح هذا المخلص وأسرعتم إلى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب من الأمة يستنون القوانين وينفذونها باسمكم وإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لمرشكم وأدوم لسلطانكم^(١) . وكان جزاء النصيحة المخلصة أن قبض على جمال الدين فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ ونفى من البلاد^(٢) ، وشرذ أنصاره ومريديه وحللت إقامتهم فى بلادهم وقرام بعيداً عن العاصمة ، ومنعوا من الحديث فى السياسة .

بدأت الرجعية تحتل مواقع جديدة على حساب المكاسب الوطنية ، فشكل توفيق فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ « مجلساً عالياً ينقذ تحت رئاسته بمد أن صار لنفو مجلس النظار وإبطاله^(٣) . وتشكيل المجلس على هذه الصورة أصاب الأمة بخيبة أمل كبرى فى توفيق ، وأظهره على حقيقته استبدادياً يهوى إعادة سيرة أبيه فى الحكم ، ولكن الذين من خلفه يستند إليهم ويستمد منهم قوته وهم وكلاء الدول لم يرقهم أن يظهر فى أفق مصر إسماعيل آخر ، فقد يخرج عن طاعتهم ويحدث لهم القلاقل والشكالات حين ينقرض بالحكم بعيداً عن نفوذهم ، ومن ثم كان عليهم أن يبحثوا عن عميل آخر مخلص يسمع لهم ويطيع ، يضمونه على رأس السلطة الفعلية فى البلاد ، يكتبون به الشعور الوطنى ويضربون به الخديو ، وفى هذه التفرقة يقوى نفوذهم ويسود .

وكان « مصطفى رياض » العميل الثالى ، فقد كان يهوى الحكم المطلق

(١) محمد المخزومي : خاطرات جمال الدين ص ٥٣ (بيروت ١٩٣١) .

(٢) أمر النفى منشور بالوقائع المصرية ٣١ أغسطس ١٨٧٩ والأحكام ٢٨/٨ ١٨٧٩ .

(٣) الوقائع المصرية فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ .

هواية تسلطت على نفسه ، ويمعن في الإذعان لوكلاء الدول حتى لا يرى بأساً من إغضاب الأمة كلها وانخديو نفسه في سبيل إرضائهم ، وهم أولياء نعمته القادرون على إبقائه في الحكم . واضطر توفيق أن يرضخ « لنصحهم » ولم يكن ذلك إلا الإذعان وهو يعلم أن رياضاً غريم له يجب الاستئثار بالحكم وإن يدع له من أمور السلطة شيئاً^(١) ، فأصدر مرسماً قرار تعيينه رئيساً للوزارة في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .

تواتت الضربات المفاجئة على الواقع الوطنية فأصبحت صفوفها بذعر شل قدرتها على المبادرة والعمل ، وأخذت في التفرق والانحسار أمام الدرجى ، وتسأل اليأس إلى بعض القلوب وانطفات فيها شعله الأمل في إصلاح البلاد فاستكانت وضعت . وواجهت الحركة الوطنية في مصر أخرج لحظاتها وهي تقف على مفترق طريقين : طريق الخضوع والاستسلام للقوى الرجعية وطلانح الاستعمار يستعبدون الأمة ، ويمنون في إذلالها ، ويمهدون لاستعمار أوروبى محقق . والثانى ، طريق المقاومة والكفاح في سبيل الحرية ومن أجل حياة أفضل تحت النظام الدستورى .

وخلال قرون عديدة كانت البلاد قد جربت الطريق الأول فقاست منه أهوال المذاب والذل ، ثم جربت الثانى على نطاق ضيق بين الطبقة المستنيرة أيام إسماعيل ، فاستطاعت أن تقف في وجه الاستبداد ، وأن تعزل رأس الطغنيان ، وتحصل على بعض الحقوق الوطنية التى فقدتها اليوم في انحسار الهزيمة . وكان لابد من ظهور عناصر قوية تسلم القيادة ، وتعيد تنظيم الصفوف المتفرقة ، وتطلع بمخطة جديدة تبهث الاطمئنان في القلوب الفزعة ، وتملك من السيطرة على النفوس ومقومات الزعامة ما تستطيع به أن تقود البلاد في مقاومتها ضد مد الطغنيان وكفاحها في سبيل الحياة الدستورية .

« والبارودى » في ذلك كله يترك الذين يأخذون الأمور بظواهرها

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٦ ؛ والراضى : الثورة العربية ص ٣٩ .

وإطارها الخارجى فى مظنة من أسره ، فقد أخذ عليه بعض المؤرخين أنه خرج على الاتفاق الذى عقده شريف مع وزرائه بعد استقالتهم (أغسطس سنة ١٨٧٩) بالأشتراك فى وزارة جديدة إلا إذا وافق الخديو على البرنامج الدستورى الذى أعده شريف وأن يكون هو رئيس الوزراء ، ومع ذلك انضم البارودى وزيراً للأوقاف والمعارف فى المجلس المالى الذى شكله الخديو برئاسة ، ثم اشترك فى وزارة رياض وزيراً للأوقاف ، وهو يعلم نزعته الاستبدادية وبفضه للشورى وخضوعه للزرى لتنفيذ الأوروى ، ولكأنى بهم يهتمون الرجل بالانضمام إلى صفوف الرجعية والانحراف عن المبادئ الدستورية وتأييد الحكم المطلق ! ولكننا إذا خصنا الحقائق التاريخية من حياة البارودى الأولى والأخيرة وتبعنا الدلائل السابقة والشواهد اللاحقة من أعماله فى الحركة الوطنية ، لأبنا به عن كل مظنة ، واهتمدنا عن كل مأخذ بسبب اشتراكه فى الوزارتين. فالبارودى لم يقبل الوزارة ليكون من أنصار توفيق ، وهو يعرفه ظلاً للاستعمار ضميم الشخصية ، ولو أنه كان من أنصاره لما كان أول مناد بمخلعه ولما ناله بعد ذلك الضرر والأذى من جراء ثورته عليه ، ولم يدخل وزارة رياض انحرافاً عن المبادئ الدستورية وهو من أشد الناصرين لها حماساً فى حزب شريف « الحزب الدستورى »^(١) ، وفى « الحزب الوطنى الحر » ، وفى « الحقل لاسونى » ، ومن أكبر الدعاة بين الناس فى شعره لمبادئها ، وكان الناس يتفانون شعره فيها وتردده المجالس وينشد فى المنديبات حتى أصبح بحق « شاعر الشورى » . وفوق ذلك كله فالبارودى يعتبر أباً للدستور فى مصر القرن التاسع عشر ، فالدستور الذى وضعه بعد ذلك وهو رئيس للوزراء عام ١٨٨٢ بعد اكمل الدساتير فى مصر ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، ولم تنل البلاد فى ماضيها دستوراً أكثر تحقيقاً للآمال منه . ومع ذلك فهو فى الوزارتين « قد اشترط للاشتراك فيهما أن

يحفظ بالاستقلال في كل ما يخص وزارته^(١) ، ولم يكن منصب الوزارة غاية آماله فلما باله عض عليه بالنواجذ ونسى في سبيله مبادئه ، فأمال البارودي كانت فيا وراء الوزارة ، بل كانت كما يقول معاصروه « أوسع من رحاب مصر^(٢) » . ولعل الذين أخذوا على البارودي موقفه هذا وقموا تحت تأثير « ولاه » البارودي لحزب شريف الدستوري وقد كان من أنصاره ، وأغلب الظن أن الولاء نفسه - لو علموا - هو الذي دفع البارودي إلى أن يخرج على اتفاق شريف ، وأن يقبل العمل في مجلس التدبير وفي وزارة رياض ، ولكنه ولاه لجامعة وطنية أخرى تعمل في سرية وتكتم وهي « تنظيم الضباط بالجيش » .

تنظيم الضباط بالجيش :

نبئت البنود الأولى لحركة الضباط بالجيش في حرب الحبشة (١٨٧٥ - ١٨٧٦) بين من أبقت عليهم الممارك من الضباط المصريين الصغار ، الذين عادوا وقلوبهم تنفيس بالمرارة والألم وتركوا من خلفهم ألوف الضحايا من إخوانهم الجنود والضباط^(٣) ، أودت بهم القيادة الخرقاء وسوء التدبير ، وجبن قادة الحملة وجبلهم الطبق بفنون الحرب وإدارة المسارك ، وخيانة أركان الحرب الأمريكيين للوظفين بالجيش المصري^(٤) . عادوا ليستقبلوا من أمامهم أولى الأمر في القاهرة لا يبالون بكرامة الجيش الجريح ولا بسمته للبهضة ، ولا يذكرن الضحايا الذين ذهبوا ، أو يحاكمون الجبناء والخونة الذين تسبوا في النكبة . واشتدت المرارة في النفوس عندما كوفى صانعو النكبة من القادة وكلهم من الشراكسة والأتراك - بالرتب والنياشين والمناصب الرئيسية في الجيش ، وحرّم منها البقايا المتخلفة من وقود للمركة من

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٦ (٢) يعقوب صروف : المختلّف في ١١٠/١/١٩٠٤
وجورجي زيدان : تاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٣٠٦ .
(٣) بلنت ضحايا هذه الحرب ٨٥٠٠ من الجنود المصريين ، وبلغ ما ألقى عليها ٣ ملايين من البليجات .
(٤) تماميل ملاط في هذه الحرب أكثر : أحمد عرابي : كشف الستار عن سر الأمور ج ١ ص ٣٠-٤٣ .

الضباط المصريين^(١) . واثارت انطواظر الخفية وكانت ضاربة أطنابها بين الجهادية في أواسط عهد إسماعيل^(٢) ، وبدأت النواة الأولى للحركة الثورية وأخذ الضباط المصريون يلتقون حولها .

ووجدت الحركة متففساً لها في حرب الصرب والبalkan حين خرجت الحملة المصرية تساعد تركيا في قتالها مع روسيا عام ١٨٧٨ . وعلى أرض المعركة يقل الحرص ويذهب الخوف ، وتظهر مكنونات الصدور وتتجاوب النفوس المتفتحة في التفكير والمشرب ، وفي الحرب يتحدث الجنود بصراحة وحرية ، ويناقشون مجريات الوطن دون قيود من خوف . وانطلقت المناقشات حول الوطن تنضح بالألم والأسى ، ملايين تنفق في سفه وتبذير ، واقتصاد متهالك يدفع البلاد إلى هاوية الإفلاس ، واستبداد يدفع الناس إلى القلة ، وعلم يحرم عليهم حتى مجرد التفكير في الحرية ، وقسوة في جمع الأموال لسداد الديون الأجنبية ، ونفوذ أوروبي يحثو الخلدو أمامه خوفاً وعلماً . وتمود الحملة ويكثر المضمون إلى تنظيم ضباط الجيش .

واستطاعت الحركة أن تثبت وجودها كقوة سياسية حين عبأت الشارع وسيطرت بالتوجيه على نحو ٦٠٠ ضابط ولقيف من طلبة السككية الحربية ونحو ألقين من الجنود ، فقاموا بالمظاهرة العسكرية التي أسقطت الوزارة المختلطة^(٣) . ولم يكن ليفيب عن فطلة الدكتاتور الحذر إسماعيل وقتذاك أن المظاهرة لا يمكن أن تكون وليدة المصادفة ، بل عرف بخبرته أنه لابد وأن يكون من ورائها حركة منظمة . فأمر بأن يطلق آلاى حرسه النار على المتظاهرين ، ولكن قائد الحرس — وكان من أنصار حركة الضباط — أمر الجنود بأطلاق أسلحتهم في القضاء^(٤) . وساورت إسماعيل الشكوك فأخذ في القبض على كل من يظنه

(١) كان من المائدين أحمد مراد وعلى الروي وفرج عبدالمال . (٢) مصر للمصريين ج ٤ ص ٥٥ .

(٣) كشف الستار ج ١ ص ٤٥ ؟ تفاصيل المظاهرة في عصر إسماعيل ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٣ .

(٤) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٢ .

من زعمائها ، وحامت الشبهات حول أحد عرابي وعلى الروبي ومحمد القادي^(١) ، وجيء بهم أمام مأمور ضبطية القاهرة (المحافظ) محمود سامي البارودي « فأتسوا فيه تألقا من الظلم والاستبداد ، وميلا إلى العدل والدستور^(٢) » . وترك لقاء البارودي في نفوس زعماء الحركة الكثير من الثقة به والاطمئنان إليه ، وانصل به على الروبي سرا^(٣) فوجده على الطريق مهمم بفكره ، وكان البارودي قد سمع الكثير عن التنظيم في حرب البلقان ، وفتح صدره للضباط الصغار يناقشون معه أمور الوطن المضطربة وبعدم بروح منه ، ويؤمن بالفعل على تحرر الوطن من الظلم والاستبداد الأجنبي ، ويأنف من التعصب للجنس ، ويسى إلى أن يسود البلاد حكم دستوري يحقق العدالة للجميع^(٤) .

اجتمع قادة التنظيم بالبارودي ، وكاشفوه بأسرهم وبتقديرهم لعدله وعدم نصبه ، وأرادوه أن يرشدهم برأيه ، وأن يهديهم بوطنيته الصادقة ، وأن يشير عليهم كلا حزبهم أسرا ، وله منهم السمع والطاعة ، ولهم عليه النصح والحماية فقبل^(٥) . ورأى البارودي أن إبقاء علاقته بهم سرا أدعى لتبجح الحركة حتى يكون ، دون أن يعرف أحد ، لسانهم المبر عن رأيهم والمدافع عنهم إن أصابهم ضرر ، والمؤيد لمطالبهم لدى الحكومة وللنذر لهم إن أحاق بهم خطر^(٦) ، وتماهدوا وأقسموا على الولاء والوفاء . كان « ولأه » البارودي إذن لحركة الجيش وليس لمحمد شريف وحزبه ، ومن أجل هذا الولاء قبل أن يعمل مع توفيق ورياض « كضرب من المصانعة كيلا تظهر نواياه الحقيقية وحتى تظل مستورة إلى حين^(٧) » ، وحتى يمنع عن الحركة الضرر ما استطاع ، ولينذر زعماءها بالخطر حين يلوح في الأفق ، « فكان ينقل إلى عرابي ورفاقه من قرارات مجلس الوزراء ما يتعلق بهم ليعذرهم أو يهينوا للاقائه^(٨) » .

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) كشف الستار ج ١ ص ٤٦ . | (٢) المصدر السابق |
| (٣) بلنت : التاريخ السري ص ١٠١ . | (٤) مذكرات الأسرة الخاصة . |
| (٥) مذكرات الأسرة الخاصة . | (٦) بلنت : التاريخ السري ص ١٠٥ . |
| (٧) شوقي ضيف : البارودي ص ٢٢ . | (٨) مشاهير الشرق ج ٢ ص ٣٠١ . |

ويطلب على الظن أن البارودى كان همزة الوصل في اللقاء بين زعماء حركة الضباط وأعيان البلاد وكبرائها والعلماء ، ذلك اللقاء الذى أسفر عنه تكوين جمعية سرية أطلقت على نفسها « الحزب الوطنى المصرى » واتخذ الحزب مقراً فى « حلوان » بعيداً عن العيون والرقباء^(١) . وكان فى مقدمة أعضائه محمود سامى البارودى وأحمد عرابى وعبدالمال حلى وعلى فهمى ومحمود فهمى وحسين الشربى وسليمان أباطة^(٢) ، وأصدر الحزب أولى نشراته السياسية فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩^(٣) ثم توالى النشرات تكشف عن مساوىء الحكم الذى نكبت به البلاد على عهد توفيق ، والأغلال الجديدة التى أضافها رياض حول عنق الأمة ، وهاجمت عودة الرقابة الثنائية ، وكثرة المستشارين والموظفين الأجانب الذين فرضوا على الدواوين الحكومية بمرتبات ضخمة ، وتعدد المؤسسات وبنوك التسليف والرهونات الأوروبية التى استنزفت موارد الشعب ومصادر أرزاقه ، وبينت للرأى العام مدى الخسارة المادية والوطنية التى مقيت بها مصر من تفازل الحكومة عن أرباح قناة السويس ، ثم هاجمت بمنف طغيان رياض واستبداده وخنقه حرية الرأى ومصادريه الصحافة ، ورسمت للحكومة الخطة الوطنية التى يجب أن تنتهجها لصالح الوطن^(٤) .

استقبل الشعب منشورات الحزب الوطنى بالتأييد والتعظيم ، وقد بعثت فى نفوس المواطنين الكراهية السكائمة لحكم رياض وخديويه توفيق ، وأظهرت للعالم الخارجى - وكانت تطبعها الصحف الفرنسية - ما تمناه مصر من النفوذ الأجنبى وعملائه ، وأصاب توفيقاً ورياضاً بالرعب والفرع غالوا معرفة أعضاء الحزب لينزلا بهم البطش والبقعة ، ولكن جهودها ذهبت سدى . وتفاخلت حركة الضباط فى مراكز الثقل كلها : فى الجيش ، وفى الوزارة ، وفى القصر^(٥) ،

(١) كشف السار ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ . (٢) جون نينه : عرابى باشا ص ٣٧ - ٣٩ .

(٣) طبع من النشور ٣٠ ألف نسخة أنظر : المصدر السابق .

(٤) مصر للصين ج ٤ ص ٧٩ ؛ وكشف السار ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٥) كان من زعمائها على فهمى وهو قائد الحرس بالقصر .

وفي المعارضة^(١)، وأصبحت في موقف يتحول لها حرية العمل والقدرة على المبادرة واختيار الوقت المناسب للمركة الفاصلة مع الرجعية وعملاء الاستعمار .

وشغلت السياسة وحركة الكفاح السرى شاعرنا البارودى ، فلم يمتع الشعر والأدب شيئاً جديداً يسجل مجريات الأحداث ، اللهم إلا وصاياه التى أكثر منها فى هذه الفترة ، فهو يدعو فى شعره إلى الاحتراس والحذر وعدم الإندفاع فى الثقة بالناس ، ولعله كان يرمى إلى أن يقبه أعضاء الحركة السرية فى الجيش وفى الحزب الوطنى . ومن هذه الوصايا قوله :

بَلَوْتُ النَّاسَ وَاسْتَخْبَرْتُ عَنْهُمْ	صُرُوفَ الدَّهْرِ أَنَا بَعْدَ آتٍ
فَمَا أَبْصَرْتُ غَيْرَ أَخِي كَذَّابٍ	خُلُوبِ الدُّودِ مَصْنُوعِ الْحَنَانِ
يَصْرُحُ بِالْمَدَاوَةِ وَهُوَ نَاهٍ	وَيَعْدُقُ فِي الْمَحَبَّةِ وَهُوَ دَاكُنٌ ^(٢)
لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ لَسَانٌ	يَدُورُ بِهِ عَلَى حُكْمِ الزَّمَانِ
فَلَا تَأْمَنُ عَلَى نَجْوَاكَ صَدْرًا	فَرُبَّ خَدِيعَةٍ تَحْتَ الْأَمَانِ
وَلَا يَفْزُزُكَ قَوْلٌ دُونَ فِعْلٍ	فَإِنَّ الْحُسْنَ قَبِيحٌ فِي الْجَبَانِ
وَحُلَّ النَّاسُ عَفْكَ فُلَيْسَ فِيهِمْ	سَلِمُ الْقَلْبِ عِنْدَ الْإِمْتِحَانِ
تَنَابَهَتِ الْأَسَافِلُ بِالْأَعَالَى	فَمَا تَدْرِي الْمَجِينُ مِنَ الْمِجَانِ ^(٣)

أما فى وزارة الأوقاف ، فكان البارودى نشطاً لا يكف عن العمل ، « فقد نفع قوانينها وجعلها على قواعد راسخة سليمة ، وسد أبواب الخلل التى كانت الوزارة عرضة لـ^(٤) » . ونهض بمشروعات كثيرة للإصلاح أقام بها العمل فى

(١) المقصود بالمعارضة الحزب الوطنى بملوان لأنه يمارس حكم رياض .

(٢) يعدق فى المحبة : لا يمتلئ الدود ويشوبه بكبر .

(٣) فى المخطوطة (ج) فما يدري . والمجِين : الذى أبوه عربى وأمّه أمة ؛ والمجان من كل شئ خياله وخالده : وهذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قسيمة عدد أبياتها ٣٨ بيتاً ؛ المخطوطة (س) من ٢٧٥ — ٢٧٦ ؛ والمخطوطة (ج) من ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٤) مقدمة مرآتى الثراء ص ١٦ .

الوزارة على جادة الطريق السليمة ، وكون لجنة من العلماء والمهندسين والمؤرخين وناط بهم البحث عن الأوقاف المجهولة مستعينين بكتب التاريخ وحجج الوقف للوجودة بالديران ، ورد بذلك للوزارة من الأوقاف الضائعة والمفتنصة ما لا حصر له ، وأنشأ الكثير من المساجد والمساكن ، وجمع الكتب والمخطوطات للوقوفة للشفرة في المساجد ووضعها في مكان واحد ، فحفظ هذا التراث من الضياع ، ولما أتم « على مبارك » إنشاء « دار الكتب » كانت هذه المجموعة الضخمة النادرة من كتب الأوقاف أكبر المجموعات التي نقلت إليها^(١) . وأهم البارودي بالآثار العربية فعين لها لجنة من ذوى الخبرة فجمعوا الكثير منها ووضعوها في « مسجد الحاكم » حتى « تبني لها دار خاصة »^(٢) .

واستطاع البارودي في هذه الفترة أن يخرج صديقه محمد عبده من العزلة التي فرضت عليه بعد أن حدثت إقامته في قريته عقب نفي جمال الدين الأفغاني ، وأن يركبه لدى رياض كي يتولى تحرير « الوقائع المصرية » (يونيو ١٨٨٠) . واستعان محمد عبده بزملائه عبد الكريم سلمان وإبراهيم الملباوى وسعد زعول من مدرسة جمال الدين فبدأت بهم الوقائع والصحافة المصرية عهداً جديداً^(٣) ، ونحوحت الوقائع إلى جريدة يومية تدلى برأيها في الإصلاح الداخلي في شيء من الحرية والجرأة .

وأسهم البارودي في تشجيع التعليم والعمل الخيري ، فتولى منصب نائب رئيس « جمعية المقاصد الخيرية » بعد إنشائها عام ١٨٨٠ ، وأيدها بماله ونفوذه لتؤدى رسالتها . وكانت هذه الجمعية من أولى الجمعيات الخيرية التي أنشأت للدارس

(١) مقدمة مرآى الشعراء ص ١٦ — ١٧ ؛ وتاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٣٠٠ ؛ ومجلة المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ في ١٢/٢٣ ١١٠٤ (٢) مقدمة مرآى الشعراء ص ١٧ .
(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ١٣٧ .

والسشفيات للتعليم وعلاج الفقراء^(١) ، ثم تحولت إلى متسدى أدبي وندوة سياسية تناقش فيها أمور الأدب وشئون السياسة ، وكان لندواتها الأسبوعية وخطبائها من تلاميذ جمال الدين فضل كبير في التوعية السياسية حتى صارت فيما بعد أكبر متسدى سياسى في البلاد^(٢) . وفى حفل افتتاح الجمعية أُلقيت قصيدة العلم التى نظمها البارودى لهذه المناسبة^(٣) ، بحث فيها على طلاب العلم ، ويظهر فضل التعليم فى كشف أسرار الحياة ، وكيف توصل قدماء للمربين بالعلم إلى حضارتهم الشائخة التى ظلت تصارع الزمن بأهراماتها وأبى الهول رمزاً لعلها فتفتلب عليه ، وفيها يقول :

بِقُوَّةِ الْعِلْمِ تَقْوَى شَوْكَةُ الْأُمَمِ	فَالْحُسْكَى فِي الدَّهْرِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَلَمِ ^(٤)
فَاعْكُفْ عَلَى الْعِلْمِ تَبْلُغْ شَأْوَ مَنْزِلَةٍ	فِي الْفَضْلِ مَحْفُوقَةٌ بِالْعَزِّ وَالْكَرَمِ
لَوْلَا مَدَاوِمَةُ الْأَفْكَارِ مَا ظَهَرَتْ	خَزَائِنُ الْأَرْضِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْمَكَمِ
فَانْظُرْ إِلَى الْمَرْمِينَ لِلْمَائِلِينَ تَجِدْ	غَرَائِبًا لَا تَرَاهَا النَّفْسُ فِي الْحُلُمِ
تَضُمُّنًا حِكْمًا بَادَتْ مَصَادِرُهَا	لَكِنَّهَا بَقِيَتْ قَشًّا عَلَى وَضْعِ
وَلَا حَ بَيْنَهُمَا « بَلْهَيْبٌ » مَتَّجِبًا	لِلشَّرِّ يَلْعَظُ بِجَزَى اللَّيْلِ مِنْ أَمَمِ ^(٥)
رَمْزٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُلُومَ إِذَا	هَمَّتْ بِمَصْرِ نَزَتْ مِنْ هَذِهِ الْقِدَمِ

(١) أسست هذه الجمعية على قرار جمعية عبدة الله النديم الحرية الإسلامية بالإسكندرية وكان عباس حلمى ولى العهد رئيساً فخرياً لها ؛ أنظر : الرافى : الثورة العربية من ٢٢٢ ؛ وعبدة الله النديم ومذكراته السياسية من ١٠٩ .

(٢) جورجى زيمان : تاريخ الآداب العربية ج ٨٦ ؛ والرافى : الثورة العربية من ٢٢٢-٢٢٥ .

(٣) ألقاها خطيب الجمعية الرسمى الشيخ محمد عبده ، أنظر : د - على الحيدى : عبدة الله النديم من ١٧٦ ؛ ومذكرات الأسرة الخامسة .

(٤) هنا البيت نشر بمجلة المنار مجلد ٧ جزء ٢١ فى ١٠/٧/١٩٠٥ . (٥) بلهيب : أبى الهول .

ثم يهيب بقومه أن يكثرُوا من إنشاء المدارس ، ففى مفتاح الرقى للأمة
تصنع الشاعر والكاتب والمحاسب والحقوقى والطبيب والطبيب فيصلحون فساد
البلاد ، ويقيدون ركن العدل فيها ، وفى ذلك يقول :

فَاسْتَيْقِظُوا يَا بَنَى الْأَوْطَانِ وَانْتَصِبُوا	لِلْعِلْمِ ، فَهُوَ مَدَارُ الْعَدْلِ فِي الْأُمَمِ
شَيْدُوا الْمَدَارِسَ فَهِيَ الْفَرْسُ إِنْ بَسَقَتْ	أَفْنَانُهُ أَثْمَرَتْ غَضًّا مِنَ النَّعَمِ
مَغْنَى عُلُومٍ تَرَى الْأَبْنَاءَ عَاكِفَةً	عَلَى الدُّرُوسِ بِهِ كَالطَّيْرِ فِي الْحَرَمِ (١)
فَكَمْ تَرَى بَيْنَهُمْ مِنْ شَاعِرٍ لَسِينٍ	أَوْ كَاتِبٍ قَطِينٍ أَوْ حَاسِبٍ قَوِيمٍ
وَنَائِبٍ نَالَ مِنْ عِلْمِ الْحَقُّوقِ بِهَا	مَزِيَّةَ الْبَسْتَةِ خِلْمَةً الْحِكْمِ
بَلْ كَمْ خَطِيبٍ شَفَى نَفْسًا بِمَوْعِظَةٍ	وَكَمْ طَبِيبٍ شَفَى جَسَدًا مِنَ السَّعَمِ
قَوْمٌ بِهِمْ تَصْلُحُ الدُّنْيَا إِذَا فَسَدَتْ	وَيَفْرُقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الذُّنُبِ وَالْفَنَمِ
وَكَيفَ يَثْبُتُ رُكْنُ الْعَدْلِ فِي بِلَدٍ	لَمْ يَنْتَصِبْ بَيْنَهَا لِلْعِلْمِ مِنْ عِلْمٍ (٢) ؟

(١) فى المخطوطة (ج) ترى الأبناء؛ وهذا البيت والبيت الذى قبله نقرأ بمجلة النار
(٢) هذه الأبيات من قصيدة بالجزء المخطوط من الديوان وهى ٣٧ بيتاً فى المخطوطة (س) ٢٢٤
— ٢٢٥ ؟ والمخطوطة (ج) س ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ولم يسبق نشر أكثر القصيدة . ونفترت مجلة
النار فى المجلد ٧ جزء ٢١ ص ١٠٥/١٧٧/١٠٥ عشرة أبيات ، سبعة أبيات من القصيدة التى بالديوان
المخطوط ، وثلاثة أبيات آخر لم تذكر فى المخطوطتين وهى :

أَنْ يَفُوزَ لَنَا قَدَحٌ بِفَائِدَةٍ	وَنَحْنُ فِي زَاخِرٍ بِالْجَهْلِ مُلَاطِمُ
لَا تَحْمِلُوا الْبَاسَ عَنَّا قَهْوُ دَاعِيَةٍ	إِلَى الْمَذَلَّةِ بِجِدِّ النَّزْرِ وَالشَّمَمِ
لَوْ كَانَ يَعْلَمُ حَى أَنْ خِيَّتَهُ	مِنْ زَلَةِ الرَّأْيِ لَمْ يَسْتَبْ عَلَى الْقَسَمِ

وبدل ذلك على أن صاحب النار لم يأخذها من الديوان بل من القصيدة المتداولة بين الناس منذ أُلقيت
فى حفل « جمعية المقاصد الخيرية » ، والمعروف أن البارودى فى أواخر أيامه كان يغير ويبدل ويحذف
ويضيف فى شعره قبل أن يسجله بالديوان .

الفصل الرابع

دور البارودي في الثورة

فما أنا ممن تقبل الضيم نفسه
ولكنني ناديتُ بالعدل طالبا
أمرتُ بمعروفٍ، وأنكرتُ منكرا
فإن كان عصيانا قيامي ، فإنني
وهل دعوةُ الشورى على غضاصة
بلى ، إنها فروضٌ من الله واجبٌ
وبرضى بما يرضى به كل مايق
رضا الله ، واستنهضتُ أهل الحقائق
وذلك حكمُ الله في رقابِ الخلائق
أردتُ بمعيناني إطاعة خالقي
وفيها لمن يبنى الهدى كل فارق
على كلٍّ حتى من مسوقٍ وسائقٍ

* * *

فلما استمرَّ الظلمُ قامت عصاة
وشابَّهم أهلُ البلاد ، فأقبلوا
فهذا هو الحقُّ البين ، فلا تسل
من الجندِ تسعى تحت ظل الخوايف
إلهم سراعاً بين آتٍ ولاحق
سواي ، فإنى عالمٌ بالحقائق

* * *

دعوني إلى الجلى ، فممتُ مبادراً
إذا للره لم ينهق بقاءم سيفه
فيا ليت شعري كيف تُحصي الحقائق
وإني إلى أمثال تلك لسابق

البارودي

حتمية الثورة

الأسباب المباشرة للثورة :

نهج رياض في حكم الأمة النهج الذى تعلمه من أستاذه إسماعيل والذى يتفق مع طبيعته الظالمة الفشوم ، ويرضى به أولياء نعمته . استبداد مطلق ، وعنجهية « الباشوات » القدامى الذين ينظرون إلى الشعب بعين الزراية والاحتقار ولا يعترفون بوجوده أو حقه فى الرقابة على شئون الحكومة ، وقسوة فى تحصيل الأموال التى فرضت ظلماً على المواطنين لمقابلة التسويات الأجنبية ، وسخرة مضروبة على الفلاحين للعمل فى « أبعاديات » ذوى السلطان والجاه من الحكام والأمراء ، وضرب على الأمة بيد من البوليس^(١) ، ونفى وتشريد لمن يرفع صوته بالمعارضة أو الشكوى من الظلم^(٢) ، وسجن لجرد الشبهة وتعذيب لمن يؤخذ بالظلمة ، وضياع لأموال المواطنين بإلغاء قانون المقابلة^(٣) ، واستخفاف بأراء العلماء والكبراء والمثقفين ، وإرهاب للجمعيات الوطنية التى تصدر منشورات ضد سياسة الحكومة^(٤) ، وغلق وتمطيل للصحف التى تخط قلمها فى نقد رياض أو المس بالمصالح الأجنبية^(٥) ، وفصل الموظفين المصريين بغير حساب ، وتعيين المستشارين والخبراء الأجانب بمرتبات خيالية ، وإنقاص لعدد الجيش وإحالة ضباطه إلى الاستبداد ، وإرخاء العنان للضباط الجراكسة يقسمون الجيش إلى طبقتى السادة والعبيد .

(١) بملت : التاريخ السرى ص ٩٧ .

(٢) بلغ عدد المقيدين إلى السودان فى وزارة رياض ٩١٢ حسب إحصاء الجريدة الرسمية

الفرنسية المونتور لاجسيان فى ١٠/١٠/١٨٨١ .

(٣) قانون المقابلة بالتفصيل فى الثورة الراية للراى مر ٥٤ - ٥٧ ، وقد ضاع على المواطنين ١٠ ملايين من الجنهات دفعوها ضرائب لأطيانهم مقدماً .

(٤) الحزب الوطنى بحلوان ومصر الفتاة بالإسكندرية .

(٥) أغلق رياض صحف : مرآة الشرق ، مصر ، التجارة ، مصر الفتاة ، الرغورم ، الماسجر ، إيجسيانو ؛ وأندر وعطل فترة صحف : الاسكندرية ، المحروسة الفاروالسكندرية ؛ ومنع من دخول البلاد صحف : النحلة ، أبو نضارة ، أبو صفارة ، القاهرة ، الشرق .

وفي مجال المصالح الأجنبية كان رياض المعيل الخالص ، جريوه في لجنة التحقيق العليا عام ١٨٧٨ فوفى لهم ورعى مصالحهم ، واختاروه في الوزارة المختلطة فكان رجلهم الأمين ^(١) . وحين صار الأمر إليه تسابق هو وتوفيق في التقرب إلى القوة التي تسندهما ضد الشعب ، وأضافا حول عنق الوطن أغلالا جديدة من سلطان التدخل الأجنبي ، ودعيا الرقابة الثنائية إلى العودة والتحكم في البلاد ، وباعا أرباح مصر في قناة السويس فأعطيا للصمصوم القناه كل حقوق مصر المادية فيها ، ووافقا على تأليف لجنة دولية تتدخل في شئون مصر وتضع نظاما ماليا لتسوية الديون العامة ، فأصدرت قانون للتصفية الذي يعتبر مثالا للإجحاف بحق المواطنين وصورة صارخة لحياة الدائنين الأجانب . ظلمات في بحر لجي من الظلم يمشي في أعماقها الشعب بكافة طبقاته وقواه العاملة ، وتتجمع في موجات من الكراهية والغضب حتى يبلغ السيل الزبي ، وتصل الأرواح إلى التراقي مفتردة بفتن جبر شعبي تخرج به الأمة إلى فجر جديد !!

وكانت القذاحة التي أورت شرارة الضوء لهذا الفجر الجديد هي الفروق الطبقية والتعصب العنفي التي أخذت تتحكم في مقدرات الضباط والجيش ، ويقف على قممها عثمان رفقي وزير الحربية الجركسي . فقد كان موعلا في التعصب للضباط الجراكسة والأرناؤود والأتراك ، يمنحهم الترقيات ويضع زمام سلطنة الجيش في أيديهم ، على حين يلقي الضباط المصريون منه أسوأ أنواع المعاملة والازارية والإهمال . لم يقتصر على اضطهادهم والوقوف في سبيل ترقيتهم بل اتخذهم هدفا لأشد ضروب المنة والإرهاب ، فمزل منهم الكثير وسخر الجنود وضباطهم في حفر الترع وفي الأعمال الزراعية بأراضى الخديو والأمراء ، وأمن في تعصبه حتى كاد يصدر قانونا يحمل حرمان الضباط المصريين من الترقى أمرا مشروعا ويقصره على بني جنسه من الجراكسة .

وبدأت الثورة تحتاج قلوب الضباط المصريين جميعا وكان معظمهم قد انضموا للحركة

(١) تألفت في يناير ١٨٧٨ ، وكان تعيين رياض كطلب مندوب الدول الأجنبية .

الضباط^(١) . واجتمع زملاء التنظيم وقرروا العمل علانية لوقف الظلم الذى حاق بهم وأظل البلاد ، « فوافقهم على طلب الإنصاف ، محمود باشا سائى ناظر الأوقاف ، وهو منضم إليهم فى أصل الاتحاد ، ويعد واحداً من الأجناد ، فجمعوه مرجع مشورتهم ومظهر سريرتهم^(٢) » .

وأصبح التنظيم وهو يعبر مرحلة التحول هذه فى حاجة ماسة إلى اختيار زعيم يقود العمل العلنى ضد الطغنيان ، ولعل البارودى لو أراد هذه الزعامة لألقى الجميع إليه بسينوفهم ومقاليد أمرهم ، ولكنه رأى بثاقب فكره ألا يندفع فيمان عن انضمامه إلى الحركة ، أو يقود العمل العلنى بنفسه ، وآثر أن تظل صلته بها سرا ، ودوره فيها دور للمستشار والناصح وموضع السر الأمين ، فذلك أجدى لها وأضمن لسير العمل فى طريق النجاح . أو لعله تنسجى عن هذه الزعامة « لأحمد عرابى » وهو يراه أحق منه بقيادة العمل الذى كرس له سنوات عديدة من عمره ، وقد تجمع حوله إخوانه الضباط وسيطر عليهم بجرأته وقوة وحجته ، وهفت إليه قلوبهم لأنه واحد منهم أنبتته القرية المصرية وسقاء ماء النيل فيحس الآلامهم ويلس مشكلاتهم ؛ وبايع الضباط « أحمد عرابى » برئاسة الحركة وزعامتها وأقسموا له بيمين الولاء^(٣) . على السيف وللصحف^(٤) .

وبقى البارودى مستشار الحركة ولسانها فى مجلس الوزراء ، ولئن كان وجوده فى مجلس الوزراء والحركة ما زالت سراً غير مزاع ضرورة ملحة ، فوجوده فيها بعد أن تفلن عن نفسها وتصبح هدفا ظاهراً لمؤامرات الخلدو ورياض وعثمان رقتى وطلانح الاستعمار — حتم لازم تقتضيه حمايتها والوقوف بجانب مطالبها .

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٨٤ . وكان من أعضاء التنظيم السرى : أحمد عرابى ، عبد الهال حلى ، على فهى ، على الروى ، محمد النادى ، محمود فهى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الفتار ، أنى يوسف ، خضر خضر ، على عيسى ، أحمد فرج ، يوسف فهى وغيرهم ؛ أنظر عما كانت زعماء الثورة
المرابية : مصر للمصريين ج ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٤٤ ؛ ومذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١١٤ .

(٣) مصر للمصريين : محضر استجواب عبد الهال حلى ج ٧ ص ٦٠ .

(٤) كشف الستار ج ١ ص ١٥٤ .

وفي صبيحة ١٧ يناير ١٨٨١ تقدم أحمد عرابي وعلى فهمي وعبد المال حلمي بمذكرة يطلبون فيها - نيابة عن ضباط الجيش - عزل عثمان رفقى وتعديل قوانين العسكرية بما يحقق العدل والمساواة . وأسفرت حركة الضباط بهذه المذكرة عن نفسها وأعلنت للأمة وجودها ، وتدخلت كقوة سياسية تستطيع التأثير في تغيير مقاليد الحكم بعد أن رأت حتمية الثورة وأنها الحل الوحيد لعهد جديد . واجتمع مجلس الوزراء في ٣١ يناير برئاسة الخديو ، وقرر توفيق ورياض وعثمان رفقى قتل الحركة في مهدها باستئصال زعمائها ، ودبروا ثلاثتهم مؤامرة للفناء عليهم بعد محاكمة صورية^(١) . « ولكن السر وصل إلى الضباط في الحال ، من محمود باشا سامي المضال^(٢) » ، وأنهى إليهم بالمؤامرة اللديرة ليتخذوا الأمر عدته^(٣) . وأيقن عرابي ورفيقاه على فهمي وعبد المال حلمي أنها خطوات التنفيذ للسكيدة حين دعاهم عثمان رفقى صباح أول فبراير إلى وزارة الجهادية بقصر النيل ، فأعدوا الخطة لمواجهتها وجعلوا اعتقالهم في قصر النيل ساعة الصفر لتنفيذ العمل الجماعي في الجيش . وما إن اعتقلوا حتى سارع آلاى الحرس بالإفراج عنهم ، وعاد بهم إلى ثكناته ، ثم انضم إليهم آلاى طرة ونجموا في ساحة عابدين . ورأى الخديو جيش مصر لأول مرة يواجهه بأسلحته ونيرانه ويوجه أول إنذار إليه ، فتمسكه الذعر والاضطراب وظهرت طبيعة الجبن والخوف فيه ، واتهم البارودي لحظة الضعف في توفيق فأشار عليه بإجابه طلبات الجند ، وحاول تبرير مظاهرهم العسكرية بقوله : « إني أراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديو ، ولو أجيبت طلباتهم لأتعمدت السألة بسلام^(٤) » . واستسلم توفيق وانتدب البارودي لمناوضة الزعماء . ومن الطبيعي أن تسفر المفاوضات ، والبارودي على رأسها ، عن التسليم بمطالب الجيش كاملة . فأقبل عثمان رفقى ، وألنى قانون

(١) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ ومذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١١٣ .

(٢) عبادة التديم ومذكراته السياسية ص ٤٥ . (٣) تاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٣٠١ .

(٤) كشف الساتر ج ١ ص ١٦٥ ؛ ومذكراتي في نصف ج ١ ص ١١٤ .

العسكرية ، وأسندت وزارة الجهادية إلى محمود سامي البارودي . وكان النصر مؤزرا ، واستردت القوى الوطنية بهذا النصر شجاعتهما فأيدته بروح منها ، ووقفت خلفه تناصره ، وأخذت تتطلع إلى عمل أكبر . . إلى ثورة تطيح بالفساد كله .

والحق الذي لامرأ فيه أن حركة الجيش في فبراير ١٨٨١ كانت لما دوافع وطنية أخرى غير استياء الضباط من القوانين العسكرية الجديدة ، فالاستياء وحده غير كاف لأن يحدث حركة وطنية أو يؤدي إلى ثورة ، ولو أنه وحده هو السبب وثار الضباط من أجله لكان تمردا في الجيش ، ولبقيت حركة الضباط فتنة محلية ، ولوجدت الحكومة في الضباط الشراكة الذين ميزهم القانون الجديد ، وهم أكثر عدداً ، قوة يقومون بها الفتنة ، ولا اتخذت من الأمة سنداً يساعدها على إخماد الحركة بإنصاف المستأثرين أو معاقبة للمتمردين . ولكن الحكومة لم تجد في الأمة ذلك السند وأعوزتها تلك القوة ، فقد اشتملت الثورة في الجيش كله ضباطاً وجنوداً ، عدا قلة من الجراكة وقفوا بلا حول ولا قوة ، وهبت الأمة على بكرة أبيها تؤيد النوار وتنحز للوثوب أمامهم إلى الثورة ، فقصرت يد الحكومة عن أن تنال زعماء الثورة بسوء . واتسعت حركة الضباط وخرجت عن محيط الجيش إلى الأمة ، وأصبحت حركة شعبية وجد الشعب فيها تحقيقاً لذاته وتعبيراً عن الثورة المكبوتة في نفسه وانتفاضاً على الحكومة التي يعتبرها مصدر آلامه ، ورأى فيها شمع الأمل في حياة أفضل من الهاوية التي يقع في قرارها .

كانت حركة فبراير عملاً بطولياً في نظر المصريين ، فقد كانوا يدينون بالطاعة للتخدير ويهابون سلطاناً ، ويرون فيه سيلاً وضمه الخليفة ليطاع وتمنوه الوجوه . وما كان يتصور أحد أن يذهب إلى مقر سلطانه جندي فلاح نشأ في قرية ومن ورائه جنود فلاحون مثله ، ويقدمون للطالب بيد والإنذار بيد أخرى ، فيظفرون بمطالبهم ويمجرون التخدير على الرضوخ لهم ثم ينقلبون راجعين لم يحسهم المذاب الأليم . واعتبرت الأمة ما قام به عرابي ، وإن كان عسكرياً في مظهره ، عملاً وطنياً مجيداً

لأنه بعث الأمل في أن تنبته وثبات آخر تنفذ الشعب من الخضم الذي يتردى فيه . وأحست الطبقات المتعلمة التي تنطلع إلى الحياة الدستورية أنها ليست قليلة الخيلة أمام الاستبداد كما كانت تتوهم ، فإن لديها في الجيش قوة مادية متجمعة ، ولو أنها انضمت إليه ووحدت للسعي إلى الهدف لوضعت حدا عاجلا لشقاء البلاد .

وكانت نظارة البارودي للجهادية مرحلة جديدة من مراحل تطور الجيش المصري ، فقد أتجه به اتجاهها وطنياً يرفع من روحه المعنوية والقومية والعسكرية ، وأنهى التفرقة العنصرية التي حجبت للنائب العليا عن الضباط المصريين ، وأصدر اللوائح اللازمة لإصلاح حال الجيش وزيادة مرتبات الضباط والجنود ، وألف اللجان لتمديد النظم والقوانين العسكرية بما يتفق وكرامة الجيش الوطنية والإنسانية . ويصف محمد عبده عمل البارودي في هذه الفترة بمد توليته لها بقليل فيقول^(١) : « بعد أن صدر الأمر الخديوي بتعيينه ناظرًا للجهادية مع بقاء نظارة الأوقاف في عهده ، أخذ في إزالة ما كان حاصلاً في نفوس رجال العسكرية واتخاذ الوسائل الفعالة لحفظ الأمن والنظام في الجيش ، وكانت نظارة الجهادية أشد اختلالاً من نظارة الأوقاف ، وفي حاجة ماسة إلى إصلاح عظيم لا بد فيه من الروية والتدبير ، وطلب ذلك كله من أبوابه بالتدريج ، واثقاً من حسن نيته ومضاء عزيمته وثقة الجيش والأمة به . وفي هذه الفترة القصيرة تيسر له إصلاح كثير من شئونها ، وتحويل بعض أحوالها إلى ما هو أحسن » .

وفي مواجهة أزمة الثقة بين الخديو ورياض من جانب وزعماء الثورة من جانب آخر ، أقام البارودي حفلات ليجمعهم فيها على اللقاء يرد الثقة الفقدودة ، أو يزيل بعض ما شاب النفوس إثر حركة فبراير^(٢) . أو لعله أراد ، وقد حام الشك حول اتصاله بزعماء الحركة ، أن يسعى على موقفه الحقيقي بمخططاته إلى

(١) من وثيقة نسب البارودي وتاريخ حياته التي كتبها محمد عبده بمساعدة البارودي نفسه أثناء توليته نظارة الجهادية ونشرت بالعدد ٧ جزء ٢٠ في ٢٣ ديسمبر ١٩٠٤ .

(٢) الرافضين: الثورة العراقية ص ١٠٥ .

الضباط في هذه المخلات وهي تدعو إلى طاعة الخديو والإخلاص للحكومة^(١) . ولكن جهوده من أجل السلام ذهبت سدى ، فقد أحس تحالف الرجعية والاستعمار من الخديو ورياض ومعتد إنجلترا بالخطر الذي يهدد مصالحهم من التأييد الشعبي الذي نالته حركة الضباط في طول البلاد وعرضها بعد حادثة قصر النيل ، « وأيقنوا أنها لم تعد عملاً عسكرياً محصوراً في دائرة اللطالبع العسكرية ، بل تحولت إلى حركة وطنية عامة يؤازرها المصريون جميعاً عسكريون وغير عسكريين^(٢) » . ورأوا رأى المين مدى المطف والتأييد الذي نالته من جميع الطبقات وفي المقدمة العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان ، وكما يقول محمد عبده : « إن الجند والأمة كليهما كانا في جانب عرابي^(٣) » .

وشرع كل طرف من ثالوث الخطر يفكر في طريقة للخلاص من زعامة الثورة لكي يقضوا على المد الوطني قبل أن يستفعل أمره ، وأخذوا يدبرون لهم المؤامرات^(٤) تباعاً . ولكن محاولاتهم ذهبت عبثاً ، فقد كان صديقهم سامي البارودي وزير الحرب ينذرهم بكل مشرع جلدى يدبر لهم في الخفاء ، ويعلمهم على ما يصل إليه علمه من الدسائس التي تحاك ضدهم ، واستطاع أن يفعل ذلك ببجاح لأنه قلل من الاجتماع بعرايى ، وإن ظلاً على اتصال دائم بواسطة على الروبى^(٥) ، ومن ثم كان زعماء الضباط على علم بكل مكيدة تدبر لهم فيأخذون الحذر ويتربصون للمكيدة ويفضحون عملاءها قبل تنفيذها ، ويزداد ضغط الشعب وكرهه للتآمرين ولا يملك الخديو ورياض إلا أن يحيا رأسيهما للمصافة . وضاعت نفس الخديو وعيل صبر رياض من فشل المؤامرات وكشف الدسائس^(٦) .

(١) خطبته في حفل نظارة الجهادية في الوقائع ١٨٨١/٤/٧ .

(٢) مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ١٨٨ ؛ ويشت : التاريخ السرى ص ١٠٤ - ١٠٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢١٥ - (٤) مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ١١٧ .

(٥) يشت : التاريخ السرى ص ١٠٥ - ١٠٩ .

(٦) بلغت المؤامرات كما عدها عرايى في كشف الستار ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٩ ثلاث عشرة مؤامرة ؛

أنظر كذلك : مصر المصريين ج ٧ ص ٦٩ .

استقالة البارودى من الجهادية :

كان موقف البارودى من حركة فبراير ودفاعه عن زعماء الحركة ومطالب الجيش في مجلس الوزراء يثيران الشك في نفس رياض فبت الميون والأرصاد من حوله ، حتى تأكد من العلاقة السرية بين البارودى وزعماء الحركة ومن نقله قرارات مجلس النظار إليهم^(١) ، قدس له عند الخديو وظل به حتى « اعتقد توفيق قلباً وقالباً أن محمود ساعى متحداً اتحاداً كلياً مع زعماء الحركة »^(٢) ، وأن بقاءه في نظارة الجهادية مع ميله إلى عراى سبب تطاول الضباط على السلطة العليا في الدولة^(٣) ، فخاصه ورياض المدا وتربصا به الشر وتلفسا له أسباب المضايقة حتى اضطر إلى الاستقالة في ٢٢ أغسطس ١٨٨١ .

وكان البارودى قد اتفق مع زعماء الضباط أنه إذا لم يستطع دفع الضر عنهم قدم استقالته ، وعليهم أن يمدوا هذه الاستقالة إنذاراً لهم يتوقعون بعده شراً مستطيراً^(٤) . وقدم البارودى استقالته إلى الخديو بالإسكندرية^(٥) ، وحين عاد إلى القاهرة أرسل إليه رياض مع خطاب قبول الاستقالة وكيل الداخلية^(٦) ليبلغه قرار الحكومة بأن عليه فوراً أن يترك القاهرة ويسافر إلى ضيعته وبظل بها محددة إقامته ، أو بمعنى آخر يعتكف سياسياً كيلا يتصل بأحد من الضباط أو يتصل به أحد منهم . ولأزم وكيل الداخلية منزل البارودى وهو يعد نفسه للسفر ليشرف على تنفيذ القرار ، وجاء عراى ومعه بعض الضباط إلى منزل البارودى ليتأكدوا من خبر استقالته ويعرفوا أسبابها ، فاعتذر عن عدم مقابلتهم ، وانصرفوا وهم يحسون بمخالب الرجعية والاستعمار توشك أن تنشب بأعناقهم ، ويرون في

(١) مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ١١٦ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٨ . (٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢١٣ .

(٤) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٩ . (٥) مصر المصريين - محضر استجواب محمود سامى

البارودى ، ج ٧ ص ٦٩ - ٧٠ . (٦) خليل يكن . أظفر المصر السابق ؛ أحمد عراى الزعيم

المقترى عليه ص ٨٣ ؛ وأظفر أيضاً: التاريخ السرى ص ٣٦١ من حديث مع عراى .

استقالة البارودى وعدم مقابلتهم نذر الشر الذى يكاد أن يحيط بهم ^(١) .
استقل البارودى القطار إلى ضيعته « بقرقرة » ^(٢) ، وذهب إليها ونفسه
تتميز من النعيق ، وقلبه يفيض بالكراهية والحقد على رياض ، ذلك النمام الذى
كشف صلاته بمرأى وصعبه ، وجرى بينه وبين الخديو بالوقعة حتى أقاله فأصابه
في مقتلين : أصابه في أمانيه الشخصية فتبدلت أحلاما ، وأصابه في مهمته الوطنية
فأصبحت حركة الضباط ولا سند لها في معسكر الرجعية يحميها من المؤامرات ويرد
عنها غائلة العدوان . وأقم قلب البارودى بالمرارة وانفعلت نفسه بالألم من
رياض فهرع إليه شيطان الشر يدق له طبول الهجاء والانتقام ، ويعلم الحرب
عليه ، ويصب جام الهجاء على رأسه ، ويصوره بألوان من خلقه ومن طبعه :
شذوذ وفجور ، ودمامة وغرور ، وغدر وصغار ، وأصل من الأشرار ، ونسب
مطمون فيه ، ونحاز ورثها عن جده وأبيه . نخرجت الصورة بشمة تشتمن منها
النفس وينحنى أمامها مجامو المربية جميعاً ويعترفون لها بالتفوق ويحملونها إلى
متحف التاريخ لتبقى كما يقول هو نفسه :

تَبَسَّى الْعِظَامُ وَيَتَى ذَكَرُهُ أَبَدًا فِي كُلِّ عَصْرِ لَهُ سَجْعٌ وَتَرْنَامُ
يبدأ البارودى « قصيدة الانتقام » بإعلانه القطيعة الأبدية لرياض ذلك
الذى قوض أمانيه فجعلها أضفان أحلام فيقول :

مَا لِي بُوَدُّكَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِيَّامُ فَاذْهَبْ فَأَنْتَ لَسْتُمْ الْعَهْدُ نَمَامُ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَدْرَكَتْ مُأَرَبَةً مِنْ الْمُنَى ، فَإِذَا مَا خَلْتُ أَحْلَامُ
هَيْهَاتَ مَتَى الرِّضَا مِنْ بَعْدِ تَجْرِبَةٍ إِنَّ لِلْوَدَّةِ بَيْنَ النَّاسِ أَقْسَامُ
فَأَطْلُبُ لِنَفْسِكَ غَيْرِي ، إِنِّي رَجُلٌ يَأْتِي لِي الْقَدَرُ أَخْوَالٌ وَأَهَامُ

(١) انظر : مصر للصيرين ج ٧ ص ٧٠ .

(٢) مركز أجا دلهية .

ثم يُمسك بمول المدم فيضرب به كيانه رياض وجبروته فيقول :
 هذا الذي تكره الأبصار طلعتُ غظها منه إبداء وإسلام
 في وجهه سمةً للندر بينة وبين جنيته أحقاد وأوغام^(١)
 له على الشر إقدام ، وليس له إلا عن الخير والمعروف إحجام
 قد يممته الخازي فهي نازلة منه بحيث تلاقى الأوم والدَّام
 ما إن أصبت له خلقة فاحده فكل أخلاقه للنفس آلام
 فظ غليظ مقيت ساقط وجم وعد لئيم ثقيل الظال حجّام^(٢)
 سجات به عجز ليست بظاهرة لها بمدرجة الفحشاء أزلّام^(٣)
 مستيقظ للحجازي غير أن له طرقة عن المرض والأوتار نوام
 وكيف يصلح أمر الناس في بلاء حكامه لينات الأهر خدام
 وهالك ما أنت أهل في المهج له فاهجؤ فيك لنقض الحق إيلام^(٤)

ويهدأ البارودي نفساً بعد انتقامه من رياض بالمهجة ، والانتقام وخاصة
 عند الفرسان بفعل الكثير من أحقاد النفس وأضرارها . وتقبل الطبيعية
 الرفية بجمالها الساحر على البارودي قتلته — كما هي معه دائماً — عن كل
 شيء ، فليق بزماته إليها ويستغرق فيها عليها تذهب عنه المرارة والألم ، وحسبها
 البارودي فرصة يستجم فيها من عناء السياسة ، ويستريح من خداع القوم ، ويلقي
 وراء ظهره ظرائفه بمؤامرات الحكم ودسائسه . وجاءته رنة الشمر تمشي على استحياء ،

(١) أوغام جمع وغم : المخذ التابت في الصدر . (٢) رجل وجم : لئيم بخيل .

(٣) المدرجة : الطريق ؛ والأزلام جمع زلم : السهم والتصيب .

(٤) هذه الأبيات لمسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان وعدد أبيات التصيدة التي ذكرت فيها ٣٧ بيتاً وعنون لها في الديوان بقوله « وقال بعد ما استغاث من وزارة الحرية يذم بعض الوزراء » ، وذكرت هذه التصيدة في المخطوطة (ج) ص ٢٥٤ - ٢٥٦ فقط ولم تذكر في المخطوطة (س) ولعل الناسخ لها عرف اتجاه عمود الإمام في ألا يطبع من الديوان شعر المهج القاحش .

وتعزف له على قيثارتها بعد أن غاضبها وشغل عنها بأعباء السياسة ، وعاد إلى
الشاعر صوته الذى احتبسته شواغل وزارة الأوقاف ثم الجهادية فأخذ ينقى ،
واستعاد ذكريات الصبا وحن إلى الشباب ، ولكن الشيب الذى أخذ يشتمل في
رأسه ، وقد بلغ الثانية والأربعين ، يذكره بعمره فينهى نفسه عن متابعة الصبا
ويهبب بها أن تستمتع بحال الواقع فيصف القطار الذى أتى به من القاهرة :
يطوى للذى طوى السجل ، ويهتدى في كل مهممة بضل بها القطا
يمر على عجل ، فلا يشكو الوجى مدّ النهار ، ولا يمل من السرى^(١)
ربان ملء ضلوعه ، لكنه يشكو بزفرته لمياء في الحشا
حتى يصل به إلى جانب أفيح ، وجنت زاهية النبات ، وحدائق ملتفة ،
جمال يسلمه إلى جبال آخر .

فإذا شممت وجدت أطيّب نفعه وإذا التفت رأيت أحسن ما يرى
وقرب نهاية أغسطس يكون القطن قد أوشك جنبه من أشجاره ، فهذا
للشاعر بين ملوز ومنور كالغداة التي ازدانت بأنواع الحلى :
فكان عاقده كرات زمرّد . وكان زاهره كواكب في الرّوا
ثم يطوف به طائف خفيف مما يمتل في أحماق نفسه من مشكلات السياسة
فيفر منه ، ويبدى رضاه بما هو فيه ويقول :

هذا لعمرُ أيك داعية الرضا وسلامة العقبي ، ومفتاح الفنى
فعلام أجهّد في اللطالِبِ بإذلاً نفسى ؟ وهذا للمطالبِ مُنتهى
فالحمد لله الذى وهب العُلا وسراً الأذى عنى ، فأبعثت الهدى
ويحاول في قصيدة ثانية أن يجد ملهات وتسلية في مزرعته فيستمع بحمال

الطبيعة وبالظباء تحت الظلال راتمة ، وبالطير فوق النصوص منتشرة ، وبالطل ينهل من مساقطه مثل عقود الجمان منتشرة على ينسى ، ولكن خاطر السياسة يشتد في نفسه وينازعها هذه المرة فيلجأ إلى الاقتناع ليطرده فيقول :

فَيَا بَنُ وُدِّي ! هَلُمَّ تَقْسِمِ الْ
لَهُوْ ، فَتَقْسِي إِلَى الصَّبَا حَسِرَةً
وَحَلَّلْنَا مِنْ سِيَاسَةٍ دَرَجَتْ بَيْنَ أَنْاسٍ قُلُوبُهُمْ وَغَسِرَةً
يَقْبِضُونَ أَيَّامَهُمْ عَلَى خَطَرٍ فَبَيْسَ مُعَقَّبِي السِّيَاسَةِ الْخَطَرَةَ
خَدِيمَةً لَا يَزَالُ صَاحِبُهَا بَيْنَ هَمْ—وَمِ عَيْشَةٍ كَدَرَةٍ

ولا يلبث البارودي في ضيمته طويلا حتى تأتيه أخبار من القاهرة تفزعها ، فقد كانت استقالته فصلا نذير الخطر الزاحف على زعماء الضباط ، وأكدت الأحداث أن الأمر قد قضي فيه بليل ، وأن الخطة قد وضعت للقضاء عليهم بقسوة وبلا رحمة ، فقد عين توفيق زوج أخته داود يكن وزيرا للجهادية وهو لواء جركسي من شرار الرجعيين ، اشتهر بقسوته وتعصبه ضد المصريين ^(١) . وعزل رياض « أحمد الدرملي » محافظ القاهرة وكان من أنصار حركة الضباط وعين مكانه « عبد القادر حلي » وهو من المسكرين الجراكسة أيضا . وكان من حاشية اسماعيل وقد عرف بشدته وبطشه وجبروته وعدائه للمصريين ^(٢) .

وكانت أولى مراحل الخطة منشورات أصدرها ناظر الجهادية الجديد لجميع آليات الجيش تحرم على الضباط الاجتماع في المنازل ، وتأمرهم بعدم مغادرة الآليات ليلا أو نهارا والامتناع عن الحديث في السياسة ، وتفرض عقوبة السجن بالقلمة للمخالفين ، ومنشورات أخرى تمنع اجتماع أكثر من اثنين من الضباط في المدينة وتعرض للمخالفين لاقبض عليهم من رجال الضبطية ^(٣) . والمحافظ الجديد بث

(١) بشت السرى ص ١٠٩

(٢) مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١١٩ ؛ وكفت السار ج ١ ص ٥٥ .

(٣) كشف السار ج ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ؛ ومصر للمصريين ج ٤ ص ٩٠ ؛ وتاريخ الأستاذ

الإمام ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٥ .

العيون والأرصاد حول منازل الزعماء ليفتكوا بهم غيلة وغدر^(١). أما للرحلة الثانية من انخطة فكانت في تشتيت آلايات الجيش وتوزيعها في البلاد وإحداث الفرقة بينها ، وانهز الخديو فرصة وجوده بالاسكندرية فاستال إلى صفة آلاى الاسكندرية وحاول إغراء آلاى الحرس لينضم إليه ، ويعود بهما إلى القاهرة ليضرب الحركة وآلايات الجيش الموالية لها على انفراد بعد تشتيتها^(٢).

ويتكشف البارودى في خطة الرجيين - بعين السياسى والقائد - ما يوشك أن يدفع بالجيش إلى حرب أهلية ، وما يهدد الوطن كله بنكسة تذهب بما أحدثته حركة فبراير من يقظة للشعور الوطنى . وتجميع للرأى العام حول للطلاب القومية ، فيهرع إلى القاهرة ، ويضرب بتعليمات الخديو ورئيس الوزراء عرض الحائط ، فثله لا يخلد إلى الاعتكاف السياسى بينما الأحداث تصنع تاريخ الوطن . ويعود البارودى إلى القاهرة ، فتعود إلى زعماء الضباط تفتحهم بأنفسهم ، وقد وجدوا سياسى الحركة إلى جوارهم ، يدمم بمشورته الناضجة ، ويكشف لهم بحبرته ورأيه مغاليق الأمور ، ويبصرهم بالحدود التى تقف بهم دون التردى فى مزالق التهور ، وقد كادوا يندفون إليه فى غيبته^(٣).

ويتصدر البارودى اجتماعات الضباط فى منزله كل ليلة يستعرض مع زعمائهم الموقف ، ويناقشون انخطة ويدرسون الاحتمالات ، ويمدون لكل شىء عدته^(٤). ويأخذ البارودى مكانه الخفى بين زعماء حركة الضباط علانية ، ويتبين للناس أنه سياسيا ومستشارها الذى تصدر عن رأيه ومشورته .

وتأتهم العيون والأرصاد بأنباء المعسكر الرجى بعد مدة الأخير الذى حاول

(١) للمصادر السابقة ؛ ومذكراتى فى صف قرن ج ١ ص ١١٩ .

(٢) بليت : التاريخ السرى : ص ١٠٨ - ١٠٩ ، وكشف الستار ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، والرأى الثورة العربية ص ١٢١ .

(٣) أخطر التفصيلات فى كشف الستار ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٤) مصر للمصريين ج ٧ ص ٦٠ عثر استجواب عبد المال حلى

به أن يحسن مواقفه ويضعف من مواقع القوى الوطنية : أما رياض فقد بدأ يعتقد المجالس في منزله بالقلمة ، وتنازل عن غمارسته وترفعه متوهمًا أن ذلك سوف يكسبه شعبية بين الناس ، ولكن مجلسه لم يأو إليه إلا صائدو الحاجات وذوو المصالح من أشياعه وعملائه الذين يكيّدون لزعماء الضباط بوحى منه ، ويرسمون المؤامرات التي يكشّفها حذر الضباط ويقطّعونهم ، فيرميه البارودى بهام من تندرته وقذائف من سخريته ويقشّد :

يَقُولُ أَنَسٌ - وَالْحِجَابُ بَجَّةٌ - متى أصبح «الوزان» ربَّ مجالسٍ ^(١)
نرى كلَّ يومِ عصبةٍ في فِنَائِهِ تُجاذبه أطرافُ تلكَ الوسَّاءِ
فقلتُ لهم : لا تمجَّبُوا لاجتماعهم لديه ؛ فإنَّ الحشَّ ماوى الخدَّافِ ^(٢)

وأما توفيق فهو مغمى في الخداع والتردد ، يعمل في الظلام لحساب نفسه « ويريد أن يتخلص من زعماء الضباط ومن رياض جيمًا حتى تحصل له السلطة المفردة . يدبر المؤامرات بواسطة رجال العاشية لمرأى وصحبه ، ثم يبعث إليهم بالرسل يخطب ودهم ، ويمسح نفسه واحدًا منهم ^(٣) ، ويتهم رياضًا بأنه المدو اللدود لهم ولحركتهم .

وتعيش الأمة تحت سعب الخوف والأرهاب ، وتتجمع طبقاتها المختلفة في مجالسها ومنتدياتها ، وتجمع على ألا منجى للوطن مما يمانيه إلا بثورة تزيح رياضًا من الوزارة ، وترغم الخديو على التسليم بالحكم الدستورى . وتتطلع الأعين إلى الجيش وقد بعث انتصاره في وثبة فبراير آمال الأمة في « الوثبة الكبرى » .

وتثبت التجربة ، وهى ما تزال تؤكد كل يوم أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال للمصرى أن يسير عليه من الماضى إلى المستقبل . فالثورة هى السبيل الذى تستطيع به مصر أن تخلص نفسها من الاستغلال الذى

(١) الوزان لقب أسرة مصطنع رياض وكانت أسرته مشهورة بهذا اللقب راجع الراضى : الثورة الغراية ص ٣٨ (٢) الحش : المرحاض (٣) بلت : التاريخ السرى ص ١٠٨

أرهمها والأغلال التي كبلتها ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها ، فإن عواد
القهر والاستبداد التي تحمكت فيها طويلا ونهبت ثرواتها لا تستسلم بالرضا
وكان لابد للقوى الوطنية أن تصرعها ، وأن تحقق انتصارا حاسما عليها ،
أمكنها ذلك .

وكانت الثورة هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على التفرقة العنصرية التي سيطرت
على العقلية التركية والجركسية للتحكمة في مصر ، وللقضاء على الدخيل سواء
ذلك الأمرة الحاكمة التي اتخذت من مصر مزرعة لها ولأصهارها ومحاسبيها
أم النفوذ الأجنبي الذي توارى خلف الأسرة الحاكمة يحميها من الشعب بقو
ونفوذه في سبيل استنزاف ثروة البلاد .

وقد أثبتت التجربة أيضا أن الجيش هو الذي يبدأ الخطوة التنفيذية الأوا
دأما في الحركات الوطنية الثورية في الشرق . ويتدخل في اللحظة الحرجة لبع
عما يضطرم به قلب الأمة من ثورة . ولينقذها مما تعانيه من ظلام سياه
وعبودية اجتماعية ، ذلك لأنه — ولا يزال — العامل الأكبر في الحركات
السياسية ، له وحده من القوة والامجاد ما يمكنه من تحقيق أهدافه .

ويجب ألا ينسب عن الأذهان أن كل مصالح الدولة ومرافقها وقتذاك كان
قد تغافلت فيها « الرقابة الثنائية » وسيطرت عليها وحولتها في اتجاه غير وطني
ولم يكن هناك من هيئة وطنية تملكها مصر دون تدخل الأجانب غير الجيش
ومن هنا نرى أن الجيش كان مقدرا له أن يلعب دورا هاما في السياسة الوطنية
التي لم يكن هناك بد من ظهورها ، وقد جمع في جنوده أبناء الشعب بمختلف
طبقاته الكادحة التي أرهمها التحكم والاستغلال ، فكانت تسرى فيه أحاسير
الأمة المختلفة ، ومن ثم أصبح نقطة الارتكاز الطبيعية التي تجمع من حول
النشط القومي ، ونقطة الانطلاق التي اتخذت طريقها إلى الثورة .

الزحف المقدس :

تمددت الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١ ساعة انصرف لقيام الجيش بالثورة ، فزحف « أحمد عرابي » على رأس وحدات من آلايات الجيش إلى ميدان عابدين ووجهت إلى القصر مدافعها^(١) ، وأرغم الخديو على قبول مطالب الأمة : فأقال وزارة رياض ، ووافق على تشكيل مجلس نيابي ، وعلى زيادة الجيش والتصديق على قوانينه . ونجحت الثورة دون أن تراق في سبيلها قطرة دم واحدة ، وانتصرت الأمة بواسطة جيشها الذي استطاع أن ينقذها من وهدة الرق السياسي ، وأن يهيئ لها سبيل الإصلاح الدستوري السليم ، واستيقظ الناس من حلمهم الطويل فإذا بهم قد تخلصوا من الاستبداد ، وتحققت لهم أمانهم التي انتظروها قرونا وأجيالا طويلة .

ومن الطبيعي أن يتدخل رجال الثورة في اختيار أعضاء الوزارة ، فوافقوا على أن يتولى رئاستها محمد شريف ، ورغبوا في أن يسكن البارودي ناظرا للجهادية . ولكن الخوف من نفوذ البارودي داخل شريكا ، فهو يعلم صلته برجال الثورة ، وثقتهم به ، وإصدارهم عن رأيه ، ومن ثم ستكون له الكلمة العليا في مجلس الوزراء . ويحاول شريف الاعتذار بشق الأسباب عن اختياره وزيرا في وزارته فيصطدم بإصرار عرابي على تعيينه ، « فالمسكرة لا تعلمن لغيره ناظرا لهم ، وهم يثقون فيه وفي حبه للحرية والعدل والمساواة^(٢) » ، ويرضخ شريف وتشكل الوزارة في ١٤ سبتمبر ١٨٨١ .

(١) أنظر تفصيلات الزحف على عابدين في مصر للمصريين ج ٤ ص ٩٠ — ٩٤ ؛ وكشف الستار ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣٨ ؛ والوثائق المصرية في ١٨٨١/٩/١١ ؛ والرائي : الثورة الميرابية ص ١٢٢ — ١٣٠ .
(٢) كشف الستار ج ١ ص ٢٣٨ .

وتجتاح البلاد موجة من الفرح غامرة ، فقد ابتهجت بأشراق عهد الحرية الذى انتظرته طويلا ، وسرى بين طبقاتها تيار من الاطمئنان والتفاؤل فى مستقبل كريم ، ويصف شاهد عيان أجنبي شعور الأمة نحو الثورة فيقول : « كانت الأشهر الثلاثة التى أعقبت حصار عابدين من أسعد الشهور التى مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسرنى أنى حظيت بمشاهدتها بعينى راسى ، ولو أنى سمعت بها شفاها لداخلى الشك فى صحتها . وفى الحق أنها لم يكن لها شبيه فى الأيام التى رأيتها فى مصر ، وأخشى أن تكون منقطعة النظير فى الأيام المقبلة ، فجميع الأحزاب الوطنية ، وسكان القاهرة والريف على بكرة أبيهم قد اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية . ولعل الخديو نفسه قد سر بعد انتهاء الأزمة لتخلصة من رياض الذى كان يستأثر بالحكم ولا يترك له شيئا من السلطان ، وظنه أن شريفا لا بد وأن يخلصه آجلا أو عاجلا من عرابى . أما شريف وزملاؤه من وجهاء الأتراك فقد فرحوا بمودة السيطرة وسلطان الحكم إليهم . ونجا الضباط من كابوس الخطر الذى تهددهم طوال حكم رياض ، وارتاح للمصلحون للحرية التى أصبحت واقعا فى متناول أيديهم ... ونجاوبت فى أنحاء مصر صيحة فرح وسرور ، لم يسمع بمثلا على ضفاف النيل منذ مئات السنين ، وقد رأيت الناس وهم يستوقف بعضهم بعضا فى شوارع القاهرة ويتملقون على غير تعارف سابق ، ويتجهجون معا لمصر الحرية الجميل التى بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر إثر ليل مخيف طويل ^(١) » .

وهذأت الأمور بعد اضطراب ، وبدأت مصر تشرع بنوع من الاستقرار فى عهد الوزارة الدستورية ، وتنحى العسكريون عن مسرح السياسة وعادوا إلى

معسكراتهم يرقبون الأمور بعيون الحراس على مكاسب الثورة ، ويتبعون الإصلاح للنشود من الوزارة الجديدة . وبعد أن صدر الرسوم بإجراء الانتخابات لمجلس النواب أصدر البارودي وزير الجهادية أمره بنقل عرابي وآلايه إلى رأس الوادي بالشرقية ، وعبد المال حلمي إلى دمياط حتى يبطل الدعوى من أن الجيش وزعماءه يتدخلون في السياسة . فصدعا لأمره ونفوسهم مطمئنة إلى أن مقاليد الجيش في يد وزير الثورة ومستشارها الأمين ، وأنه سوف يحمهم من المؤامرات التي تدبر في الخفاء ، ويكون لسانهم في مجلس الوزراء .

وكان افتتاح مجلس النواب في ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ يوماً مشهوداً من أيام مصر التاريخية ، فقد كان حصيلة النصر التي جاهدت الأمة من أجله طويلاً ، ورمزاً للحرية السياسية التي كانت حلاً فأصبحت حقيقة وواقعاً ؛ غير أن طلائع الاستعمار في مصر أصابها من منقزع وهي ترى الأمور تنتهي في مصر إلى أبدى مواطنيها . ومجلس النواب في نظرهم مهما حسنت نيته وتأكد اعتداله لابد وأن يس مصالح الأوربيين المتعددة ، والحكم النيابي سوف يدفع بمصر إلى أن تستكمل استقلالها وعزتها ، فتعيد النظر في هذه المصالح التي يعرف الأوربيون أنها قائمة على الساب والنهب دون سند من ضمير أو قانون .

ودفع طلائع الاستعمار القزع على مصالحهم ونفوذهم إلى شن حملة مسمورة في الصحف الأوروبية ضد الثورة ورجالها ، ملأوها بالأكاذيب ، ودججوها بالسموم محاولين تشويه الحقائق وإثارة الرأي العام الأوروبي ليدفع بحكوماته إلى التدخل في شئون مصر لحماية عملائهم ومصالحهم . وتشير كبرى الصحف البريطانية^(١) إلى ذلك بصراحة فتقول : « إن من البعث إخفاء الحقيقة ، فإن النساءين بالحركة

لا غرض لهم سوى هدم النفوذ الأجنبي في الإدارة المصرية ، وتخليصها من رق المراقبة الأوروبية ، وإذا جاز القول بأن تلك النية كانت منذ أسبوعين مقصورة على ليف من الضباط ، فلها ليست كذلك اليوم . إن سكان الإسكندرية والقاهرة ومدن الأقاليم يؤيدون عمل الجيش كل التأييد ، وهم الآن أشد جراءة من غيرهم في الجهر بأغراضهم . وتشتد صراحة صحيفة أخرى ^(١) فتقول عن عملاء النفوذ الأجنبي : « كيف يثق بنا أصدقاؤنا بعد ذلك ، ونحن نتخلى عنهم إن أصابهم محنة ، وقد كانوا يعملون لصالح المواطنين والأجانب على السواء ، ومصر ما زالت غير مؤهلة للحكم الذاتي ، وللمتقيد العادل كرئيس الوزراء السابق خير من تسلط الجيش الذي يهدف — ولو مع مجلس النواب للنتظر — إلى أن يحكم البلاد بالحديد والنار ، وأن يرفض دفع الديون ، ويمنع تصاون الأوروبيين وخبرتهم في الإدارة المصرية ، ولن ننتظر حتى نراهم يلقون بنا في البحر المتوسط » .

ورأي الهارودي وعراقي ومحمد عبده أن يدروا على هذه الحملة السمومة ^(٢) ويضعوا مبادئ الثورة وأهدافها في بيان ينشر في الصحف الأجنبية ، عسى أن يكون في نشره ما يلقى بعض الضوء على المعجوم للفرض الذي امتلأت به الصحف الاستعمارية . ونشر البيان في جريدة « التيمس البريطانية » تحت عنوان : « برنامج الحزب الوطني » ^(٣) .

وقد حدد البرنامج سمة مبادئ للثورة : الأول يتعلق بصلة مصر بالباب العالي وهي صلة تتمتع بالسلطان خليفة المسلمين ، ولكنها تقاوم من يحاول

(١) البال مال جازيت ١٢/٦/١٨٨١ . (٢) بكت : التاريخ السرى : ص ١١٥ .

(٣) التيمس في ١/٣/١٨٨٢ .

الاعتداء على حقوق الوطن ، أو إخضاعه لتركيا . والثاني يقرر تأييد الخديو مادامت أحكامه في نطاق العدل والقانون ومن خلال الحكم الدستوري . والثالث الاعتراف بالديون الأجنبية حفظا لشرف الأمة ، والعمل على استخلاص مائسة الدولة من أيدي أرباب الديون . والرابع حماية مكاسب الثورة بالعمل على إقامة حكم نيابي سليم ، وإطلاق حرية الكلمة وللمتقد ، وتمويد الأجيال على التربية القومية حتى يعرفوا معنى الحرية الحقيقية . والخامس إعلان التنظيم وحركة الضباط حزبا سياسيا لادنيا وللواطنين جميعا لهم حق الإنضمام إليه دون تفرقة عنصرية أو دينية . والسادس إصلاح البلاد ماديا وأديبا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق التعليم وإطلاق الحرية السياسية والفكرية^(١) .

التمهيد للتدخل :

ولكن حملة السلام والملاينة من المصريين لم تكن شيئا ، فقد كانت إنجلترا وفرنسا تمدان عدة التحدى والتدخل المسلح ، وقررتا مناهضة أماني المصريين^(٢) ، وأخذت الصحافة في لندن وباريس تمهد لهذا التدخل فهاجت الثورة الوطنية واتهمت المصريين بالتمصب الدينى . ثم بدأت الدولتان التحرش بالحكومة الوطنية ، وذلك باقتمال سلسلة من الأزمات التى تضع العراقيل فى طريق سير الأمور ، فلم يكد مجلس النواب يجتمع فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ حتى طلب الراقبان الإنجليزى والفرنسى عدم تعرضه للميزانية لأنها من اختصاصهما وحدهما ، وكأنهما كانا يطلبان تنازل الأمة عن حكم نفسها بنفسها ؛ إذ كيف تحكم أمة نفسها إذا حرمت كل سيطرة على مائيتها ؟ !

(١) نس اليرناج كاملا فى التاريخ السرى م ٤٤٠ — ٤٤٣ ؛ ومصر للمصريين ج ٤

م ٢١٧ — ٢٢٠ . (٢) المألة المصرية م ١٧١ ؛ والتاريخ السرى م ١٣٣ .

نم لم تلبث الحكومتان الإنجليزية والفرنسية أن أرسلتا - دون مناسبة - في ٨ يناير ١٨٨٢ مذكرة^(١) تملنان فيها تأييدهما الكامل للتخدير في استعمال سلطته المطلقة واستعدادهما لهذا التأييد بشقي للظاهر ! وكان من الواضح أن هذا الاستفزاز الذي لا سبيل إلى احتماله إنما أريد به تحريض الخديو على استعادة أنورقراطية أبيه إسماعيل ، فيحل مجلس النواب ، وبقيل الحكومة ، ويحكم بمشئته ، ويدفع المد الرجى - حتى يقضى على الثورة وعلى النظام الدستوري كله ، ويمكن لأعدائه وحلفائه نفوذهم في البلاد . وقوبلت للذكره من جميع طبقات الأمة بثورة عارمة يمثلها ما قاله عرابي : « هذا تحد لحرياتنا ، وليس لإعلان اتحاد فرنسا وإنجلترا معنى سوى أن إنجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس . . دعهم بأتون ، فكل رجل وطفل في مصر سيقاتلهم . ليس من مبادئنا أن نضرب الضربة الأولى ، ولكننا سنعرف كيف نرددها^(٢) ».

ولم يكن ذلك آخر سهم في كنانة الدولتين ، فقد أرسلتا في ٢٠ يناير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة تؤيد ما طلبه المراقبان المالبيان من أن مجلس النواب ليس من حقه الاقتراع على الميزانية للمصرية^(٣). واعتبر المجلس هذه المذكرة إهانة موجهة إليه ، فما إن تقدم شريف « باللائحة الأساسية » للمجلس وقد نص فيها على منع النواب من الإشراف على الميزانية - استجابة لمطالب المراقبين الأوربيين ، ومهادنة للنفوذ الأجنبي - حتى أجمع النواب على رفض هذه اللائحة ، وقرروا

(١) نص المذكرة في مصر للمصريين ج٤ ص ١٧٢؛ والرائضى : الثورة العرابية ١٨٩-١٩٠ .

(٢) من حديث عرابي إلى الفريد سكاون بلنت في تكلمات قصر النيل عقب تقديم المذكرة ،

التاريخ السرى ص ١٣٩ .

(٣) تيودور دولتين : تاريخ المسألة المصرية ص ١٢١ عبد الحميد الباقى وعمد بدران (١٩٣٦)

أن يعدلوا هم دستوراً يحقق لمر الحياة الديمقراطية الصحيحة ويكفل لها الاستقلال الكامل .

وثارت ثائرة « محمد شريف » وتجاوز غضبه غضب أحلافه الجدد من الأوروبيين ، فقد كان يعتقد أن المصريين قد خلقوا ليحكمهم الأتراك ، أما أن يتحكموا في بلادهم ويتجرعوا فيرفضوا قانونا تقدم به محمد شريف زعيم الحزب الدستوري نفسه فهذا أمر في نظره غير محتمل ! وظهرت شخصيته التركية المتفطرة على حقيقتها ، وتعمى من ثياب التستر وراء المطالبة بالدستور ، لتبين أغراضه الخفية في دعواه ، ونكشفه هذائاً وساعياً وراء الحكم والسلطان ، وهوى إلى القاع ، وأحرق رصيده من الوطنية حين علق على رفض النواب لمشروعه بقوله : « إن المصريين أطفال ، ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الخلق بهم ، فإذا لم يرضهم كان عليهم أن يميشوا بدونه . إني أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى ، وسيجدون أنهم لا يستطيعون العمل بدونى ، ولا شك أن هؤلاء الفلاحين في حاجة إلى الإرشاد^(١) » ولم يكن رد أعضاء مجلس النواب - الفلاحين - إلا التصميم على إقالة شريف ، وتعيين من يكون أكثر موافقة لرغبات المجلس وأحرص على كرامة الوطن واستقلاله .

فه المجد السياسى :

وانتخب مجلس النواب لجنة من خمسة عشر نائباً لتتولى المفاوضات مع الخديو حول الموقف وزارى ، فأنهوا إليه رغبة المجلس في إقالة شريف لامتناعه عن التصديق على القانون الأساسى الذى وضعته لجنة الدستور بالمجلس فأقاله توفيق .

(١) من حديث محمد شريف ليلت أثناء الأزمة ، أنظر : التاريخ السرى ص ١٤٤ .

ورأى الخديو تصميم المجلس على استعمال حقه كاملا فوكل إليهم أمر اختيار رئيس جديد للوزراء ، ورجع أعضاء اللجنة إلى زملائهم النواب ، وقضوا يوما كاملا يتشاورون فيما بينهم ليختاروا أصح الساسة للمهمة وأخلصهم للوطن وأقدمهم على حل الأمانة الدستورية . وأجمع النواب على أن « البارودى » هو رجل الساعة الذى يستطيع بثوريته أن يتجاوب مع آمال الأمة ، ويكفل لها الحياة الديمقراطية السليمة ، ويحافظ على كرامتها الوطنية باستقلالها الكامل . وأنهت اللجنة إلى الخديو رغبة المجلس فى اليوم التالى ، فأسند إلى البارودى رئاسة الوزارة ^(١) فى فبراير ١٨٨٢ .

وكانت طريقة اختيار البارودى لرئاسة الوزارة سابقة وطنية فريدة فى السياسة المصرية ، ذلك أن اختياره لم يكن مباشرة من الخديو بل بواسطة مجلس النواب ، وكان دور الخديو فى هذا الاختيار هو مجرد التصديق الشكلى على إرادة المجلس ، وقبل مجلس النواب تحمل المسؤولية بثقة وجدارة ^(٢) . ومن أجل ذلك أطلق على وزارة البارودى بحق « الوزارة الوطنية » ، وأطلق عليها أيضا « وزارة الثورة » فقد كانت تضم ثلاثة من زعمائها : محمود سامى البارودى للرئاسة والداخلية ، وأحمد عرابى للحرية ، والبحرية ومحمود فهمى للاستقلال ^(٣) .

بعث البارودى بخطاب قبول تأليف الوزارة إلى الخديو متضمنا المبادئ التى جعلها دستورا ومرشدا لسياسته فى الوزارة الجديدة . وبعد أن تناول فيه

(١) تفصيل مناقشات النواب وتشكيل اللجنة ومفاوضتها مع الخديو فى الرافى : الثورة المصرية من ١٩٥ — ٢٠٢ ؛ ومصر للمصريين ج ٤ ، من ٢٢٠ — ٢٢٣ ؛ وبلنت : التاريخ السرى من ١٤٧ — ١٤٨ .
(٢) المسألة المصرية من ١٦٥ .

(٣) أما باقى الوزراء فهم : على صادق المالكية ، مصطفى فهمى الخارجية والحفانية ، عبدة فكرى المعارف ، حسن الشريعى للأوقاف .

مشكلة الديون وعزم الوزارة على الوفاء بها ، والإصلاحات الداخلية كتنظيم الحاكم ، وإصلاح الإدارة ، والاهتمام بمشروعات الخدمات وإنتاج من تحمين حالة التعليم والملاحة ، وتوسيع رقعة الزراعة ومجال التجارة والصناعة مضي يقول : « لكن الوزارة قبل كل شيء ترى من الواجب أن تعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له أن يأتي الحكومة بالمساعدة التي تنتظرها منه ، وأن يحقق آمال البلاد المحصورة فيه ، ولذلك فأول شيء تسرع فيه الوزارة هو وضع نظام أساسي للمجلس المولم إليه ، ويكون من أحكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعمود الدولية ... وتحديد التبعة التي تلحق الوزارة أمام المجلس ، وكيفية التجارة والمباحثة في أسس القوانين ووضعها وتنظيمها ، وسيكون هذا النظام الأساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح الموم بعيدا من أن يكون سببا لقلق البال . هذه يا مولاي لأنحة الوزارة الجديدة وفقا لآمال الوطن . . . (١) » .

وافتتحت وزارة البارودي أعمالها بإعداد الدستور ، وجملته بحيث يؤام آمال الأمة وبحقق إرادتها ويحفظ كرامتها كدولة مستقلة لمجلس نوابها حق نظر ميزانيها . وكان البارودي يحس من أول يوم في وزارته بتزايد الجفاء بينه وبين الخديو ، فما كان توفيق ليسيع أن يصيح الأمر بينه وبين الوزارة قائما على غير ما ألف من مبادئ السيطرة ونوازع الاستبداد ، ولكن الوزارة استعاضت عن مموته بتأييد الأمة ومجلس نوابها . وحل البارودي الدستور إلى الخديو وكأنه يحمل آمال الأمة وتوقعاتها عليه بالمواقفة ، فلم يسمه إلا أن يضع خاتمة بالتصديق ، وما كان يستطيع - ولو أراد - أن يفعل غير ذلك .

(١) نص الخطاب في مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٢١-٢٢٣ ؛ والوثائق المصرية ٥ فبراير ١٨٨٢ .

وكان يوم الأربعاء ٨ فبراير ١٨٨٢ قبة الجدى بلنه البارودى فى حياته السياسية كلها ، وذروة النصر الذى وصلت إليه الأمة بثورتها ومجلس نوابها ووحدة القوى الوطنية فيها ، فقد حضر محمود سامى البارودى رئيس الوزراء إلى مجلس النواب ومعه اللائحة الأساسية المحققة لإرادة الأمة مصدقا عليها من الخديو ، وقبول البارودى فى المجلس بالتعظيم والإكبار ، وسر النواب بنفوذ رأيهم فشكروا الوزارة الجديدة على ذلك ، ثم وقف محمود سامى خطيباً فى المجلس يقدم الدستور لنوابه فقال : « أيها السادة النواب . . أحسب نفسى سعيد الطالع بمحورى بينكم حاملا إلى حضراتكم القانون الأساسى الذى سيكون إن شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم ، ويسرنى كل السرور أتى لم أحله إليكم إلا بمدتبقى من أنه خير أساس يمكنكم أن ترفعوا عليه من الأعمال ما يميز شأن البلاد ، وينسب ثروتها ، ويقوى أصول العدل فيها . . . إلا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا إلى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم ، بل لا بد من أن ينضم إلى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ، ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الأعمال والأفكار منحصرة فى دوائرها . . .

« إن التفات النظر إلى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسنات ومناظرات تحمل على اختلاف الدائم - نعوذ بالله منه - وإنكم تعلمون أن الذين رقوا إلى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك إلا بإخلاصهم فى طلب النفع للعالم ، فاعترف العالم بفضلهم ، وأجلتهم القلوب فأحلتهم أعلى للنازل ، فثبتوا فى مكانهم ماداموا متعلين بحلية الإخلاص .

« وإنى أحنى نفسى بوقوفى بين عقلاء البلاد العارفين بحقوق وطنهم عليهم ،
المالين بأن شرفهم معهود بشرف بلادهم ، للوقنين بأنهم لن يكونوا نواباً
حقيقيين إلا إذا أقاموا على صدقهم براهين من العمل ، وحججاً من الثبات
فى خطة الاعتدال ، حتى يقنع بها البعيد كما عرفها القريب ... »

« وآخر ما نتواصى به ألا نجعل للتمصب المشربى دخلاً فى الأعمال الوطنية
التي كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها ، وأن تكون الوطنية الحلقة هى الباعث
القوى على كل فكر ، والغاية القصوى من كل قول وعمل ... »^(١)

كشف لنا خطاب البارودى فى مجلس النواب عن منابع أصيلة من وطنيته
القوية المميقة ، ومن ديمقراطيته الصحية ، ودلنا على موهبة جديدة فجرتها
المناسبة ، فأسفرت لنا عن « البارودى الخطيب » وقد تملك ناصية القلوب
« بخطابه الذى يمد من أبانغ ما كتب البارودى ، ومن أقوى الخطب السياسية ،
يل هو قطعة رائمة من الأدب السياسى لما تضمنته من المعانى السامية ، والآراء
السديدة ، والنصائح الحكيمة ، والأسلوب البليغ »^(٢) .

وظل الخطاب لفترة طويلة حديث الخاص والعام ، فقد أرسى قواعد جديدة
للحكم ، وأسساً سليمة للمصالحة بين السلطة التشريعية والتنفيذية ، ورسم خطة
للإصلاح العام . وأطلقت الصحف على البارودى « ميرابو مصر »^(٣) ، وعمت
البلاد موجة فرح شاملة لذلك النصر الوطنى الكبير ، وسرت فى النفوس هزة
الشوة لإعلان الدستور الجديد ، وأطلقت الصحف فى الحديث عن مزاياه وعن

(١) نص الخطاب فى مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ والوثائق المصرية فى ١٢/٢/١٨٨٢ .

(٢) الزمانى : الثورة العربية ص ٢١٥ . (٣) الطائف فى ١٢/٢/١٨٨٢ .

حياة الاستقرار والأمن في ظله ، وعن الأمل المنشود في التخلص من النفوذ الأجنبي وفساد الماضي .

وتقاطرت الوفود على العاصمة من أنحاء البلاد تعبر عن شعور الغبطة والفرح^(١) وأقيمت الاحتفالات في طول البلاد وعرضها غداة صدور الدستور ، وكان احتفال « جمعية الماخذ الخيرية » أكثرها بهجة وروعة وجلالا ؛ فقد شهد البارودي ووزرائه ورجال الأمة وعلماؤها ونوابها وأعيانها وكبار ضباط الجيش^(٢) ، وتلاه احتفالات النواب والأعيان بالقاهرة^(٣) والإسكندرية^(٤) . وكانت هذه الاحتفالات صورة صادقة للحياة السياسية والفكرية في ذلك الوقت فقد كان يؤمها صفوة مثقفي الأمة ومفكرها على اختلاف مشاربهم ، وكانت للباديء السياسية والأفكار الاجتماعية والثقافية تتداعى على ألسنة الخطباء^(٥) ثم تعرض للنقاش ، ويوالى الخطباء والناس لا يملون فقد كانوا في شوق إلى سماع الكثير في هذه الموضوعات .

وأحدثت مهرجانات النصر وعيا دستوريا وسياسيا كبيرا بين الأمة ، فقد كانت الخطب والمناقشات تطبع في الصحف وتقرأ في أنحاء البلاد ، وتنتشر في القرى والكفور . « وأصبحت السياسة حديث المجتمع ، ولم يمد في البلاد

(١) مصر المصريون ج ٤ ص ٢٣٢—٢٣٣ .

(٢) تفصيلات الحفل في الوثائق المصرية ١٨٨٢/٢/٢٠ ، ١٨٨٢ .

(٣) منها حفل الثاني أحمد محمود وإبراهيم الوكيل : انظر الوثائق في ٢١/٢/ ١٨٨٢ ، وحفل أحمد أبانة : الوثائق ٥ مارس ١٨٨٢ ، وحفل أحمد تير يكن : مصر المصريون ج ٤ ص ٢٣٤ ، وحفل محمد طاهر : المصدر السابق .

(٤) تفصيلات حفلات الإسكندرية في مصر المصريون ج ٤ ص ٢٣٤ — ٢٤١ .

(٥) من الخطباء في هذه الاحتفالات : محمد عبده ، عبد الله النديم ، إبراهيم اللقاني ، وأديب إسحاق حسن الشنسي ، مصطفى ماهر ، فتح قه صبري ، أنظر : مصر المصريون ج ٤ ص ٢٣٤ .

مكان يخلو من اجتماع تناقض فيه شئون البلاد السياسية^(١) . ويقول شاهد عيان أجنبي يدرف العربية : « إنه عد في السوق ٢٧ مجموعة من الناس يتحدثون عن الليزانية أو اللامعة الأساسية أو الوزارة الوطنية الجديدة أو التفوذ الأجنبي الذي يستمد للرحيل^(٢) » . ومن ناحية أخرى كانت هذه المهرجانات نهضة حقيقية لقن الخطابة فمبارات الخطباء وأسلوبهم وطريقة أدلهم وتعبيرهم عن أفكارهم دللتنا على الحظ الكبير من المقدرة الفنية التي يتمتع بها جيل الثورة من تلاميذ الأفغانى وقد أخذوا يحولون الأدب إلى أدب هادف يعبر عن مطالب المجتمع .

ومضى مجلس النواب يؤدي الأمانة التي عهدت بها الأمة إليه ، ومضابط جلساته تبض بالوطنية الصادقة وتدلنا على الكفاية ولتقدرة وسداد الرأى والإسام بالنظام النيابى ، ولاشك في أن النواب المحضرين الذين أدركوا النياية في مجلس شورى النواب على عهد إسماعيل قد لمسوا الفرق بين المجالين ، فقد كان الأول استشاريا لايملك السلطة الفعلية على الحكومة أو التوجيه لسياستها ، أما الثانى فقد كان مثالا للمجالس النيابية في أرقى مستوياتها ، له سلطاته التامة والوزارة مسئولة أمامه مسئولية كاملة .

وتحققت في عهد وزارة البارودى أمانى الأمة وأمانى نفسه ، وبلغ بإعداد الدستور وإقراره في مجلس النواب أمه الذى كرس حياته من أجله وجاهد طويلا في سبيله . ويهتف بذلك في اليوم الأكبر يوم أن أصبحت الأمة تحكم بأبنائها فيقول :

سميتُ فأدرکتُ للى غير أتنى أضمتُ شبانى في سبيلِ طلائى

(١) التيمس البريطانية في ١٠/٣/١٨٨٢ .

(٢) مراسل التيمس البريطانية : المصدر السابق .

المواجهات الساخنة بين البارودى وتوفيق :

انتهت دورة مجلس النواب الأولى في ٢٦ مارس ١٨٨٢ وكان السلام والاستقرار قد انتهيا بانتهائها في البلاد ، ذلك أن طلائع الاستعمار قد أصيبت بالذعر والهلع وهي ترى أهل مصر ينزعون حقاً إلى الحرية ، وينجح مجلس نوابهم نجاحاً يضمنه في مصاف المجالس المريقة في التاريخ ، وتحقق وزارة البارودى آمال الأمة في الإصلاحات المختلفة ، وتسمى جاهدة في إنجازها ، وتكاف الإدارات بالدراسة والبحث طوال عطلة المجلس حتى تكون مستعدة للدورة المقبلة ، ووجد أعداء الشعب في ذلك النجاح علامات الخطر على نفوذهم واستقلالهم للبلاد وأصاب الرجعية مس من الجنون وهي ترى النلاحين يستلبون السلطة منها ، ويحاولون فينجدون في موضع للسؤولية الذى وضعتهم الأمة فيه بحيث يكونون -- وهم ناثبون عنها -- مصدر كل سلطان .

وكان لابد للرجعية وحلفائها - يدفعهم الحقد والخوف والجنون - من القيام بعمل يشوهون به هذا النجاح ، ويستردون به سلطانهم ، فخططوا لاقتضاء على الثورة . ورأوا أنهم إن قضوا على انبيادات الثورة بأسلوب من أساليبهم المروفة ، يقضون على مكاسب الثورة ويحولونها نكسة تديد البلاد إلى منطقة نفوذهم ، فاستعانوا بفريق من الضباط الجراكسة للثوريين - وهم أداة الرجعية - على تنظيم اغتيال جمعى لرجال الوزارة وكبار ضباط الجيش والرهوس للمفكرة في الثورة ، ولكن سبقت مشيئة الله فاكشفت المؤامرة قبيل تنفيذها بساعات^(١) ، ولم يكن أمام المسؤولين إلا أن يشكلوا محكمة عسكرية تحاكم المتآمرين .

(١) كشفها أحد المشتركين فيها وهو الملازم خليل حسن ، انظر : مذكراتى في نصف قرن

وحتى تأخذ العدالة مجراها ، ولا تنهم المحكمة بالتعنى والتعصب وضع على رأسها ضابط جر كسى ^(١) من جنس التهمين ، فعكست بما ارتأته قصاصا للجريمة ^(٢) . وأيقنت العناصر المادية للثورة أن تنفيذ الحكم فى أنصارهم التآمرين لابد وأن يضمف معسكرهم ، ويفقد ثقة علائهم فيهم ، ومن ثم صمموا على أن يحوم من القانون . وأوعز للمعتمد البريطانى إلى الخديو بالامتناع عن التصديق على الحكم ^(٣) . وكانت أولى الأزمات بين « الوزارة الوطنية » والخديو .

وبذهب البارودى إلى توفيق فى ٨ مايو ١٨٨٢ لينهى إليه باسم الحكومة أن الخديو ليس من حقه الامتناع عن التصديق على حكم المحكمة العسكرية ، فإذا به يجده وقد جمع معتمدى الدول الأوروبية ينزعهم « مالت » قنصل أنجلترا العام ليكونوا مستشاريه ويصدر عن رأيهم وبعد أن يتحدث البارودى يسكت توفيق ويتكلم مالت بلسانه فيقول : « إن بعض المحكوم عليهم من هو حائز لرتب أعطيت لهم من السلطان ولا يمكن تجريدهم منها إلا بإذن منه » . ويرد البارودى : « بأن إقحام الباب العالى فى هذه للسألة الداخلية تتنازل عن الامتيازات التى نالتها مصر بفرمانات استقلالها الداخلى ، والحكومة ليست على اعتماد لهذا التنازل » . ويعضى البارودى فيقول : « وإذا وردت أوامر الباب العالى بعدم تجريدهم من الرتب فان تطيع النظارة هذه الأوامر ، ولو حضر وفد عثمانى فيمنع من النزول إلى أرض مصر ولو اقتضى الأمر استعمال

(١) الفريق واحد حسى ، أنظر المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٢) تفصيلات المؤامرة والأحكام أنظر : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٣٤ — ١٣٧ و مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٦٣ — ٢٦٧ و بئلت : التاريخ السرى ص ١٧٩ — ٢٠٢ .

(٣) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٢٦ .

القوة ، وستكون النتيجة قيام ثورة ضد السلطان ، وما نأمل هو عدم تدخل إنجلترا في الأمر ^(١) .

والواقع أن قنصل إنجلترا كان يعمل على تأليب الخديو ضد وزارة البارودي وإحداث أزمات متتالية تدفعها إلى الاستقالة ، أو تفرى توفيق بالارتقاء في أحضان الإنجليز ووصايهم ، وقد كتب « ماليت » في هذه الأزمة إلى حكومته يقول ^(٢) : « اسمحوالى أن ألاحظ أنه عند النظر في الخطة التي يجب أن نقرى الخديو باتباعها لإزاء حكم المجلس العسكري ، يجب أن نأخذ نظرة عامة على الحالة كلها ؛ وأن نذكر أن وزارة البارودي تسمى إلى تضيق الحاية الإنجليزية والفرنسية ، وأن نفوذنا آخذ كل يوم في النقصان . وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطانتنا العليا حتى نخضع من شوكة الحكم العسكري ، وفي اعتقادي أنه لا بد من حدوث ارتباطات شديدة قبل الوصول إلى حل يرضينا للسألة المصرية ، وأن الحكمة تقضى باستعمال هذه الارتباطات لا بتأجيلها »

وأراد البارودي أن يفوت على معتمد إنجلترا خطته التي تهدف إلى توسعة شقة الخلاف بين الخديو والحكومة ، فاقترحت وزارته حلا للأزمة بأن يصدر الخديو أمره بتعديل الحكم وتخفيفه ، وظنت أن في هذا الحل ترضية للخديو وأنه يحفظ للحكومة العسكرية وللحكومة كرامتهما ؛ بيد أن الخديو امتنع عن إبداء رأيه حتى يستشير قناصل الدول . وأخذ البارودي برد الخديو ، وأيقن أنه قد رمى بثقله كله في جانب مندوبى الاستعمار ، وألقى بزمامه إليهم بصرفونه كيف يشاءون ، وأن خديوى البلاد بدأ يطلب جهارا من القوى

(١) مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ١٣٦ ؛ وانظر كذلك الرافى : الثورة المراسية

(٢) مصر رقم ٧ عام ١٨٨٢ ص ١٠٧ .

خ ٢٦١ — ٢٦٢ .

الأجنبية حمايته من شعبه وحكومته ، وغضب البارودى لكرامته كرئيس للوزراء ولكرامة الوطن والدستور، وعرض الأمر على مجلس الوزراء فرأى المجلس أن الخديو ليس له أن يستمع إلى مشورة قناصل الدول بعيداً عن وزرائه ، وليس له حسب قواعد الدستور حق هذه الاستشارة أو حق الامتناع عن التوقيع على أحكام المحكمة العسكرية العليا ، وعاد البارودى إلى الخديو ليقدم له اللوم الشديد لنزوله على إرادة قناصل الدول وإهماله رأى وزرائه^(١) . وانقطعت العلاقة بين الخديو ونظاره من هذا اليوم^(٢) .

ولم تجد وزارة البارودى مفراً وقد اختلفت مع الخديو بعد أن سلك مسلكاً تخطى فيه حدود الدستور ، وتمدى به على استقلال البلاد من أن تعرض الأمر على « مجلس النواب » ليرى فيه رأيه ، فاستدعت النواب من عطلمهم إلى القاهرة ليجتمعوا فى جلسة غير عادية ويقضوا فى الأزمة برأى . واجتمع النواب بالوزارة ظهر يوم ١٢ مايو ١٨٨٢ فى دار البارودى ، ليقفوا على أسباب الخلاف بينها وبين الخديو ، وبعد أن تكررت اجتماعاتهم بصفة غير رسمية فى غير مبنى مجلس النواب ازدادوا إيماناً بأن الأزمة مدبرة من الخديو وحلفائه طلائع الاستعمار ، ووجدوا أن وزارة البارودى تقف إلى جانب الدستور واستقلال الوطن فأبدوا موقفها وساندوها ، وقرروا « أن الخديو إذا استمر على دسائسه مع القنصلين الإنجليزى والفرنسى لن يكون هناك مناص من محاكته وخلعه^(٣) » . وخرجت الصحف الوطنية تكشف تحالف توفيق مع الدول الأجنبية ، وتنصر

(١) الكتاب الأسفر عام ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦١ ؛ وانظر أيضاً الراعى : الثورة المراسية ص ٣٦٢ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٢٧ . (٣) يلى : التاريخ السرى ص ١٩٨ .

الوزارة ومجلس النواب في موقفهما الوطنى ، وتجرات فاقته الخديو « بالخليان الخديوع » ، وهاجته لارتباطه في أحضان الوصاية الأجنبية ، واتهمته بخيانة الوطن والدين في أسلوب لاذع لم تهده البلاد من قبل ، وانتقلت من الهجوم على توفيق إلى الهجوم على أسرة محمد على كلها ^(١) .

وانطلقت أبواق الرجعية تروج الإشاعات لتبث في النفوس الاضطراب والقلق ، وتلقى ظلالاً من التبرير السابق للتدخل الأجنبي المسلح ونهي له الأذهان . فالبارودى يريد أن يثبت إلى العرش ، والجيش على أهبة التحرك إلى عابدين ليبرغم توفيقاً على قبول مطالب الوزارة ، والأساطيل الأجنبية في الطريق لتعصى صاحب السلطة الشرعى ، وخمس مدرعات تركية خرجت من الدردنيل إلى مصر بمنحود عثمانية ^(٢) . ويجب للمرء حين يجد أن بعض المؤرخين قد أخذ هذه الإشاعات المرجفة التي أطلقتها معاول الرجعيين وأقلامهم على أنها حقائق فبنوا عليها أحكامهم التاريخية ، ولو أنهم فطنوا إلى أن البارودى لو أراد الوثوب إلى العرش لجأ إلى القوة العسكرية - وكانت طوع بئانه - ولم يلجأ إلى مجلس النواب ، ولو أن الروح العسكرية كانت مهيمنة على الحكم وأراد الجيش أن يزحف على عابدين ليبرغم الخديو على أمر لا وقف إحاطل دونه وقد عرف الطريق إليه من قبل . ورأى فريق آخر من المؤرخين أن البارودى قد زاد الأزمة تعقيداً بتمسكه بالوزارة ، وكان عليه حين وصل الخلاف إلى الدرجة القصوى أن يترك الوزارة ويستقيل . وقد يبدو هذا رأى صحيحاً لو أن الجالس على العرش وطنى يعمل لصالح الأمة ويوحى من الدستور، ولكن توفيقاً

(١) ألف عدد ٤٢٤ في ٢٩/١٢/١٨٨٢/٥

(٢) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٦٩ ، ومذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ١٣٧ ، والكتاب الأصغر عام ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦٢٠٦٢ .

كان يعمل بوحى من الخارج وبمشورة من للمتمد البريطانى .

وقد سئل البارودى عن وجهة نظره فى عدم الاستقالة ودعوة مجلس النواب دون الرجوع إلى الخديو فأجاب : بأن الخديو أحد طرفى الخصومة ، وليس الخلاف شخصياً أو على أسلوب العمل حتى تستقيل الوزارة ، ولكن شكوانا من سموه لأنه يسلك مسلكاً يقضى على استقلال مصر ، وكثيراً ما فغل ذلك دون مشورة وزرائه ، ومجلس النواب هو الفصل الأعلى بين الوزارة وبينه^(١) .
والواقع أن البارودى قد وقف الموقف الذى يحتمه عليه الواجب الوطنى كرئيس للوزراء ، وهو موقف جدير بالإعجاب والتقدير ، ولو أنه تخلى عن مسئوليته واستقال لكان ذلك تسليماً لأعداء البلاد وفراراً من الواجب نحو وطنه وأمته .

ظهر الخطر واضحاً لتحالف الرجعية والاستعمار فى وقوف النواب صناً يساندون الوزارة ضد الخديو فأجبروا إلى أسلوب التفرقة ، وعزف توفيق لأولئك الذين حملتهم موجة الثورة معها وهم طامعون فى المناصب ، وضرب على أوتار الإغراء لأولئك الذين دفعتهم رياح المصالح الشخصية فنتسلاوا إلى الصفوف الوطنية ، واستمع إلى إغرائه محمد سلطان رئيس مجلس النواب^(٢) وستة من النواب الذين وجدوا أن مصالحهم مرتبطة بالخديو وحكم الطبقة الفنية^(٣) .
وأحسن بقية النواب بالخدعة ، فبدأ لهم أن يدركوا الأمر قبل أن يصعد الرأب ونحدث الفقرة بين الصفوف الوطنية ، « وطالبوا بانعقاد مجلس النواب على صورة رسمية ، لينظر فى أمر الخلاف ويقرر ما يراه ملائماً لمصلحة البلاد

(١) لورد كرومر : مصر الحديثة ج ١ ص ٤٥ وانظر : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) أغراء الخديو بإقلاع الأساطيل الأوربية إلى مصر لتقم الثورة وتفيد النظام القديم ، ووعدته برئاسة الوزارة .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٩٩ .

وأهلها^(١) ؛ ولكن محمد سلطان — وقد أغواه توفيق — رفض أن يدعو المجلس للانعقاد ، واحتج بأن ذلك يحتاج إلى « دكرتو » من الخديو ، وهو لا يوافق على عقد المجلس قبل دورته الثانية .

ولإزاء هذا الرفض « قرر النواب والوزراء ورجال الثورة عقد جمعية عمومية من أعيان البلاد وعلماؤها ونوابها ، يتخابرون فيها ويتشاورون في كيفية حل للمشكلة ، وأخذ الناس يرقبون عقد هذه الجمعية حتى تحسم النزاع^(٢) » . وكانت النذر كلها تلمح أن عقد هذه الجمعية سوف يسفر عن إجراءات حاسمة ضد الخديو ، فعمد إلى أسلوب المخادعة حتى تفوت الفرصة ، وحتى رأسه للعاصفة ليسكب الوقت حتى تصل إليه للمونة والسند من الأساطيل الحربية التي وعده بها معتمدا لإنجلترا وفرنسا ، وأوعز إلى عملائه الجدد من النواب للمشقين بزعماء « سلطان » أن يسعوا بالصالح للوقت بين الطرفين ، وتمت الوساطة في ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ على ألا يستشير الخديو الأجانب في أمور الدولة ، ولا يقطع أمراً إلا بإذن من الوزارة الدستورية^(٣) .

وما لبث الأساطيل أن وصات الإسكندرية فجر يوم ٢٠ مايو ، فأحست الرجعية بالقدرة على التحرك والمبادرة بالانقضاض مرة أخرى ، وقد آنتت في نفسها القوة ، وامتدحرت التأييد في مدافع السفن الأوروبية . وألقى في روع الخديو أنه قادر على أن ينزل بالثورة ماشاء من انتقام ، ووجد « سلطان » في نفسه الشجاعة على أن يمالئ الخديو ويعان أنه إنجاز إلى صفه ، ونسى أمه

(١) مصر المصريين ج ٤ ص ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٢ والواقع المصرية في ١٦ مايو ١٨٨٢ .

الغريب ، كما يقول الشيخ محمد عبده ، «الذى كان يطلب فيه قتل الخديو ويقول : أقتلوا الثعمان سلالة الجفاة الناهيين الذين باعونا للأجانب ، هذا هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى ، وهو لا يريد الآن إلا بحاملة الخديو الذى لا يبنى إلا بيع البلاد للأجانب^(١)» . وليس ذلك بغريب من محمد سلطان فقد كان طوال حياته يعمل لحسابه الخاص ، وهو عيد لمصلحته الشخصية ، وأكثر العملاء إخلاصاً للقوة أينما كانت ، وأحرص الناس على عرض الحياة ، يميل مع من عليه الدنيا مقبلة .

كان انحياز محمد سلطان والمستضعفين من النواب إلى الخديو مبدأ انحاز المد الثورى فى البلاد ، وأول الهزيمة والوهن فى الصفوف الوطنية ، فقد بدت الأمة أمام العالم وكأنها منشقة على نفسها ، ومن ثم حانت الفرصة للانتفاض عليها . وبدأ تحالف الرجعية والاستعمار تنفيذ مخططة فى نفس اليوم الذى وصلت فيه الأساطيل ، «فصيح مالت سمو الخديو بأن ينتهز فرصة وصول الأسطول ويطلب من النظارة استقالةا لتخليها وزارة أخرى يعتمد عليها . . . وتنفيذاً لهذه الخطة كلف توفيق «سلطاناً» بأن يتوجه إلى عرابى ومحمود سامى ويطلب منهما استقالة الوزارة ، فوعدا بالنظر فى هذا الطلب^(٢)» .

وبحث البارودى وزعماء الثورة طلب استقالة الوزارة ، وقبلوا الأمر على وجوهه ، وأخذت الآراء تتبلور فى اتجاهين :

اتجاه يتزعمه البارودى ، ويرى قبول طلب الاستقالة ، وليس فى الاستقالة الآن تحلل عن مبادئ الثورة أو مهادنة للرجعية ، فقد تمرد الخديو

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٤٢-٢٤٣ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٣٩ .

في ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ بالألا يستشير الأجانب في أمور الدولة وألا يقطع برأى إلا بأذن من وزارته ، وقد يكون في الاستقالة ترضية للخديو وتنفيس لحقده الشخصي على البارودي ، وحفظ لـمـاء وجهه بعد حادث المؤامرة الجركسية ، ورد لاعتباره بعد أن وقف في وجهه مجلس النواب فلم يستطع إقالة الوزارة في النزاع السابق ، وقد يكون فيها نوع من الاعتذار ولللائنة والتودد تقتضيه مصلحة الوطن انقاء للعنصر الخدق بالبلاد ، فيقلع الخديو عن الالتجاء إلى قناصل الدول ويثوب إلى رشده ، ويعود إلى التعاون مع العناصر الوطنية ومجلس النواب . وما دام المجلس قائماً فلن تستطيع الوزارة القادمة معها كان مشربها أن تحيد عن الخط الوطني ، فإن فعلت سحب المجلس منها الثقة فتسقط^(١) .

واتجاه آخر يترجمه عرابي وبقية رجال الثورة ، ويرى عدم الاستجابة إلى طلب الاستقالة ، لأن الخديو لا يعمل بوحى من وطنيته بل ينفذ مخطط التحالف بينه وبين الاستعمار ، ومن ثم فالاستقالة معناها التسليم لأعداء البلاد . وأحس أصحاب هذا الاتجاه أن القوى الرجعية تنقض على المواقع الوطنية فرادى ، فالיום تستهدف الوزارة فإن أفلحت فستنقض غداً على مجلس النواب ثم على بقية العناصر الوطنية الأخرى تستأصلها واحدة بعد الأخرى حتى تقضى على الثورة . وأيد هذا الاتجاه أكثر الزعماء .

وأراد البارودي أن يدع للخديو خط رجعة يعود منه إلى صفوف الأمة إن ثاب إلى رشده ، فاستدعى محمد سلطان ، الوسيط ، وأبلغه أن النظارة مستعدة للاستقالة إذا غادرت الأساطيل مياه الاسكندرية ، وقد جاءت بحجة تثبيت سلطة الخديو ضد « الثورة الوطنية » ، ومن ثم فهو يستطيع أن يطلب إليها مغادرة الديار ،

(١) انظر : مصر للمصريين : ج ٧ ص ٧٣ عضو استجواب عمود ساي البارودي ؛ وج ٧ ص ٦٧ ، عضو استجواب أحمد رنمت .

فإن لم يفعل بوضع الأمر كله بين يدي ممثلي الأمة ، وما على الخديو إلا أن يجمع مجلس النواب إلى الانعقاد ويكون في حقه فصل الخطاب^(١). وذهب سلطان بمقتراحات البارودي ولم يعد ، فالخديو قد تملكه الوهم أن الأساطيل هي كل ما بقي له من أمل في التخلص من الثورة الوطنية وعودة الحكم المطلق إليه ، وساطان أنباء بشعور النواب السيئ نحو وجود الأساطيل في مياه الاسكندرية^(٢) وبكراهيتهم لكل تدخل أجنبي كراهة تزداد كل يوم عما قبله^(٣).

وكان هناك شطر آخر من مخطط الرجعية والاستمرار تولاه الطرف الثاني من « التحالف غير المقدس » ، فقد أرسل قنصلا الدولتين — معتمدين على مهديد الأساطيل — موفقا من سفارة فرنسا إلى « عرابي » يطلب منه باسمهما مغادرة البلاد^(٤). واجتمع مجلس الثورة ، وعرض عرابي عليه طلب القنصلية فاستنكر المجلس تدخل الدولتين السافر في شئون البلاد ، وقوبل طلبهما بالاستياء والغضب الشديدين « حتى لقد صرح أحدهم — أمام اللوزف الفرنسي الذي ينتظر الرد — أن الجيش يمزق عرابيا إذا هو تخلى عن الثورة واعتزلها^(٥) » .

وظهرت أهداف المخطط واضحة أمام رجال الثورة والوزارة ، فقد كانت ترمى إلى الإطاحة بالبارودي وعرابي وهما حجر العثرة في سبيل إعادة البلاد إلى أيدي الرجعيين ونفوذ الاستعمار ، وأخذت العناصر الوطنية تتأهب لما ينذر به للوقوف من جسيمات الحوادث ، وصمم مجلس الثورة والوزارة على ألا يقرأ أي

(١) أنظر: مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ . (٢) المصدر السابق .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٤٢ . (٤) مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ .

(٥) عمود الحقيف : الزعيم القزى عليه ص ٢٠٣ ؛ وأنظر: البحر الزاخر ج ١ ص ٢١٦ .

تدخل لانجلترا وفرنسا في شئون البلاد وإن أدى ذلك إلى القتال . وأراد البارودي أن يكون هذا القرار مقدساً ليسد على الشيطان منافذ الدس والتدبيرة بين زعماء الثورة وكبار الضباط ^(١) ، فدعاهم جميعاً إلى « تحالف مقدس » بمقدونه بتكنات عابدين ، وتلا عليهم الشيخ محمد عبده قسم الوفاء للثورة وتحميد الولاء لمبادئها على المصحف والسيف ^(٢) وهم يرددون بعده : « والله العظيم ، والله العظيم كتاب الله تعالى أننى وأنا (فلان) لا أخون وطنى ، ولا أخون نفسى ، ولا أغش إخوانى ، ولا أحداً من أهل بلادى ، وأحافظ على عرضى وعلى دينى ، وعلى عرض أهل بلادى ، ولا أدع أحداً أيا كان يتعدى على أحد من أهل بلادى مادمت قادراً على منعه ، وإنى أحافظ على النظام وعلى القانون المسكرى بكل ما يمكننى ، وبقدر استطاعتى ، وإذا حثت يمينى هذا فأكون مستحقاً لقطع الرقبة وشق الصدر ، وأكون محروماً من مزايا الإنسانية والآداب ^(٣) »

وخرجت الصحافة الوطنية تعلن إلى الجمهور في سخط وغضب مقترحات الخديو باستقالة الوزارة وطلبات معتملى الدولتين بإبعاد عرابى عن الوطن ، فأنهت العواطف وتحركت تيار الكراهية نحو الخديو والأجانب ومن انحاز إليهم من النفعيين والمستضعفين ^(٤) . وكان توفيق يشجع الفضليين في اتخاذ إجراء مسلح حاسم يقف به زحف الثورة وتيار الرأى العام قبل أن يكتسحه من الطريق ، وأن يتمددا

(١) أحد عرابى ، عبد المال حلى ، طلبة عصمت ، يعقوب سامى ، على الروى ، على فهمى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الغفار ، الزمر ، حسن جاد ، على يوسف ، محمود فهمى ، عمر رحى ، أنظر : مصر للمصريين ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٤ .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ١٤٠ حضر استجواب على الروى .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ حضر استجواب الشيخ محمد عبده .

(٤) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٧٤ .

في هذا التدخل على موافقة محمد سلطان رئيس « النواب ومن انفصل » من معسكر الوطنيين^(١) . واحتدت الدولتان إلى منفذ الفترة وطيرة ، التدخل ، فوجهتا إلى الحكومة للصربية وإلى الخديو في ٢٥ مايو ١٨٨٢ « للذكرة المشتركة » أو البلاغ الأخير يطلبان : « سقوط الوزارة البارودية ، ونفى أحد عرابي خارج البلاد ، وتحديد إقامة على نهى وعبد المال حلى في الريف المصري^(٢) » .

ونفذ الشيطان فعلا من الصنع الذي أحدثه محمد سلطان في إجماع مجلس النواب وفي الصف الوطني ، فقد عزت الدولتان مطالب للذكرة إليه وهو رئيس مجلس النواب كاقترح لحل الأزمة ! وذهب البارودي والوزراء إلى الخديو يستعلمون رأيه في الذكرة ، ويقص البارودي ما حدث من توفيق فيقول^(٣) : « ولا عرضت تلك اللائحة على الحضرة الخديوية صدر لي نطقها بأن الفصلين المذكورين قدما لها لأتمه بالنص عينه ، ولما سئل جنباه عن رأيه استصوب عقد جمعية والمذاكرة في هذا الأمر ، وما يستقر عليه الرأي تحرر به كتابة ، وأنه أرسل نسخة من تلك اللائحة تلفرافياً إلى الباب العالي وينتظر التعليلات . وطلب منا الحضور في اليوم التالي » . واستدعى البارودي محمد سلطان ليمثل أمام مجلس الوزراء ، وواجهه بالذكرة وبما نسبت إليه من وساطته واقتراحاته لحل الأزمة ، ووجد عميل الرجمية والاستعمار الجديد أن الشر بيدي ناجز به له ، وأنه إن أقر بإجراء اتصالات مع معتمدى الدولتين بتوجيه من الخديو لينال للنصب الذي وعده به فسيكشف عن المخطط الذي يعمل فيه لحساب نفسه ، فلجأ إلى الكذب

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) نص الذكرة في جريدة الوطن عدد ٢ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) مصر للمعربين ج ٧ ص ٧٣ عضو التحقيق مع عمود سامى البارودي وانتظر أيضاً ج ٤

وتنصل من التهمة ، « ونفى أنه اتصل بالقتلين أو ذكر مقترحات أو إشارات لا يعنيه أن يقدمها أو يبيدها باسمه الشخصي ولا بصفة كونه رئيس مجلس النواب فإن هذا المجلس غير ملتزم الآن^(١) » .

وعنى عن البيان أن البارودى ومجلس وزرائه قد اتفقوا بالإجماع على رفض المذكورة ، لأن « الطلبات للدولة فى اللائحة التى قدمها قنصلا إنجلترا وفرنسا تتفق بمسائل داخلية تختص بالأمور الإدارية التى اعترفت الدول الكبرى دائماً بأن حرية العمل فيها من خصائص الحكومة للصربية ، ولا يمكن لحكومة الجنتاب الخديو أن تلج باب للباحثات والمناظرات فى هذه القضايا دون التمدى على القرارات السلطانية وللمعاهدات الدولية ، التى حددت مقام مصر الخاصوى ، وبدون قض القوانين الثورية لهذه البلاد التى هى أعظم كفالة تكسفل ببقاء الحال على ما هو عليه^(٢) » . وأعدت الوزارة مذكرة رسمية بهذا الرفض ، وانتظرت حتى تأتى التعليمات التى زعم الخديو أنه فى انتظارها من الأستانة ، ولكن الدوائر الوزارية والثورية علمت فى اليوم التالى أن الخديو قبل مذكرة الدولتين دون انتظار لرد الأستانة أو مشورة مجلس وزرائه^(٣) . وذهب البارودى رئيس الوزراء ومصطفى فهمى وزير الخارجية إلى الخديو ليتصرفا جليلة الأمر ، وحين سأله البارودى عن رأيه فى مذكرة الدولتين وعن رد الأستانة أجابه بقبوله لها ، فاعترض على هذا القبول قائلاً : « إنه كان يجب الرجوع فى هذا الأمر إلى السلطان والوزارة فهو أمر متعلق بالمعاهدات الدولية وبأمور داخلية ، والدستور ينص على ألا يتخذ الخديو قراراً إلا بموافقة وزرائه ، وعندئذ طلب

(١) من رد الوزارة على المذكرة المتمدى الدولتين ونفى الردى جريدة الوطن عدد ١٨٨٢/٦/٢ .

(٢) من رد الوزارة على المذكرة ونفى الردى فى المصدر السابق .

(٣) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ .

رئيس النظار صدور « دكرتو » يجمع النواب لمرض الخلاف عليهم فأبى الخديو ،
وانسحب البارودى مع وزير الخارجية دون استئذان لا متعاضهما عما سمعاه ^(١) .

الوزارة الوطنية تستقيل :

وجد تبارودى أن الأزمة بين الوزارة والخديو أصبحت تهدد مستقبل
الوطن ، ولم يعد الحكم فيها يخص مجلس النظار وحده ، فعدا إلى عقد « جمعية
عمومية » تمثل الأمة ، وتضم النظار ، وأعضاء مجلس النواب ، ورجال الثورة ،
والعلماء والأعيان ^(٢) . ولم يكن هناك خلاف فى الجمعية على رفض المذكرة ،
ولكن السؤال الذى تبلورت للنقاشه فيه كما يقول الشيخ محمد عبده هو « هل
يمكن لنا أن نجتمع مجلس النواب ؟ فأجاب محمد سلطان : أظن أن ذلك لا يكون
إلا بأمر الخديو فنسأله فى ذلك ولا ريب أنه يوافق عليه ، فقال له أحد
النظار وقد اكتشف خديعته : الخديو الذى كنت تطلب خلمه إن لم يمكن
قتله قبل أيام ^(٣) » وانطلق صوت الشيخ محمد عبده فى الاجتماع يعبر عن رأى
الشعب بمختلف طبقاته فيقول : « اجتمع مجلس النواب حق للشعب ونحن
نوابه ، ولا بد لنا من أن نطلب النواب إلى القاهرة ، حتى لو أراد عرابى أن
ينفذ ما طلب من إيساده لإرضاء السياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع
لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه الخلاف ^(٤) » .

رأى البارودى إجماع الأمة على رفض المذكرة المشتركة فجمع النظار وقرروا

(١) المصدر السابق ص ١٤٠ — ١٤١ ؛ وانظر أيضاً : مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٣ ، محض

التحقيق مع محمود سائى البارودى .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

إرسال مذكرة الرضى - التى أعدت من قبل - إلى قنصلى الدولتين حتى يسجلوا بها رد حكومة البلاد الشرعية لتتقضى قبول الخديو لها . وبعد أن اطمأن البارودى إلى أن رد الحكومة الشرعية قد وصل مندوبى الدولتين جمع النظار مساء ٢٦ مايو ، وبحثوا موقف الخديو وتمديه على الدستور ، ونقضه لاتفاق ١٥ مايو الذى تمهد فيه بالألا يقطع برأى يس مستقبل البلاد أو يحصل بالدول الأجنبية إلا بعد مشورة الوزارة وعن طريقها ، وقرر الوزراء أن يحتجوا احتجاجاً رسمياً على قبول توفيق لمذكرة الدولتين ، وإظهاراً لهذا الاحتجاج قدم البارودى كتاب استقالته إلى الخديو يقول فيه : « إن جنابكم العالى قد أبلتتمونا عند وصول (الدونتمتين)^(١) الانجليزية والفرنساوية بأنكم حررتم إلى الأساتنة بطلب التعليات . ولما كنا منتظرين ورود جواب من الباب العالى إذا بقنصلى فرنسا وبريطانيا الكبرى قدما لحضرة رئيس مجلس نظاركم لانتهمما بتاريخ ٢٥ مايو . وبناء على أوامر جنابكم العالى اجتمعنا والتأم مجلسنا وقرر هذا الجواب للرفق مع هذا ، وعندما توجهنا إلى جنابكم لاستشارتكم أخبرتمونا بأنكم قبلتم لائحة وكلى فرنسا وبريطانيا المظى ، وهذا القبول مبين لما أجمع عليه رأى كل النظار إجماعاً كلياً فإن قبول تدخل الدول الأجنبية فى هذه القضية يس بمقوق الحضرة السلطانية واستقلال البلاد . وبناء على ذلك فنشرف بأن نقدم لجنابكم استعفائنا جميعاً^(٢) » .

كان افتئات الخديو على الدستور ، وقبوله لائحة الدولتين ، واعترافه بمقتها فى التدخل فى شئون البلاد ، واستعدادهما على استقلال الوطن ، الشرارة التى فجرت بركان الثورة المحترمة فى قلب البارودى على توفيق قامت قيامته وأعلنها

(١) الموتنة : البارجة الحريمة .

(٢) نس خطاب الاستقالة فى الوطن ٧ يونيو ١٨٨٢ .

عليه حرباً شعواء ، أفنة عما فعله حليف الاستعمار وركيزة الرجعية ، وانتقاماً
لكرامة هذا الوطن الذي عرضته الخيانة للخطر ، ورأى البارودي أن الداء كله
كامن في توفيق ، ذلك الأفتى الذي أودت سمومه بالوطن أو كادت ، فيقسم أنه
لن يهدأ نفساً حتى يخلص البلاد منه ولو بإراقة الدماء ، وبقتديم حياته قرباناً
لوطنه . ويدق مارد الشعر طوبله فتزيد رناتها من ثورة البارودي الذاتية
فينشد :

تالله أهدأ أو تقوم قيامة فيها الدماء على الدماء رُفِاقُ
أنا لا أقرُّ على التَّيْبِيعِ مَهَابَةً إنَّ القَرَارَ على التَّيْبِيعِ نِفَاقُ
قلبي على نفسه ونفسه حرة تأبى الدُّنْيَى ، وصارِي ذِلَّاقُ
فَتَلَامَ يَحْشَى للهِ فُرْقَةَ رُوحِهِ أَوَلَيْسَ عَاقِبَةُ الْحَيَاةِ فِرَاقُ ؟

ثم بصور لنا عملاء الرجعية الجدد بقيادة سلطان ورد عليهم وقد شنوا
عائيه حملة دعائية تلومهم على الموقف التمتع الذي وقفه من الخديو صاحب السلطة
الشرعية في البلاد فيقول :

حَابُوا عَلَى حَقِّي وَنِكَابِي والنَّارُ لَيْسَ يَعْصِيهَا الْإِحْرَاقُ
فَاغْرِفْهُمْ ، واحْذَرْ نَسَابَهُ أَمْرَهُم لَا تَسْتَوِي الْأُغْلَالُ وَالْأَطْرَاقُ
لَا تَحْمِلُنَّ الرِّفْقَ بِنَزْعِ غِلْمِهِم الشَّرُّ دَلَالُهُ مَالُهُ إِنْ سَرَّاقُ^(١)
شَرُّوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى ، واغْتَرَّمْ لَيْنُ الْحَيَاةِ وَمَاؤُهَا الرُّفْرَاقُ
فَتَرَى الْفَتَى مِنْهُمْ كَأَنَّ بَرَأْسِهِ نَزَعَ الْجُنُونُ ، فَلَيْسَ فِيهِ لَيَاقُ

مُتَوَلُّونُ الْأَخْلَاقِ بَيْنَ عَشِيرَةٍ جَهْلًا ، كَمَا يَتَوَلُّونُ الشَّرَّاقُ^(١)
لَمَجِّ بِعَارِفَةِ الْحَيَاةِ ، وَمَا دَرَى أَنَّ الْحَيَاةَ إِلَى التَّمَوُّنِ مَسَاقٌ

ثم يتحول إلى رأس الحياة وسليل الرجعية فليطبخه بالمار ويصمه بالخزى ،
ويضع صورته على معبر التاريخ في إطار من القلة والخوان فيقول فيه :

عِدَادُكَ فِي سِلَاحِ الْبَرِيَّةِ خِزْيَةٌ وَدَعْوَاكَ حَقٌّ لِلْمَلِكِ أَذْمَى وَأَعْظَمُ
لَقَدْ هَانَتْ الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ عِنْدَمَا رَأَوْكَ بِهَا فِي مُلْكِ يُوسُفَ تَحْكُمُ^(٢)
فَإِنْ نَكَتْ أُولَئِكَ لِلْقَادِرِ حِكْمَهَا فَقَدْ حَازَهَا مِنْ قَبْلُ عَبْدٌ مُزَنَّمُ^(٣)
وَشَتَاتِ عَبْدٌ بِالْحِجَّةِ نَاطِقُ وَحُرٌّ إِذَا نَاقَشْتَهُ الْقَوْلَ أَغْنَمُ^(٤)
فَهَذَا أَذْلُ لِلْمَلِكِ وَهُوَ مُمَزَّنُ وَذَلِكَ أَعَزُّ الْمَلِكِ وَهُوَ مُهْمَزُ
فَمَنْ شَكَّ فِي حُكْمِ الْقَضَاءِ فَهَذِهِ جَلِيَّةٌ مَا شَاءَ الْقَضَاءُ الْخُتْمُ

ولم تكن ثورة البارودي على توفيق وعملائه إلاّ صدَى لثورة الأمة ، فقد
كان لاستقلالته أسوأ وقع في البلاد ، وأحس الناس نذر النكسة وبوادر المصافة ،
وأيقنوا أن الخديو قد باع البلاد للأجانب^(٥) ، وفتح لهم أبواب السيطرة على
مصاريعها . فقامت الأمة قومة رجل واحد ، وتأججت الثورة في القلوب ،
وأخذت طوائف الأمة تملن انضمامها إلى البارودي وعرابي ضد الخديو

(١) الشتراف . طائر يسمى الأخیل .

(٢) يشير إلى يوسف الصديق الذي قام على خزائن مصر .

(٣) يشير إلى كانور الأخشيدي ، وكان مملوكاً أسود اشتراه عمده الإخشيدى واستوزره ثم صار
إليه أمر مصر وسوريا ، وكان يقصده العلماء والشعراء ، توفي في مصر عام (١٩٦٨) ؛ المزم : السطوع
بغير قومه .

(٤) أغنم : أعى لا يبين . (٥) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

وأنصاره^(١)، وعقدت الاجتماعات الوطنية في أنحاء البلاد تأييداً لموقف الثوار وإعلاناً لرفض « المذكرة الأجنبية » وتنديداً بموقف « الخائن توفيق »^(٢)، وصدرت الفتاوى من شيوخ الأزهر وعلمائه بخيانة توفيق وكفره، ونودي بحلمه في اجتماع النواب والأعيان ورجال الجيش في منزل محمد سلطان نفسه في الولاية المعروفة « ببلية أبي سلطان »^(٣). وحضر إلى العاصمة — كما يقول عرابي في مذكراته — « جميع أعيان البلاد ومستخدمو الحكومة »، وقدموا لنا مئات الأمراض بواسطة مدبرهم محتجين فيها على عمل الخديو ويطلبون أحد أمرين: إما رفض اللائحة المشتركة، أو عزل الخديو الذي قبل تدخل الأجانب في أحوال البلاد الداخلية^(٤). وتصف صحيفة كبرى من صحف الاستعمار لإجماع الأمة وقوفها صفاً واحداً ضد توفيق والتدخل الأجنبي فتقول: « وخرج علماء الأزهر وقساوسة الكنائس وحاخامات للمابد، وأعضاء مجلس النواب، وأعيان الفلاحين، ومدربو المدارس والمعاهد، وفريق كبير من التجار وأصحاب الحرف، وساروا إلى قصر الخديو وطلبوا رفض المذكرة^(٥) ». وبالرغم من كل ذلك فقد أمن الخديو في موقف المداء من الأمة ولم يرع شعورها لأنه يعلم علم اليقين أن النفوذ الأجنبي هو سنده الوحيد في بقائه بمنصبه، ولو تخلى عنه فآله وأسرته إلى الزوال، فاستسك به وربط به مصيره ودار في عجلته، وكره الشعب والأمة.

(١) أنظر: التيس البريطانية في ٢٩/١٨٨٢/٥ . (٢) بلنت: التاريخ السري من ٣٠٧ .

(٣) تفاصيل اجتماع هذه اليلة في مصر لمصريين ج ٧ ص ٩٢ عصر استجواب يعقوب سامي ؟ ج ٤ ص ٢٧٦ ؛ والبحر الزاخر ج ١ ص ٢١٧ .

(٤) مذكرات عرابي المخطوطة من ٢٦٨ . (٥) التيس البريطانية في ٢٩/١٨٨٢/٥ .

وفشل توفيق في تعيين وزارة تخلف وزارة البارودى الوطنية في الحكم وتحمل جريمة ما فعل ، وخشى أنصاره وأتباعه من مواجهة تيمار النضب والكرامية الذى يحتاج البلاد فتتحوا عن قبول الوزارة . وساد البلاد الاضطراب والذعر ، وكادت تسلم الأمور فيها إلى القوضى ، فليست هناك من وزارة مسئولة^(١) ، والجيش شق عصا الطاعة على الخديو وأعلنه بالمعصيان^(٢) ، وأصاب الأجانب للقيمين موجة من الملع والخوف ، ذلك أن تدخل إنجلترا وفرنسا في شئون البلاد ووجود أسطوليهما في مياه الإسكندرية قدعياً للشعور العام بالكرامية ضد الأجانب جميعا ، وأصبحت البلاد كالبركان الذى يمحج وبوشك أن يلقى بالحجم فلا يبقى ولا يذر .

قدر « البارودى » الخطر الذى يهدد الوطن ، وأحس الاضطراب الذى يسود نفوس الشعب والأجانب ، ورأى للولايات الدولية تخطيها لإنجلترا وفرنسا تلتاق الأسباب والمآذير ، ليستعيدا نفوذهما في البلاد ، ويتخذوا الخديو ذريعة وأداة تنفيذ ، فإذا الأمل الذى راود المصريين بالأمس القريب في حكم جديد تسوده الحرية والمدالة والساواة يذوى وبوشك أن ينقلب سرايا . وبصور البارودى الحنة التى يمر بها شعبه ووطنه فيقول :

كنا نودُّ انقلاباً نستريحُ به حتى إذا تمَّ ساءتنا مصائبُهمُ
فالقلبُ مضطربٌ فيما يُحاوله والعقلُ مُختلِبٌ مما يحاذرُهُ
إنَّ دام هذا أضاعَ الرشدَ كافِلُهُ فيما أرى ، وأطاعَ التى زاجِرُهُ
تنكرت مصرُ بعد العُرفِ واضطربتْ تواعدُ الملكَ حتى ريعَ طائرُهُ
فأهل الأرضَ جِراً الظلمَ حارثُها واسترجع السالَ خوفَ المذمِّ تاجرُهُ

(١) ظلت البلاد ٢١ يوماً بدون وزارة .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ١٦٢ عصر استجواب عبد المال حلمي .

واستعكم الهول ، حتى ما يبيت فتى في جوارثن الأبل إلا وفؤ سآهره
ويرى البارودى ببصرة السياسى وشفافية الشاعر أن المحنة لن تكشف
إلا بالثورة الحمراء ، فقد تحملت النفوس فوق طاقها ولن يطول بها الزمن حتى
تنفجر في ثورة دموية عنيفة تستأصل أعوان الرجمية وعملاء الاستعمار وقدر
لاحتدامها شهرين أو بعض شهر فيقول :

يا نفس لا تجزعى ، فالخير منظر
وإلى صاحب الصبر لا تبلى مآثره
لعل بلجة نور يستضاء بها
بعد الظلام الذى عمت دياجره
إنى أرى أنفك ضاقت بما حلت
وسوف يشهر حد السيف شآهره^(١)
شهران أو بعض شهر إن هى أهدمت
وفى الجديدين ما تننى فؤاقره
فإن أصبت فمن رأى ملكك به
علم النيوب ، ورأى للسره ناظره

وفى مواجهة القدر الذى أصاب الأجانب طلب قناصل الدول الأخرى^(٢)
من الخديو ضمانا بالحفاظ على رعاياهم ، وأمام القلق الذى عم البلاد نوافذ العلماء
والنواب ورجال الدين والتجار إلى قصر عابدين يشكون من القوضى التى تنذر
بالتكة ، ويطلبون تعيين حكومة تحفظ الأمن فى البلاد . ووجد توفيق نفسه
فى موقف العاجز الذى لا يمكنه تأليف وزارة ، والخائف الذى لا يستطيع
أن يعطى ضمانا بالأمان لأحد ، واضطر أن يذعن للوقف فيطلب إلى أحد عرابي
أن يتولى وزارة الجهادية ليحفظ الأمن فى البلاد^(٣) .

(١) الجديدين : الليل والنهار ؛ الفوائر : جم فائرة وهى النامية .

(٢) روسيا والنمسا وإيطاليا وألمانيا .

(٣) عين فى ٢٨ مايو سنة ١٨٨٢ ، الواقع المصرية فى ٣١/٥/١٨٨٢ .

الاستعمار يخلق المعاذير للاحتلال .

وجد توفيق وحلفاؤه زمام الأمور بوشك أن يفلت من أيديهم ، وقد أحبط خططهم تعيين عرابي حاكماً بأمره في البلاد وعودة الأمن والطمانينة إلى قلوب المصريين والأجانب على السواء ، ورفض « البعثة التركية » مذكرة الدولتين مضطرة بعد أن رأت إجماع الأمة على رفضها^(١) . ووجد مندوب إنجلترا نفسه أيضاً وقد فشل في خلق الأسباب للتدخل المسلح ، وكان لا بد إذن من مؤامرة جديدة تصور البلاد بصورة الفوضى والاضطراب فتلتصق إنجلترا لنفسها المنزلة أمام « الرأي العام العالمي » في احتلال البلاد . وتلاقى المصالح المشتركة بين ركائز الرجعية وملائح الاستعمار في القيام بعمل سريع يتخلص به الخديو من الثورة وزعمائها ، وتبمد إنجلترا للبرر للتدخل المسلح . وتمخض التحالف غير المقدس عن حادث الإكسندرية المعروف في ١١ يونية سنة ١٨٨٢ ، والذي كتب عنه الشيخ محمد عبده . فقال :

« إن الحكومة الإنجليزية على عادتها في اختلاق الملل وارتجال الساعات قلبت وجوه للسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجه مطامعها ، واتخذت مجرد التفتير في بعض نظامات الحكومة الخديوية سبباً للنزوة ، واندفعت لتسير سراكبها إلى مياه الإسكندرية تهديداً لحكومة الخديو ، وعدواناً على الوطن ، ثم فزع بعض رجالها في أنوف ضمعة العقول من الأجانب للقيمين بالنفر ، حتى أوقدوا فتنة هلك فيها الساكين ، قضاء لشهوة إنجليزية وأقامت منها حكومة إنجلترا حجة في العدوان على الأراضي المصرية^(٢) » .

(١) بالرغم من الرشوة التي قدمها توفيق إليها لتسكون في مصر . - الرشوة بمبلغ ٥٠ ألف جنيه غير الخلى والمجوهرات ؛ انظر التاريخ السري ص ٢٢٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٣٤٤ .

وتتمة لحيوط مؤامرة التحالف أعلن الخديوي ج. عزمه على السفر إلى الإسكندرية ، وعبثاً أريد إقناعه بأن مركزه يجب أن يكون في العائنة رأس حكومته ، قريباً من رجالها في مثل هذه الظروف ، ولكن مذبة الإسكندرية كانت فرصة له يحقق بها رغبته في الالتجاء إلى الأسطول الإنجليزي^(١). ونصح « البارودي » عرابياً — وييده مقاليد الأمور في البلاد — أن يمنع الخديو من السفر ولو بالقوة ، لأنه إذا التجأ إلى الأسطول قد تتخذ إنجلترا منه ذريعة للتدخل للسلاح متطلة بأنها تدافع عن صاحب السلطة الشرعي^(٢) . ولكن عرابياً كان متأثراً بخطابات صديقه القريد سكاون بلنت ومشورته ، فلم يكن يظن أن الدول تترك إنجلترا تحارب مصر وخاصة بعد أن اختلفت مع فرنسا على التدخل^(٣). ومن ناحية أخرى فقد خاف عرابي من أن يستغل منع توفيق من السفر على أنه عمل إرهابي من جانب رجال الثورة ، « وآثر البقاء على مودة الخديو حتى لا يفسر عمله بالتحدي لسلطته فيهيء لأعدائه دليلاً على صحة ما يزعمونه من تدخله ونسلطه حتى على حرية الخديو الشخصية^(٤) ».

وفي الإسكندرية بدأ الخديو وقنصل إنجلترا العام « السير إدوارد ماليت » وأعاونهما حملة إشاعات ترمي إلى إثارة النفوس ، وتدعو إلى الاضطراب والأخذ بالتأثر بين المصريين والأجانب ، « وأخذت الجاليات الأوربية تنظر إلى دسائس قنصل إنجلترا بشيء من الرية وكثير من القلق ، وترى أنها أسخطت الأهلين وقد تبسّمهم على التأثر لأنفسهم من مذبة الإسكندرية ، فأسرع قباصل

(١) دي فريسييه : المسألة المصرية (١٩٠٥) ص ٢٧٣ ، وكانت إنجلترا قد انقضت بالفعل للتدخل بسيدة عن فرنسا .

(٢) مذكرات الاسرة .

(٣) أنظر : التاريخ السري ص ٢٤١ ، ٢١٨ . (٤) أحد عرابي الزعيم القري عليه ص ٢٦٩ .

النمسا وألمانيا وإيطاليا إلى الخديو وطلبوا منه تشكيل وزارة تتحمل المسئولية في البلاد على أن يكون عرابي ناظرًا لحريتها^(١). ولم يكن الخديو يرغب في تشكيل الوزارة لأن ذلك معناه عود بالأمر إلى مجراها الطبيعي وتهذبة للخواطر وحكم البلاد طبقاً للدستور القائم، ولكنه اضطر تحت ضغط قناصل الدول إلى دعوة إسماعيل راغب ليشكل وزارة جديدة، وأرسل إلى عرابي حاكم البلاد العام يقول « انتخبنا وعينا إسماعيل راغب رئيساً لمجلس النظار ... فليكن في علمكم إحالة مقام الرئاسة لعهد الباشا للشار إليه^(٢) ».

واقترح محمود سامي البارودي على عرابي أن يشترط لتعاون « الحزب الوطني » مع الوزارة الجديدة أن ينص برنامجها على أن تكون جميع اللكائنات والمشاورات الأجنبية رسمية عن طريق الوزارة وحدها، ولا يحق أن يقبل تلك الكائنات أو المشاورات إلا بموافقة مجلس الوزراء^(٣). ولم يكن رئيس الوزراء الجديد بمستطيع تأليف وزارته دون أن يتعاون معها الحزب الوطني، ومن ثم فقد رضى توفيق لشرط الحزب ونص خطاب تشكيل الوزارة على أن يكون الحكم دستورياً، وأن تكون المشاورات السياسية مع وكلاء الدول عن طريق وزير الخارجية^(٤).

أدار الخديو ظهره للشعب منذ سافر إلى الإسكندرية واستقبل بوجهه الأسطول البريطاني وأقام هو وأنصاره تحت ظلال مدافعه. وبقيت القاهرة مقراً لزعماء الحركة الثورية يزعهم عرابي والبارودي، يجمعون كل ليلة في

(١) روثميجن: المسألة المصرية من ٢٠٧—٢٠٤؛ وانظر: مذكرة رأى في نصف قرن ج ١ ص ١٥٣.

(٢) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢١. (٣) التاريخ السري ص ٤٢.

(٤) نص الخطاب كاملاً في مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٢—٢٣.

دار البارودى التى أصبحت مركزاً للحزب الوطنى ^(١) يدرسون التطورات السياسية ونتائج التجاء الخديو إلى الأسطول ، وخطه المندب التركى تجاه الحركة الوطنية ، وموقف الدول الأجنبية من القضية المصرية ، وغير ذلك من قضايا الساعة ومشكلات الأمة . وفى هذه الاجتماعات كان الزعماء يناقشون مستقبل مصر وأنواع الحكومات التى تصلح للبلاد ، وكانت «الجمهورية الحياضية» هى نوع الحكومة المفضل عند البارودى . ويقول شاهد عيان لهذه الاجتماعات ^(٢) : « وأخذ محمود سامى وهو ذو ذكاء ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر ، وما قاله : لقد كنا نرى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنضم إليها سوريا وبليلها الحجاز ، ولكننا وجدنا العلماء لم يستمدوا بعد لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نمت ^(٣) » .

كانت دعوة البارودى إلى قلب نظام الحكم فى مصر وإعلانها جمهورية مستقلة عن تركيا حياضية كسويسرا أول دعوة ظهرت فى مصر تنادى بالجمهورية ، وكانت تمثل فوق ذلك مرحلة من مراحل الوحدة العربية بانضمام سوريا والحجاز إليها . وتدارس زعماء الحزب هذه الدعوة ووافقوا عليها لكنها ظلت فى نطاق السرية حتى لا يستمدوا السلطان عليهم وخاصة بعد أن سحب قرار

(١) مصر المصريين ج ٧ ص ٧٤ حضر استجواب عمود سامى البارودى ، وكان من أبرز المجتمعين الشيخ محمد عبده ، والشيخ عيسى شينخ الأزهر ، والشيخ المجرى ، وحن موسى الشافى ، وعبدالله النديم ، وبنى أمراء الأسر الخديوية ، وعبد الرحمن الجراوى ، والسادات ، انظر : التاريخ السرى ص ٢٥٦ ، ٤٢٥ .

(٢) لويس صابونجى (١٨٤٣ — ١٩٢٨) صاحب جريدة النضال ، وكان يصدرها من لندن باللغة العربية ، وقد اتخذها الفريديسكاون بشت مراسلته بالقاهرة يونانيه بأبناء الثورة الميرانية فى يونيو ويوليو ١٨٨٢ .

(٣) من خطاب صابونجى إلى بلنت فى ١٨/٦/١٨٨٢ ، التاريخ السرى ص ٢٥٥ .

التدخل التركي المسلح تحت ضغط الرأي العام العربي والإسلامي ؛ بل كان الزعماء — سياسة منهم — يظهرون الولاء الديني للسلطان ليستفيدوا من تأييده ، وهو ولا شك قوة دولية لها وزنها ، » وكانوا يستخدمونه لمصلحتهم ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائماً لإعلان الجمهورية المستقلة ، وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ، ولكنهم تبصروا في المواقف فأروا أن يسيروا سيراً وثيداً حتى يقيموا الرأي العام^(١) .

وفي اجتماعات زعماء الثورة بمرکز الحزب^(٢) كانت تناقش اتجاهات الدول الأجنبية ، والتدابير التي يجب أن تتخذها مصر لمواجهة الأطماع الأوربية ، ومدى استعداد الجيش والبلاد في مواجهة احتمالات التدخل المسلح . ورأى البارودي ببصيرة القائد الحربي أن قناة السويس هي أضيق نقط الدفاع في المواقف المصرية ، » ونصح بأن تتخذ الإجراءات لردمها في ساعات قلائل عدد ما يبدو من جانب أوروبا أو تركيا أول دلائل الاعتداء^(٣) . ولكن عرايياً استبعد فكرة الاعتداء عن طريق القناة تحت تأثير الهم الذي خادعة به دليبيس من حينئذها واستعداد الدول وخاصة فرنسا لمنع أى اعتداء يأتي من ناحيتها^(٤) .

عاد الأمن واستتب النظام في الأيام الأولى لوزارة إسماعيل راغب ، ولم يؤد حادث الإسكندرية الفرض المنشود لمديره ، وكان لابد لمعسكر الرجعية والاستعمار من خلق تملات وأسباب جديدة تنفذ منها انجلترا إلى احتلال البلاد . وكان أول

(١) التاريخ السرى ص ٢٥٧ .

(٢) دارمخود سامى البارودي : مصر للمصريين ج ٧ ص ٢٧٤ ، التاريخ السرى ص ٤٢٥ .

(٣) التاريخ السرى ص ٤٢٧ .

(٤) أنظر المكاتبات بين عراي ودليبيس في التاريخ السرى ص ٤٥٥ — ٤٦٠ ؛ وانظر تاريخ

الثورة العرايية ص ٤٠٢ ، ٤١٥ ، ٤١٧ .

المعاذير المختلفة منشوراً أصدره الخديو فجأة ودون سبب ظاهر في ٢١ يونيو ١٨٨٢ يبدى فيه خوفه على أرواح الأجانب المقيمين في مصر في هذه الظروف التي لا يستتب فيها الأمن في البلاد ، ويندد بما لاقوه من اضطهاد المصريين لم حادث الإسكندرية . ومن الطبيعي أن يثير المنشور ثائرة زعماء الحركة الثورية ، وكان رأى البارودى أن يلتزم الخديو بالشروط التي أخذها على نفسه في كتاب تأييف الوزارة بالألا يصدر منشوراً إلا عن طريقها ، واعتبر هذا المنشور دليلاً على سوء نية الخديو ، ومحاولة منه سافرة في إلقاء تبعة حادث الإسكندرية على المصريين حتى يتألب عليهم الرأى العام العالى . وأيقن البارودى أن توفيقاً لا يمكن أن يعود إلى حظيرة الوطنية ثانية ، فرأى أن يتحلى ويولى ابنه عباس تحت الوصاية بدلاً منه ^(١) .

أما ثانية التملات والأخيرة في سلسلة الاختلافات فكانت طلب الأدميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى في يوليو ١٨٨٢ وقف تحمين القلاع على شواطئ الإسكندرية ، لأن في ذلك تهديداً للأسطول للوجهة مدافعه إلى الإسكندرية . وليس هناك تملة أصرح نفاقاً وأكثر تبريراً لمنطق الاستعمار المعكوس من هذه التملة التي شهد عليها شاهد من أهلها بقوله في مجلس العموم البريطانى : « أجد رجلاً يحوم حول بيتى وعلائى الإجرام بادية عليه فأبادر إلى إحضار الأقفال والتاريس وأحكم سد نوافذى فيقول : إن هذا إهانة له وتهديد ، ويحطم على أبوابى ويحتل منزلى ، ويعلن أنه إنما فعل ذلك دفاعاً عن نفسه ليس غيرا » ^(٢) . ومع ذلك فقد توقفت التحصينات ولكن سيمور تمادى

(١) التاريخ السرى ص ٤٢٥ .

(٢) مستر قسردز ، أنظر : المسألة المصرية لروثين ص ٢١٦ .

في اختلاق المآذير للاحتلال للبيت من زمن بعيد ، فطلب تسليم بطاريات حصون الإسكندرية وإلا ضربها بمدافعه !

لنا بصدد البحث حول قانونية هذا الطلب أو إقامة الحجّة على أنه تلمس مكشوف وذريعة واهية لا وراه من أمر كان قد تقرر من أمد بعيد ، ولكن الذي يعيننا هنا أن الأمة لم تبحث على أقدامها ذليلة تطلب الرحمة من العدو وهي تدرك تأثير قوة مدافعه الحربية الصغيرة أمام مدافعه الضخمة ؛ بل رفعت رأسها شاحخة في وجه أميرها الخائن ومدافع الاستعمار الفاشم ، ولم تفرط في كرامتها بالاستسلام . وانخذت مصر بالأمس البعيد نفس القرار الذي اتخذته بالأمس القريب تجاه الإنذار من نفس العدو^(١) ، وأعلنت أنها ستخوض معركة الكرامة الوطنية فإن هزمت وهي تحمل شرفها فوق هامات قتلاها كان أكرم لها وأشرف من أن تحقن دماء أبنائها بالجبن والمار والاستسلام الدليل .

رفض مجلس النظار الإنذار البريطاني ورد عليه في إباء ونفر يقول : « لم تعمل مصر شيئاً يقضى بإرسال هذه الأساطيل للتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأدميرال . . . ونحن هنا في بيتنا ووطننا فنحن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا . ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ، ولا أية طلّابية دون أن تسكره على ذلك بحكم السلاح^(٢) » .

(١) سنة ١٩٥٦ في معركة السويس . (٢) الوقائع المصرية في ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

بين الحرب والهزيمة والسجن

ضرب الإسكندرية وأعلان الحرب :

و ضربت الإسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ يقابل الأسطول البريطاني . وما أشبه الليلة بالبارحة فقد كانت الدعاية الاستعمارية تصور للعالم كله أن المصريين جميعاً في صف الخديو ضد الحركة الثورية ، وأنه عند إطلاق أول قنبلة من الأسطول سيسارع الناس ويقبضون على زعماء الحركة ويضعونهم عند أقدام الخديو^(١) . ولكن الأمة كلها ثارت للقتال ووهبت نفسها فداء للوطن . فقاتلت طوابع الإسكندرية ، وأدت مدفعية الساحل واجها كاملاً وظلت تضرب العدو حتى أسكتها قنابل الإنجليز وكانت أحدث صنما وأبعد مرمى . وثأر أهل الإسكندرية في الدفاع عن مدينتهم بالرغم من أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج ، وبذلوا ما استطاعوا من تضحية وإقدام . ويقول الشيخ محمد عبده : « كان الرجال والنساء تحت مطر الكتل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وهم ينفنون^(٢) » . ويقول محمود فهمي^(٣) : « رأيت في ذلك الوقت بعض ما حصل من غيرة الأهالي بجمعة رأس التين وأم كيبه وطوابع باب العرب وهمتهم في مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم للمهمات والذخائر وخراطيش البارود والقذوفات ثم وناسؤهم وأولادهم ، والبعض من الأهالي صار يصر للدافع ويضربها » .

(١) التاريخ السري ص ٢٦٦ . (٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٥٠ .

(٣) رئيس أركان حرب الجيش المصري في هذه الحرب ، البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٠ .

وبعد قتال عنيف تغلبت القوة والمعدات على الشجاعة والحية ، ونزلت الجنود الإنجليزية إلى رأس التين مقر عميلها توفيق الذى سارع فأبرق إليها يهنئها بالنصر واحتلال البلاد ، ويضع نفسه تحت تصرفها وحمايتها !

وصت أخبار الاعتداء على الإسكندرية إلى « البارودى » فى القاهرة فهرع إلى ملابس الميدان ، يرتديها ، وأخذ عتاده الحربى وأسرع إلى الإسكندرية ليضع نفسه فى خدمة الوطن ويشارك فى المعركة ، وذهب فور وصوله إلى معسكر « الباب المشمى » مقر القيادة العسكرية وأثبت وجوده هناك ثم أخذ يتجول فى المدينة^(١) ليرى معالم الاعتداء الفاسم وآثار الطمع البشرى من تخريب وتدمير وأشلأ ودمار وضحايا أبرياء . سار البارودى يبكى الدمن والأطلال فى شعر صامت ، يمشى دمن « لمياء » ولا أطلال « غادة الجزيرة » هذه المرة ، بل أطلال نسر ودمن المواطنين ، وقابل فى تجواله زميل الجهاد عبد الله النديم وهو هائم يرى موطنه الحبيب وقد دكته القنابل وأحرقت مواقع صباه . ولحق بهم الشيخ محمد عبده وقد أفرغه الاعتداء الذى لا يقره دين سماوى ولا ترضى به شريعة إنسانية ، ولكنه جريمة ذئاب الاستثمار وضباع الرجعية . ونضوا ليلهم جميعا فى منزل السيد مصباح والد عبد الله النديم .

وفى صباح اليوم التالى اجتمع البارودى بهرابى ومجلس القيادة الحربية^(٢) ، وأخذ يستمع إليهم وهم يشرجون تطورات اللوقف من الفاحيتين السياسية والحربية . ورأى البارودى أنها الحرب بين مصر وإنجلترا لا مقر منها فى سبيل الشرف

(١) انظر : مصر للصربين ج ٧ ص ٣٢٣ .

(٢) كان مكوناً من عبده فهمى ، وطلبه عصمت ، وعمر رضى ، و خليل كامل ، وعبد محمد ، وسليمان سائى ، ومصطفى عبد الرحيم ، ورأى أحد عرابى . انظر : مصر للصربين ج ٩ ص ٩٠٣ .

والكرامة ، ومن ثم لابد من أن تعبأ البلاد لحرب طويلة مريرة وتواجهها صفًا واحدًا . وحتى لا يتخذ الأعداء خديو البلاد رهينة أو ذريعة لاعتداء منفل بخداع الشرعية ووسيلة لتفرقة الأمة وإضعافها في جهادها للقدس ، نصح البارودى المجلس أن يعمل على إعادة الخديو إلى العاصمة فإن امتنع يباد إليها بالقوة ، ووافق المجلس على اقتراح البارودى ووكل تنفيذه إلى سليمان سامى^(١) . ورفض الخديو العودة وقرر المقاومة واستنجد بمن كان معه من أنصاره^(٢) ، فذهبوا مع مندوب الوفد التركى إلى مقر القيادة وقابلوا عرابيًّا وطلبوا إليه أن يفك الحصار عن الخديو ، وضمنوا له أن يظل بقصره بالرمل ولا يلجأ إلى الإنجليز . وانخدع عرابى بهذا الضمان وفك الحصار^(٣) ، ونجا رأس الرجعية بخداعه ، ونجحت آخر مراحل الخطة المدبرة فلم تمض ساعات قليلة من فك الحصار حتى انتقل الخديو إلى سرى رأس التين ليكون تحت تصرف القائد الإنجليزي وحمايته ودخلت الرجعية فى دائرة الاستعمار لتكون تابعة له بمد أن كانت حليفته فاتخذها سبيلا إلى احتلال حاول أن يليه مسح الشرعية

رأت القيادة العسكرية أن الإسكندرية بعد تحطيم حصونها وتعرضها للحريق من قنابل الأسطول البريطانى ونزول الإنجليز إليها لم تعد تصلح جبهة للدفاع وقررت الإنسحاب منها إلى منطقة كفر الدوار^(٤) ، ورأت أن يعود البارودى إلى القاهرة ليتولى هو ويمقوب سائى وكيل الجهادية أمر تعبئة الأمة للقتال ، وتنظيم

(١) مصر للمصريين ج ٩ ص ٧٨٩ ، ٩١٧ ، ج ٥ ص ٦٠ ؛ وانظر : التاريخ السرى ص

٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٢) محمد سلطان وحسن السرى وسليمان أبانطة ومصطفى درويش رئيس البشة التركية .

(٣) مصر للمصريين ج ٩ ص ٩١٧ محضر استجواب طلبه عصمت .

(٤) مصر للمصريين ج ٧ ص ١١٠ محضر استجواب محمود فهمى .

الخطوط انظرية ، وتوفير الإمدادات والتموين البشرى وللادى الحرب ^(١) . وعاد البارودى إلى القاهرة ليوجد يعقوب ساعى قد شكل مجلساً عرفياً من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين ^(٢) ليتولى الأحكام العرفية التى أعلنها رئيس الوزراء فى البلاد ^(٣) ، وليتخذ التدابير اللازمة للحرب والتحصينات الحربية للدفاع عن الوطن ، فانضم البارودى إلى المجلس يشارك فى جلساته ويسهم بمجده وآرائه فى توجيهه ^(٤) .

ولم تحض فترة طويلة حتى تحقق ما تلبأ به « البارودى » فى الإسكندرية فقد صبح الأنجليز عدوانهم على مصر بصينة الشرعية ، وأذاهوا على الشعب المصرى فى منشوراتهم أنهم ماجأوا ليستعمروا البلاد وإتمام نواب عن الخديو فى إخماد الثورة التى قت ضده ، وأنهم ليسوا بأعداء للمصريين ، وتقتصر مهمتهم على إعادة حقوق الخديو التى سلبها الثوار منه ثم يخرجون بعد ذلك من البلاد ^(٥) . وخديعة أخرى قام بها الخديو بإبماز من قوات الاحتلال للمهيئة على مصيره ليخذل بها الأمة ويحطم من معنوياتها فى مواجهة المعتدى الناصب ، ذلك أنها دفعت إلى أن يبرق إلى عرابى بكفر الدوار يأمره بالتسليم للإنجليز . وطبيعى أن يأبى عرابى التسليم ويرد على الخديو بنعى عليه انضمامه إلى عدو البلاد ، ويبين له أن الأمة تدافع عن شرفها وكرامتها دفاعاً شرعياً قرره مجلس الوزراء والمجلس العالى الذى حضره الخديو نفسه ومندوب السلطان ^(٦) .

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٩٠٤ حضر استجواب إبراهيم فر : عرابى .

(٢) أسماء الأعضاء فى الواقع المصرية ٢٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) الواقع المصرية فى ١٢ يوليو ١٨٨٢ ؛ والبحر الزاخر ج ١ ص ١٠٤ .

(٤) مصر لمصريين ج ٧ ص ٩٧ حضر استجواب يعقوب ساعى .

(٥) الواقع المصرية سجلت المنشور بعد ذلك فى ٢١/٩/١٨٨٢ .

(٦) نص برقية الخديو والرد عليها فى الواقع المصرية ١٨ يوليو .

وأرسل عرابي إلى يعقوب سامي رئيس المجلس العرفي بالقاهرة صورا من خطاب الخديو والرد عليه ، وطلب عقد « جمعية عمومية وطنية » من النواب ، والأعيان ، والعلماء ، ورجال الدين يعرض عليها الموقف لترى رأيها في الخديو ومطالبه^(١) . وعقدت الجمعية مساء ١٧ يوليو بوزارة الداخلية ، وحضرها فريق من أمراء الأسرة الخديوية وشيخ الإسلام وقاضي القضاة ومفتي الديار وكبار العلماء والتجار والأعيان^(٢) ، وتلا الشيخ محمد عبده الخطابات للتبادة بين الخديو وعرابي . وبمسند أن ناقش المجتمعون الموقف قرروا الاستمرار في الاستعدادات الحربية وإرسال وفد يدعو للنظر والخديو إلى المرح: ليديروا الحرب من العاصمة^(٣) .

وضربة أخرى وجهتها قوات الاحتلال إلى القوى الوطنية على يد الخديو العميل حين طلبت منه إعلان عصيان عرابي وعزله من وزارة الجهادية في منشور أعلنه للناس^(٤) . ودعيت « الجمعية الوطنية » في القاهرة فمقدت أجمعها الثاني في ٢٢ يوليو ١٨٨٢ ، ونظرت في منشور الخديو ثم قررت إبقاء عرابي في منصبه وتوقيف أوامر الخديو ونظاره وعدم طاعتها أو تنفيذها ما داموا بالإسكندرية تحت سيطرة عدو البلاد^(٥) .

وكان للبارودي في مناقشات الجمعيتين الصوت السموغ والحجة الواضحة

(١) نص خطاب عرابي إلى يعقوب سامي في المصدر السابق .

(٢) بلغ عدد الماضرين أكثر من ٤٠٠ عضو ، أنظر الأسماء والقرارات في الوقائع المصرية ٢٠ ،

٣١ يوليو سنة ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ٢٠ يوليو ١٨٨٢ ، وتفصيلات المناقشات في مصر للمصريين ج ٥ ص ١٣٠ .

(٤) الوقائع المصرية سجلت المنشور قيا بعد في عددها ١٨٨٢/٩/٢١ .

(٥) مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٦ وحضر الجمعية الثانية أكثر من ٥٠٠ عضو ، أنظر الأسماء

والقرارات في الوقائع المصرية ٣١ يوليو ١٨٨٢ .

في شرعية الحرب ووجوب الدفاع عن الوطن ، « فإن كتب الله لنا النصر تحققت الحرية والاستقلال ، وإن كانت الأخرى لم نعدم الشرف والكرامة ... أما التسليم للعدو فهو قضاء على كل شيء ، قضاء على ديننا ، وقضاء على وطننا ، وقبول للذلة والموان^(١) . وأفتى شيوخ الأزهر وعلماءه بمسروق الخديو من الدين لانحيازهم إلى جيش العدو المحارب لبلاد الإسلام وللسلدين . وانتشر العلماء وانطباء في طول البلاد وعرضها يذيعون فتوى الأزهر ، ويعيثون الأمة للقتال ويستنفرونها للجهاد في سبيل الله وحرب الإنجليز ، ويخطبون الناس في المساجد والطرق وفي الحقول والجمعيات^(٢) ، فأشعلوا الفيرة والحماس للوطن والدين ، وحركوا النفوس رغبة وحمية في الاستشهاد في سبيل الله ، وملأوا القلوب كراهية للخديو الذي باع الوطن للإنجليز أعداء الله والوطن والسلطان ، ووجهوا الأمة إلى رفض أوامره وخلع طاعته . ولذلك « لم تنجح منشورات الخديو في أهل البلاد بل لم يكن لها فيهم أقل تأثير^(٣) » .

وقامت الأمة كلها كرجل واحد تدافع عن دينها وشرفها ، وتوالت الإمدادات من المصريين جميعاً فكانت النساء يتبرعن عن طيب خاطر بحلجهن ثمناً للمقاد والمؤونة الحربية ، ووهب الناس للبعث ما ادخروه لأنفسهم وأولادهم من طعام ، وانضم الرجال والشبان إلى معسكرات التدريب ليخوضوا للمركة ، وهرع الشيوخ إلى المساجد يدعون الله أن ينصر جيش الوطن وللسلدين^(٤) . ويقول الشيخ محمد عبده : « لقد رأيت لمواطنين جميعاً ينفرون إلى الحرب في شوق وحمية لقتال المتدينين لافرق بين فلاح وبدوى ومدنى ، وكانت الفيرة الوطنية تملا قلوب

(١) من حديث البارودي لحسن العمسي صاحب « جريدة المنيد » في عددها ٢٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) التضييلات في الصائفت ١٨٨٢/٧/٢٨ . (٣) مصر للمصريين ج ٥ ص ١٣٥ .

(٤) يروى : كيف دافعتا عن عراقى ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

الجميع . . . وكانت شوارع القاهرة تنفس في المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان يحملون في شوارعها وهم يشدون الأناشيد الوطنية^(١) .

كان الإحساس العام بين كبار الساسة وبعض ضباط الجيش بالقاهرة أن تركيز التحصينات والدفاع في منطقة كفر الدوار يعطى الفرصة للعدو بغزو البلاد من منافذ الوطن المهمة دون تحصين وخاصة قناة السويس . وسافر البارودى وبعض الضباط إلى كفر الدوار ، وعقدوا مع عرابى وأركان حربيه مجلساً عسكرياً^(٢) ، واستعرضوا الخطة العسكرية وقرروا تحصين الخط الشرقى ودمياط ، واتفقوا جميعاً على ما ارتآه البارودى ومحمود فهمى رئيس أركان الحرب ، من سد القناة لمنع الأسطول الإنجليزى من اختراقها واتخاذها قاعدة عسكرية ، « ولكن عرابياً وحده لم يوافق على سد القناة وظل متردداً في هذا الشأن^(٣) » واتفقاً فيما وعده به « دلبسيس » من حامية فرنسا والبول الأوربية لحيدتها ، وانفض المجلس دون أن ينع عرابياً — وهو القائد الأعلى للجيش — بسد القناة .

والذى يدعو للعجب أن سد قناة السويس قد نوقش من قبل في مجالس الثوار بالقاهرة في الخطة التى عرضها البارودى احتمالاً لاعتداء أوروبى أو تركى ، ووافق عليها عرابى وصرح وقتذاك للصحف « بأنه سوف يحترم القناة مادام العدو يحترم استقلالنا ، فإذا نشبت الحرب فإننا سنهدم القناة مؤقتاً عند أول طلقة مدفع وسأفعل ذلك أسفاً لأن القناة من طرق التجارة الحابذة^(٤) » . ومن ناحية أخرى لم يكن عرابى يجهل أهمية هذا العمل في الدفاع عن مصر « ولكنه كان يخشى

(١) كما نقله عن بروكلى ص ٢٣٣ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) التاريخ السرى ص ٢٨٥ ؛ وجون نينه : عرابى ص ١٠٥ .

(٤) جريدة الاستانفرد البريطانية ٧ يوليو ١٨٨٢ .

—وإما— ما يسمى بالرأى العام الأوروبي ، واستمع إلى النصائح الكاذبة التي خدغه بها دليبيس فاستمسك برأيه بالرغم مما ارتآه زملاؤه وكرروه عليه عشرات اللرات ، تارة بالقول القارص وطوراً بالكتابة إليه ومع كل ذلك فقد أصر على رأيه فهدد للجنرال وللى نصرأ من أسهل ما عرف في تاريخ الحرب^(١) .

وتحقق ما تنبأ به البارودى ، ففي ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ تمركت المدرعات وبوارج الأسطول البريطانى تحت جناح الليل إلى « بور سعيد » فاحتلتها ثم اقتطعت قناة السويس دون معارضة من دليبيس الذى ادعى حيادها خداعاً حتى لا يسدها المصريون . وفاجأت الجيوش البريطانية الجيش المصرى المحول إلى المنطقة الشرقية قبل أن يقيم تحصيناته واستحكاماته واحتل القنطرة والإسماعيلية وشمال السويس على القناة . وتنبه عرابى للخدعة التي وقع فريستها^(٢) فأبرق إلى الجيش المصرى بالمنطقة كي يسد القناة ، ولكن القرار جاء بعد فوات الأوان ! ومنح جيش الأعداء فرصة النصر كما قال قائده بعد الاحتلال بفترة : « لو أن عرابياً سد القناة كما كان ينوى لسكننا الآن لا نزال في البحر نحاصر مصر ، فإن تأخر عرابى ٢٤ ساعة نجاباً ومنعنا فرصة النصر^(٣) » . وطارت نفس البارودى شعاعاً حين جاءته أنباء احتلال القناة ، وقد عرف بخبرة القائد أن كفة الحرب قد تحولت إلى مصلحة الأعداء وأن الوطن قد بات في خطر ، وضاعت به نفسه وهو يرى الصواب ويريد أن ينفذه ولكن يهيم فلا يقدر ، وينصح فلا يسمح لنصحه ، وتظل يده مغلوطة فالأمر بيد غيره لا بيده ويتألم البارودى ويعوج صدره بالحسرة فيهتف :

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٩ .

(١) جون نينه : عرابى باشا ص ١٠٥ .

(٣) التاريخ السرى ص ٢٨٧ .

لَمْ تَرَى لَقَدْ أَبْقَيْتُ مِنْ كَانَ رَاقِداً وَأَنْذَرْتُ، لَكِنْ لَمْ تَكُنْ تَنْفَعُ النَّذْرُ
نَصَحْتُ فَكَذَّبْتُمْ، فَلَمَّا أَنَّى الرَّدَى عَدْتُمْ لَتَصْدِيقِي وَقَدْ قَضَى الْأَمْرُ
فَلَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِيكُمْ غَيْرُ خَسْرَةٍ وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي غَيْرُ مَا عَاقَبَهُ الصَّدْرُ
جَاءَ الْبَقَى كَفْتُمْ تَخَافُونَ شَرَّهُ وَزَالَ الْبَقَى لَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْءٌ

قائد الصالحية :

وعين البارودي قائداً « لمواقع الصالحية » غربي الإسماعيلية ، فسارع إلى تنفيذ الأمر الذي صدر إليه وهو يعلم أن الدفاع عن مصر أصبح بعد احتلال القناة والضفة الغربية أمراً ميثوساً منه من الوجهة العالمية ، وفوق ذلك فقد كانت جيوش الإنجليز ضعف عدد الجيش المصري^(١) وقوفه بالتدريب وللمعدات الحربية الحديثة ، وكان الجيش المصري موزعاً على مناطق الدفاع في البلاد^(٢) ويعتمد في خطوطه الشرقية على « الرديف » وللمستعدين . ولم يستنفك البارودي أن يكون تحت قيادة « راشد حسني » قائد للمنطقة أو قيادة عرابي المليسا ، « ورضى أن يكون قائداً تحت الإدارة ، وأغض عن أنه كان رئيساً للوزارة ... وقام بما يبيض تاريخه الجليل ، وحفظ له الذكر الجليل »^(٣) ، ولبي نداء وطنه حين دعاه كما يقول :

دَعَوَنِي إِلَى الْجُلَى قَمْتُ مَبَادِرُ وَإِنِّي إِلَى أَمْشَالِ تَكْ لَسَابِقُ

وخرج البارودي إلى الحرب قائداً لفرقة من ١٢ ألف جندي من الأسلحة

(١) كان عدد الجيوش الإنجليزية ٦٠٠ و ٥٠٠ جندي وعدد الجيش المصري ٢٠ ألفاً .

(٢) في كفر الدوار ٨ آلاف و ٣٠٠ في أبي قير و ٥٠٠ في رشيد و ٤ آلاف في دياط ، انظر : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٥٥ .

(٣) عبادة التديم ومذكراته السياسية ص ٧٥ .

الثلاثة ، المشاة والدواوي والدفعية^(١) . وأخذ منذ وصوله إلى مواقم « يواصل الليل بالنهار في عمل الاستحكامات الحربية ومد خط دفاع طوله ٤ آلاف متر ، وعلى مراكز الطوابي وحصنها بحيث تستمعى على الأعداء »^(٢) . وكان موقع « الصالحية » يحى خط المواجهة المصرى من حركة التضايف يقوم بها العدو ليطلق المواقع الرئيسية للجيش المصرى ، وظل جنودها دائماً في مناوشات مع طلائع الجنود الإنجليزية ويردوهم على أعقابهم قبل أن يمدوا إلى ظهر الجيوش المصرية منفذاً^(٣) .

وفي الميدان جاء البارودى رسول يدهوه إلى القاهرة على عجل ، فأمه في النزاع الأخير تطلب في إلحاح رؤية وحيدها ، ويتردد البارودى في تلبية نداء أمه ، فوطنه يريده أن يبقى ليدفع عنه المعتدين ، وسمع قائد المنطقة بالتخير فسمح له بالتغيب في إجازة قصيرة يرى فيها أمه المحتضرة^(٤) . وألقى البارودى على أمه النظرة الأخيرة ثم استدار في عجلة ليعود ، وفزعت الأم وهو يودعها ليذهب وقد ظنت أنه جاء ليدفع عنها الردى ويرد غائلة الموت أو يكون آخر من تراه ، ولم تدرك أن هناك أمّاً أخرى تناديه ويراهها أحق بالرعاية والاهتمام وهى في نزاع مثل نزاعها ولكنه نزاع المزعمة ، ولو استسلمت لما لوضعت الأغلال في أعناق أبنائها جميعاً وهو منهم . وترك البارودى أمه ودبسة بين برائن الموت وعاد إلى الميدان ليدفع عن أمه العكبرى غائلة "احتلال" . ولم يمض يوم وبعض يوم حتى

(١) أحد مران : مذكرات عراقى ج ٢ ص ٢٠ (طبعة ١٩٥٠)

(٢) الطائف عدد ٧٧ فى ١٨٨٢/٩/٧

(٣) المصدر السابق عدد ٧٣ فى ١٨٨٢/٩/١

(٤) مذكرات الأسرة الخاصة .

تخزمت المنية أمه ، وجاءه الناعي وهو في الميدان ثم نلت لأمه القاهية إلا البكاء
في صمت . وتوشعت ربة الشر بالسواد ، وناولته قيثارتها لينشد زفرات حزنه
في مرثية مطولة^(١) صور فيها عواطفه نحو أمه وآلامه لفقدائها وهو يبيد عنها
في معركة الشرف والكرامة ، وبدأها بقوله :

هَوَى كَانَ لِي أَنْ أَلِيسَ الْجَدَّ مَمْلَكًا فَلَمَّا مَلَكَتُ السُّبُقَ عَفْتُ الْإِقْدَمًا^(٢)
وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا رَأَى مَا يَسُرُّهُ مِنْ الدِّيشِ هَمًّا يَتَرَكُ الشَّهْدَ عَاقِمًا
ويقول فيها :

فَيَا خَيْرًا شَفَّ الْفَوَادُ فَأَوْشَكْتُ سَوْدَاؤُهُ أَنْ تَسْتَحِيلَ قَدَسُجْمًا^(٣)
أَشَادَ بِهِ النَّاعِي ، وَكُنْتُ مُحَارِبًا فَأَلْقَيْتُ مِنْ كَفِّي الْحَسَامَ الْمَصْمًا^(٤)
وَطَارَتْ بَقْلِي سِلَاحَةً لَوَاطِعُهَا لَأَوْشَكَ رَكْنُ الْجَدِّ أَنْ يَنْهَدِمًا
وَلَكِنِّي رَاجِعْتُ حَلِي لَأَنْتَ سِي عَنْ الْحَرْبِ عُمُودَ الْقَاءِ مَكْرَمًا
فَلَمَّا اسْتَرَدَّ الْجَدُّ صَبَّغٌ مِنَ الدُّجَى وَعَادَ كِلَا الْجَيْشَيْنِ بِرِتَادُ تَجَمُّمًا^(٥)
حَرَفْتُ عَيْنَايَ رَاجِعًا ، وَمَدَامِي عَلَى الْخَدِّ بِفَضْفَضَةِ الضَّحَرِ الْمَكْدَمِ
فَيَا أُمًّا ، زَالَ الْعَسْرَاءُ ، وَأَقْبَلْتُ مَصَائِبُ نَهَى الْقَلْبِ أَنْ يَقْرَبَنَا
وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَرَاكَ سَقِيمَةً فَكَيْفَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ فِي الثَّرْبِ أَعْظَمًا
بَلَفْتَ مَدَى تَسْمِينٍ فِي خَيْرِ نَعْمَةٍ وَمَنْ صَحَبَ الْأَيَّامَ دَهْرًا يَنْهَدِمًا^(٦)
فَيَا لَيْتَنَا كُنَّا تَرَابًا ، وَلَمْ نَكُنْ خُلُقْنَا وَلَمْ تَقْدَمْ إِلَى الدَّهْرِ مَقْدَمًا

(١) عددًا ياتها ٥٢ بيتا وهي من الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان « وقال برئى والدته وقد
ورد نبيها وهو في الحرب » ؛ المخطوطة (س) س ٢٣٨ - ٢٤٢ ؛ والمخطوطة (ج) س ٢٤٣ - ٢٤٧ .
(٢) في المخطوطة (ج) عفت التقدما .
(٣) تجم سويداء القلب : تيل من الألم .
(٤) السيف المصم : الناعى .
(٥) الجيوش : عمل التوم .

(٦) إشارة إلى أن أمه بلغت من العمر ٩٠ سنة وقد توفيت عام ١٨٨٢ فيكون مولدها عام ١٧٩٢ .
و ولدت عمود سائى البارودى وعمرها ٧ سنة .

لم تكن مصر تحارب في جبهة واحدة ، ولم يكن السيف والدفع هو الفيعل بين النصر والهزيمة ، ولكن مصر كانت تحارب بأكثر من سلاح في جبهات عديدة : كانت هناك جبهة استانبول ومؤامرات السياسة الدولية يستعمل فيها سلاح الضغط الدولي على السلطان ليؤيد الإنجليز في حربهم ضد مصر ، ويمنعهم — وهو خليفة للسلين — الصيغة الشرعية ، ويملن عصيان عراقي حتى تزول قدسية الحرب من قلوب المحاربين للسلين فينفذوا من حوله ، ويلقوا بأساحتهم فيدخل المستعمر البلاد . وجنا السلطان على ركبتيه ضعفاً وذلة وأصدر في ٦ سبتمبر ١٨٨٢ - كما طلب منه الإنجليز - منشوراً بمصيان عراقي وخروجه عن طاعة السلطان ، وشرعية اشتراك الإنجليز في إخماد المصيان المصري ^(١) ||

وتلقف الخديو وأعواته منشور السلطان وقد نشرته « جريدة الجوائب » فوزعوا منها — بواسطة العربان الأجورين وجواسيسهم — على الجنود المصريين وفي البلاد ألوف النسخ ، مرفقة بمنشورات الخديو التي تدعو إلى التسليم . وأحدث المنشور ترقباً في الجبهة الداخلية ، وهز عقيدة الكثيرين من الأهالي الذين يمدون الجيش بالوئز والمتاد طواعية في سبيل الله ، وزعزع الروح المعنوية بين الضباط ، « وكان صدمة أضعفت عزائمهم ووهنت بها قواهم ^(٢) » . وقت في عضد الجنود « فظنوا أنهم عصاة مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله ^(٣) » .

(١) نص المنشور في مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٠٠ ؛ ونشر في صحف الأستانة في ١٨٨٢/٩/٦ .

(٢) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٣) مذكرات عرابي (طبعة دار الهلال) ج ٢ ص ١٨ .

واستطاعت جبهة الجمعية أن تحيط مواقع الجيش المصري بالنيابة فاشترت الأعراب الذين يختلطون بالجيش ويسلمون له أدلاء ومرشدين في الصحراء^(١). وتمكنت من أن تزحف بالنيابة على مقر القيادة نفسه ، فاستعملت سلاح الرشوة والأمانى تفرى به النفوس الضعيفة والقلوب المريضة . وعرف « محمد سلطان » وهو يقود مخابرات جيش الاحتلال^(٢) أن توزيع الرشوة باسم الإنجليز قد يوقع الخونة في الحرج فوزعها جنبيات ذهبية إنجليزية باسم الخديو والسلطان ليكسو النيابة ثياب التبرير^(٣). واستطاع أن ينفذ إلى على يوسف — للشهور بخنفس — وعبد الرحمن حسن عضوى قيادة الجيش فيبعث إليهما بالرشوة ويدهما بالرتب والنياشين^(٤) . وأخذ زميلا النيابة يرسلان عقب كل اجتماع لقيادة خطة الجيش المصري إلى محمد سلطان ، فيطلع عليها المدو^(٥) ويترصده الجيش الوطنى وينزل به المزعمة .

وفى « معركة النصارين الثانية^(٦) » حاول الجيش المصري أن يدخلها بكل ثقله وقواته ليرى بالمدو إلى القنائة ، فاجتمع « مجلس الحرب » تحت قيادة عرابى ، وحضره راشد حنى وعلى فهى وجميع القواد الموجودين بمركز التل الكبير ومحمود سامى قومندان مركز للمالحية^(٧) ، وقرروا الهجوم على مركز التجمع الانجليزى بالقصاصين ، ورسوموا الخطة ، وعرف كل قائد مهمته فى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص ٢٥٩ ، وكانوا من عرب الطعاوية .

(٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق .

(٤) وعدكلا منهما بدشرة آلاف جنيه بعد المزعمة ، انظر التاريخ السرى ص ٣٠٢ .

(٥) مذكرات عرابى (طبعة الهلال) ج٧ ص ٩٠ ؛ وانظر تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ . والتاريخ السرى ص ٢٩٤ - ٢٩٨ .

(٦) ق / ٢٨ / ١٨٨٢ . (٧) مذكرات عرابى (طبعة الهلال) ج٢ ص ١٩ - ٢٠ .

العملية الحربية ، « وكان على «محمود سامى» قومندان مركز الصالحية أن يأتى بجيشه ليلاً بحيث يصل الخط المين للقتال عند مطلع الفجر ، ويقف على يسار جيش مركز رأس الوادى ويحيط بيمينه العدو ، والقوة التى على يمين التربة تحيط بيسيرته ، والأعراب يقتحمون التربة من خلفه ويقطعون على العدو خط الرجعة . وعمل بهذا الترتيب رسم بطرف أركان حرب الجيش ، وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل بموجبها^(١) .

ويصف عرابى المعركة فى مذكراته فيقول : « وفى الثلث الأخير من مساء ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريباً من العدو أخذ كل محله على خط النار ، ولكن العدو كان عالمًا بما استقر عليه الرأى بعد أن أطمعهم عليه الميرالاي على خنفس ، فاستعد للمعركة ، وبادر العدو بإطلاق النار واشتبك الجيشان^(٢) . واستعمل المصريون فى القتال تحت قيادة راشد حسمى وعلى فهمى ، وتوالى المد والجزر بين الجيشين ، « وظلت المعركة زمناً طويلاً غير معروفة العاقبة وأوشك (دوق أف كينت) ، أن يقع أسيراً^(٣) . وظهرت خيوط الصباح ورحى المعركة دائرة ، وتوقع القادة المصريون هجوم جيش الصالحية بقيادة محمود سامى على مينة الأعداء ليفير من اتجاه المعركة ، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل ، ذلك أن محمود سامى لم يأت بجيشه وتأخر عن مواعده ، « فقد قابله فى الليل الأعراب المرتشون من رجال سمود الطحافى ، وكانوا يملكون أدلاء ومرشدين للجيش المصرى فى هذه المنطقة الصحراوية فأضلوا البارودى وجيشه الطريق . وحين أسفر الصبح واهتدى البارودى إلى الطريق

(١) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) التاريخ السرى ص ٣٠٠؛ ومذكرات عرابى (طبعة الهلال) ج ٢ ص ١٦ .

سارع إلى أرض المعركة^(١) ، ولكن العدو كان يعلم تحركاته وكان له بالرصاد ، فلما قرب من موقعه وجه إليه بطاريات مدافعه قبل أن يصل إلى موضعه من المعركة فقتلت جنوده وولوا الأذيار^(٢) .

وحاول البارودى أن يثب الشجاعة في القلوب التي انتزعها المفاجأة ويعيد تشكيل رجاله ، ولكن الهزيمة كانت قد ذهبت بالنفوس وأطاحت بالعقول . « وبقي البارودى مع قلة من الفرسان ، وصمدوا للدفاع والسيران ، ونزل مع الأعداء في مرير قتال ، حتى لم يبق من حوله رجال^(٣) » . وإلى هذه المعركة يشير البارودى من قصيدة طويلة :

فلم استمرَّ الجِدُّ ساقوا حُمولم إلى حيثُ لمَّ يبلغه حمار وسائقُ
هُم عَرَضُونِي لِقَعًا ، ثُمَّ أَعْرَضُوا مراعاةً ، ولم يطرقْ من الذُّر طارقُ
مَضَوْا غَيْرَ مَعْذُورِينَ ، لِالذَّنْقِ ساطِعٍ ولا البيضُ في أيدي الكُمَاةِ دَوَالِقُ
فَكَمْ آبَقٍ تَلَفَسَاهُ مِنْ غَيْرِ طَارِدٍ وَكَمْ وَقَفَ تَلَقَّاهُ وَالْعَقْلُ آبَقُ
فَلَا رَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا بِاعِ دَبَّتْ بدنيا سواهُ وهوَّ للحنِّ رَامِقُ
إِذَا لَمَرَّ لَمْ يَنْهَضْ بِقَاتِمِ سَيْفِهِ فياليت شعري كيف نُحْيِي الْخَفَائِقُ

المحنة الكبرى :

كانت هزيمة الجيش المصري في معركة القصاصين بداية النهاية ، وفاحت منها رائحة الخيانة ، وأحس العملاء بالانتهامات تضيق على أعناقهم ، فأعدوا مع

(٢) مذكرات عرابي ج ٢ ص ٢٠.

(١) المصدر السابق .

(٣) الطائفة ١٠/٩/١٨٨٧ .

الأعداء خطة « الضربة القاضية » ، وكانوا في مقدمة الجيش وطليعته ، فسهلوا للمدو سبيل الهجوم اللقائي وفتحوا له الطريق ليردون إنذار أو تحذير ، فأخذ الجيش المصري على غرة وأزلت به الميزة الكبرى في موقعة « التل الكبير » صباح ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ .

وعلم محمود سامي البارودي قومندان الصاحية ومن معه من الضباط بهزيمة التل الكبير فقرر الانسحاب من مواقعه ، « وقام مع جنوده بقطارات السكة الحديد إلى أبوكير ثم للنصورة^(١) » . وفي طلعا على الضفة الغربية لفرع دمياط قرر أن ينفذ خطة الدفاع التي رسمتها القيادة من قبل في حالة الانسحاب ، « وكان قد عمل (بلان) خطة بمعرفة أركان الحرب بجميع نقط المدافعة لغاية أسوان^(٢) » . وأرسل البارودي إلى عرابي بالقاهرة يخبره بتمركزه في خط دفاعه الثاني ويطلب منه التلميحات في برقية تقول : « من سامي لعرابي إن وافق يسأل من أحد بك ناشد المهندس عما إذا كان يمكنه تفريق أراضي الشرقية والتقليوبية بواسطة قطع جسور الشرقية والزرعة الإسماعيلية كيلا يكون للمدو طريق لمصر خلاف الخائكة^(٣) » . وحين جاءه رد عرابي بأنه سيكتفى بقطع خطوط السكة الحديدية أرسل البارودي إليه برقية ثانية يقول فيها : « إنه لا يجوز السكوت إلى الصباح عن قطع السكة الحديد قطعاً موهلاً من فوق منيا القمح وبلبيس حالا مع قطع جسور زرعة الشرقية والإسماعيلية لأجل غرق الشرقية والتقليوبية حالا قبل طلوع الصباح وذلك يكون بمعرفة سرعشلي باشا وأحمد بك ناشد المهندس ، وما الآن

(١) مذكرات عرابي ج ٢ ص ٣١ .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ٨٤ محضر استجواب محمود سامي البارودي .

(٣) المصدر السابق ص ٣٨ — ٣٩ ، ٨٤ محضر استجواب عرابي والبارودي .

موجودان بمصر وأخبرونا حالا برأيكم^(١) ». وجاء الرد إلى البارودى هذه المرة بنبر مايتوقع ، فقد أخذ المجلس العرفى يبحث فكرة التسليم !!

وأُسرع البارودى بالمودة ليلا إلى القاهرة ليحاول منع المجلس من التسليم للأعداء . « فالقاهرة غاصة بالجند ، ومخازن الحربية مملأى بالسلاح والذخيرة واللبيرة ، ووسائل الدفاع متوفرة ، والدفاع واجب وطنى مادام فينا بقية^(٢) » ، والصعيد جبهة منيعة للقتال إن هزمت الجيوش المصرية فى القاهرة . ولكن ريح الهزيمة فى التل الكبير وصورة الدمار فى الإسكندرية جعلت أعضاء المجلس العرفى يخافون على القاهرة من غوائل الحرب والتخريب ، وأصبحوا يميلون كل الليل مع فكرة تسليم القاهرة دون حرب . وحاول البارودى أن يقنع عرابيا وحبه القواد — إن قرر المجلس اعتبار القاهرة مدينة مفتوحة — « بترك القاهرة والالتجاء بالجيوش إلى الصعيد ، فيستولى على جميع المراكب وتشتعل بالذخيرة والتعميمات ، وتؤخذ إلى الصعيد مع الجيش^(٣) » . وفى الصعيد يمكن تنظيم الجيش من جديد ، وتعبئة القوى الإسلامية من ليبيا والسودان ، ثم الهجوم على المتمدنى وطرده من البلاد . وإذا ماقلب المدو مرة ثانية أمكن نقل الجبهة إلى السودان^(٤) . وكأن البارودى أراد أن يعيد سيرة آباءه السابقين وبذلك السبيل الذى سلكها من قبل أجداده للماليك ، حين كانوا يظلمون على أمرهم فى القاهرة والوجه البحرى فيجتمعون بالصعيد والسودان قلعهم للنجعة . ويقول عرابى رداً على مقترحات البارودى : « وحيث أنى رأيت عدم موافقة رأيه لما تحققت من الخراب الذى يحمق بمديريتى

(١) مصر للعربى ج ٧ ص ٨٤، ٣٩. عرض استجواب عرابى والبارودى.

(٢) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٣١ .

(٤) المصدر السابق ؟ وانظر أيضاً : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٩٨ .

التلويبية والشرقية ودمار عاصمة البلاد وسفك دماء الأبرياء على غير جدوى ، هذا فضلا عما رأيت من تحول الأفكار وانحلال القلوب واختلال النظام في الجيش ... واقت المجلس على التسليم ^(١) » ١١

وأجن البارودى أن دوى المزعمة قد سد الآذان وأصاب التفكير بالشال ، فتمثلت له النهاية للزربة في الاستسلام للأعداء ١١ وبمصد قرار التسليم خرج عرابى وطلبة عصمت وقد هزما على تسليم نفسيهما أسيرى حرب للقائد البريطانى . أما محمود سامى البارودى فلم يقبل أن يذهب إلى العدو المحتل ويسلم نفسه وسيفه طواعية وقال : « إلى ذاهب إلى منزلى فإذا أرادونى فإنهم يعرفون أين يجدونى » ^(٢) . وصلت القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، ودخلها القائد الإنجليزى يحف به أعوان الخيانة ومندوبو الرجعية ، ونزل قصر عابدين ورفع عليه أعلام الاحتلال . وانتهت مرحلة من مراحل الحركة الوطنية بالمزعمة أمام للد الرجعى والاستعمارى ، وانطوت صفحة من صفحات الجهاد الوطنى لتكون ذكرى وتاريخاً ١١ وأصبحت اليد العليا فى الوطن كله للرجعية عميلة الاستعمار ، وليس هناك أشد قسوة ولا أكثر نكيراً من الرجعية وهى فى موقف القوة ومركز النصر على القوى الوطنية المناهضة لها ، حينئذ تملكها روح الشيطان وتنفث سموم حقدتها بالتشقى قسموا للمواطنين سوء العذاب . وكذلك كان أنصار الخديو وأعوان الرجعية وعلى رأسهم محمد سلطان عقب تسليم القاهرة واستسلام القيادة الوطنية للمزعمة ، فقد ساقوا أعيان المصريين وزعماءهم إلى السجون حتى فاضت بهم ، وبلغ عددهم ^(٣)

(١) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) ٨٧٤ عرابى الزعيم المقترى عليه ص ٤٥٠ وتاريخ الثورة العربية ص ٤٤١ .

(٣) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٣١ قدم محمود فهمى البكر الوائى ج ١ ص ١٢٢ - ٢٦٩ ألفاً .

٣٠ ألقا . وكان البارودي أول من ألقى القبض عليه من زعماء الثورة وزج به في غياهب السجن ، ثم تلاه بقية الزعماء وزملاء الجهاد .

دخل زعماء الثورة ظلام السجون ودخلت مصر ظلام الاحتلال ؛ احتلال للمستعمر للبلاد ، واحتلال الرجعية لمراكز التحكم والاستبداد في المواطنين . وأصبحت مصر وأبنائها يعيشون في بحر لحي من الظلمات ؛ ظلمة الخوف ، وظلمة اليأس ، وظلمة المستقبل ، وظلمة التحكم والتشني ، يحيط بذلك كله الظلمة الكبرى وهي ظلمة الاستعمار . ويصف الشيخ محمد عبده — وهو في السجن حال مصر عقب الهزيمة فيقول : « اشتد الظلام حتى تجسم بل تجبر ، واستجبرت طباع الناس فأصبحت قلوب التتلين كاللحجارة أو أشد قسوة ... وتعضت السلطة لآلهة الشر ، فقبلوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله ^(١) » . ورأى محمد عبده نفسه وزعماء الثورة « في سهمه لا يأتي البصر على أطرافه وفي ليلته داجية ... لا يرون إنساناً ، وإنما يسمون ذئاباً تموى وكلاباً ينبع ، كلما يطلب فريسة واحدة ... زعماء الثورة ^(٢) » ١١

وأيقن الزعماء أن جبل الأمل في محاكمة عادلة قد تقطع ، وأن عروة الرجاء في سيادة القانون قد انقضت ، وقد دلتهم الأحداث على أن « الممم قد سقطت والدم قد خربت ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيط يحتدم وقسوة تنفذ ... سنة القدر وكيد الخائنين ^(٣) » . وجاء

(١) الشيخ محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٨ .

(٣) المصدر السابق .

إبراهيم فوزى محافظ العاصمة^(١) إلى السجن من منزل محمد سلطان في الأيام الأولى من اعتقال الزعماء خائفاً مصفر الوجه ، ووجد البارودى في فناء السجن فقال له : « إننا لانتشم في إجراء أدنى تحقيق ، وإذا حدث فلن يكون إلا سورياً يحجر علينا فيه حتى لاتسكلم بحرية ، وإن الموت هو مصيرنا اليوم أو غداً^(٢) » . وفكر البارودى وقد تسلط عليه اليأس في أن يجنب نفسه آلام الانتظار وامتهان الأعداء له بالانتصار ، فيقطع عرقاً من ذراعه ليوت بسهولة ، ولكن زملاءه ذكروه بواجبه الدينى نحو نفسه « حتى لا يخسر الآخرة بعد أن خسر الدنيا^(٣) » ، فتاب إلى رشده ورجع إليه صوابه ، واستغفر ربه من هذا التفكير^(٤) .

وظل البارودى في ظلمة السجن لا يدرى متى تسكون القاضية ، وتمر بأيام سود وهو في محنة الوحدة وعذابات التلقى ينتظر ورفاقه ما يفعله بهم الطغاة وحياة السجن تجربة جديدة للبارودى ذلك الفارس الذى لم يعرف الأسر والاقيد ، ورئيس الوزراء الذى كانت بيده مقاليد الأمور ، والزعيم الوطنى الذى وقف في وجه الرجعية والاستعمار . وأثارت التجربة في البارودى الفنان مشاء الألم ، وكان الألم العبقرى الذى يجيشه بالإلهام ، وسرعت إليه ربة الشعر تعزف لحن « الوحدة والمذاب » وفيه يصف نفسه بين سجنائه وسجانه فيقول :

(١) كانت من رجال الثورة ، ولم يكن قد زج به بعد في السجن حتى يستعان به في استتاب الأمن

(٢) مصر للمصريين ٧ من ١٧٨ . حضر استجواب أحمد رفعت سكرتير مجلس وزراء البارودى .

(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق .

شَفَقَ وَجَدِي ، وَأَبْلَاقُ السَّهَرِ وَتَشَقَّى سَادِرُ السَّكَدَرِ^(١)
 قَسَادُ اللَّيْلِ مَا إِنَّ يَنْقَضَى وَيَبَاضُ الصَّبْحُ مَا إِنَّ يَنْتَقِزَ
 لَا أَيْسَ يَسْمَعُ الشُّكْرَى ، وَلَا خَيْرَ بَاقِي ، وَلَا طَيْفَ يَمْرُ
 بَيْنَ حَيْطَانٍ وَبَابٍ مُوَصَّدٍ كُلَّمَا حَرَكَةُ السَّجَانُ صَرَّ
 يَجْمَعُنِي دُونَهُ ، حَتَّى إِذَا لَحِقَتُهُ نَبَاةٌ مَنِّي اسْتَقَرَّ
 كُلَّمَا دُرْتُ لِأَقْصَى حَاجَةٍ قَالَتْ الظَّلَسُ مَهْلًا لَا تَدُرُ
 أَتَرَى الشَّيْءَ أَبْنِيهِ فَلَا أَجْدُ الشَّيْءَ وَلَا نَفْسِي تَقَرُّ
 ظِلَّةٌ مَا إِنَّ بِهَا مِنْ كَوْكَبٍ غَيْرُ أَفْكَاسٍ تَرَامِي بِالْشَّرَرِ
 فَاصْبِرِي يَا نَفْسُ حَتَّى تَنْتَرِي إِنَّ حُسْنَ الصَّبْرِ مُقْتَلَحُ الظُّفْرِ
 هِيَ أَنْفَاسُ تَقْضَى ، وَالْفَتَى حِينَمَا كَانَ أُسِيرٌ لِلْقَدَرِ

ويستجوب الزعماء أمام « قومسيون التحقيق » أو بالأحرى أمام محكمة التفتيش ، « وقد اخير أعضاؤها من عملاء الرجعية الذين أمد لهم الاستمرار في حيل الخديعة لجعلهم واجهته للزيفة في البلاد ، فكسروا مهم لإدانة زعماء الثورة إرضاء لسيدم المحتل ، وإمعاناً في التفتيش وحقد نفوسهم . وبصف الشيخ محمد عبده هذه الحماكات فيقول : « ذهب أرباب السلطة الزائفة في بحور الحوادث للماضية ينوصون لطلب أصداف من الشبه ومقذوفات من التهم ، ليموهوها بمياه السفطة ، وليبرزوها في مرضى السطوة ، وينشوا بها أعين الناظرين . لا يطلبون ذلك لحق خفي فيظفرونه ، أو نظام فاسد فيصلحونه ، بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مذنبين . وقد وجدوا لذلك أعواناً من خلفاء الدعاة ، وأعداء الرودة ، وفاسدى الأخلاق ، وخشباء الأعراق رضوا

(١) سادير جمع سدور : غشاوة العين ويريد بها المصوم .

لأنفسهم قول الزور وافتراء البهتان واختلاق الإفك ، فتقدموا لمجلس التحقيق بتقارير محشوة بالأباطيل ليكونوا علينا من الشاهدين^(١) » ١

حطت كل هذه الخن بكلكلها على نفوس الزعماء وقد مزقتها المزعمة فذهبت ببقية روعها ، وتصوروا سجونهم قبوراً يرون فيها نهاياتهم للفرقة ، والسلطات الرجعية تنصب لهم المشائق على سرى البصر من نوافذهم . وطاحت قوامم للمتوية ألوان التعذيب التي تمرضوا لها من خدام الخديو وحاشيته في السجن وقضت على البقية الباقية من تفكيرهم السليم . وناخ اليأس على الأمة كلها فأضاع رشدها ، وأشمل الخوف من الانتقام طريق المهرب في جحور اللثة فتسابق الناس إليها حتى إذا جاءوها لم يجدوا شيئاً ، ووجدوا الوطن عندها يبكي مستقبل أبنائه من الأجيال القادمة ، ويبكي في أبنائه التضحية والقداء والشجاعة في مواجهة المزعمة .

وأعلنت سلطات الرجعية والاستعمار حرب الأعصاب على الزعماء في السجون ، فشنت على أسرم حملات التعذيب ، وسلطت عليهم ألواناً من الانتقام والإرهاب ، وحاولت بالإغراء والنفى أن تضرب بعض الزعماء ببعض ، فأمدت لكل منهم على انفراد حبل الأمل إن هو ألقى التهمة على الآخرين . وزينت لفريق منهم طريق النجاة في شهادته على عرابي أو البارودي بارتكاب مفتربات وأكاذيب ليكونا كبش القداء . والرجعية يحدها في ذلك كله روح النشفي والانتقام ، والاستعمار يستهدى المخطط الذي وضعه لاحتلال طوبل الأمد ، ومن ثم فهو يرمى إلى تحطيم للثل العليا في الزعامة الوطنية لكي تخمد روح المقاومة

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٦٨ .

الشعبية والكفاح ضد المستعمر . فالأمة قد وثقت بزعمائها وأملتهم بكل إمكانياتها وطاقاتها في حرب الحرية للقدسة ضد ظلم الأتراك والاحتلال الإنجليزي ، فإذا انهزموا أمام القوة فأمر طبيعى أن يقهر القوى الضعيف ، وليس من العار أن تهزم أمة في حرب ، والزمن كفيل بأن يبعث فيها من يحمل للشعل ويواصل الجهاد فتنهض الأمة وتؤيده دافعاً عن شرفها المفلوب ، ولكن الخطر الأكبر على روح « المقاومة الشعبية » أن يتعلم رمز القيادة المصرية ، وتلطنح الزعامة بالمار ، وتصاب بالقل ، وتنسى الضحايا التى بذلت دماءها في المعركة تلبية لندائها ، وتتفكر لأنصارها في عنة للصير . حينئذ تصاب الأمة بخيبة أمل في القادة ، وتفقد الثقة في الزعماء المصريين ، وتخبو الروح المعنوية للشعب ، وتعمت المقاومة الشعبية للمحتل الناصب فينعم باستعمار طويل . ومن أجل ذلك كان السجون لزعماء الثورة عنة تمذبت فيها أرواحهم وجسومهم ممّا ، ومأساة تصدعت منها أكبادهم وانشقت لها سرائرهم ، وذهبت بنفوسهم حشرات .

والبارودى له في كل ذلك القسط الأوفى والنصيب للوفور ، فقد اعتبر خارجاً على طبقته وضالاً من بنى جنسه بأنغماسه إلى صفوف الفلاحين ، وتمرض هو وأمرته لأتوان التثقيب والإرهاب والتشقى على يد أغوات الخديو وأنصاره من الشراكسة والأتراك . وحاولوا بواسطة محام عين ليدافع عن البارودى^(١) أن يساموه على تخفيف الحكم عنه لقاء معونته « لجنة التحقيق » على إدانة

(١) امتنم المحامون الوطنيون عن الدفاع عن المتهمين خوفاً من الحكم الرجس ، وانهز الترمس شاب من المرتزة يسمى « يوسف كمال » يحمل جنسية روسية وعرف بأنه من المرتزة القرن يمشون بلا عمل وكان عمره ١٨ سنة وامتحن المحاماة بسد المزملة فعين للدفاع عن البارودى ثم نعت زوجة البارودى وولكت برمود للدفاع عن زوجها . أنظر : بردولى : كيف دافعا عن مرابي ومجبه س ١١٠ ، و ١٨٧ ، ٢٨٠ .

عرايا^(١) ، ولكنه رفض أن يتدر برفيق الجهاد وأمن في الرفض ولم يذكر عرايا بسوء^(٢) ؛ بل حاول أن يبرر ما يقصده إلى عرايا ويتلمس له الماذير^(٣) . وأنوا إليه عن طريق الوقعة ، فأوحت إليه « لجنة التحقيق » أن عرايا يتهم بمحاولة إغراق الشرقية والقليوبية وأظهروا له البرقيات للتبادلة بينهما ، ولكن البارودي فاجأهم بالاعتراف بالمحاولة « بناء على خطة المدافمة المرسومة من قبل والواجب اتباعها في انسحاب المزيمة^(٤) » . وظل البارودي على موقف الشرف والإباء الوطني كريم الأصل والمنصر ، فلم يطن للثورة من الخلف ، ولم يندر زملائه ، ولم يستجب للوقعة « بينه وبين عرايا أمام لجنة التحقيق^(٥) » .

بيد أن الوسواس والأوهام أخذت طريقها إلى نفوس الزعماء ، وجسمتها الوحدة والوقعة فحسب كل منهم أن الزملاء غدروا به . وفي لحظة الضعف البشري — التي يتعرض لها الإنسان في مثل هذه الظروف فتختلط عليه سبل التفكير — ظن كل منهم بزملائه الظنون وحسب أن الآخرين ياتعمرون به ليقدموه كبش الفداء ، ولم تكن من وسيلة لتبيان الحقيقة وقد ضربت عليهم العزلة التامة وانقطعت الصلة بينهم جميعا . وكذلك تعرض البارودي لهذا الضعف البشري المؤقت وأصيب بخيبة أمل في الرفاق ، ولكن بقية من كرامته وخلق الفارس فيه أثبت عليه أن يجهز بهذا الظن للأعداء في محاضر التحقيق ، واحتفظ به لنفسه ولم يُسرّه إلا لرية الشر حين جاءته تونس وحشته في ظلمة السجن فنفى لما لحن « الشكوى وعتاب الرفاق » وفيه يقول :

(١) شهادته أن عرايا أمر بحرق الإسكندرية ، وأمر بإطلاق المدافع بسدد رفع الراية البيضاء بالاسكندرية ؛ انظر : المصدر السابق ص ٢٨١ ، ٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق . (٣) مصر للمصريين ج ٧ ص ٨٤ محضر استجواب البارودي .

(٤) المصدر السابق . (٥) بردولي ص ٣٠٨ .

وكنّا جيّاً ، فلما وقمتُ صبرتُ ، وغادرتني معشري
ولو أنّي رُمتُ إعنائهم لقلتُ مقالةً مستصيرة
ولكنني حين جدّ الغمام رجعتُ إلى كرم المنصر

وساعدت الوحدة وظلّة السجن ووطأة اليأس وحرب الأعصاب نمر اللوم
وسوء الظن بالرفاق في نفس البارودي ، فأصيب بخيبة أمل ، ثم تحول سوء
الظن مع الوقيمة إلى نقمة على من ظنهم خانوه وغدروا به ، فأسلام بشواظ
من شعره في مطولة ألتها الأعصاب للرهقة والنفس المذبذبة بالشك والوم ،
وفيها « يرّض برؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العراقية » ومنها :

أضمتُ زماني بين قومٍ لَوَّانٍ لي بهم غيرم ما أرهقني البوائقُ
فإنّ أكَ مُلقى الرّحلِ فيهم فإني لهم باغِلَالِ العاصِلاتِ مُتَارِقُ
فقبّاهم من معشر ليس فيهم رشيدٌ ، ولا منهم خليلٌ مُصَادِقُ
ظننتُ بهم خيراً ، فأبتُ بحمرة لما شجن بين الجوانح لأصقُ
فيا ليتني راجعتُ حلّى ، ولم أكن زعيماً ، وعاقبتني لذلك القوائقُ
ويّا ليتني أصبعتُ في رأس شاعقي ولم أَر ما آلت إليه اللوائقُ^(١)

أمل كالسراب :

وعلى الرغم من الوقيمة والهمس بين زعماء الثورة ، وبالرغم مما
تخلف في نفوس أكثرهم من هول الصدمة وسوء الظن والشك بالزملاء ، لم
ينزل الضعف بهم إلى الخطيئة الكبرى من التفتكر لدووم في الثورة ،

(١) الرثاق : المراد هنا اليهود والرائقي بين زعماء الثورة .

أو التنصل من تمبئة الأمة لحرب للمستعمر ، أو محاولة القدر بالزملاء . وإنما أتى بعضهم تبعة تطور الأحداث مع الخديو على « تسلط العسكرية » وسيطرة صفار الضباط الذين دفعهم الحساس إلى منع الزعماء من أخذ الأمور بالحسنى واللين ، ومن ثم لم تحقق القوى الرجعية مأربها فيهم عن طريق اعترافهم في « لجنة التحقيق » ، ولم تمد إليهم اللوحة الموجهة إليهم — إذا كانت هناك عدالة في المحاكمة — لتصل بهم إلى حبل اللشقة التي نصبها لهم عدوهم القديم مصطفى رياض وزير الداخلية الجديد^(١) ، ولم تكن لتعطهم معنوا أمام الشعب . ومع ذلك فلم تكذب تذهب عن الزعماء صدمة الهزيمة ، وتبقى نفوسهم مما غشيتها من الضعف نتيجة لمول للوقف ، ويمود الاتصال بينهم فيتمرفون خديعة الوقيمة — حتى استردوا شجاعته ، وعادت إليهم نفوسهم ، وامتد شعر الندم من أثر فيه الدس منهم^(٢) ، وطلب إعادة التحقيق ليثبت أن ما قاله لم يكن يمر عن الحقيقة وإنما أملت الأعباب المريضة من التمدب ، الخائفة من الإرهاب والتهدد في لحظة « الضعف البشري^(٣) » .

ولكن المستعمر استطاع أن يحقق مأربه في زعماء الثورة ، فقد بث سوء حظ المصريين إليه عفواً ودون قصد بالوسيلة . ذلك أن بعض البريطانيين من أصدقاء زعماء الثورة ، وعلى رأسهم مستر « بلنت » بدأ لهم أن يوكلوا عمالياً للدفاع عنهم ، بعد أن امتنع الحامون الوطنيون خوفاً من انتقام السلطة الرجعية . وقد يكون بلنت غلصاً فيما فعل ، ولكن فكرته أتاقت للاستعمار

(١) أنظر : برودول ص ٣٧ ، ١٩٦ .
 (٢) أنظر : مصر للمصريين ج ٧ ص ١٦٥ — ١٧٩ عرض استجواب أحمد رفعت ؛ وبرودول ص ٢٠٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ — ٢٥٤ .
 (٣) أنظر : برودول ص ٢١٨ ، ١٤٦ .

ترصة بدد على ضوءها مخططا يخدم أغراضه في البلاد. فقد استطاع الحامى الإنجليزى « برودلى » أن يمدد الأمل المفقود في الحياة إلى قلوب الزعماء ، ولكنه صورهم لهم أملا انتزع انتزاعاً من بين أنياب السلطات المصرية بفضل السلطة البريطانية . ودبت الروح ثانية في الزعماء وكانوا قد حسبوا أنهم لن يخرجوا من السجن إلا إلى القبر ، ومع كل خطوة من الأمل ومع كل حل لمشكلة كان « برودلى » يصب في آذان الزعماء أن إنجلترا هي التي تريد المدالة والإنصاف وتريد لهم الحياة ، أما السلطات المصرية فقد خبروا بأقصرهم وسائل تمذيبها وعرفوا مقدار المدالة في تعقيقاتها والمصير الذى تريده لهم .

والمصريون بطبيعتهم ذوو عرفان بالجميل ، فأخذ عرابى وهو رئيس الزعماء يفرق في الثناء على إنجلترا وعلى عدالتها وإنسانياتها ، ولقبها « بحامية الحريات » ، وتمادى في التبجيل والاعتراف بالجميل لحكومتها وشعبها . وطلب « برودلى » منه أن يثبت ذلك كتابة ، فكتب الجريدة « التيمس البريطانية »^(١) ، وللورد دوفرين^(٢) بمبعوث الاحتلال الذى جاء ليضع أسسه وسياسته الطويلة الأمد ، و « تشارلز ويلسون » مندوب السلطات البريطانية في محاكمة الثوار^(٣) ، وحتى « اسير إدوارد ماليت »^(٤) فنصل بريطانيا العام عدو الحركة الوطنية ومستشار توفيق — يشكر لهم جميعاً ما أدوه لاسجناء وما قدمته لهم بريطانيا من الجليل الذى لا ينسى ، وكانت هذه الخطابات تنشر في المصنف العلنية والأجنبية فيقرأها المصريون ويمجّبون ! وخدمت النيات الطيبة وطبيعة عرابى

(٢) من الخطاب في برودلى ص ٣٥١ .

(١) من الخطاب في برودلى ص ٣٤٨ .

(٤) من الخطاب في المصدر السابق .

(٣) من الخطاب في المصدر السابق .

الساذجة مخطط الاستعمار ، فقد حولت كتاباته مؤقفاً عن انجلترا - أم الحريات - تيار الكراهية للدفع نحوها من المصريين وللسلين لاغتصابها أرض مصر الإسلامية ، واعترفوا لها بالجيل لأنها أفضت زعماء الثورة من القصة ووجهتهم الحياة ! !

وأصبح برودى خليفة الانفعال بين السجناء ، وعرفوا عن طريقة دنيا ما وراء الأسوار وهي تدور في ذلك آخر : حفلات ومهرجانات « بدخول الفاتحين » ، واستعراض توفيق لجيوش الاحتلال البريطاني في ميدان عابدين ترزف عليه أعلام النصر البريطانية ! ومكافآت ونياشين للخائنين ! وهذا يقدم لقائد الاحتلال « على إنقاذه البلاد من غوائل الفئة العاصية » ! بينما السجون تنفس بألوف الأحرار من المواطنين. وأيقن الزعماء أن الرجعية لا تأثر بهم وخدم ، بل بمقدرات الشعب ومستقبل الوطن ، وحسبوا - كما وعدم برودى - أن السلطات البريطانية سوف توفز لهم محاكمة عادلة علنية محررة من الضغط والظوف والإرهاب فزمو ، وقد عادت الثقة إلى نفوسهم ، أن يظهروا للعالم أجمع كيف تأمرت الرجعية والاستعمار على شعب مصر المحب للسلام . وبدأوا بروح جديدة يمدون مذكرات المطاع ليعطوا للملاّ وللا رأى العام العالمى أنهم قاموا بشورة وطنية أيدتها طوائف الأمة ليخلصوها من ربة الظلم ، واستبداد الحكام الأتراك ، وتحكم النفوذ الأجنبي ، وقادوا الوطن إلى « حرب مقدسة » أقرها السلطان ، واخذلديو ، والجمعية العمومية الوطنية ، ومجلس الوزراء ، والشعب . وبعثوا إلى أسرهم لتسلم محابهم أوراقيهم انطاسة ملقى تثبت خيانة توفيق ، وفيها غاوى شيوخ الأزهر بمروقة من الدين ، وعراض العمدة والأعيان ومشايخ البلاد تؤيد الزعماء في مطالب الأمة وحرب الانجليز . ويقول « برودى » بعد أن

اطلع على الأوراق والوثائق : « إنها أكثر مما يلزم لنفي تهمة المصيان عن الزعماء ، وإنها تثبت أن الزعماء كانوا يقودون خمسة ملايين تاجر من الأهالي ، وذلك معناه أن الأمة كلها كانت من خلف الثورة »^(١).

ورأود الأمل نفوس الثوار والشعب في أن الدلالة لو أخذت مجراها الطبيعي فيظهر للناس أن الزعماء لم يفعلوا إلا ما فرضه عليهم واجبههم الوطني والشرعي ، وما حتمته مسئوليتهم تجاه الدين والأمة وم وكلاؤها ، ومن ثم فسوف تتداعى التهم ويبرأ المتهمون . وأشار البارودي إلى هذا الأمل في بيتهن كأنهما لوحة مصورة فقال :

ألا قلّ لقوم شامتين ترّبّصوا تهزّم شرّ بالمعصية كارث
أرى ستر خطب قد رُفِعَ وانبرت تلوح لهم منه وجوه الحساد

ولسكن الحكومة الإنجليزية التي أعلنت من قبل في اللوائح الدولية^(٢) عصيان الجنود المصريين ، وسمت الحركة كلها « تمرداً عسكرياً » وأرسلت لقمعها حملة أنفقت عليها ملايين الجنيهات ، لم تسكن لتترك للثوار يملنون على العالم شرعية الحرب ووقوف الأمة خلفهم في الثورة ضد الظلم والظنّ والفساد الأوروبي ، ثم تطلق عرايياً وزملاءه بعد ذلك مبرّنين من كل جريرة ، وإلا لظهر للعالم كله دور الخديعة وأسلوب النش الذي اتخذته خديعة لاحتلال مصر^(٣) . ومن ثم « بنيت الحكومة البريطانية بتعليماتها في ١٣ أكتوبر إلى وكيلها في مصر بالآ تدور في المحاكمة مناقشات ، أو تدلّ بشهادات حول الدوافع السياسية

(١) بروودي ص ١٧٨؛ تجميعات محتويات أوراق الزعماء أنظر: المصدر السابق ص ١٦٥ - ١٧٨.

(٢) مؤتمر الاستانة المنعقد في ١٨٨٧/٦/٢٣ وحضره أعضاء من إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا وإيطاليا .

(٣) بروودي ص ٣٠٧ .

لثورة ، أو الأسباب التي تبرر ما قام به الثوار من تمهيد ، وإنما يقتصر على ما ثبت أو ينفي هذا التهم^(١) .

وفزمت تركيا هي الأخرى من محاكمة الزعماء معاً كة علية فذلك بالضرورة يس سمة الماطان ويظهر للمالم نفاته وخداعه ، فقد كان يؤيد الثورة بخطاباته وبيارك الحرب ضد الخديو ولإنجاز بدعواته ، بينما يد يده اتوفيق ويده بمحكمة تثبيت عرشه وتؤيد موقفه ضد الثوار ، ويستجيب لتهديدات انجلترا فيهم عرابياً بالمعنيان^(٢) . وأحسن توفيق بكرسي الخديوية بتأرجح من تحته بعد أن استنطاع « برودي » معاني الزعماء أن يحصل من الآستانة على وثائق تثبت أن توفيقاً كان بطن الإنجليز في رسائل منه إلى الآستانة ، وأنه كان يتخذه أداة لعودة سلطانه إليه ثم يتسكّر لهم ، وحين عرف أنه لا مآجاً له من السلطان أو الشعب ألقى زمامه إلى الإنجليز وأدار ظهره للسلطان والآمة معاً^(٣) . ورغبت الحكومة العصرية ألا تنشر تذاكرات الحياة ونضائهم على اللأ ، وألحت على السلطات البريطانية — وقد أصبح بيدها الحل والمقيد — في أن تتخلص من كابوس الزعماء سواء بقتلهم أو نفيهم من البلاد خشية الرأي العام الذي بدأ يفيق من صدمة الهزيمة ليري ما حل به^(٤) . ونتيجة لذلك كله أصبحت محاكمة الزعماء « شبحاً » تود كل الجهات أن تتخلص منه ، وكأف لا بد من « تسوية » للدوقف .

وجاءت « اليد القولاذية للنظاة بقفاز من حرير^(٥) » بالتسوية التي تتفق

(١) المصدر السابق ص ٤٥ . (٢) المصدر السابق ص ٣٠٨ .

(٣) برودي ص ٣٠٨ . (٤) المصدر السابق ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٥) لورد دوفرين ؛ أنظر : برودي ص ٣١١ .

وغسلط الاحتلال وتبرر وجود جيوشه في مصر ، وهي تقضى باستبعاد جميع
التهمة للوجهة إلى الثوار عدا « شُهمة العصيان » ، ومن ثم يقذفون من اللوث
ويحكم عليهم بالنفي إلى جزيرة سيلان . ويقول برودى : « وحملت مشروع التسوية
إلى الزعماء وشرحته لهم في كلمات قليلة ، غير أن الاقتراح نزل عليهم نزول
الصاعقة فقد كان الأمل يراودهم في أن يسموا أوروبا والعالم قصة الثورة عن
طريق المحاكمة العلنية ، وكانوا يتوقعون إلى أن يروا منهم وجهاً لوجه في
عجال المحاكمة ، ويرجون أن ينير الضوء القى يلقونه على الأحداث الوطنية في
دفاعهم الطريق إلى إصلاح لم يستطيعوا أن يحققوه بأنفسهم ^(١) » . ولكن
برودى أشعرهم بأن « اليد العليا » قد اقترحت ولا يمكن لأحد أن يقف في سبيل
التنفيذ ^(٢) ، فلن تم صموا على رفض مقترحها فسيرك الإنجليز مصيرهم للسلطات
المصرية تسلط عليهم ضباع الحقد وأفادى الانتقام فتمزقهم أرباً وتنشئ بشقهم في
ميدان عابدين .. وانتهى الأمل إلى سراب ! !

وويل للملوب الضيف ! منطقتهم دائماً واه غير مسموع وليس أمامه إلا
التسليم بمنطق المنتصر ، ومن ثم قبل الزعماء « التسوية » ، وحكم على البارودى
والسنة السكبار معه بالإعدام ^(٣) ، ثم استبدل بالإعدام النفي المؤبد إلى جزيرة
سيلان ، وجردوا من جميع الرتب والألقاب ^(٤) ، وصودرت أموالهم
وما يملكون ^(٥) .

(١) أنظر تفصيلات المناقشة بين برودى والزعماء في برودى ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢١ .

(٣) أحمد عرابي ، عبد المال حلى ، هل فهمى ، طلبه عصمت ، محمود فهمى ، يعقوب سامى .

(٤) الأوامر المصرية في ١٨٨٧/١٢/٢٤ .

(٥) الأوامر المصرية في ١٨٨٧/١٢/١٤ ، حدد بعد ذلك العتقين مرتبات شهرية ليعيشوا منها ،

وكان مربى عرابي ٥٥ جنيهاً وكل من رفاقه ٣٨ جنيهاً استرالياً .

كان البارودي أكثر الزعماء مصاباً ، فهو وحده بينهم الذى يملك الضياع الواسعة والتصور المديدة ، ولكنه لم يأس على شئ منها وقدمها قرباناً للوطن وفداءً فى سبيل الدفاع عن الحرية والمبدأ ، ولم يشك أمره وظالته إلا إلى الله فيقول :

يا نامر الحق على الباطل خذْ لى بحق من يدى ما طيل^(١)
جاركلى ضعفى بسطاطة وما رمتى للدمع الماطل^(٢)
أخرجنى عما حوته يدي من كسبي الحر بلا ناطل^(٣)
من غير ما ذنب سوى منطق ذى روتى كالتصاوم القاطل^(٤)
أتلو به الحق وأرمى به نحر العدا فى رهج الساطل^(٥)
فإن أكن جردت من ثروتى ففضل ربى حليّة القاطل^(٦)

عادت إلى البارودي نفسه للشجاعة بسد أن لفظت « الضعف البشرى » الذى ألم بها حينما ، وتبرأت من الشعور الطارىء الذى راودها تحت ضغط الحنة واليأس ، وارتفعت به روحه ثانية إلى الدرجات العليا من مواقف البطولة المعنوية . وطربت ربة الشعر لعودة الروح إلى شاعرها ، وناولته فيثارتها فى ظلمة السجن ليرد على صف الرجمية التى تنطرت الأفلام فيها بسموم النشئ^(٧) ، وليرزف عليها نشيد « عودة الروح » فيعلن للناس أنه عاد . . عاد كما عرفوه ينتصر للرشاد على النقي وللعدل على البنى والظلمة . . عاد أبى النفس كرمها

(١) الماطل حنا سناه الظالم .

(٢) بلا ناطل : بلا شئ .

(٣) القاطل : القاطع .

(٤) الرمح الساطل : الفيل المرتفع .

(٥) الرجل الماطل من المال : الخالي منه .

(٦) انظر جريدة الأهرام فى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٨٨٢ .

لا يقبل الذلّة ولا الضيم . . عاد ليعيها شعواء على أعدائه وأعداء الوطن ثانية
فيقول :

كلّ صَنِيعٍ سِوَى الذِّلَّةِ سَهْلٌ وحياءُ الكَرِيمِ في الضَّيْمِ قَتْلُ
ليس يَقْوَى أَمْرُهُ عَلَى الذِّلِّ مَالٌ بكُ فيه من صِبْغَةِ الأُورِمِ دَخْلُ^(١)
إِنَّ مَرَّ الْحَيَامِ أَعْظَبُ وَرِزْدًا من حَيَاةٍ فِيهَا شَقَاةٌ وَذُلُّ
أَنَا رَاضٍ بِقَرَكِ سَالِي وَأَهْلِي فَالْعَافُ النَّزَاهُ وَالنَّاسُ أَهْلُ
لَا يَلْمِي عَلَى الْخَفِيفَةِ قِسْمٌ غَرَّمْ مِنْظَرُ الْحَيَاةِ فَضْلًا
أَلْفُوا الضَّيْمَ خَشْيَةَ الْمَوْتِ وَالضَّ يَمُ لَمْ يَمُرْ فَجَعَّ خَيْسٌ وَتَكَلُّ
كَيْفَ لَا أَنْصَرُ الرَّقَادَ عَلَى النَّيِّ سِي وَعَقْلِي مَعِي وَالنَّفْسُ تَفْضَلُ
إِنَّمَا الْمَرَّةُ بِاللِّسَانِ وَبِالْقَلْبِ سَبِّ فَإِنَّ خَابَ مِنْهَا فَهِيَ قَتْلُ^(٢)

لم يستطع مصطفى رياض وزير الداخلية في وزارة الاحتلال — وقد أنعم
قلبه بالمحدد والكرامية لزعماء الثورة منذ طرده من الوزارة يوم « الزحف
القدس » — أن يتحمل الصدمة وهو يرى أعداءه يفلتون من تحت يده بعد
أن نصب لهم المشائق وأعد لكل منهم ميتة يشق بها قسه المربضة ، وخاب
قأله في أن يرضى شيطان التشقى الذى يفزع في قلبه ، « قدّم استقالته احتجاجاً

(١) الصبغة : النوع ؟ البخل : السبب أو الزينة .

(٢) الفصل : الضيف الذى لا مروءة ولا حيلة . هذه الأبيات لم يسبق تصورها وهى من
التوافق التى تصورها الإمام من اليونان غير أنه كتب على المخطوطة (ج) « لا طبع » ومن ثم أسقطها من
نسخة اللام فى طبعة والتقصيدة تحت عنوان « وقال يهجو » وهى ٣٢ بيتاً وذكرنا فى المخطوطة (ج)
ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ولم تذكر هذه القصيدة فى المخطوطة (س) .

على تخفيف الحكم^(١) . وآلم البارودى السجين ، الموتور بالهزيمة ، والمصاب في ماله ، والمحكوم عليه بالنفي من وطنه خسة رياض وكراهيته المريعة — وهو في مركز القوة — للذين غلبوا على أمرهم وهم في مركز الضعف . وتقطعت حفيظة البارودى وبغضه لرياض ألوانا من الدم اللاذع ، وسما ناقما من الهجاء المقذع ، فرسم صورة أخرى لرياض أتبع من أخت لها سبقت^(٢) ، وخلدها مجلدة بالمار في قوله :

إِنْ مَلَكًا فِيهِ (رياض) وَزِيرًا لِمَبَاحٍ لِّلْعَائِنِينَ وَيَلُ^(٣)
أَمْحَجَ أَهْقًا شَقِيمٌ لِّثَمٍّ أَغْثَمَ أَبْلَهَ زَنْبٍ عُمَلُ^(٤)
صَنَرَتْ رَأْسَهُ وَأَفْرَطَ فِي الْغُلُو لِي شَوَاهُ وَغُنْفُهُ قَهْو صَمَلُ^(٥)
أُبْرَزَتْ قَدْرَةُ الطَّيِّبَةِ مِفْهُ شَكْلُ لَوْمٍ إِنْ كَانَ لِلْوَمِ شَكْلُ
كُنْ كَمَا شَتَّ يَا (رياض) وَمَا شَأْنُ مَتِّ رِجَالٍ فَأَنْتَ لِلْوَمِ أَهْلُ
لَيْسَ مُتَغْنِي الْأَقْبَابُ عَنْ كَرَمِ الْأَصْدِ لِي فُجِدُ الْفَقَى عَفَافٌ وَعَقْلُ
إِنْ نَيْتَ (الوزان) [كَمْ] زَوَا شَيْدِ نَمَّا وَلَكِنْ فِيهِمْ عَلَى ذَاكَ نِقْلُ^(٦)
كَثْرًا عِدَّةً وَلَوْ أَحْصَى الْجَبَا بَ أْبْرَمَ عَنِ الزُّنَاةِ لَقَوْلُوا

(١) خلال حرب الاحتلال أهل المدينة وزارة إسماعيل رانغ وشكلت وزارة برئاسة محمد شريف في ١٨٨٢/٨/٢٠ لتكون أكثر تجاوبا مع لحنل الناصب ، وكان مصطفى رياض وزيرا للداخلية فيها واستقال في ١٨٨٢/١٢/١٠ .

(٢) وهي القصيدة التي هجا بها رياض عقب الاستقالة من نظارة الجهادية .

(٣) البيل : اللال المسوح به .

(٤) الأغثم : الذي لا ينصح في كلامه ؛ الزنيم : الدعي التيم ؛ المتل : الأكل الجاني الفليط .

(٥) الشوى : اليمان والرجلان والأطراف ؛ والمصل : الفليق الرأس .

(٦) القدر : المياه المنقصر في الهواء ؛ أو جمر خرة : الأجزاء المتنامية في الصخر ؛ وآده : أفتله .

لَوْ عَزَوْنَا كُلُّ أَمْرٍ لِأَيْمَنِهِ مِنْ فِرَاحِ (الوزانِ) لَمْ يَبْقَ نَسْلُ
 كُلُّ وَغْدٍ أَخَذَى إِلَى السُّومِ مِنْ بَا زِي ، وَلَكِنْ مِنَ الْحِمَارِ أَضْلُ
 قَدْ تَفَذَّى بِاللُّؤْمِ إِذْ هُوَ طَفْلُ وَتَعَادَى فِي النَّيِّ إِذْ هُوَ كَهْلُ
 كَيْفَ لَا تَسْلُ الدَّيَّانَةُ قَوْمًا نَشَأُوا فِي الصَّغَارِ حِينَ اسْتَهَلُّوا
 كُنْتُ لَا أَحْسَنُ الْمِحَاءِ وَلَكِنْ عَلِمْتُ صَفَاتِهِمْ كَيْفَ أَتَلُّوا^(١)
 كُلُّ شَيْءٍ يَمْنَى ، وَلَكِنْ هِجَانِي فَيْكَ بَاقِي مَا عَاقَبَ السَّيْفَ صَفْلُ^(٢)

(١) الوزان : لقب أسرة مصطفى ريش فهوا بن اسماعيل الوزان بن أحمد الوزان ابن حسن الوزان المتوفى عام (١٧٩٠ م) . في المخطوطة (ج) لا يزونا وما أثبتناه هو الصواب وزنا وإعراباً .
 (٢) هذه الأبيات لم يسبق ندرها وهي من التصيفة السابقة .

الفصل الخامس

البارودي في المنفى

لم أشرّف ذكّة تنفى قلّي بما أصبحت فيه ، فاذا الويل والحرب ؟
 قهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلماً وأغترب ؟
 فلا بطن في الحساد مندمّة فإني صابر في الله مُحْتَسِبُ
 أثرتُ مجداً ، فلم أعبأ بما سَلَبَتْ أيدي الحوادث مني ، فهو مُكْتَسَبُ

* * *

يأندبني في سرّديب كُفّا عن ملالي ، وخلياني إناي
 كيف لا أندب الشاب ؟ وقد أصبّ عثتُ كهلاً في محنةٍ وأغترابِ
 أخلق الشيبُ جدتي ، وكسائي خِلْمَةً مِنْهُ رِثَةً الْجَلْبَابِ
 لم تدعْ صولته الحوادث مني غيرَ أشلاء هِمةٍ في ثيابِ

البارودي

في كولومبو سرنديب

رحلة الفراق الحزينة :

تمت جنح الليل ، وفي سياج من السرية الكاملة ، حاول الخديو وحكومته أن يمتقوا عارم وهم يخرجون الزعماء للفيين من الوطن ، فأخذوهم في الظلام خلسة إلى قطار أطفئت أنواره في ثكنات قصر النيل^(١) . وأسرع بهم القطار تحت الحراسة المشددة إلى ميناء السويس ، ومايكادون ينقلون على عجل إلى الباخرة الإنجليزية مريونس (مريوط) للنتظرة في للرفأ حتى تنطلق بهم في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٢ بعيداً عن الوطن ، لبزول « الشيخ » الذي كان يثبم على صدر الاستعمار والرجعية ، ويذكرهم بجرعهم للشركة في خنق شعب كان يهنئ الحرية واحتلال أمة كانت تريد الاستقلال .

وحانت ساعة الفراق ، ووقف البارودي يلقي نظرة الوداع على الوطن الحبيب ، وحيداً إلا من آلامه التي ينفطر منها فؤاده^(٢) ، حزيناً على آمال مصر التي تحطمت معها آماله ، ملتاعاً لفراق الأهل والولد ، محزوناً لبده عن موطنه وملاعب العبا ومفاني الشباب ، والباخرة ترفع مراسيها لتأخذ طريقها إلى المنفى البعيد . ويسجل البارودي في لوحة « الوداع » الخالدة مشاعره المختلطة

(١) مكانها الآن مبنى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي وتندف هاتون وبني جامعة الدول العربية جوار كوبري قصر النيل بالقاهرة .

(٢) لم يصطحب البارودي في منفاه سوى خادمه الأسود « كافور » وكما تقول معلومات الأسرة إنه لم يصطحب زوجته عديلة يكن لبين: الأول أن أمها « فادن أفندي ست التراك » كانت في مرض الموت وكانت قد فقدت أولادها جميعاً عدا عديلة ، فطلبت منها أن تبقى إلى جوارها وليس لها سواها ، والثاني : أن زوجته كانت تأمل إن هي بقيت في القاهرة أن تستل قراجبا من أسرة محمد علي وخاصة من « خوشيار خاتم » أم اسماعيل « وأتجه ماتم » زوجة إبراهيم فتتبع في إعادة زوجها إلى الوطن واستمدار عفو عنه ، ومن ثم بقيت مع أولادها وكانوا صغاراً وهم محمد ، وسمية ، وسيمية ، وسرية وسيرة .

في إطار حزين وقد جمل ألوانها من دموعه ، وظلالها من آلامه ، ولكنه لا يستسلم فيها إلى التهلكة بل يخلص له الكبرياء مخرجا للجزع والدموع ، وتمتزج فيها أفعاله المختلفة ، فبينما اليأس يخنم بكآبته على جانب من جوانب الصورة يضيء شمع الأمل جانبها الآخر . وتخرج قصيدة « محا البين » فناً جديداً لمبدع يعانى « الألم العبرى » وفيها يقول :

محا البين ما أبت عيون التهامي^(١) فشئت ولم أفض الأمانة من سني^(٢)
حناء ، ويأس ، واشتياق ، وغربة ألا شدة ما ألقاه في الدهر من غبن
ولنا وقتنا للوداع وأشبلت^(٣) ملأنا فوق التراب كالنزن^(٤)
أهبت بصري أن يعود فمزي^(٥) وناديت حلى أن يثوب فلم يُن
ولم تمنح إلا خطره ثم أفلت^(٦) بنا عن شطوط الحى أجنته الشن^(٧)
فكم مهجة من زفرة الوجدي لظى^(٨) وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن^(٩)
وما كنت تجرأت النوى قبل هذه فلما دهنتي كدت أفضي من الخزن^(١٠)
ولكنني راجت حلى وردني^(١١) إلى الخزيم رأى لا يحوم كلى أفني^(١٢)
فيا قلب صبرا إن جزعفت فربما^(١٣) جرت سنعا طير الحوادث باليمن^(١٤)

(١) لم أفس لباني : لم أفض حاجتي .

(٢) التراب جمع تربة : أعلى الصدر ، والمزن : السحاب ذو الماء .

(٣) الخطرة هنا كناية عن الخطأ القصيرة ، وهذا البيت روى في النصار مجلد ٧ جزء ٢١ هام ١٩٠٠ س ٨٢٨ (وما هي إلا خطرة) ، وما ذكر هنا رواية الديوان في المخطوطتين .

(٤) الدجن : الطير الكثير .

(٥) سنح الطير : مر من المياسر إلى الميامن والعرب تليين بالساح وهو كناية عن جريان الأحداث بما يبدل الصبر سيرا . وهذه الأبيات من الجزء الذي لم ينشر من الديوان وهي من قصيدة عند أبياتها ٥٥ بيتاً ، المخطوطة (ج) س ٢٧٤ — ٢٧٦ المخطوطة (س) س ٢٦٨ — ٢٧٠ ، وقد نشرنا المتار في عددنا ٢٤ من المجلد ٧ عام ١٩٠٥ من هذه القصيدة اثنين وعشرين بيتاً منها هذه الأبيات .

وتتدفق على مشاعر البارودي ذكريات الأحداث فيتشعل ما حل بالوطن من ظلم
الرجمية وغدر الاستعمار فلا يجد لنفسه مقاماً فيه ، ويهتف بقوله :

وكيف مقامى بين أرضى أرى بها من الظلم ما أحتق على الدار والشكر
فَسَمِعُ أَنِينِ الْجُورِ قَدْ شَاكَ مَسْمِي ورؤية وجه الغدير حل عرى جفنى
وصعب على ذى الألب رِثْمَانِ ذِلَّةً يظل بها فى قومهِ وإمى النسن
إِذَا المرء لم يرم الهنأة يَبْئِلُهَا تخطف إلى الخوف من جانب الأمن^(١)
فَلَا نَعْتَرِفُ بِالذُّلِّ خِيفَةً نَفْسِي فقبض الفقى فى الذل أذهى من السخن
وَكَنْ رجلاً إِنْ سَمِ خَسفاً رَمْتُ بِهِ حميئة بين الصوارم والذن
فَلَا خَيْرَ فى الدنيا إِذَا المرء لم يَسْ مهبياً تراه العين كالنار فى دغى^(٢)
وَلَا تَرْهَبِ الْأَخْطَارَ فى طَلَبِ الْعَلَا فن هاب شوك التعل ماد ولم يعنى
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فى اللدْنِ مَا شِئْتَ مِنْ قَرَى فأصحر فإن اليد خير من السدن
وَأَمْحُ حَيَاتِي لِأَمْرِي بين بلدتي يظل بها بين الصوائن والدخن^(٣)
لَمْ أَمْرِي لَكُوعْخُ مِنْ مُتَمَامِ رِثْمَةٍ أحب إلى قلبى من البيت ذى الكن^(٤)
وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِعَدِ عِلْمٍ أَجْدَى لِي يقينا نفى عنى مراجعة الظن^(٥)
فَقَدْ ذُقْتُ طَعْمَ الدَّهْرِ حَتَّى لَفْظَتُهُ وعاشت حتى قلت لابن أبى دغنى
وَلِمَنِي وَإِنْ طَالَ الْمَطَالُ لَوَاتِقُ برحة ربي فهو ذو القول والكن^(٦)

(١) الرثمان : الحلب والألفه . وذلّة جاءت فى المخطوطة (ج) زلة ص ٢٧٥ .

(٢) الهنأة : الدامية . (٣) النسن : الظلام .

(٤) الصوائن جمع صائ : البخان أو التيل ؛ والعخن : البخان .

(٥) تمام واحدة تمامة : التبت القصير لا يطول أو كوخ من قش ؛ والخلة : ما علا من الأرض ؛ والبيت ذو الكن : ما له سقفة أو طلة فوق باب الدار .

(٦) المطال : النية . وهذه الأبيات مما لم يسبق نشره من قصيدة «عما لين» ومها ١٩ بيتاً أخرى .

وما إن خرجت الباهرة إلى المحيط حتى فاجأها الدواصف والأعاصير
وأخذها الموج من كل مكان ، وكان « نبتيون » (NEPTUNE)^(١) غضب
من ظلم الإنسان القى سوغ له منطقه أن ينفى الأحرار من الديار فيما تنعم فيها
الرجمية والاحتمار ، أو كأنه أراد أن يشغل المنفيين عن التفكير في النسكة
وفيا خلقوه وراهم وما هم مقدمون عليه ، فسلط جنوده يقذفون سفينتهم
بالموج والأعاصير ، ويصيدهم « بدوار البحر » ويشل منهم للتفكير .
ويقص علينا البارودي قصة « رحلة الفراق الحزينة » بثرة النفي
فيقول^(٢) :

« إني لما أنصت بي غوائل الزمن ، إلى مفارقة الأهل والوطن ، وحقّت كلمة
الوداع ، وأنصت كل عجيب وداع ، سارت بأشباحنا الفلك ، بتقدير من له
الملك ، فلما توسطنا لجة اللّهم ، وغشينا ضبابة الهم ، أخذ البحر يهدر ويموج ،
والريح تمصف وتروج^(٣) ، والدّجن يبرق ويرعد^(٤) ، واللوت يقرب ويعد ،
والنّلك بين صعود وهبوط ، والناس بين رجاء وقنوط . فشخصت الأبصار ،
وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع ، واستولى الجزع ، وشفت الدموع الحاجر ،
وبلقت القلوب الحناجر . هناك دعا ربّهم الفافلون ، وكف أذيالهم الرافلون ،
فلا ترى إلا ناكس الطرف ، لايقنيس بحرف ، كأنما أغلظهم الرجفة ، أو
غشينهم الرجفة^(٥) ، فهم لفرط الحيرة خود ، تمسبهم أيقاظاً وهم رقود ، فلم

(١) إله البحر والملاحة عند الرومان الأقدمين وصوروه ويده حربة مثثة الأسنة دليلاً على أن من
يتسلط على البحر يتسلط على العالم (ميتولوجيا) .

(٢) جزء من كتابه « قيد الأوابد » والكتاب لم ينشر ولا يعرف مستقره ، وقد ساق على الجسارم
ومحمد شفيق معرّف في مطلع نشرتهما لديوان البارودي جزءاً من هذا الكتاب نموذجاً . من خطه
ونثره الفنى ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ .

(٣) تروج : تضطرب .

(٤) الدجن : السحاب المطر .

(٥) الرجفة : رجفة يوم القيامة ؛ والرجفة : الهلم .

يزل بتخبطننا اليم ، ويأخذ بأكظامنا^(١) التم ، حتى كادت الأنفس تزهق ، وأظفار اللينة ترهق^(٢) ، ونحن في وعاء^(٣) ، لأملك غير الدعاء ، ولبننا على ذلك ثلاثا ، لأنجد فيها غياتنا . وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص . فيمد لأي ما سكنت قوّة الريح ، وهدأت ثورة ابن بريح^(٤) ، وتجلت بنورها السماء ، واصطاح الماء والهواء ، فقرت الأنفس في الصدور ، وتنفس كل مصدور ، ولم يبق إلا سوق الحديث ، من قديم وحديث ، والفلك يخمر البحر بموجّه ، ونحن من الشهر في دودّه^(٥) .

وتعفى « مريوتس » بالمنقين إلى مصيرهم الجديد فتصل ميناء « كولومبو » عاصمة جزيرة سرنديب^(٦) الجديدة في ٩ يناير ١٨٨٣ . وكانت أنباء الزعماء للمصريين قد سبقتهم إليها فاستقبلتهم الجزيرة استقبالا حافلا ، واحتفى بهم للسلون من أهلها احتفاء كبيرا^(٧) ، وأعدت لهم حكومة سيلان أربع دور لسكناهم تزل البارودي وخادمه مع محمود فهمي وأسرته في واحدة منها^(٨) .

(١) أكظام جم كظم : ضيق النفس وأصله من كظم الفيل أي حبسه .

(٢) ترهق : تلهق بنا وتدركننا . (٣) المراد بالوعاء السفينة .

(٤) ابن بريح : الغراب والرب تنشام بصوته ، وهنا كناية عن زفير العاصفة .

(٥) الموجّه : الصدر ؛ والدودّ : آخر الشيء .

(٦) سرنديب وتعرف الآن بسيلان تقع على المحيط الهندي جنوب شرق الهند ، وتشتهر بجبال الطبيعة فيها من سهول وجبال وغابات ، وهي قرب خط الاستواء . ومن أشهر مدنها كولومبو وجاننا وكاندي وكالوتارا ، ومن أشهر جبالها (آدم) ويقول السلون من أهلها إنه الجبل الذي هبط عليه آدم من الجنة . والجزيرة عدد من المسلمين من أصل عربي وهندي دخلوها كتجار في القرنين ١٢ و ١٣ واستعمرتها بريطانيا عام ١٧٩٥ وبلغت عنها سنة ١٩٤٨ .

(٧) تصداد المسلمين بها ولتخذ حسب تقدير عرابي نحو ٢٥ ألف مسلم .

(٨) مذكرات عرابي ج ٢ ص ٦١ ؛ والبحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٤ .

من ظلمة النفي والالام تفجر نور الشعر :

طوح القدر بالبارودي إلى منفاه ، وانتهى به إلى « كولومبو » عاصمة سر تنديب
فبليت له أول عهده بها :

منازلُ لم تألف بها النفسُ مأثقا على أن فيها كل ما تشتهي النفسُ
ولا عيبَ فيها غير أن ليس لي بها أنيسٌ ، وقد اخلل في غربة حبسُ
وكيف يطيبُ العيشُ في ظل بلدةٍ خلاه من الآلاف ليس بها أنسٌ^(١)

ويصف البارودي أحاسيسه للشبوبة وأشجانه الحزينة أول أيامه في « كولومبو »
فيقول : « دخلتها مشبوب الأنين ، على الأهل والبهين ، لا أستطيع لما عراني
دفعا ، ولا أملك لنفس ضرا ولا قعسا ، وما ظنك بمن غاب عنه السير ،
والناع بالقرقة منه الضمير ، فهو بين هموم ناصبة ، وأحزان واصبة^(٢) ، وأشجان
يهلك لها الصبر ، ومرارة يحلو عندها الصبر^(٣) ، إن نطق فبصوت لا يدركه
السمع ، أو نظر فبعين قد ملأها الدمع :

غريبٌ تخطاه الأساءُ فسأله سوى عبراتٍ للقلتين طيبُ
وما أسنى أنى غريبٌ عن الحى ولكننى بين الأنعام غريبٌ^(٤)

وتستقبل البارودي أولى لياليه في المنفى بصرصر من الرياح عاتية ، وكأنها
تنوح على التريب الشديد ، وبسما كلع وجهه واصطلك ركامها ، قد انهالت تبكى

(١) هذه الأبيات لم تذكر في ديوان البارودي وإنما ذكرت في كتاب « قيد الأوابد » .

(٢) التامة : التسمية ؛ والراسية : المؤالة .

(٣) الصبر الثانية : ما يبيحه السطار .

(٤) هذان البيتان لم يذكر في ديوان البارودي وإنما ذكر في كتاب « قيد الأوابد » .

معه على فراق الأهل والصعب والولد ، وبالصواعق ترعد وتبرق غاضبة للظلم الذى حاق بالأحرار ، والبارودى قد جفاه النوم وهو يرقب الفجر بصر نافذ .
« فلما رقت أنفاس النسيم ، وحسر الصبح عن عياه الوسم ... صحتُ بنفلى
« كافور » ، فأقبل يرف كالصيفور^(١) ... فقلت له : ما هذا الطرب وقد أودى
الأرب ؟ فقال : أنظر يامولاي إلى السماء ، والنبت وللاء ، تجد منفراً وسياً ،
ومسرحاً قسماً ، أزهار ترف ، وغدران تشف ، ومصبح يفتن المقول بروائه ،
ونسيم يشقى الأسقام بدوائه ، فقم لملك تستريح ، فقد سكن القطر والريح .
فلم يصحك لقوله سئى ، وعلت أنه ليس منى ، وإن يذهب اللهو بقلب قد
عنى رسمه ، ولم يبق فى الشفاف إلا رسمه ؟ بل كيف يطرب الغرب أو يخف
إلى الصنوبة الحريب^(٢) ؟ هيهات ! ... تالله ما بعد الوطن دار ، ولا فى غير
السكبة مدار ، ولكن من لم يجد حراً كما سكن ، ومن أعجزته الحيلة ركن^(٣) .

وفى المنفى يبدأ الطور للظلم من حياة البارودى ، اقتات فى الألم ، ومضع
اليأس ، وكرع اللوعة ، واجتر الذكريات . كان يطوى على ذلك كله جوانحه ثم
يخرج ليعيش بين الناس والرفاق بنفس تكسوها القوة وكأن الأحداث لم تنل
منها . ومن ظلمة النفى تنجر النور فى حياة الفن والشعر والنصيد ، أسدها
الألم المبقرى بنمير من شحنات الماطفة فألمت الشاعر الآيات اليبينات ، وقدحت اللوعة
زناد شاعريته فأورت لنا القصائد الخالدات ، وأثارت الذكريات فنفى لأياه
الانخاليات ، ولازمته ربة الشعر لا تفارقه بعد أن أصبح مغترغاً لها فى منفا يسجل

(١) الصيفور : ملثم .

(٢) الحريب : اللوب ماله وأمله .

(٣) من كتاب قيد الأوابد ، مقدمة النيران (الجارم) ج ١ ص ٤٤ - ٤٥ .

على قيثارتها خطوات الزمن الوثيدة الثقيلة وهي تدب إليه بأحداثها فتغير من كل شيء فيه إلا شرفه وكرامته . ولئن كان قول البارودي :

فانظر لقولي تمجد نفسي مُصَوَّرَةً في صفحتي قولي حطُ تمثالي

صادقاً في حياته الأولى ، فهو أكثر صدقاً في حياة للنفس ، ذلك لأن شعره كان سلواه وكان متنفس همه حين ثقلت وطأة الاغتراب على الرفاق فطارت منهم الأبواب ، وروع اليأس قلوبهم فرضت منهم النفوس ، فلم يجد له ملجأ من كل هذه الآلام والأحزان سوى ربة الشعر يهرع إليها فيترنم وإياها بهيمومه ، ويستعين بأنعامها على التصبر إن أعوزته الوسيلة إلى الصبر ، ويتخذ منها رسولا إلى النائيين عنه بمحبة من الأهل والأحباب والولد والصحاب .

كانت ربة الشعر مع البارودي مثال الوفاء وله نعم العزاء ، وقمت له ألقانا من الحزن مختلفة الألوان ، وألممته أبلغ آياتها لينشدها في ظلمته العاطية بمنفساه ، فأصبح كليل الظلماء يردف تغريداً بتغريد ، ويقول شعراً هو أنس الحزون وعزاء الناكل وسلوة الماشق . شعراً يلهم الصبر على للكاره والجلد على الشدائد والأمل في الله ، ويصعد مع أبياتانه كربة الهم وحرقة الآلام . يمضه الحنين إلى الأهل فيشكو النوى ، ويبين له طيف الوطن في أروع صورة فيرسمه في أجل عبارة ويتوسل إليه ويدعوه ، ولكن الوطن لا يستجيب لدعائه فيحز الأمل في نفسه ويحوج ، وتراجعه شركيته ، ويشور في عروقه دم للمالك فيعود إلى القفر . وتتوالى عليه رسل الموت تخبره بوقاة الأهل والأصدقاء فيرى ويبكى ويسلم أمره لله . ويلفه الأمل والألم ، ويحيط به اليأس فلا يجد ملجأ من ذلك كله إلا في التوجه بكلية إلى الزهد ولكنه لا يثمر فيه على الشفاء ، فما زالت جراح نفسه تهيج به بالألم فيثور ويبلغ بثورته أسمى مداه ، ولكنها

نورة أشبه بصحوة الموت قبل أن يسلم القضاء وقد دب إليه الشيب والمرض والعجز فضعف حتى أصبح « أشلاءمة في ثياب » ، وغدا « لا يستطيع الثوب يسحبه » ، وأمسى يعد أكتافه من نسيج شعره ، وينشد رثاءه لنفسه ، وهو يظن أن أحداً لن يحود على الغريب البعيد برثاء .

وربة الشعر في كل هذه الأطوار مسلة إليه نفسها ، مسلة له قيادها ، مادة إليه قيثارتها تألمه وتمزف له ، وتمينه في هذا للنفي على أن يمسد إلى الشعر العربي جذة لانتبل ، ويزيل عنه الضعف وأوشاب الانحلال ، ويبعث فيه الروح التي كادت من ضعفه تهجره . وتنفث في روعه ليجعل من آلامه وحسرته وثوراته وبأسه وآماله وحنينه ودموعه وضعفه نسيجاً رائماً لثوب الشعر العربي الحديث ، ومصدراً لمبعث جديد ، وأداة لنهضة اللغة السليمة والأدب الرفيع بعد أن لتهما أكتافان الانحطاط قرابة خمسة قرون .

وما إن يستقر البارودي في منفاه حتى يزوره طيف ابنته « سميرة » فيهبج في نفسه الشوق إلى أهله ، وينكأ جراح البعد والوحدة ، وتتداعى إليه الذكريات ، وينشد أولى قصائده في مستقره الجديد يفرغ فيها ما يموج به صدره من الافعال والآلام فيقول :

تأوب طيف من « سميرة » زائر وما الطيف إلا ما تربيه الخواطر
ألم ، ولم يلبث ، وسار ، وليته أقام ، ولو طالت على الدياجير
تمتلتها الذكرى لعيني ، كأنني إليها على بُعد من الأرض ناظر
فيا بُعد ما بيني وبين أحبي ! وطأ قرب ما التفت عليه الضائر !

وَيَذْكُرُهُ طَيْفٌ سَمِيرَةٌ بِأَخَوَاتِهَا فَيَقُولُ فِيهِنَّ :

عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ تَوَالَيْنَ حَوْلَهَا كَأَنَّ دَارَ الْبَسْدِ النَّجْوَى الزَّوَاهِرُ
غَوَافِلُ لَا يَفْرُقْنَ بَيْنَ مَعِيشَةٍ وَلَا هُنَّ بِالْبُؤْسِ الْمَلِكِ شَوَاعِرُ
تَعَوَّدْنَ خَفَضَ الْمَيْسِ فِي ظِلِّ وَالِدٍ رَحِيمٍ ، وَيَدَّتْ شَيْدَتُهُ الْعُنَاصِرُ

يَسْتَرِدُّ قَوَاهُ وَلَا يَدْعُ الضَّعْفَ يَسْتَبْدُّ بِهِ ، وَيَسْمُو بِنَفْسِهِ فَوْقَ النَّكْبَةِ
وَفَوْقَ الْقَوَى الَّتِي تَتَأَكَّرُ عَلَى حَرْبِهِ ، وَيَتَبَرَّى لِلدَّفَاعِ عَنْ مَوْقِعِهِ فِي النُّورَةِ بِمَا قَامَ بِهِ وَهُوَ
فِي الْعَمَلِ مِنْ إِصْلَاحٍ ، وَيَسْتَهِينُ بِمَا لَاقَى فِي سَبِيلِ وَطَنِهِ مِنْ عَذَابٍ وَمَا قَدَّمَهُ مِنْ تَضْعِيعَةٍ
وَيَعْرِفُ ذَلِكَ عَلَى قِيَارَةِ الشَّعْرِ فَيَقُولُ :

حَلَى طَلَابُ الْعَزْزِ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَنِي الْمَقَادِرُ
فَمَآذَا عَسَى الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَقَوَّلُوا حَلَى ، وَغِرَضِي فَاصْحُ الْجَيْبِ وَافِرُ؟
مَلَكَتْ عُقَابَ الثَّلَكِ وَهِيَ كَسِيرَةٌ وَغَادَرَتْنِي فِي وَكْرِهَا وَهِيَ طَائِرُ
لَوْ رَمَتْ مَا رَامَ امْرُؤٌ بِخِيَانَةٍ لَصَبَحَتِي قَسْطٌ مِنَ الْمَالِ غَامِرُ
وَلَكِنْ آيَةُ نَفْسِي الْكَرِيمَةِ سَوَاءٌ تُعَابُ بِهَا ، وَالْقَدَرُ فِيهِ الْمَعَارُ
فَلَا غَرَوْ أَنْ حَزَّتْ لِلْكَارِمِ عَارِيَا قَدْ يَشْهَدُ السَّيْفُ الْوَفَى وَهُوَ حَامِرُ

وَيَحْمِلُ الْبَارَوِي طَائِرَ النُّخْرِ إِلَى سَمَاوَاتِ هِمَّتِهِ الْبَعِيدَةِ وَفَرُوسِيَّتِهِ الشَّجَاعَةِ حَتَّى
لِيَكَادِ الْمَرْءُ يَحْسِبُهُ نَسِيًّا حَاضِرُهُ وَمَا هُوَ فِيهِ ، وَإِذَا بِالْوَاقِعِ يَفْجُوهُ فَيَتَطَاوَلُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ :
فَلَنْ كَفْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ قَلٌّ رَزِيَّةٌ تَقَاسَمَهَا فِي الْأَهْلِ بَادٍ وَحَاضِرُ^(١)
فَكَمْ بَطْلٍ قَلٌّ الزَّمَانُ شَبَابُهُ وَكَمْ سَيِّدٍ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَابُّ

(١) قَلٌّ : مُنْهَزَمٌ ، وَالرَّزِيَّةُ : الْعَيْيَةُ .

فلا يشمتُ الأعداء بي ، فاربنا وصلتُ لما أرجوه ممَّا أحاذرُ
فقد يستقيمُ الأمرُ بعدَ اعوجاجه وتنهضُ بالره الجدودُ العوائِرُ
وسوفَ يبين الحقُّ يوماً لناظر وتنزو بموَرَّاهِ الحَقُودُ السرائِرُ
وما هي إلا غمرةٌ ، ثم تنجلى غيابتها ، والله من شاء ناصرُ
فقد خاطني في ظلمةِ الحبس ، بعدَ ما ترامتْ بأفلاذِ القلوبِ الحناجرُ

حملة التشهير :

وتهب رياح السموم على البارودي ورفاقه من صحف القاهرة للأجورة ، فقد أطلقت الرجمة والاستعمار أفلامها للسمومة في « حملة تشهير » على زعماء الثورة ، تشوه سمعتهم ، وتلصق بهم التهم ، وتحاول أن تثبت الشبهات في نفوس الشعب حول صلتهم بالثورة ، وتعزوها إلى « مآرب شخصية ومنافع ذاتية » ، وتشكك في وطنية الزعماء ، وفي إخلاصهم للأمة يوم قادوها إلى الثورة ثم إلى الحرب . وكانت التهم التي وجهتها الأفلام للسمورة للأجورة إلى البارودي أنه لم ينضم إلى الثورة إلا طمعاً في الملك ، وأملًا في أن « يشب إلى العرش » بمسد خلع توفيق . وتناقل مشاعر الغاني للمحاولة الدنيئة التي تسمى لتشويه الذكرى وهي كل ما بقي له في الوطن ، ويرد على متهميه بمطولة يسجل فيها للأجيال « قصة الثورة » ، ويحدد مكانه منها ، فيقول :

ألا ، أيها الرأزي علىَّ بجهله ولم يدركني درّةٌ في الفارق
تمزّ عن العلياء بالوهم ، واعتزل فإن الملاء ليستْ بثلثٍ للناطق
فما أنا ممن تقبلُ الضيمَ نفسه ويرضى بما يرضى به كلُّ ماثق^(١)

يقول أناس ، إنني ثرت خالماً وتلك هتات لم تكن من خلائقي^(١)
ولكنني ناديت بالعدل طالبا رضا الله، واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف، وأنكرت منكرأ وذلك حكم في رقاب الغلاتي
فإن كنت عصيانا قيامي ، فإنني أردت بمصيانى إطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى على غضاضة وفيها لمن يبغى الهدى كل فارقي؟
بلى، إنها فرض من الله واجب على كل حي من مسوق وسائق

ثم يذكر موقفه من توفيق ورياض واستبدادهما في الحكم ، ومؤمرات القدر التي أرادت أن تقتل الثورة في مهدها فيقول :

على أنني لم آل نصحا لعشر أبي غدرهم أن يقبلوا قول صادق
رأوا أن يسوسوا الناس نهرا ، فأسرعوا إلى نقض ما شادته أيدي الوائقي

ويعضى البارودي فيبين للناس والتاريخ كيف قامت الثورة الوطنية تحارب الظلم والظلمانيان ، وكيف وقعت الأمة صفا واحدا من وراء زعماء الثورة تؤيدهم فيقول :

فلما استمر الظلم قامت عصاة من الجند تسعى تحت ظل الخوائقي
وشابعتهم أهل البلاد ، فأقبلوا إليهم سراعا بين آت ولاحي
يرومون من موالي البلاد نفاذا ما تألاه من وعد إلى الناس صادق
فهذا هو الحق الثمين ، فلا تسل سواي ، فإنني عالم بالحقائق

وإذا كانت الحقائق كلها تشير إلى البارودي حين نصبته الثورة مستشارا لما ثم زعيما من زعمائها ، لم ينضم إليها لتحقيق مأرب يراوده ، أو ليتخذها

سلماً للوصول إلى مطالبه ، فإننا لانستطيع أن نبرئه براءة كاملة من تطلعه إلى الملك في فترة خاصة من حياته هي فترة شبابه . وفي يتيقن أن البارودي في الطور الأول من شبابه ، وهو يعمل طوراً لإسماعيل وكبيراً لياوران توفيق وهو ولي للعهد^(١) ، كان يرى نفسه بما ملكت من شجاعة ورأى أحق بالملك من هؤلاء الذين يجلسون على دسسته يستبدونهم ، ويستشرى الفساد فيهم ، ويستولى على عقولهم الأفن والخليل ، ويقودون البلاد إلى هاوية الإنفلاس والسقوط في برائن الاستعمار ؛ ومن ثم راوده طموح الشباب وأحلامه ، وتمنى ملك مصر ليقود البلاد إلى حياة أفضل يسود فيها العدل والمساواة والثورى . كانت أدانى الشباب وأحلام الفتوة ؛ لكنه لم يكن يملك من الوسائل والإمكانات ما يحققها ، فظلت في حدود نفسه وعواطفه لا تتخرج إلى الوجود إلا في شعره . ثم فاق من هذه الأحلام ، وتكفكف عن تلك الأمانى حين بدأت الثورة الوطنية تخرج من حيز التفكير والتدبير إلى الوجود القلبي كقوة في عالم الأمة وانضم إليها . ولما وجد البارودي أنه لا يملك من مقومات الزعامة الشعبية ما يملكه أحد عربى ، ألقى إليه بزمامها وبأيسه بالزعامة ، وقبل أن يكون الرجل الثانى في التنظيم الثورى وهو الوزير ثم رئيس الوزراء .

وفي أعقاب ثورة نوفمبر سنة ١٨٨١ حين ترددت في الأفاق فكرة خلع توفيق وتولييه خديو آخر ، وجرت مزايدات بين الثوار والأستانة ، ورشح « حليم باشا » لخدوية مصر ، واتفق البارودي وأخذ يروج للفكرة مادام في توليته صلاح لمصر وإنقاذها من رقة الظلم والنفوذ الأجنبي^(٢) . وخلال

(١) فيما بين ١٨٦٣ — ١٨٧٥ وكانت سن البارودي ما بين ٢٤ إلى ٣٦ سنة .

(٢) انظر : مصر للمصريين ج ٢ ص ١١٦ ، ١٣٦ . عصر استجاب محمود نبيه وميثاق نوزي ؛

وانظر أيضاً : مذكرة في نصف قرن ج ١ ص ١٤٥ ؛ والتاريخ السرى ص ٢١٦ .

الأزمة الدستورية التي انتهت باستقالة وزارة شريف (فبراير ١٨٨٢) ، وحين وقف الخديو وشريف في صف الرأبيين اللالين ضد مجلس النواب ، وتجاوبت الأصدقاء بالتخلص من الأسرة النخيلة كلها ، واتجهت الأنظار إلى البارودي ليكون خلفاً لتوفيق عزف عن التنصب وزهد فيه حفاظاً على وحد الصف الوطني ، فهناك من هو أحق بالملك منه إن كان ثمة تغيير . وذهب البارودي إلى عرابي — كما يقول عرابي نفسه — « ثم أقسم لي أنه مستعد لأن يضحي بحياته ويمحو بآخر قطرة من دمه في سبيل وسبيل الوطن ، وأن يجرّد حسامه وينادي باسمي خديويًا لمصر ^(١) » .

وكان البارودي أول من فكر في قلب نظام الحكم في مصر وتغييره إلى جمهورية مستقلة عن تركيا حيادية كسويسرا ^(٢) ، وآمن بأن ذلك أفضل أنواع الحكم في بلد كصر . وأصبحت الفكرة عقيدة يدعوها ، وأملا يكرس حياته من أجله ليتحقق قبل أن يموت ^(٣) ؛ ومن ثم لم يكن ذلك الأمل هو الثوب إلى العرش كما ادعته « حلات الشهير » - واقاد لها بعض المؤرخين - لتشكك في إخلاص الرجل ، ولتحيطه بظلال من التهم فتعظم مجده الوطني .

وقد اعترف البارودي زملاء الجهاد ورجال الحزب الوطني وزعماء الثورة بالنضال على الثورة ، وبأن الحركة الوطنية تدين له بالكثير ، وما داخلتهم ريبة ولا طاف بهم خاطر من شك فيما ألصقته به أقلام التشهير التي انطلقت مسعورة تلتطم سمته وسمعة الزعماء جميعاً . يقول عنه عبد الله النديم : « وقام محمود ساي بما بيض تاريخه الجليل ، وحفظ له الذكر الجليل ، فله اليد البيضاء أيام التأسيس ، مما

(١) كشف التاريخ ج ١ ص ٢٧٢ . (٢) التاريخ المرمي ص ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق .

أنه من كل أمر نفيس ، فطالما سهر الليالي الطوال ، وتحمل الحول والأثقال ،
وحارب رياضاً وحيداً ، وظاهر الخديو فريداً ، وبذل جهده في منع التحالف ،
وجمع الأجناد على التحالف ، ورضى أن يكون قائداً تحت الإدارة ، وأغض
عن كونه رئيس الوزارة ^(١) .

ويقول عنه أحد الصحفيين الذين خالطوا رجال الثورة وعاشوا معم الفترة
المصيبة من الجهاد الوطني ، وعرفوا البارودي عن قرب ^(٢) : « ظهر لي
أننا كنّا مخطئين في تقدير محمود باشا سامي ، فإني تحدثت معه كثيراً وسألت
عنه حتى من أعدائه ، فعلمت أنه كان من زعماء الحركة الوطنية من عهد إسماعيل ،
وقد كابد كثيراً من المشاق لأجل آرائه ، ولكنه لم يتزعزع . وكثيرون من
الحزب الوطني مثل عبد الله النديم ومحمد عبده بل وعرابي نفسه يعترفون
بأنهم مدينون له بمساعدته لهم وولائه للحركة الوطنية . وقد أغراه إسماعيل أن
يتترك الحزب ويعرض عليه للسل ولكنه رفض . وهو ينفق الآن جميع إرادته
الضخمة على الحزب ، ومنزله أشبه بقافلة حطت رحالها في الطريق . أما حياته
الشخصية فحياة فيلسوف ، لا ينفق شيئاً على نفسه ، وهو قانع راض بما يأتي به
التدبر ، وليس البارودي رجلاً جاهلاً فهو متضلّع في الآداب العربية . . .
وكرهية الأتراك له دليل على وطنيته » .

ولم يخف إخلاص البارودي للثورة ومبادئها عن الوطنيين أو الأجانب على
السواء ، ومن الذين خابروه عن قرب وكونوا الرأى عنه « بلنت » الصديق
البريطاني للزعماء ويقول عنه : « محمود سامي كان دستورياً متحمساً ومصليحاً ووطنياً

(١) مذكرات عبد الله النديم الجاسة ص ٧٥ .

(٢) لويس سايبوغي مراسل بلنت من خطاب له إلى بلنت في ١١ يونيو ١٨٨٢ ، أنظر : التاريخ

صادقا . أما من حيث مواهبه فقد كان أسمى بكثير من عرابي ؛ بل كان من أعظم الناس علما وتهذيبا في مصر ، فقد كان متبحرا في آداب اللتين التركيتين والعربية ، كما أنه كان حجة في تاريخ مصر ، وهذا كله فضلا عن مواهب الشعرية العظيمة الممتازة ... وقد كان الدور الذي قام به في الثورة الوطنية دور إخلاص لمبادئه الدستورية وللحركة الوطنية ، وقد دفع بسبب إخلاصه ثمنا غاليا فإنه كان غنيا ومن ثم تعرض لخسارة كبرى بعد الهزيمة ^(١) .

من ذلك كله نستطيع أن نؤكد أن البارودي لم يتخذ الثورة مطية لأغراضه . والبارودي نفسه قد حدد آماله وأمانيه حين بلغها بعد أن ذاق في سبيلها للشاق وضع في تحميمها شبابه ، وذلك يوم قدم الدستور لمجلس النواب فوافق المجلس عليه في ٨ فبراير سنة ١٨٦٢ . وحسب البارودي أنه قد أدى رسالته لوطنه ، وأن الشعب بدأ يحكم نفسه بنفسه بعد ألوف السنين فقال :

سميتُ فأدركتُ لئلي ، غير أنني أضفتُ شبابي في سبيلِ طلابي

ويعود البارودي إلى « حملة التشهير » ، فيرد على افتراءاتها بقوة في مطولة ثانية يثبت فيها ويؤكد أن ثورته كانت دفاعا عن دينه ووطنه ، خالصة لوجه الله والوطن فيقول فيها :

قَهْلُ دَفَاعِيٍّ عَنْ دِينِي وَعَنْ وَطَنِي ذَنْبٌ أَدَانُ بِهِ ظُلْمًا وَأَغْتَرَبُ ؟
فَلَا يَظُنُّ بِي الْحَادُّ مَنَدَمَةً فَإِنِّي صَابِرٌ فِي اللَّهِ مُحْتَسِبُ
أَتَرَيْتُ مُجِدًّا قَلَمَ أَعْبَا بِمَا سَلَبْتُ أَيْدِي الْحَوَاثِ مَنِي ، فَهَوَّ مَكْتَسِبُ

وما أبالي ونفسي غيرُ خاطئة إذا تخرص أقوام وإن كذبوا
 ما لئها فريّة ، قد كان باء بها في ثوب يوسف من قبل دم كذب

ويوجه سهام هجائه إلى صدور أعدائه الذين دفعهم التثني والحقد إلى تشويه جهاده
 ويفخر عليهم في مطولة ثالثة يقول فيها :

فَلَا يَسْرُ عَسَدَاتِي مَا بُلِيتُ بِهِ سَوْفَ نَفَى وَيَبْقَى ذِكْرِي الْحَسَنُ^(١)
 ظَنُّوا ابْتِمَادِي إِعْقَالًا لِمُنْقَبِي وَذَلِكَ عَزَّ لَهَا لَوْ أَنَّهُمْ فَطَنُوا^(٢)
 فَإِنْ أَكُنْ سِرْتُ عَنْ أَهْلِ وَعَنْ وَطَنِي فَالْنَّاسُ أَهْلِي وَكُلُّ الْأَرْضِ لِي وَطَنُ
 لَا يَطْمَسُ الْجِلُّ مَا أَتَقَبْتُ مِنْ شَرَفٍ وَكَيْفَ يَحْجُبُ نُورَ الْجَوْنَةِ الدَّخَنُ^(٣)
 فَلَيْشَقَبِ الدَّهْرُ ، أَوْ نَسْكُنْ نَوَافِرُهُ فَلَسْتُ مِنْهُ كَلَى مَا فَاتَ أَحْتَرَنُ^(٤)
 غَنَيْتُ عَمَّا يَهِينُ النَّفْسَ مِنْ عَرَضٍ فَمَا كَلَى لِيحْيَى فِي الْوَرَى مِنْ

ثم يذكر رجال الحكم الرجعي في مصر وما عرفه عنهم من غدر وحسد وخداع
 حين زاملهم وعمل معهم ، فيصليهم بحجيم من ذمه تسود بها صفحات تاريخهم فيقول :
 لَكُنْتُ بَيْنَ قَوْمٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ إِنْ عَاقَدُوا غَدْرُوا ، أَوْ عَاسَرُوا رَهْنُوا^(٥)
 يُخْفُونَ مِنْ حَسَدٍ مَا فِي نُفُوسِهِمْ وَيُظْهِرُونَ خِلَاعًا غَيْرَ مَا بَطْنُوا
 مَا لِلْعَمَاقِ ! أَمَا فِي النَّاسِ مِنْ رَجُلٍ وَارَى الصَّمِيرَ لَهُ عَقْلٌ بِهِ يَزُنُ

(١) عداة جم عاد : اللئني والمادى؟ غنى: في المطولة ج (سوف ينفوا) وهو خطأ إمراي ،
 وإذا قلنا ينفون يتكسر الوزن .

(٢) إعقالا لمنقبى : حيا لكرم أفعالي .

(٣) ما أتقبت من شرف : ما اشتهر من شرفي والجوثة : الشمس عند مغيبها لأنها سود حين تغيب ؛
 والدخن : الدخان .

(٤) يفتش : يهيج الشر . (٥) عاسر : عامل بالشفعة ؛ ورهن رهونا : صار رهيا .

أَكَلْتُ خَلِيَّ أَرَاهُ لَا وَقَّاهُ لَهُ ۖ وَكُلُّ قَلْبٍ عَلَى الْأَيَّامِ مُضْطَّافُنُ
تَغْيِيرُ النَّاسِ جَمًّا صَكْتُ أَعْمَدَهُ ۖ فَالْيَوْمَ لَا أَدَبَ يُفْنِي وَلَا فِطْنُ^(١)
فَالْخَيْرُ مُنْبِضٌ ۖ وَالشَّرُّ مُبْطِطُ ۖ وَالْجَهْلُ مُنْقَشِرٌ ۖ وَالْعِلْمُ مُنْدَفِنُ
لَمْ تَلَقْ مِنْهُمْ سَلِيمًا فِي مَوَدَّتِهِ ۖ كَأَنَّ كُلَّ إِمْرِيءٍ فِي قَلْبِهِ دَخَنُ^(٢)
سَوَاهُمُ الْفِلُّ عَلَى الْقَدِّ ۖ وَانْقَشَرَتْ ۖ بِالتَّنْذِيرِ بَيْنَهُمُ الْأَحْقَادُ ۖ وَالذَّمُّ^(٣)
فَلَا صَدِيقَ يُرَاعِي غَيْبَ صَاحِبِهِ ۖ وَلَا رَفِيقَ عَلَى الْأَسْرَارِ يُؤَمِّنُ
يَلُوتُهُمْ فَسَمْتُ الْعَيْشِ ۖ وَانصَرَفَتْ ۖ فَنَسِيَ عَنِ النَّاسِ حَقِّي لَيْسَ لِي شَجَنُ
فَلَنْ يَكُنْ فَاتِنِي مَا كُنْتُ أَمْلِكُهُ ۖ فَالْبَعْدُ عَنْهُمْ لَمَّا أُنْقَلَقْتُ تَمَسَّنُ
كَفِّي بِحَرْبِ النَّوَى سِلْمًا نَجُوتُ بِهِ ۖ وَرُبَّ مَخْشِيَةٍ فِي طَيْبِهَا أَمْنُ^(٤)

وحلة أخرى تشبها أفلام الكراهية والتشفي تنال من البارودي وزوجته وتحاول
الواقعية بينهما ، فتختزع القصص والأكاذيب حول افتتان البارودي في منفاه
بنادات سرنديب وقامت من الدهرية وسمرتهن للفرقة وعيونهن النجل ، ونسيانه
زوجته التي تركها خلفه تمضغ ألم الفراق وتفتات عذاب البعد ، وتحمل له الحب
والوفاء^(٥) . وتضمن الحيلة في إثارة أشجان البارودي في غربته وزيادة آلامه
فتشيع أن « زوجته تتخذ الإجراءات القانونية لطلب الطلاق^(٦) » . وأغلب

(١) النطن جيم فطنة : هي الخلق والنهم . (٢) الدخن : الفساد .

(٣) الذم : الحقد القديم الثابت في الصدر .

(٤) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من قصيدة عنوانها « وقال وهو بسرنديب يتشوق إلى الوطن
ويذكر أعداءه » وهي ٥٠ بيتاً ومن الجزء المخطوط في الديوان : المخطوطة (س) ص ٢٧٠ — ٢٧٣ ؛
والمخطوطة (ج) ص ٢٧٦ — ٢٧٩ . (٥) يذكر برودل أن زوجة البارودي من يوم أن
حبس عليه هجرن الوثيمين الفرائض وخفف العيش ولينه ، وصارت تنام على الأرض كما ينام وتلبس الخشن
من الثياب وتأكل مالا تسقيه النفس لتشارك زوجها حزنه وآلامه ومصابه . أنظر : برودل ص ٨٨٢ .
(٦) أنظر : برودل ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

فلن أن أغنى الشوق وتباريح الفرام التي غناها البارودى فى سنواته الثلاث الأولى بسرديب — وما أكثرها — كانت رسائل لزوجته بالقاهرة، فقد امتلأت بشحنات من العاطفة القوية وبمهود الوفاء وموائيق الإخلاص . ولعل البارودى توم أن « حلة التشهير » وجدت أذنا من زوجته ، والحمد دائما يحسم الأوهام ويزيد من ضخامة المواجه ، وظنها غضبت منه فكتب إليها :

يا غاضبين علينا هل إلى عِدَّةٍ بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غيبم ، فأظلم يومى بمد فرقتكم وساء صنعُ الليالى بعد إجمالى
قد كنتُ أحسبى منكم على ثقة حتى مُنيتُ بما لم يجز فى كالى
لما جن فى الحب ذنباً أستحق به عتياً ، ولكنها تحريفُ أقوال
ومن أطاع رُوَاةَ السوء نقره عن الحبيب سماعُ القيل والقال

الوحيد العانى ومواكب الأحزان :

وتأتى البارودى وصحبه أخيلو للقائمة السرية للتي ينظم للصريين حركاتها ضد الاحتلال وضد الدين ناصروه من عناصر الرجعية ، فتمود إليه ثقته فى الشعب ، ويراوده الأمل فى ثورة عاصفة ترده وصحبه إلى الوطن . ويدق البارودى طبول الاستنفار إلى للقائمة وحمل السلاح ، ويدعو الأمة إلى ثورة على توفيق وبطانة والاستعمار وعملاته ، ويث الحية الوطنية فى نفوس الصريين ليردوا الظلم والعدوان الذى يحتم على صدورهم . وتمتد الحية إليه وهو « الفارس الأسير » فيعلن أنه لا يخضع للقهر ولا يستكين لسطوة البطش حتى ولو كان عقيد الساق مشدود الوثاق ، وينذر بأن يوم للمركة لا بد مقبل ، وسوف يلعب فيه بالحقا ويحكم الطعان ليقطع الاستبداد والسبدين ، ويهتف للشعب من وراء الحيط :

أَتَى الدَّهْرُ إِلَّا أَنْ يَسُودَ وَضِيئُهُ وَتَمَلَّكَ أَعْنَاقَ الطَّالِبِ وَغَدُهُ
تَدَاعَتْ لِدِرْكَ النَّارِ فِينَا نِعَالُهُ وَنَامَتْ عَلَى طُولِ الْوَتِيرَةِ أَسَدُهُ
فَحَتَامَ تَسْرَى فِي دِيَارِ جَبْرِ مَحْنَةٍ يَضِيقُ بِهَا عَنْ صُحْبَةِ السَّيْفِ غَدُهُ
إِذَا الرُّهْمُ لَمْ يَدْفَعْ يَدَ الْجَوْرِ إِنْ سَطَتْ عَلَيْهِ ، فَلَا يَأْسَفُ إِذَا ضَاعَ تَجْدُهُ
وَمَنْ ذَلِكَ خَوْفُ الْمَوْتِ ، كَانَتْ حَيَاتُهُ أَضْرَّ عَلَيْهِ مِنْ حِمَامٍ يَزُودُهُ ^(١)
وَأَقْبَلَ دَاهِ رُؤْيَا الْعَيْنِ ظَلَالًا يُسِيْرُهُ ، وَيُتَمَلَّى فِي الْحَافِلِ حَمْدُهُ
عَفَا عَلَى الدُّنْيَا إِذَا الرُّهْمُ لَمْ يَعْشَرَ بِهَا بَطْلًا يَخْضِي الْحَقِيقَةَ شَدَّهُ ^(٢)
مِنْ الْعَارِ أَنْ يَرْضَى التَّقَى بِمَذَلَّةٍ وَفِي السَّيْفِ مَا يَكْفِي لِأَمْرِ يُعْدُهُ
وَإِنِ أَمْرٌ لَا أَسْتَطِيعُ لِمَوَلَةٍ وَإِنْ شَدَّ سَاقِي دُونَ مَسْمَايَ قَدَّهُ ^(٣)
وَلَا بَدْءَ مِنْ يَوْمٍ تَلَاَعَبُ بِالْقَنَا أَسْوَدُ الْوَغَى فِيهِ ، وَتَمَرَحُ جُرْدُهُ ^(٤)
تُدَبِّرُ أَحْكَامَ الطَّمَانِ كَهَوَلَةٍ وَتَمَلَّكَ تَصْرِيفَ الْأَعْنَةِ مُزْدُهُ
قُلُوبُ الرِّجَالِ السَّابِقَةِ أَكَلُهُ وَفِيضُ الدَّمَاءِ لِلْهَيْمَةِ وَرْدُهُ
أَحْلَى صَدْرُ النَّصْلِ فِيهِ سَرِيرَةٌ تُعَدُّ لِأَمْرِ لَا يُحَاوَلُ رَدُّهُ
فَلَمَّا حَيَاةٌ مِثْلُ مَا تَشْتَهِي الْمَلَا وَإِنَّمَا رَدَى يَنْفَى مِنَ الدَّاءِ وَقْدُهُ

ولكن انتظار الفارس للثورة يطول ، فقد اكتشفت حركات المقاومة السرية ،
وضربها المستمر وعلاؤه ضربة قاضية أخذت أنفاسها إلى حين ، فيناديهم البارودي
ويسألهم النصرة ويستعزم الوعد ويهتف :

(١) مؤثمة : يدهاه ويترل به .

(٢) الشد : العدو والراد هنا الملة في الحرب .

(٣) سير : سير من جلد يقيد به الأسير .

(٤) تلاعب : تلاعب .

فَيَا سَرَّةَ الْحَيِّ ! مَا بَالُ نُصْرَتِكُمْ ضَاقَتْ حَلَى ؟ وَأَنْتُمْ سَادَةٌ نَجَبُ
أُصْعَمُونِي وَكَانَتْ لِي بِكُمْ رِقَّةٌ مَتَى خَفَرْتُمْ زِمَامَ الْقَهْدِ يَاعَرَبُ ؟

وتمر الأعوام ثقيلة انحطت على الزعماء في النفي فخصيق صدورهم بالاغتراب ،
وينال المتألم الاستوائ منهم ففعلت أبدانهم وتهاجم الأمراض ، وتشغل الحياة
الأهل والصحاب فتقل الرسائل إليهم فيظنون أن النسيان قد جر ذبوله عليهم ،
ويتمثلون الأبدية في النفي فتلهع نفوسهم ، ويحتم عليهم غول الفراغ فتتأثر
ممنولياتهم ، وتدب الفاقة بينهم ويقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وتنتشر
الخصومة حتى يقع بينهم الشقاق ^(١) . ويعتزلهم البارودي ومنازلهم وهو يعلم
أنها محنة الأعصاب الشدودة أرهقتها الفاقة والفراغ ، ويسكن البارودي وحده
في منزل على ربة عالية بمنأى عن المتخاصمين فتزيد الوحدة من آلامه ويطول
به السهاد ، وتهجمه الذكريات ويتلفت حوله فلا يجد من يؤنس إلا خادمه
الأسود « كافورا » ، فيمل به طائف من الحسرة على نفسه يصورها في قوله :

خَلِيلٌ هَلْ طَالَ الدُّجَى ، أَمْ تَقَيَّدَتْ كَوَاكِبُهُ ، أَمْ ضَلَّ عَنْ نَهْجِهِ الْفَدَى ؟
أَبَاتُ حَزِينًا فِي سَرْدِيبِ سَاهِرًا طَوَالَ اللَّيَالِي ، وَالخَلِيلُونَ هُجِدُوا
إِذَا خَطَرَتْ مِنْ نَعْوِ حُلُوفِ نَسْمَةٍ نَزَتْ بَيْنَ قَلْبِي شُعْلَةٌ تَتَوَقَّدُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَعِيشَ بِنَرْبَةٍ يُمَلِّئُنِي فِيهَا خَوْنِدُمْ أَسْوَدًا

ويقضى البارودي أولى ليلاته في مستقره الجديد عليلا بدالج ما بلقاء من
لوعة وحده ، وتفتابه الآلام وكأنها أنياب حيات تنهشه ، ويدور بهيميه

(١) أنظر تقاسيل النزاع في البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٤-٢٣٩ .

فلا يجد من يخفف عنه أوصابه وأحزانه ، ثم يرى سيفه ملأنا وقد علاه الصدا في غمده
قهيج ذكرياته ويقول :

أدورُ بعيني لا أرى وجة صاحبٍ يرئعُ لصوتي ، أو يرقُّ لما أبدي
فبتُّ كأتى بين أنياب حيةٍ من الرقط ، أو في برئتني أسدٍ ورد^(١)
ولا صاحبٌ غيرُ الحسامِ منوطةٌ تحائله منى على عاتقٍ صليلٍ
أقولُ له والجفنُ بكسو نجاده دموعاً كمرنقش الجنان من العقد
لقد كنت لي عوناً على الدهر مرةً فالى أراك اليوم منيئاً الحد ؟

ويمضى البارودى فى مناجاة سيفه بكلمات تنضح مرارة وألماً وتفيض صورها
بيته على نفسه وقد كان القارس الذى يهز السيف فتهايه الأبطال ، وإذا
بالسيف كهام منظم الحد كفارسه . وتزين له ربة الشمر أن شفاه من عذابه
فى الدودة إلى الوطن وفى نظرة إلى « روضة للقياس » مفى الشباب ومرتع
الصبي ، وتتداعى الذكريات ويتسوج ألحان الصادق مع موجات العاطفة والذكرى ،
فينسى الأسى والألم ، ثم تطير به نفسه إلى الفخر بسجاياه وفروسيته وقريضة .
وكذلك الشمر الصادق يمر عن خلجات النفس فى نبضها بالانفعالات المختلفة ،
وكثيراً ما تختلط هذه الانفعالات حتى تبدو فى بعض الأحيان وكأنها متناقضة
أو متضاربة ، وهكذا النفس البشرية حين تموج فيها المواطن المختلفة .

ونعنى الألام وتزداد آلام التربة عند البارودى وتشعل الوحدة وتودها ،
وترثى ربة الشمر للوحيد العانى ، وتحشى عليه كتمان مابه من عذاب وألم فقصته

(١) الرقط جمع رقطاء : الحية السوداء بها قط أبيض ؛ والجفن : الخلب ؛ والأسد
الوردة البلى .

وتعزف له الألحان ليضئ ويصمد في غناؤه البركان الذى تنطوى عليه نفسه
فستريح ، وتضخير له فيما تضخير لحن « العزلة على قمة الجبل » فيرسمها لوحة من
أروع درره تنبض بالحركة والحياة وفيها يقول :

أيتُ منفرداً في رأس شاهقة مثل القطامي فوق الربأ العالي^(١)
إذا تلقى لم أبصر سوى صور في الذهن يرسمها نقاشُ آمالي
تهنو بيني وبين أحيانا ، ويلحنني بردُ الطلال يبرِّد منه أسمالي^(٢)
غنى السماء غيوم ذات أروقة وفي الفضاء سيول ذات أوشال^(٣)
كان قوس النعام التمر قطرة معقودة فوق طامى للواء سيال^(٤)
إذا الشعاع رآنى خلفها نشرت بدائماً ذات ألوان وأشكال
فلو ترائى وبردى بالندى لثق خللنى فرح طير بين أذغال^(٥)
غال الردى أبويه فهو منقطع في جوف غيتاء لاراع ولا وال^(٦)
لا يستطيع انطلاقاً من غيابه كأنما هو معقول بمقال
فذاك مثلى ، ولم أعظم ، وريثما فضله بموى حزين وإعوال
شوق ، ونأى ، وتنجيح ، ومعتبة يا للحمية من غدرى وإحالي
ثم تضخير له ربة الشعر لحن « ليلة الذكريات » فيفتيه في مطولة مطلعها :

هل من طبيب لواء الحب أوزاقي ؟ يشفى غليلاً أخاً حزين وإراق

(١) القطامي : الصقر ، الربأ : المكان الذى يقف فيه من يرب.

(٢) الطلال : المطر ، والبردة كساء أسود من صوف ، أسمال : الثوب الخشن البال.

(٣) الأوشال جمع وشل : للواء القليل يتجلب من جبل.

(٤) النعام التمر : الأبيض . (٥) لثق : مبتل .

(٦) الجوف : الوادى ، والغيتاء : الحضراء .

يذكر فيها الحزن الذى يراه والأشواق التى رعت كبده ، ونجوم الليل
التي يرعاها وكأنما شدت إليها عيونه ، وتطوف به ذكريات الوطن فيدعو الله
ألا تمس باقية ، ويهفو إلى نسمة من جو مصر العبق حتى قومه ومنبت آدابه
وأفراقه ، ويحتج أن يعود إليها ولوعاش بها فقيراً معلماً ، ويصور الهممة إليها في قوله :

أصبوا إليها على بُندر ، ويمجنى أنى أعيش بها في ثوبٍ إملقٍ

ويقيل عام ١٨٨٥ وتزحف معه على البارودى مواكب الأحزان فيتخطف
للوت زوجته بالقاهرة وتمتصر المنون شبابها ولما تتجاوز السابعة والثلاثين ،
وكان قد أضرها الحزن وهوى كبدها الأسى وقت مرارتها الألم منذ فراق
الزوج الحبيب ^(١) ، فلقيت بها شهيدة الحب والوفاء ، ولم تسكن قد أخبرته في
رسائلها بأمر هذا للرض حتى لا تضيف إلى عذاب الغربة عذاب الفجيمة والتألم
من أجلها ^(٢) . ويبدأ البارودى الناعى بالخير فينزل عليه نزول الصاعقة ويكاد
يودى به ، وتذكره ربة الشمر بقيثارتها تنشد له « نشيد الرثاء » حتى لا يجمع
نفسه على أثرها وفيه يصف نفسه حين واقاه الخير فيقول :

وَرَدَ الْبَرِيدُ بِشِيرِ مَا أَتَيْتُهُ تَمِيسَ الْبَرِيدُ ، وَشَاءَ وَجْهُ الْخَادِي
فَسَقَطَتْ مَفْشِيًّا عَلَى كَأَنَّمَا نَهَشَتْ صِمِيمَ الْقَلْبِ حَيَّةٌ وَادِي
وَيَلْمُهُ رُزْؤًا أَطْلَزَ نَفْسِي بِالْقَلْبِ شَوْلَةَ مَارِجٍ وَقَادٍ ^(٣)
قَدْ أَظْلَمَتْ مِنْهُ الْعُيُونُ ، كَأَنَّمَا كَحَلَ الْبُكَاءُ جُفُونَهَا بِقَفَادٍ

(١) نقول مذكرات الأسرة الخاصة إن عذيلة زوجة البارودى ولدت عام ١٨٤٨ ومرضت بهريان
أو المرض الأسفر وبالكيد والراوة بعد هي زوجها حزناً عليه. (٢) مذكرات الأسرة .
(٣) المارج : النار لا دخان لها.

ويطعن البارودي الأسي والولة لفراق رفيقة حياته ، ويسكاد الحزن على قدما
يقضى عليه ويسحقه ويوهن عزمه ويحطم عوده كما يقول :

أَبْلَنْتِي الْحَسْرَاتُ حَتَّى لَمْ يَكُنْ جِسْمِي يُلُوحُ لِأَعْيُنِ الْعُودِ
أَسْتَفْجِدُ الزُّفَرَاتِ وَهِيَ لَوَافِحٌ وَأُسْفُهُ الدَّهْرَاتِ وَهِيَ بَوَادِي
لَا لَوْعَتِي تَدْعُ الْقُودَ ، وَلَا يَدِي ثَقُوى عَلَى رَدِّ الْحَبِيبِ الْفَادَى

وتتمثل له زوجته فيحدث إليها وكأنه يناجيها أو يناغيها ، ثم
يهاجم من تصورهما في جوف القبر المغم ، ويتمنى لو أن هناك فداء فيفديها بنفسه فيقول :

أَسْأَلِلَةَ الْقَبْرِينِ أَىْ فِجِمْهٌ حَلَّتْ لِفَقْدِكِ بَيْنَ هَذَا الْفَادَى ؟
أَعَزُّ عَلَى بَأْسِ أَرَاكِ رَهِيْمَةً فِي جَوْفِ أَغْبَرِ قَاتِمِ الْأَسْدَادِ
أَوْ أَنْ تَبَيِّنِي عَنْ قَرَارَةِ مَنْزِلِ كُنْتَ الْغِيَاةَ لَهُ بِكُلِّ سَوَادِ
لَوْ كَانَ هَذَا الدَّهْرُ يَقْبَلُ فِدَايَةَ بِالنَّفْسِ عَنْكَ ؛ لَكُنْتُ أَوَّلَ فَادَى

ويستب البارودي على الدهر ويستنكر منه فجيئته في حليته وقد كانت هذه
على الحياة ، ويفكر في بنائه الغربرات ثم يسائل الدهر إن كان مناضبا له ومحاربا ،
أفلا رق لصغيراته وقد تركن محترقات القلوب باكيات العيون وحيدات لا يرعاهن
أحد فيقول :

يَادَهُرُ فِيمَ جَفَعْتَنِي بِحُلِيْمَةٍ ؟ كَانَتْ خُلَاصَةً عُدَّتِي وَعَتَادِي
إِنْ كُنْتُ لَمْ تَرْسَمْ صَفَائِي لِبُعْدِهَا أَفَلَا رَحِمْتَ مِنَ الْأَسَى أَوْلَادِي ؟
أَفَرَدْتَهُنَّ ، فَلَمْ يَنْمَنَّ تَوَجُّعًا قَرَحَى الْعِيُونَ رَوَاجِفَ الْأَكْبَادِ
أَلْقَيْنَ دُرَّ عَقُودِهِنَّ ، وَصُنْنَ مِنْ دُرِّ الدَّمُوعِ قَلَائِدَ الْأَجْيَادِ

يَبْكِينَ مِنْ وَلَهٍ فِرَاقَ حَفِيَّةٍ كَانَتْ لَهَا كَثِيرَةٌ الْإِسْمَادِ
فَنَحْدُودُهُنَّ مِنَ الدَّمْعِ نَدِيَّةٌ وَقُلُوبُهُنَّ مِنَ الْمَمُومِ صَوَادِي

ومطولة البارودي التي يبكي فيها زوجته الحبيبة ويندبها على البعد من نادر الشعر العربي ، قليلا مارثى الشعراء العرب زوجاتهم ، ذلك لأن رثاء النساء لم يكن مألوفا في البيئة العربية . ورثاء البارودي لزوجته من الشعر الذي يسميه النرييون بشعر « الملائكة المائلية الباطنة » ، وقد استطاع البارودي أن يصور الحزن الحقيقي على الحبيبة الفقيدة ، حتى ليكاد للرء يحس لوعة الشاعر وقد وهن عزمه في عباراته ، ويشعر بحمرات الحزن في كلماته ، ويرى الدموع مدرارا على وسادته . ولم ينس البارودي في موقف البكاء والرثاء لزوجته أن يرضى كرامتها وهي للمرأة والحبيبة — فيؤكد حبه ووفاء لها وحدها في قوله :

لَا تَحْسِبْنِي مَاتُ عَنْكَ مَعَ الْهَوَى هَيْهَاتَ ، مَا تَرَكَ الْوَفَاءَ بِهَادِي^(١)

والحزن في القصيدة حزن عميق جدير بأن يعد نموذجا في الشعر العربي للماطفة الصادقة بين الزوج وزوجه ، ومثلا للملائكة القسوية التي مزجت بين روحيتها وحياتيتها ، حتى لتخال كلا منهما شطر الآخر وجزءا منه لا يتشبه الحياة بدونه ، ويكاد يقضى أحدهما إن قضى الآخر ، كما يقول البارودي مناجيا ومؤملا لقيائها يوم القيامة :

هَيْهَاتَ بِمَدِّكَ أَنْ تَقَرَّ جَوَانِحِي أَسْفَا بُعْدِكَ ، أَوْ بَابِنَ مِهَادِي
وَلَسَى عَلَيْكَ مُصَاحِبٌ لِسِيرَتِي وَالدَّمْعُ فِيكَ مُلَازِمٌ لَوِيسَادِي
فَإِذَا انْتَبَهْتَ فَأَنْتِ أَوْلُ ذِكْرَتِي وَإِذَا أَوَيْتِ فَأَنْتِ آخِرُ زَادِي

(١) الماد : جسم عادة أى ليس من عادته ولا من طباعه عدم الوفاء .

أَمْسَيْتُ بِمَدَكِ عَيْزَةٍ لَدَوِي الْأَبْسَى فِي يَوْمٍ كُلِّ مُصِيبَةٍ وَحِدَادٍ
مَتَخَشُّمًا أَمْشِي الْقُرَاءَ ، كَأَنِّي أَخْشَى الْفُجَاءَةَ مِنْ صِيَالِ أَعَادِي ^(١)
مَتَّيْنِ حَزَنٍ بَاطِنٍ أَكَلِ الْحَشَا بَلْهَبِ سَوْرَتِهِ وَسَقَمِ بَادِي
فَدَكِدْتُ أَقْضَى حَسْرَةً لَوْلَمْ أَكُنْ مَتَوَقِّمًا لِقِيَاكَ يَوْمَ مَعَادِي

وتمصف النازلة بالبارودي فتمرضه مرضاً شديداً ويظل طريق الفراش شهرين
أعْيى فيها نطس الأطباء ، فلم يكن يستجيب جسمه لتطبيب وروحه يلقيها
الأسى ويظلمها الألم ، « ولما أعيته الدلة ، وأخطأته التلة ، دعاه الطبيب إلى
ترك الحاضرة ، والتوقل في بعض المضارب الناضرة ^(٢) » ، ويخرج البارودي
بعد أن عادت إليه بعض عافيته ساعماً في أنحاء الجزيرة ، ينتقل بين جبالها ووديانها
ويزور « كاندى » عاصمتها القديمة وغيرها من البلاد ، فيرى « أيسكات مفتحة ،
وأطيأراً مرنة ، ودوحات تكاد تمس السماء ، وتعبرف عن أدراجها الماء ^(٣) » ،
والنسيم يتدرج ، والبير يتأرجح ، والطيرين رنيم وصنم ، والريح بين شقيق
وزفير ^(٤) . ولكنه لا يجد في التغيير راحة لنفسه ، ولا في السياحة سلوانا
لمصابه ، بل رأى في كل شيء ألماً يذكره بآلامه ، وحزنًا يشاطره حمراته كما
يقول : « بيد أني لم أجد في تلك المناظر ، مسلاة للقلب والمناظر ، ولا في
أغاريد البلايل ، ما يشفي لوعة البلايل ^(٥) » ، ولا ألغنى ذات الطوق ، عما أجده
من التوق ، ولا أُنسنى نسمات الأصائل ، ما أقطع من حرمان الوصائل ، بل حسبت
قطرات الزن ، دموا أسالتها زفرات الحزن ، وتوهمت أن كل نؤارة ، نحة من

(١) أمشى القراء : أمشى مستغنياً . (٢) التوقل : الصمود والسعي المرتفعات .

(٣) الماء : الحباب الكثيف .

(٤) من كتاب « قيد الأوابد » ، انظر : مقدمة الديوان « الجلام » ص ٤٧ .

(٥) البلايل : آلام النفس وعذاباتها .

الرواء سواره^(١)، وخيل إلى أن حرة الجلتار، جرة ساطمة من الفار... ورأيت من الجداول أسود^(٢) تنهش، ومن الأزهار عيونا تبش^(٣)».

ولا يترك القدر البارودي يغتو من صدمة وفاة زوجته حتى يلاحقه بصلمة أخرى، فينشأ اللوت أظفاره في شباب ابنته «ستيرة»^(٤)، ويأتى نعيمها إلى الأب الميكوب في اللقي، فلا يجد في قلبه موحنا لمزيد من الآلام، ولا في مقاتيه فضلة من دموع، ويستجد بشعره يسكب فيه بته وحزنه ويندب به بنته فيمصاه الفريض، ولا تجود عليه ربة الشعر بغير بيتين اثنين فيقول:

فِرْعَتْ إلى المموع فلم تُجِبْنِي وَقَعْدُ الدَّمْعِ عِنْدَ الْحَزْنِ دَاهٍ
وَمَا قُطِرَتْ فِي جَزَعٍ، وَلَسَكِنْ إِذَا غَلَبَ الْأُسَى ذَهَبَ الْبَكَاءُ

ويدرك يعقوب سامى أن رئيسه السابق، وزميله في الاغتراب، وشريك النسكة يكاد يودى به الأسى، ويوشك الحزن أن يقضى عليه؛ فيحاول — في غفلة من الزمن وفي هدنة من مواكب الأحران — أن يأسو جراحه ويخفف من نكباته وآلامه، فيزوجه بابنته «أمينة» أواخر عام ١٨٨٥^(٥).

وتتعلل الزوجة الصغيرة^(٦) مسئوليتها بشجاعة، فتبذل من ذات نفسها ومن قلبها الكثير للزوج الماني الكسير، فتمنحه الرفقة اللؤنة والحب الصادق، وتمطيه الأهل والولد، وتمكن من أن تنفذ إلى ظلمة نفسه فتضيء بعض جوانبها وتخفف عنه بعض ماتحمل، ولكنها لم تستطع أن تמיד إليه باسماقه وقد ضاعت إلى الأبد، ولم تتمكن من أن ترد إليه نفسه وقد ذهبت حشرات.

(١) النحلة السواره: شديدة المودة سريعة الوثوب.

(٢) أسود: جم أسود وهو الثمان. (٣) تبش: تنبأ بكاء. المصدر السابق ص ٤٩.

(٤) مطومات الأسرة. ستيرة: صفيقة. (٥) مذكرات الأسرة الخامسة.

(٦) تزوجت به وعمرها ١٩ سنة.

وسرياً ما تتجدد على البارودي مواكب الأحرار ، وتقتضى فترة المدة التي عقدتها معه الأيام ، قيامه البريد تبعاً من مصر يحمل إليه الناعي موت الصاحب والأخلاء . وتكرر صولة الأحداث على أهله وأترابه فتسكنهم القبور وموئاه بعيد . وتوفاه الأنباء عام ١٨٧٨ بنى صديقه أحمد فارس الشدياق^(١) اللغوي الشاعر ، خيوبته تأيينا حاراً ويرثيه بقصيدة حزينة معلما :

مَتَى يَشْتَقِي هَذَا النَّوَادُ لِلْفَجِّعِ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ رَاحِلٌ لَيْسَ يَرْجِعُ

وفي عام ١٨٨٩ ينتال الردي صديقه الكاتب الشاعر « عبد الله فكري » خلدن شبابه ، ورفيق ندواته الأدبية ، ووزير المعارف في وزارة الثورة . ثم يقف على آثاره في نفس العام بالمعالم الأديب الشيخ « حسين الرصني » ، أستاذ البارودي ومفتيه^(٢) ومرشده إلى الطريقة للتلى في تنمية الذوق الأدبي وللوهبة الشعرية ، وقرأ معه الكثير من دواوين مشاهير الشعراء ، وهداه إلى حفظ الكثير منها واستنبات الجليل من معانيها ونقد شريفها من خبئها ووقفه على صوابها وخطئها^(٣) ، ذاع شعره في كتابه « الوسيلة الأدبية » بين البلاد العربية ولما رزل البارودي في شبابه ، وأشاد به فيها فجعله بين شعراء عصره نسيج وحده ذا طبع بالغ ثقافته وذهن متناه ذكاؤه^(٤) ، ووضع في مصاف فنون الشعراء الأمراء كأي فراس والشريف الرضي والطبرائي ، ونه إلى « ما تميز به شعره وأضرابه من الشعراء الأمراء » من آثار عزة النفس ، ومن براعة ومتانة وتغير للألفاظ برعاية ماهر أوفق بالأدب ، أو أليق بالمدح ، أو أوقع في الزجر ، أو أجاب للمطف والرضى ، أو أدخل في

(١) عالم أديب ولد ببلنسان وتأدب في مصر وتقل بين الفرق والفرب واعتنق الدين الإسلامي بتونس ومات بالقسطنطينية . وكان يصدر جريدة « الجواب » وله مؤلفات لغوية وأدبية كثيرة .

(٢) أنظر: القصيدة التي كتبها إليه من حرب الروسية ، الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٥٠١ .

(٣) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٨٤ . (٤) المصدر السابق .

النصيحة، أو أنسب بالفرل، أو أهيح للعاس^(١) . ومحزن البارودي على صدقيه
حق يحضه الحزن ، ويكيها حتى تتفرح مقتلها ، ويكي معها عمره الضائع
ووطنه المحتل . وموت الأترب والأخذان يدخل في روع المرء قرب النهاية ، وينظر
البارودي إلى نفسه ليرى ما فعلت به صولة الحوادث ، فيجد أنها تخطفت أهله
وأحبائه ، وأصابته بمحنة الحزن الدائم والاعتراب للضنى ، ثم أردفت كل ذلك
بالشيب والكبر ، فلهذا منه الجسد ، ونالت من سممه وبصره وقوته الأيام ، ولم تدع
منه غير « أشلاء همة في ثياب » ، فيرى نفسه وهو يثى صاحبيه ، ويرسم
صورة هذا الطور من عمره بريشة فنان مبدع خلق من الألفاظ ألوانا لريشته وأحال
أحزانه ظلالة لصورته فيقول :

أَخْلَقَ الشَّيْبُ جِدَّتِي ، وَكَأَنِّي	خِلْمَةٌ مِنْ رَثَّةِ الْجِلَابِ
وَلَوْ شِئْتُ حَايِيَّ عَلَى عَيْنِي	فِي حَتَّى أَطْلُ كَالْهُدَابِ ^(٢)
لَا أَرَى الشَّيْءَ حِينَ يَشْتَعِ إِلَّا	كَغَيَالٍ كَأَنِّي فِي تَحَابِ
وَإِذَا مَا دُعِيتُ حِرْتُ ، كَأَنِّي	أَسْمَعُ الصَّوْتِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ
كَلِمَا رَمْتُ نَهْضَةً أَقْعَدْتَنِي	وَنَيْةً لَا تُفْلِحُهَا أَعْصَابِي ^(٣)
لَمْ تَدَعْ صَوْتَةَ الْحَوَادِثِ مَنِي	غَيْرَ أَشْلَاءِ هِمَّةٍ فِي ثِيَابِ
فَجَعَلَنِي بِالْإِدْيِ وَأَفْلِي	ثُمَّ انْشَعَتْ تَكَرُّرُ فِي أَسْرَابِي
كُلُّ يَوْمٍ يَنْزِلُ عَنِّي حَيْبٌ	يَا قَلْبِي مِنْ فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ
أَيْنَ مَنِي حَسِينٌ ؟ بَلْ أَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ	سَهْ ؟ رَبُّ الْكَمَالِ وَالْآدَابِ
مَضِيًّا غَيْرَ ذِكْرِي ، وَبَقَاءِ اللَّهِ	كُرِّ غُفْرٍ يَدُومُ لِلْأَعْقَابِ

(١) المصدر السابق ص ٥٠٢ . (٢) المذهب مفرد أهداب : خل الثوب .

(٣) الونى : النصف ، والروية اسم مرة منه ؛ وتفلها : تحتلها .

في كاندي بسرنديب

بعد ثمانى سنوات في المتن

ونهدّ اللحن من البارودى قوته ، ويدب الضيف والوهن في جسده ،
وتمتد ظله حظه إلى عينيه فتصاب قربتيه برشح يأخذ نورهما شيئا فشيئا ، ويقرر
الأطباء عدم ملامة جو « كولومبو » لصحته ، فيزج هو وأمرته الجديدة إلى
« كاندي » عام ١٨٩٠^(١) وقد بانغ من العمر إحدى وخمسين سنة . ومناخ كاندي
قريب من مناخ مصر زمن الربيع ، وهى مدينة مقامة على وادى ثلاث شعب
بين ثلاثة^(٢) جبال ، وتماز بحمال الطبيعة ، وفى منتصفها بحيرة عظيمة تنصب
فيها وفود الماء معجلة ، وعلى حافتها أشجار مختلفة الأنواع والألوان ،
وفى المدينة حديقة للنباتات تسمى « حديقة سرادنيا » على نهر سرادنيا الكبير^(٣) .
وتصف كريمتا البارودى^(٤) دارهما فى كاندي فيقولان : « اختار والدنا منزلا
مفردا على ربوة عالية يدور الصاعد إليه حول المرتفع حتى يصل إلى أسواره ، وكانت
تحيط به حديقة ذات أشجار متعة وأزهار جميلة ، أما محراب الباشا وهو حجرة
مكتبة التى قضى فيها أكثر وقته فكانت على شمال الداخل إلى الدار ، وتتصل بالشرقة
للأكبرى التى تحيط بالنزل ، وكانت منطقة حراما لا يدخلها سواه . ويقف
على أول الطريق إلى الدار جندي بريطانى شاكى السلاح ، وكأنه كان هناك

(١) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٥ ، وكاندي طى بعد ٧٣ ميلا من كولومبو .

(٢) بذكرات عراقى ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) المصدر السابق . أطلق البارودى على المدينة اسم « روضة بردينيا » .

(٤) فاطمة ومشيرة وهما على قيد الحياة . من حديث لهما معى مارس ١٩٦٦ .

لينغمس على الباشا حياته ويذكره طوال الوقت بأنه غريب في هذه الديار وأسير الذين يحتلون بلاده .

ويسترد البارودي بعض عافيته في كاندى ، وتستجيب روحه لجمال الطبيعة فيها حتى ليخيل إليه أنه تسلى عما يمانيه من عذاب كما يقول : « فلما حلت بواديا ، وسرت في بواديا ، تلاهيت عما أجده من الحرقة ، وأتجرعه من مرارة الفرقه ^(١) » . ويصف البارودي شعوره الخنطاط عليه فيها فيقول :

رعياً لها من بلدةٍ لَوْ أَنَّ لِي فيها أَخاً يرعى ذِمَّامَ إِخْوَانِي
ضنَّتُ بها نَفْسِي كما سَمَحَتْ بها فَانْظُرْ لِقُرْبِ ضَخَائِي وَسَخَائِي
ومن المَعْجَابِ أَنِّي مِنْ غُرْبَى ونَمِيمِهَا في شِدَّةٍ وَرَخَاءٍ ^(٢)

ويطمئن البارودي للقام في كاندى فيجوبها يستمتع بحملها الأخاذ وطبيعتها الساحرة ثم يصف ما يراه ثرا وشعرا ، ويصور بحيرة المدينة بنثره القنى فيقول :

« وأدأني للسير إلى ربوة ، تدعو الحليم إلى الصبوة . فأشرأبت بي إلى عين ^(٣) ، أشد صفاء من العين ، قد انفجرت بلسال الصباح ، أو كلسان المصباح ^(٤) ، في بركة تزدى بالهالة عند استوائها ^(٥) ، وتزهو على الوذيلة بحسن روائها ^(٦) ، قد افترت عن ثمر حصبتها ، وتكسرت في مهب أصبائها ^(٧) ، وأحاطت بها أفنان الشجر ، إحاطة الأهداب بالبصر ، وانبعثت منها جداول

(١) من نبتة ذكرت في مقدمة الديوان « الجارم » ص ٤٦ من كتاب « قيد الأوابد » .

(٢) هذه الأبيات لم تذكر في الديوان وإنما ذكرت في « قيد الأوابد » .

(٣) سيل الماء . (٤) السنان : الضوء على الاستعارة .

(٥) الهالة : حارة القمر . (٦) الوذيلة : المرأة .

(٧) الأصباء : جمع بياض وريح شرقية لينة .

كذوب اللجين ، تلوى في جريتها تلوى الأين^(١) ... فهي تجري بين غيضة ملتفة ، وأشجار مصطفة ، إذا لا عيتها أنفاس الشمال^(٢) ، مالت إلى اليمين والشمال ، وإن عبت بها ربح الجنوب ، كادت تمس الأرض بالجنوب^(٣) .
ويصف البارودي حديقته النباتات في قصيدتين : ينظم الأولى بمد أن قضى بالحديقة مع رفاق كرام وصحبة مؤنة يوماً وليلة ، فتعود إليه ذكريات العسا وينسى همومه مؤقتاً ، ويسأله الخلان « وصف حسن يومهم » فينتقل البارودي بصور الحديقة تصويراً حسياً منظوراً في لوحة بديمة تسكاد تسمع في جوانبها شدة القمرى ورنه الطير ، وترى طيور الماء فيها جماعات كركب عجال ضمن طريق :

إذا أبصرت زُرْقَ الوارد رفرفت عليها : فطاف فوقها وغريق^(٤)
ويدعون الثانية بقوله « وقال يصف روضة بردينيا^(٥) في جزيرة سرنديب وهي إحدى جنان الدنيا » ويقول فيها^(٦) :

ومصرح لسوام التين ليس له في عالم الظن تقدير ولا شبه
باكرته سحرة ، والشمس ناعسة في خدرها ، وحمام الأيك منقبة^(٧)
وللفنائم بين الأفق منحب وللفنائم نحو الروض متجة
والجو في حلة دكناء مازجتها خيط من الفجر يبدو ثم يشقبه .

(١) الأين : الحية . (٢) الشمال : الريح الشمالية . (٣) الجنوب : جمع جنب .

(٤) القصيدة في الديوان — الجارم — ج ٢ ص ٣٢٨ — ٣٣٣

(٥) مساحتها ٦٠٠ فدان أنظر تفصيلات عنها في مذكرات عرابي ج ٢ ص ١٨١ .

(٦) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة ١ بيتاً المخطوطة

(س) ص ٢٩٦ — ٢٩٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٧) السحرة : الحر الأعلى :

خالدور منقبض ، والظل منبسط ، والطيْر منشَح ، والجوْ مُدْلَه^(١)
 مناظرٌ لو رأى « بهزاد » صورَها لا عتاده من تَمَادِي الخَيْرَةِ الْبَلَه^(٢)
 كأنما الدَّوْحُ قَصْرٌ والحامُ به سِرْبٌ من التَّيْدِ بِالْأَخْطَانِ تَبْتَدُه^(٣)
 طورا تَفْتِي ، وأحيانا^(٤) تَفُوح ، فَمَا ذَاكَ الْفِتَاءَ وَهَذَا النَّوْحُ وَالْوَلَه^(٥)
 تَ سَاحَتَهَا فِي فَتْيَةِ الْفُؤَا صدقَ الوداد فلم تَعْرَضْ لَهُمْ شُبُه
 موفرون كرامَ لا يَخْفُ بِهِمْ طيشٌ ، ولم يَجِرْ فِي أَخْلَاقِهِمْ سَفَه

لم يفترحين البارودي إلى الوطن لحظة طوال أعوام النفي ، ولم تحف وطأة
 آلامه يوما من أيام حنة الاغتراب ، ولكننا نلحظ بعد انتقاله إلى « كاندی »
 تطورا في مننوياته ، وتغيرا في مواجهته النفسية للأمور ، فقد بدأ يتطامن
 للدهر ويسلم لصولة الأحداث كأنجده في قوله :

طَالَ شَوْقِي إِلَى الدِّيَارِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ مِنْ مَعْرَمَنْ أَقَامَ بِكَانْدِي ؟
 لَوْ سَوَى الدَّهْرِ رَامَ غَيْبِي لِأَصْحَرَ تَ مُشِيْعًا بِالنَّصْلِ فَوْقَ سَمْنَدِي^(٦)
 لَسْتُ أَقْوَى عَلَى الزَّمَانِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَقْلُ الْعِيدَا بِقُوَّةِ زَفْنَدِي

ويظهر ذلك أكثر ما يظهر بعد أن فشلت الوساطة التي قام بها « سير ولیم
 جريجوري » كاتم أسرار ملكة بريطانيا ، وصديق الزعماء منذ سنوات لتنورة ،
 وحاكم سيلان السابق ، وكان قد زارهم في سيلان^(٧) ورأى ماقلته الثرية والفاخ

(١) اللعة : التصغير التمعش . (٢) بهزاد : كمال الدين أستاذ (١٤٥٠ -
 ١٥٣٧) ولد في هراء وهو أشهر مصوري الفرس وخطاطيهم وقنايهم .
 (٣) تبتده : ترتجل . (٤) في المخطوطة (ج) وأحيان . (٥) السند : الفرس (فارسية) .
 (٦) عام ١٨٩١ ، وله أملاك بسلان أنظر : البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٧ .

الاستوائى بأصدقائه القدامى ، غاول أن يساعدهم بتفوزه ، ويسعى فى عودتهم إلى الوطن أو قتلهم إلى قبرص «لواقعة هوائها لهواء مصر مراعاة لصحتهم»^(١) بعد أن قرر الأطباء أن منح سرديب لا يناسبهم . ولكن الحكومة المصرية وعلى أريكتها «توفيق» و«رأس وزارتها» «رياض» ، خشيت على نفسها إن عاد الزعماء أن تعود للشعب بقلته ، ويشور على الظلم والاستعمار من جديد ، وهى تود أن يظل «العلاق» فى ركوده ونومته مستقلا لجلاديه من قبل الاحتلال .

وكتب رياض إلى الحكومة البريطانية : «إن الحكومة المصرية لا تقبل فى الحال ولا فى المستقبل عودة للتفويض ما دام الخلدو الحال موجودا على الأريكة المصرية ، لأن عودتهم تسبب الضرر والاختلال فى إدارة الحكومة والارتباك والفساد بين الشعب»^(٢) .

وذهب رفض الحكومة المصرية عودة الزعماء ببقية الأمل الذى ظل كشماع الضوء ينير ظلمة منقام ، وأصبحوا فى ظلام مطبق من اليأس والمذاب . ويقول عرابى حين عرف فشل الوساطة : «فصبرنا على النفس وفى الخلق شجى ، وفى الدين قذى» : أما البارودى فيتلقى الخبير فى صبر ظاهر وجلد مصطنع ، ثم يجأر إلى قيثاره شعره ينشد لها آلامه وبأسه وينوح لها قائلا :

ويلاء من حاجة فى النفس هام بها قلبي ، وقصر عن إدراكها باعى
أسمى لها وهى منى غير دانية وكيف يبلغ شأوا الكوكب الساعى ؟

(١) مذكرات عرابى ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٨ ، أنظر أيضاً مذكرات عرابى ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

ويشتد به الشوق في مواجهة اليأس حتى يصبح مناه في جرعة من ماء الليل
يل بها صداه ، وضجة فوق برد الرمل بالقاع ، ونسمة من الوطن يملأ بها صدره .
وتعمل إليه ريا الأزمير وشميم الخلد ، ثم يسائل نفسه : أفضى الأمر فلا
عودة إلى الوطن ولا اجتماع بأهل الود والصحاب ؟

وتتداعى على البارودي الذكريات ، فيذكر أيامه الخاليات وقد كان منها
في حلميه ممعنا بين غلماته وأتباعه ، ويذكر ندواته الأدبية والشعراء يقرون له
فيها بالإمامه ، ثم يقارن بين ذلك كله وبين حاضره فيقول :

قال يوم أصبحتُ لاسمى بذي صردٍ إذا رميتُ ، ولا سيفي بقطاعٍ^(١)
أيتُ في فنة قنوايه قد بلغت هَامَ السَّماكِ ، وفاتتهُ بأبواعِ
أظُلُّ فيها غربَ الدار مهتَمًّا تأتي الضَّامَجِ من همٍّ وأوجاعِ
يظنُّني من يراني ضاحكًا جدًّا أني خُلِّي ، وهَمِّي بين أضلاحي
ولا ، وَرَبِّكَ ما وجدني بمندرسٍ على البِعادِ ولا صَبْرِي بمطواعِ
أَكفُّ غربَ دموعي وهيَّ جاريةً خوفَ الرقيبِ وقايَ جدِّ مُلتاعِ

ويذهب اليأس ، بما بقي من عافية البارودي ويضعف من معنوياته فيحاول
أن يسبح على نفسه الرضا والطمأنينة في راحة ضميره ، فيمضي يفتش في تاريخه
وأعماله فلا يجد فيها ما يطاق ضميره أو يزري به ، فيصور ذلك في قوله :

أصبحت لا أستطيع الثوبَ أسحبهُ وقد أكون وضائي الدرعِ سريالي

ولا تكادُ بدى تجرى شياً قلبي وكان طوعَ بناني كلُّ عَالٍ^(١)
فإن يكن جفَّ عودي بعدَ نَصْرته فالهَرُ مصدرُ إدبارٍ وإقبالٍ
عَلَامٌ أَجْزَعُ. والألَامُ تشهُدُ لى بصدق ما كان من وسمي وإغفالي
راجعتُ فهرسَ آثارى فما لَحِتَ بصيرتى فيه ما يُزرى بأعمالي

ويشغل البارودي نفسه بتعليم اللغة الإنجليزية حتى « يبرع فيها قراءة وكتابة ، ويترجم منها جملة موضوعات إلى اللغة العربية ، ويعلم بعض المسلمين من أهل سرنديب اللغة العربية قراءة وكتابة ليعرفوا لغة دينهم الخفيف . ويقرأ لهم الكتب الدينية ليتفقههم ويعصرهم فيه ، ويؤم المسلمين في صلاة الجمعة ويعتلى المنابر في مساجد المدينة ^(٢) . ويعطى لأولاده وبناته الجزء الأكبر من اهتمامه وقد رزق في سرنديب بقرية ^(٣) ، وقاطنة ^(٤) ، وزينب ^(٥) ، ومشيرة ^(٦) ومحمد أشرف ^(٧) وإبراهيم كمال ^(٨) . واستقدم الفتيات ^(٩) مدرسة كان أبوها قسيساً أنجليزياً في كنيسة المدينة ، فعلمتهم اللغة الإنجليزية ، ودربت الفتيات على التطريز والحركات التوقيفية واللوسيقى ، ولم يسجل البارودي أولاده في سجل مواليد سيلان المحتلة لكيلا يعدوا من الرعايا البريطانيين .

تيار الزهد في حياة البارودي :

ونلاحظ تطوراً آخر في حياة البارودي النفسية بعد انتقاله إلى كاندى ، ذلك

-
- (١) الشيا : الطرف ؛ العسال : الزعم المتهر .
(٢) توفيت في أغسطس سنة ١٩٣٩ .
(٣) توفيت في يناير ١٩٦٥ .
(٤) توفيت في يناير سنة ١٥٩ .
(٥) توفيت في مارس ١٩٣٣ .
(٦) توفيت في عام ١٨٩٩ .
(٧) كان الأولاد المذكور سلفاً حين عاد البارودي إلى مصر في عام ١٨٩٩ .
(٨) م — ٢٠ — (البارودي)

ن عاطفته الدينية أخذت تقوى وتنمو ، فخطب في الساجد أيام الجمع ، ووعظ الناس فيها ، وقرأ لهم الكتب الدينية ، وزهد في متاع الدنيا ، وأتجه إلى ربه يطلب وجهه ويلوذ بكفنه وحاه ، عسى أن يرفع عنه الضر والحن التي تكاثرت عاياه ، ويخفف الخطوب التي أناخت بكلكها على حياته فيقول :

إِلَّامَ يَهْفُو بِحِلْمِكَ الطَّرَبُ ؟ أَيْدَ خَمِينٍ فِي الصَّبَا أَرْبُ ؟
هِيَهَاتَ ، وَلَى الشَّبَابُ ، وَاقْتَرَبْتُ سَاعَةً وَرَدِي ، دَنَابَهَا التَّرَبُّ (١)
فَلَيْسَ دُونَ الْعِيَامِ مُبْتَعِدٌ وَلَيْسَ نَحْوَ الْحَيَاةِ مُقْتَرَبٌ
كُلُّ أَمْرٍ سَائِرٌ لِمَنْزِلَةٍ لَيْسَ لَهُ عَنْ فِتْنَانِهَا هَرْبٌ

وتُظهر القصيدة تسلط فكرة اللوت على البارودي ، ويخرج من هذا التفكير بفلسفة الزهد التي تجعل العاقل من يكف نفسه عن اللهو ودواعيه ، ويخلص روحه لربه ويتوب إليه قبل التذمة ، ويمتاد الخير ويجود بما حوت يداه .

ويستغرقه البحث في تعاقب الزمان وفي اللوت وموقف الإنسان منها ، ويبعث في الذين خلوا من قبل وكيف حسرتهم بد اللنون في قصيدته التي يبدوها بقوله :

أَيُّ شَيْءٍ يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ وَالْمَتَايَا خَصِيْمَةُ الْحَيَوَانِ
قَدْ بَلَوْنَا كَيْدَ الزَّمَانِ وَلَكِنَّ شَفَلْتُنَا عَنْهُ ضُرُوبُ الْأُمَانِ
فَتَاكَ لَا يَزَالُ يَجْرِي عَلَى النَّاسِ مِنْ بَصَرَيْنِ مِنْ عُلَا وَمَسَوَانِ
كَيْفَ يَرْجُو الْإِنْسَانُ فِيهِ خُلُودًا بَعْدَ مَا قَدْ مَضَى أَبُو الْإِنْسَانِ

(١) القرب : سبب القيل لورد الله ، والمراد هنا سبب الزمن وذباب معظم العمر .

ثم يطالب التفكير فيمن سبقه من الأمم وبضرب الأمثلة بينة الأهرام
فيقول :

أَبْنَ مِنْ كَانَ قَبْلَنَا مُنْذُ دَارَتْ كُرَةُ الْأَرْضِ وَمَنْى ذَاتُ دُخَانٍ ؟
أُمُّ أَخْلَدَتْ إِلَى الْأَمْرِ حِينَا نَمْ ضَاعَتْ فِي لُجَّةِ النَّشِيَانِ
حَمَلَتْهَا يَدُ النَّوْنِ فَصَارَتْ خَيْرًا فِي الْوُجُودِ بَعْدَ عِيَانِ
فَتَرَسَمَ مَتَالَمُ الْأَرْضِ وَاسْأَلْ قَسَى أَنْ يُجَيِّكَ الْمَرْمَانِ
يَقِيَّتْ بَعْدَ صَانِعِيهَا فَكَانَتْ أَثَرًا نَاطِقًا بِغَيْرِ لِسَانِ
سَوَفَ يَبْلَى مِنْ بَعْدِ حِينٍ وَنَمَحَا ذِكْرُ هَرْمِيسَ مِنْ سِجِلِّ الزَّمَانِ ^(١)

وبسوقه البحث والتفكير إلى فلسفة الزهد فيقدمو لما يقوله :

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاءُ غُرُورٌ تَنْقُضُ بِالْقَاءِ وَالْحِرْمَانِ
لَيْسَ فِيهَا سِوَى خَيَالَاتٍ وَهَمٍّ تَمْتَرِيهَا قَرَائِحُ الْأَذْهَانِ
خَطَرَاتٌ قَدْ ضَمَنَتْهَا كَلَامًا فَلَسْفِيًا لَمْ يَقْتَرِنْ يَمَانِ
كُلُّ حَيٍّ يَظُنُّ أَمْرًا، وَلَكِنْ أَتَيْنَ مِنْهُ حَجَّةُ الدِّهَانِ
قَدْ عَرَفْنَا مَا كَانَ مِنَّا قَرِيبًا وَجَهِلْنَا مَا لَا تَرَى الْعَيْنَانِ
فَدَعِ الْقَوْلَ فِي التَّفَلُّسِ، وَاخْضَعْ بِلَلَالَةِ الْمُهَيِّمِينَ الدِّيَانِ
أَنَا يَا ذَهْرَ عَالَمٍ بِمَصِيرِي فَيْكَ، لَكِنِّي تَجُوحُ الْعِنَانِ

(١) هرميس : الإسم اليوناني للإله المصري « طوت » إله الكتابة والعلوم ، ويقال إنه خاف على العلم أن يضيع فينبى البراني وسور فيها ما عرف لهذه من الصناعات والآلهة وصناعاتها حرصاً منه على تخليدها لمن بعده .

قَدْ تَمَادَيْتُ فِي النَّوَائِدِ حَتَّى كَبِحَ الدَّهْرُ شِرْقِي وَتَنَانِي^(١)

ويجاء البارودي إلى الله ويستغيث به ليقيله من عثرته ، ويشكو إليه طول شوقه
وطنه ، ويسأله أن يحل وثاقه ويك أسره فيقول في قصيدة أخرى .

سَلِّ مَا لَكَ الْبَلَاءُ فَهُوَ الْأَمِيرُ النَّاهِي وَلَا تَخَفْ قَادِيًا فَالْحَكْمُ فَهُوَ
هُوَ الَّذِي يُنْعِشُ الظُّلُمَ إِنْ عَلِقَتْ بِدِرِّ الرِّزَالِ وَيَجْزِي كُلَّ تِيَّاهِ
فَأَسْجُدْ لَهُ ، وَاقْتَرِبْ تَبْلُغَ بَطَاقَتِهِ مَا شِئْتَ فِي الدَّهْرِ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ جَامِ
يَا رَبِّ قَدْ طَالَ بِي شَوْقِي إِلَى وَطَنِي فَاحْلُلْ وَتَانِي ، وَالْعَقْبَى بِأَشْبَاهِي
وَأَمْنٌ عَلَيَّ بِفَضْلِكَ مِنْكَ يَنْصِينِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، فَإِنِّي طَاجِرٌ وَاهِي
هَذَا دُعَائِي ، وَحَسْبِيَ أَنْتَ مِنْ حَكْمٍ يَدْعُو لَهُ كُلُّ شَيْءٍ أَوْثَمُ شَأْنٍ^(٢)

ويقوى الزهد عند البارودي ويشند حتى يكاد يصل به إلى أعقاب التصوف ،
ويحس بنور الحكمة ينعز قلبه بعد أن وهب نفسه لله ، ويشعر من شدة وجده أنه في
حبه الإلهي أمة وحده كما يقول :

دِينِي الْخَفِيفُ وَرَبِّيَ اللَّهُ وَشِمَادَتِي أَنْ لَيْسَ إِلَّا هُوَ
لَا جَاءَ لِي إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَلَنَصِمَ عَقْبِي الْقَاعَةُ الْجَاءُ
أَنَا خَاشِعٌ لِبَلَالِ قُدْرَتِهِ مُتَقَلِّبُ الْجَنِينِ أَوَاهُ

(١) هذه الأبيات لم يبق نصهما وهي من الجزء المخطوط من الديوان والقصيدة بعنوان « وقال
في الزهد » وعدد أبياتها ٢٤ بيتاً . وهي مكررة بعضها في المخطوطة (ج) ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ، و ص
٢٩٧ — ٢٩٨ ؛ ومكررة أيضاً في المخطوطة (س) ص ٢٨٤ — ٢٨٥ و ص ٢٩١ — ٢٨٢ .
(٢) شاهد كلمة فارسية معناها ملك ؛ وشاهدناه : لقب الملوك الساسانيين . هذه الأبيات لم يبق
نصهما وهي منقولة عن أبيها « وقال في الاستغاثه » وهي من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة
(س) ص ٢٩٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٤ .

فَأُنْأَيْتِ لِلْوَجْدِ نَارُ غَضَاً وَحَاجِرِي بِالْأَمْعِ أَمْوَاهُ^(١)
 زَهَتْ الْقُلُوبُ بِنُورِ حِكْمَتِهِ وَتَطَرَّتْ بِالذِّكْرِ أَفْوَاهُ
 أَنَا أَنْتُمْ وَحْدِي عَلَى سَرَفٍ فِي حُبِّهِ وَالنَّاسُ أَشْبَاهُ
 إِنْ تَاهَ غَيْرِي بِالْإِمَانِ فَلِي قَلْبٌ بِذِكْرِ اللَّهِ تَيَّاهُ^(٢)

ويُتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَصِيدَةِ « يَا صَارِمُ اللَّحْظِ مَنْ
 أَغْرَاكَ بِالْمُهْجِ^(٣) ؟ » ، وَهُوَ مِنْ أَعْذَبِ الْحَانَةِ وَأَسْلَسَهَا ، يَشْكُو فِيهَا بَشَّةَ وَحْزَنِهِ ،
 وَيَحْنُ شَوْقًا لِمُزَارَعَةِ عِمَامِ الرَّسُولِ ، وَلَكِنْ ضَعْفُ الْحِيلَةِ وَقِيُودُ الذَّنْبِ تَقِفُ بِهِ
 عَنْ صَلَاةِ الْأَمَالِ فَيَقُولُ :

هُوَ الَّذِي لَوْلَا هُدَايَتُهُ لَكَانَ أَعْلَمُ مِنْ فِي الْأَرْضِ كَالْمُهْجِ
 هَاجَتْ بِذِكْرِهِ نَفْسِي ، فَأَنْفَسْتُ وَلَمْ أَهَاجْ
 فَاحْتِيَائِي ؟ وَنَفْسِي غَيْرُ صَابِرَةٍ عَلَى الْيَقَادِ وَهِيَ غَيْرُ مُفْرَجِ
 لَا أَسْتَطِيعُ بَرَاءَةً إِنْ هَمَمْتُ ، وَلَا أَقْوَى عَلَى دَفْعِ مَا بِالنَّفْسِ مِنْ حُوجِ
 فَهَلْ إِلَى صِلَةِ الْأَمَالِ مِنْ سَبَبٍ ؟ أَمْ هَلْ إِلَى ضَيْقَةِ الْأَحْزَانِ مِنْ فَرْجِ ؟
 يَا رَبِّ بِالْمُطْلَقِ هَبْ لِي — وَإِنْ عَطَلْتُ جِرَائِي — رَحْمَةً تُغْنِي عَنِ الْحُجَجِ
 وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي فَإِنَّ يَدِي مَغْلُوقَةٌ ، وَصَاحِي مُتَبَايِعِ
 لَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ إِلَّا إِلَيْكَ ، فَلَا تَقْلَعْ رَجَائِي ، فَقَدْ أَشَقَقْتُ مِنْ حَرَجِي

(١) أَضَالَمُ : جَمْعُ أَضْلَعُ مِثْلُ أَكْرَعَ وَأَكْرَعُ هِيَ جَمْعُ الْجَمِّ . وَهِيَ فِي الْمَطْلُوعَةِ (ج) فَاسَالَمِي .

(٢) هَذِهِ الْقِطْعَةُ لَمْ يَسْبِقْ تَعْرِفُهَا ، وَهِيَ مِنَ الْجُزْءِ الْمَقْطُوعِ مِنَ الدِّيَوَانِ الْمَطْلُوعَةِ (س) س .

٢٩٨ — ٢٩٩ ؛ وَالْمَطْلُوعَةُ (ج) س ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٣) الْقَصِيدَةُ فِي الدِّيَوَانِ (الْجَارِم) ج ١ س ١٠٠ — ١٠٤ تَحْتَ عِنْوَانِ « وَقَالَ بِمَدْحِ النَّبِيِّ » .

وينظم البارودي في الرسول ملحمة التي سماها « كشف القنمة في مدح سيد الأمة ^(١) » وهي ٤٤٧ بيتاً . ويقول في مقدمتها « فهذه قصيدة ضمنها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وقد بنيتها على « سيرة ابن هشام » ، وسميتها « كشف القنمة في مدح سيد الأمة » . ورغبت إلى الله أن تكون لي ذريعة أمتُّ بها يوم للماد ، وسألت إلى النجاة من هول الحشر ؛ اللهم حقق رغبتي إليك ، واكسها بفضلك رونق القبول ، آمين . . ويستهلها بقوله :

يارائدَ البرقِ يَمِّمُ دَارَةَ الْعِلْمِ وَأَحْدُ الْغَامِ إِلَى حَيٍّ بِذِي سَلَمٍ ^(٢)
وَأِنْ مَرَدَّتْ عَلَى الرُّوحِ قَامِرٌ لَهَا أَخْلَافٌ سَابِغَةٌ هَتَانِ الدَّيَمِ ^(٣)

والقصيدة على وزن « نهج البردة » للبوصيري ، ولو أن البارودي لم يثبت أنه قد قصد معارضتها . وهي تختلف في النسق عن « نهج البردة » ، ذلك أن « كشف القنمة » سايرت الحوادث في حياة الرسول وفقاً لما قصه ابن هشام في سيرته ، ومن ثم ففيها عنصر الترتيب للتقيد لانطلاق المواطف . أما البوصيري فقد أطلع خواطره الطارئة ، وقدم بعض الحوادث على بعض ، فتكلم عن الرسول وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر ميلاده .

والترتيب الذي سار عليه البارودي ليس ميزة فنية ، فقد قيّد انطلاق عواطفه ووجدانه ، وحدد فنيته في إطار مرسوم ، فقترت العاطفة الشعرية في أكثر

(١) طبعت بمطبعة الجريدة — بصرى البارودي بنيط المدة بمصر سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م وقد صححها وفسر بعض غريبها كاتب يد الناطم في سنيه الأخيرة ياقوت الرسي .

(٢) الدارة : أحسن من الدار ؛ والتم اسم جبل بالمجاز ؛ وذو سلم : موضع بالمجاز .

(٣) الروحاء : موضع بين مكة والمدينة ؛ وأمر لها : استمر لها ؛ السابغة : السحابة الكثيرة المطر .

القصيدة وأصبحت « منظومة تاريخية » كذلك المنظومات التي تعرف بالثون .
ونفس حرارة العاطفة في القصيدة عند ما يناجي البارودي وجدانه فينشوق
إلى الرسول ، أو يصف ما أضناه من الخطوب ، وما زرى به من النفي والإقامة
في بلد مثل جوف العير بعيد أهل العنم ، يعيش فيها مع القلق يقتات الألم
ويطحنه المذاب ، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير أصداؤه نفسه
كما قال :

تَكَادَنِي خُطُوبٌ لَوْ رَمَيْتُ بِهَا مَنَازِبَ الْأَرْضِ لَمْ تَثْبُتْ عَلَيَّ قَدَمٌ^(١)
فِي بَلَدٍ مِثْلِ جَوْفِ الْعَيْرِ لَسْتُ أَرَى فِيهَا سِوَى أُمِّهِ تَحْنُو عَلَيَّ ضَمٌّ^(٢)
لَا أَسْتَقِرُّ بِهَا إِلَّا عَلَى قَلْقَرٍ وَلَا أَقْدُ بِهَا إِلَّا عَلَى أَكْمَرِ
إِذَا تَلَفْتُ حَوْلِي لَمْ أَجِدْ آتِرًا إِلَّا خَيْنَالِي ، وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى كَلِمِي

وينسب البارودي فيها إلى الرسول ناسيا — وهو الشركسي في النساب
الأولى — بلسان الفارسي^(٣) ، ويحصل حب الرسول صلة تنفي عن القرابة
والنسب فيقول :

بِأَسَدٍ لِّلْكَوْنِ دَفُوعًا إِنْ أَمِيتُ فِلي بِحَبْكُمُ صَلََّةٌ تُنْفَى عَنِ الرَّحِمِ
كُنِيَ بِلِسَانٍ لِي نَفَرًا إِذَا اتَّسَبْتُ نَفْسِي لَكُمْ مِثْلُهُ فِي رُمَّةِ الْحَشَمِ

(١) تكادني : شقت علي وأضنتني .

(٢) جوف العير : واد خال من السكان ، وذلك كناية عن خلو سرنديب من أسرته وأحبابه .
وجاء التشبيه بجوف العير في شعر أمريء القيس ، كما جاء في التل : أخلي من جوف العير ، وأخلي من
جوف حمار .

(٣) من مشاهير الصحابة ، قيل إنه كان ابن دعثان في قرية جبان من أعمال أسبهان رحل إلى
الشام ثم إلى وادي القرى وأسلم ، وهو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق في غزوة الأحزاب — توفي
عام ٦٥٥ م (٣٤ هـ) .

ولا ندعى أن محنة النفي هي التي وجهت البارودي هذه الوجهة الدينية ،
أو سارت به في تيسار الزهد ، فشمع الزهد ظهر في شباب البارودي كما ظهر
في شيخوخته ، وقال فيه قبل النفي كما قال بعده ، غير أن النفي نَمَى هذا الاتجاه
وقواه عنده . ومن قصائد الزهد التي قالها في شبابه وحده تاريخها (١٨٧٤)
تلك التي يقول فيها :

ما طمِئَ العِيشَ لولا نُهُ فاني تَبَلَّى النُفوسُ ولا يَلَى الجُديدانِ
قد كنتُ في غِرَّةٍ حتى إذا انشَمَتْ أَبَقْتُ تَبَارِيجَ لا تَفُكُّ تَفْشَانِي
إنَّ السَّلاطينَ والحَسَّ التي عَرَضَتْ كُنْتُ مُقَوَّي ، وفَلَتْ غُربَ أَشْجَانِي
يَافِسُ لا تَذْهَبُ يَأْسًا بما كُتِبَتْ يَدَاكَ ، فَاللهُ ذُو مَنْرٍ وَعُفْرَانِ
يعفو عن الذَّنْبِ حتى يَسْتَوِيَ كَرَمًا لِقَبْرِ ذُ الْعَمَلِ اللُّبُورِ وَالْجَانِي

ويعضى البارودي في القصيدة يفكر في الله وفي قدرته ، وفي آثاره المبدعة
التي دلت عليه من الأفلاك والشمس والقمر والنبت والنبات ، ثم يتعسدى
للأضاليل التي ابتدعها أهل الشك والضلال فيصفها باليهتان وبأنها أساطير محبرة
كما يقول :

هُوَ الَّذِي جَمَلَ الْأَفْلاكَ دَائِرَةً وَصَوَّرَ الْخَلْقَ مِنْ لَأْسٍ وَمِنْ جَانٍ
وقدَّرَ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي مَنَازِلِهَا وَالنَّجْمَ وَالْقَمَرَ السَّارِي بِمُحْسِنِ
وأرسلَ الغَيْثَ لِإِرسَالِ بَرَحَتِهِ وَأَنْبَتَ الْأَرْضَ مِنْ حَبٍّ وَرِيحَانِ
سُبْحَانَهُ جَلَّ عَنْ وَصْفِهِ بِحِطُّ بِهِ وَكَيْفَ يُدْرِكُ وَصْفَ الْقَائِمِ الثَّانِي
لَقَدْ تَفَرَّدَ فِي لَاهُوتِ قُدْرَتِهِ فَالَهُ إِبْدَأَ فِي مُلْكِهِ ثَانِي

ولمّا نحنُ مُنْطَرِفٌ كَمَا سَبَقَتْ بِهِ الْإِرَادَةُ مِنْ وَصْفٍ وَتَبْيَانٍ
كُلُّ يَقُولُ عَلَى مَقْدَارِ فِطْنَتِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْقَاسِمَى وَبِالدَّائِنِ
تَبَارَكَ اللَّهُ عَاقِبِلْ وَابْتَدِيعَتْ فِي ذَاتِهِ مِنْ أَضَالِيلٍ وَبُهْتَانٍ
قَدْ لَقَقُوا أَسَاطِيرَ عَجَبَةٍ بِحِكْمَةِ ذَاتِ أَشْكَالٍ وَالْوَاوَانِ
كَأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا طَرْفَةَ عَجَبٍ أَوْجَاهُهُمْ نَبَأٌ صَدَقَ بِيْرَهَانٍ^(١)

وفى ديوان البارودي من شعر الزهد غير ما ذكرنا أكثر من تسم قصائد^(٢) فلما قبل
الذنى ، ومن أشهرها قصيدته التى يقول فيها :

كُلُّ حَيٍّ سَيَمُوتُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا ثُبُوتُ
حَرَكَاتٌ سَوْفَ قَفَسَى ثُمَّ يَتَلَوَّهَا خَفُوتُ
أَيُّهَا السَّادِرُ قُلْ لِي أَيْنَ ذَلِكَ الْجَبْرُوتُ
لَيْتَ شِعْرَى ، أَعْمُودٌ مَا أَرَاهُ أَمْ قُبُوتُ
إِنَّمَا الدُّنْيَا خِيَالٌ بَاطِلٌ سَوْفَ يَفُوتُ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ قُوتُ

ويجده التتار الدينى، البارودي إلى البحث عن أصل الإنسان وتطوره ثم منتهاه
فلا يجده إلا حساً مهيناً فى أوله وفى آخره كما يقول :

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة بعنوان « وقال فى الزهد » وعدد أبياتها ٢٤
يشأ ، وهى من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ٢٩٧ — ٢٩٣ ؛ والمخطوطة (ج)
س ٢٩٨ — ٢٩٩ .
(٢) أنظر الديوان (الجارم) ج ١ س ٩٦ و ١٢٦ و ٢٢٧ و ٢٥٤ و ٢٥٦ و ج ٢ س
١١٠ و ١٢٣ و ١٢٥ و ٣٤٧ .

أَوَّلُ النَّفْسِ نَظْفَةً أَخْلَصَتْهَا شَهْوَةٌ صَانِعُهَا مِزَاجٌ دَفِينٌ
قَذَفَتْهَا إِلَى الْبُطُونِ ظُهُورٌ وَحَوْتَهَا بَعْدَ الظُّهُورِ بَطُونٌ
ثُمَّ أَرَسَى بِهَا هُبُوطٌ يَلِيبُهُ حَرَكَتٌ مِنْ بَدَهْنٍ سَكُونٌ
فَقَهَى طَوْرًا تَسْكُونٌ فِي عَالَمِ النَّفْسِ مَبِ، وَطَوْرًا فِي مِثْلِ ذَلِكَ تَسْكُونٌ
مُبْتَدَأَهَا وَمُنْتَهَاهَا سَوَاءٌ وَهِيَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ حَسٌّ مَهِينٌ
فَعَلَامَ الْبِكَاءِ فِي إِثْرِ دَارٍ بِالرَّزَايَا فَنَاقُوهَا مَشْحُونٌ
تَتَنَاقَى الرِّجَالُ حِرْصًا عَلَيْهَا وَفَوْرَ حِرْصٍ أَدَّى إِلَيْهِ الْجَنُونُ
حَارَ فِيهَا أَرِسْطُطَالِسُ قَدَمًا وَنَعَامًا الْحَكِيمُ أَفْلَاطُونُ^(١)

وفي عام ١٨٩٦ زار جزيرة سرنديب (سيلان) ولي عهد إنجلترا^(٢) ، وكان ضمن برنامج زيارته مقابلة لزعهاء الثورة المصرية الذين نفتهم حكومته إلى تلك الجزيرة . وأعد عرابي - نيابة عن زملائه - مذكرة يقدمها لولي العهد يشرح فيها ظروفه وظروف زملائه الصحية - ، ويلتمس التوسط لدى الحكومة كي تتيح لهم السفر إلى مصر . ويمنع البارودي ، وهو في كنفه ، مرضه أو تمازجه من حضور اللقابلة ، وحتى لا يستغل عدم حضوره استغلالا سيئا طلب إليه زملاؤه أن ينظم قصيدة ترحب بولي العهد . نيابة عنه ويقدمها عرابي مع المذكرة . وبعد إلحاح منهم كتب قصيدته الرائية التي يذوها بقوله :

بِنَافِثَةِ الْفَتَّانِ آمَنْتُ بِالسَّحْرِ وَهَلْ بَعْدَ إِيمَانِ الصَّبَاةِ مِنْ كُفْرٍ^(٣)

(١) هذه القطوعة لم يبق نثرها ، وهي من الجزء المخطوط من الديوان : المخطوطة (س) من ٢٨٦ ، والمخطوطة (ج) من ٢٩٢ .

(٢) اعلى عرش إنجلترا باسم جورج الخامس عام ١٩١٠ .

(٣) مذكرات الأميرة وسلوامها . وعنوان القصيدة في المخطوطة (ج) « وقال في تشریف الملك جورج الخامس » ثم ضرب بالفتح على ما بعد وقال . وجاءت القصيدة في طبعين الإمام والجارم عنوانها « وقال » فقط .

والقصيدة تدلنا على شخصية البارودي للترفة ونفسه الأبية وكبرياء الوطنية فيه . فبالرغم من مركز القوة الذي يحكم فيه ولى عهد إنجلترا ومركز الضعف الذي يمانى منه الأسير المنفى ، وبالرغم مما يقاسى البارودي من عذاب النفس وألم البدن من الأهل والوطن وما يمانيه من وهن الشيخوخة وضعف الصحة ، لم يقب به قلعه فيطلب في القصيدة العفو من ولى عهد إنجلترا ، ولم يذل كبرياؤه لينزف إلى من طرده من وطنه ، ولم يرتكب زلة وطنية فيمدح ممثل الاحتلال البهيمى ؛ بل كتب القصيدة من علياء إياه ومن قة كبريائه ، فغفر بنفسه التى ملككم من كل سوء وبرأيه الصائب ومنطقه الذى لم يصدر عنه ما يستوجب الاعتذار ؛ وكأنه بذلك يعلن أن ثورته الوطنية لم تكن ذنباً يوجب الاعتذار أو التماس العفو . ثم يتخذ البارودي من نفسه وهو السياسى الحزب أستاذاً لولى العهد ، فيلمح حصيلة تجاربه ويقسده وصاياهم ويمتنع دروس الحياة ، فى الخصومة ، والمعاملة ، والسواة بين الناس ، والاعتدال بين شد الطموح والمبالاة فيه وبين سقوط الهمة . ومحاطبه بخطاب يحس ذواقو اللغة العربية فى مطلعها رنة الخصومة ونفحة النداء فيقول :

فيا ابن أبى - والناس أبناء واحد - تقلد وصاسى ، فهى لؤلؤة الفكر
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن لدوداً ، ولا تدفع يد الأين بالقصر
وكن وسطاً لا مشرباً إلى الشها ولا قائماً يبنى التزلف بالصغر
ولا تعرف بالقيل فى طلب الغنى فإن النفى فى الذل شر من الفقر
ودار الذى ترجسو وتحشى وداده وكن من مودات القلوب على جذر

ويعنى البارودى فى تلقين ولى العهد دروسه ثم يختم قصيدته بقوله :

فهذه وصاتى ، فاحفظها تفز بما تمنيت من نيل السعادة فى الدهر
فإنى اسرؤ جربت دهرى ، وزادنى به خبرة صبرى على الحلو والمر
تدبر مقالى إن جئت خليفتى لتصرفنى ، فالسيف يعرف بالأثر

والذى لا يدعو إلى الشك أن حياة البارودى مليئة بالتجارب الذاتية وخبرات
الحياة العامة من رحلات وحروب ونشاط سياسى على مستوى السرية تارة
والعلنية تارة أخرى ، والتقلب فى مسرات النعم وبؤس الوحدة والنفى ، وتناوب
النجاح والفشل عليه ، وقد أتاح له كل ذلك مصدراً ثراً من التجارب كان يفترق
منها فى شعره فتأتى طيبة بدون تكلف ، وتداخل فى قصائده وكأنما ينظمها
عفو الغاطر . وأكثرت قصائد البارودى لا تخالو من الحكم التى استخلصها من
حياته كما يستخلص العهد من الزهر .

مراسلات البارودى فى المنفى :

وتظل نوافى البارودى مدة النفى رسائل الأهل والصحاب وذوى الأدب
والعرفان من مصر وغيرها^(١) لما بينهم وبينه من الصلة الروحية^(٢) ، فكانت
تؤنس وحشته حيناً وتذكى الشوق والحزن فى قلبه أكثر الأحيان . وكتب
إليه الأدباء والعلماء من شتى البلاد العربية والإسلامية بخطوبون وده ، ويستنشدون

(١) كان يكتب إليه من وصل إليه علناً ألفريد سكاون بلنت ، وسيد ولم جريجورى ، ولويس
صابونجى ، وأحمد فارس الشدياق ، وبرودى الخامس ، وبعض علماء الهند وشعرائها من قمارج مصر وقد
كانت بعض رسائله إلى بلنت وبرودى بعد السنوات الأولى من النفى بالإنجليزية .

(٢) مقدمة مرآتى الصغراء ص ١٩ .

شعره ، ويواسونه في محنته . ومن هؤلاء عالم أدب من الهند يدعى « عليا » كتب إلى البارودي شعراً يمدحه به ويتألف نفسه ، فيجيبه البارودي في مطولة يستلها بقوله :

قليلٌ يَأْدَابُ للـودَّةِ مَنْ يَفِرُّ فَمَنْ لِي بِحِلِّ أَصْغَانِهِ وَأَكْتَفِي

يشكر له مودته واحتمائه . ولا يستطيع البارودي أن يتحرر من انفعالاته وعذابه فتتضح بها القصيدة ، وتغيطها موج من مشاعر الألم والأسى التي يعبس فيها كما يقول :

أَجِنُّ إِلَى أَهْلِي ، وَأَذْكُرُ جِيرَتِي وَأَشْتَاتُ خِلَاتِي ، وَأَصْبُو لَأَلَّتِي
فَلَا أَنَا أَسْلُو عَنْ هَوَايَ فَأَنْتَمَي وَلَا أَنَا أَلَّتِي مِنْ أَحَبِّ فَأَشْتَمَي

وكان الأمير « شكيب أرسلان » صبيّاً ناشئاً إبان الثورة المزاوية ، ورآه الشيخ محمد عبده — أثناء مفاهه بيروت عقب الهزيمة — تلميذاً في مدرسة الحكمة أواخر عام ١٨٨٦^(١) ، وسمعه ينشد الشعر فشججه وأثنى عليه ، ثم وجهه إلى شعر البارودي في الوسيلة الأدبية فطالعه وحفظه وأعجب به قلبه^(٢) . وكان شكيب الشاعر الناشئ يلفت حوله يبحث عن الثلل في معاصريه من الشعراء ليجتذبه ، وما إن هداه الشيخ محمد عبده إلى « إمام الشعر » ورائد الشعراء في عصره حتى وجد ضالته ، وبدأ يتخذه أستاذاً ومثلاً ، يفترق من بحرته ويشرب من دمه ، ويسير على نهجه في جزالة العبارة ومثانة التركيب وفصاحة اللفظ وفي الولع بالسق التديم ومحاكاته لفظاً ومعنى . ويقول شكيب : « فلما

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤٠٠ .

(٢) أحمد الصريسي : أمير البيان شكيب أرسلان ج ١ ص ٢٥٢ .

قرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبث لنا نشأة روحية لم نهداها في أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلنا أن في المعاصرين من قد رآنا يضارع الأولين ، وأن سامي بنفسه أنقاصهم . وكنا من قبل محمود سامي نظن الأولين غاية لا تدرك وبقي فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامي وحفظنا جميع قصائده التي في « الوسيلة الأدبية » لانحزم منها بيتاً واحداً ، وكان حفظنا لما من أقوى عوامل الشعر فينا ولذلك كنت أنا أراهم غرباً في الشعر لمحمود سامي البارودي^(١) .

ويكتب شكيب إلى صحابه بالقاهرة . يزورهم ليزودوه بقصائد البارودي التي لم تنشر ، وكلما قرأ له ازداد إيماناً بأن الرجل « ملكة عربية » ، وبعمق الشيخ محمد عبده هذا الإيمان في نفس الشاعر الثاني^(٢) . ويشهد عود شكيب ويذبح صيته في ناديه وقومه ، ويخطر له أن يتصل بأستاذه في منفاه ، وأن يتعرف من التهل نفسه ولكنه يحجم من الرهبة كما يقول :

وقد طاماً حدثتُ نفسي وعاقني تردُّدُها ما بين أخيمٍ وأُفدِم

فقد كان يعرف قلوب البارودي ومنزلته بين الشعراء فيزداد له هيبة وتعظيماً ، وأخذ شكيب ينشد الوسيلة « بصحكك بها بهذا الشاعر الكبير^(٣) » ، ليرضى نزعة الطموح في نفسه ، فقد كان يرى أن شهرة البارودي سوف تأخذ بيده إن عقدت الصلة بينهما^(٤) ، ثم اهتدى إلى الحيلة فأخذ يستشهد بشعر البارودي في مقالاته التي كان يشرها في صحيفة « الأهرام » خلال العقد الأخير من القرن

(١) شكيب أرسلان : شوق أو صداقة أربعين عاماً (١٩٣٦) ص ١٠١ — ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق . (٣) ديوان الأمير شكيب أرسلان (١٩٣٥) ص ٥٠ .

(٤) أمير البيان ج ١ ص ٢٥٣ .

للأضي ، ونوه باسم البارودي أكثر من مرة ، ولقبه « بأمير الشعراء »^(١) ،
والبارودي في المنفى أعرضت عنه الدينا بعد إقبال .

وقرأ البارودي في جريدة الأهرام ما يكتب شكيب ، فوجد عنده الأصالة
الفنية والأداء الكامل ، وقرأ له شعراً يرفعه إلى معارف المجدين من الشعراء ، فرد
عليه البارودي بقصيدة يقدم لها في ديوانه بقوله : « وكان الأمير شكيب أرسلان
ذكر أبياتنا لصاحب هذا الديوان في بعض مقالاته الأدبية التي كان يرسل بها
جريدة الأهرام ، وأثنى على قائلها من غير أن يصرح باسمه ، ثم أورد له بعد
ذلك أبياتاً في مقالة أخرى نوه فيها باسمه ، فقال يشكره على ذلك وأرسل إليه
بهذه الأبيات »^(٢) : وكتب البارودي مقطوعة من سبعة أبيات مطلعها :

أشدتَ بذكري بآدنا ومُعقياً وأمسكتُ لَمْ أُمِيسُ ولم أنكطم

ثم يعقب عليها بقوله : هذه أبيات تفرطت بها التريجة بعد المقم ، وتنفست لها
الطبيعة بعد معاناة السقم ، جعلتها شكراً لما قرأته في الأهرام ، من عواطف البر
والإكرام ، ولولا أني في مكان حريد ، وقد حان وقت البريد ، لأطلت عنان
الثناء ، وملأتُ صدر الإناء ، ولسوف أني بذمة الوعد ، إن أضاء نجم السعد ،
فأقبل مني على عدواء النار ، سلاماً على جناح البدار »^(٣) . ويهتيل شكيب
أرسلان الترحمة ، ويسارع فينظم مطوعة تبلغ أربعين بيتاً من نفس الوزن والروى
تفيض بمدح البارودي وتمجيد ، ويبحث بها مرفقة برسالة رقيقة إلى أستاذه
يسرنديب . ويطرب الشاعر الكبير لاهة صيدة ويهز لركة الرسالة ، ويثقلها — كما يقول

(١) شوقي أو صداعة أربعين عاماً ص ١٠٥ .

(٢) المخطوطة (س) ص ٢٢٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٢ .

(٣) المخطوطة (س) ص ٢٣٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٣ .

في رسالته إلى شكيب في ٢٨ ذى القعدة ١٣١٥ هـ (٨١٧) - بيد تردد فرحا وفؤاديهتز سرحا ... كيف لا وقد أضاعت على غياة الوحشة ، وسرت على ضبابية الحسرة ^(١) .

وينجز البارودي ما وعد فيكتب إلى شكيب قصيدة ثانية ، ثم يمتد حبل للرسائل الشعرية بينهما ، وشكيب قابض على الفرصة لا تفلت منه ، ولا يني في كل قصائده عن إثارة الكرم النفس عند البارودي فيطوقه بحميل السدح والتعجيد ، ويضمه في للكان الأسنى من ملكة الشعر ، فيرد البارودي مدحا بمدح وتعجيدا بتعجيد . وينشر شكيب الرسائل في المجلات الأدبية ويقرأها الناس ، ويتحرك سهم شكيب إلى أعلا ويخرج صيته من الإقليمية المحدودة إلى صعيد العالم العربي والإسلامي كله . ويعترف شكيب بالجميل فيمن « أن للبارودي إمامه في الشعر » ^(٢) . ويشعر البارودي - على البعد - أن شكيبا يتفق معه في للنهج والشرب ، وأنه يترسم خطاه في المنحى والأسلوب ، ويعس في رسالته حرارة الإخلاص في الود فتقوى الصلة بينهما ، وينطلق البارودي معه على سجيته ، وتظل ربة الشعر تطير بينهما بوسائل إلى ما بعد عودة البارودي من منفاه .

وهناك صديق العمر ورفيق الجهاد « الشيخ محمد عبده » تبادل مع البارودي الرسائل في المنفى . وعلاقة البارودي بالأستاذ الإمام علانة تنضب في بطون السنوات ، بدأت في مجالس الأدب التي كانت تعقد بدار البارودي في السقنات من القرن للاضي ، وكان يؤمها شعراء العصر وأدباؤه ، ثم امتدت إلى مجالس جمال الدين

(١) شون أو صداقة أربعين عاما ص ١٠٦ . (٢) المصدر السابق ص ١٠٤ .

وندواته في السبعينيات من ذلك القرن^(١) ، وتحولت إلى أخوة في « الخفيل
 لالسونى العربى » ، واقترح البارودى على مصطفى رياض رئيس الوزراء حين أراد
 النهوض بجريدة « الوقائع المصرية » أن يعين لما الشيخ محمد عبده محرراً (١٨٨٠) . وشارك
 الشيخ محمد عبده صديقه البارودى وهو وزير الأوقاف في الدراسة والبحث في
 حجج الأوقاف وفي بطون كتب التاريخ لتحقيق نية ، وبمد أن تم البحث
 كشيء الشيخ محمد عبده في وثيقة النسب بخط يده وأرقها بقبضه عن تاريخ
 صديقه الوزير حتى عام ١٨٨١^(٢) . وجمعت بينهما الحركة الوطنية زميلى جهاد ،
 وكان البارودى والشيخ محمد عبده من العناصر للمثلة التي حاولت أن تقوم
 بحملة « صمام الأمان » عندما تطير النفوس مع الأحداث . وحين تولى البارودى
 نظارة الجهادية ثم رئاسة النظار كان يبعث الشيخ محمد عبده برائله ووساطاته
 ومشورته لزعماء الحركة من العسكريين^(٣) .

وفرت الهزيمة بين الصديقين ففى البارودى إلى سيلان شياً مؤبداً ، ونفى
 محمد عبده إلى بيروت لثلاث سنوات ، ولكن حبلى الود ظل متصلاً بينهما
 بالرسائل . وفى ديوان البارودى قصيدتان يقال إنه بعثهما رسالتين ضمن رسائله
 من منفاه إلى محمد عبده بعد عودته إلى مصر^(٤) ، ولم يصرح فى الأولى باسمه
 بل حاول أن يعميه خوفاً عليه من غضب الخديو وثقة رياض ، يقول فيها بعد أن
 ذكر شوقه إلى الوطن ووصف الليل وحبسه إليه :

(١) تاريخ الأستاذ الإمام - ١ ص ٤٦ .

(٢) نصرتها مجلة المنار جلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٢/١٢/١٩٠٤ .

(٣) مصر للمصريين ج ٨ ص ٧٠ عن استجواب عمود ساسى البارودى .

(٤) معلومات الأسرة .

لى به صاحب على عزير مثل ما عنده من الشوق عندى
أعناه ، غير أن قوادى من إيسار النوى محاط بجذ
فأند منى له تحية صدق وتلفت بحالتى يا (أندى) (١)

والرسالة الثانية قصيدة رقيقة تفيض حنيئاً وشوقاً إلى الوطن وتضيق بصحبة
أهل سرنديب ، ويصرح فيها بأول اسم صديقه محمد عبده ، ويبدوها بقوله :
وأطول شوقى إليك يا وطن وإن عرتني بحبك للحن
أنت لأسى ، والحديث إن أقبل الصبح ، وهى إن رنق الوسن (٢)
است أهلى ، وقد سلكت على الدهر ، إذا ما أصابني الحزن

وينفى فيذكر ضياعه في المنفى وهمومه من بعد فرقة صحابه ، ويشكو لصديقه
الوحشة وهو يعيش بين أهل الجزيرة مجيراً ، نفسه لا تسخ مصادقهم ، وروحه
لا تألفهم أو ترتاح إليهم ، فيهب بأهل وده بالقاهرة :

ليت بريد الحمام يخبرني عن أهل ودى ، قلى بهم شجن
أصبحت من بسيم بضيمة تكدر فيها الموم والإخن
بين أناس إذا وزنتهموا بالدر عند البلاء ما وزنوا (٣)
لا فى مذاراتهم (٤) إذا صدقوا رنج ، ولا فى فراقهم غبن
شعث عرائه كأنهم خرجوا من ثق الأرض بسندما دنفوا
لا يمتنون للقال إن نطقوا جهلاً ، ولا يفقهون إن أذنوا (٥)
أرى بهم وحشة إذا حضروا وطيب أنس إذا هم ظمنا

(١) وكلمة أندى مقابل (شيخ) نسبة بالصد - ملونات الأسرة - (٢) رنق الوسن : غشى النوم -

(٣) النمر : الهباء المتلصق بالهواء - (٤) فى المخطوطة (ج) مواراتهم -

(٥) أذنوا : استمعوا -

ثم يخلص من الصعبة للونحة إلى تنى المودة إلى محبه وصديقه «محمد» ،
وتتداعى عليه ذكريات صداقتها ، فيذكر له بيانه ولسانه وحججه ، ويحمد له نصرته ،
ثم يصفه في المقام اللائق به فيقول :

وكَيْفَ بِالْمَقَامِ فِي بَيْلِهِ مَالِي بِهَا صَاحِبٌ وَلَا سَكَنُ
فَهْلُ إِلَى عُدَّةِ أَلَمٍ بِهَا شَمْلِي ، وَأَلْقِ «عَمْدًا» سَنَنْ^(١)
ذَاكَ الصَّدِيقُ الَّذِي وَفَّقْتُ بِهِ قَهْوَرُ يَشْكُرِي وَمِذْحَتِي قَنْ^(٢)
عَاشِرُهُ حَقِيَّةٌ فَأَجْبِدُنِي مِنْهُ الْحَبَابُ وَالْيَبَانُ وَالْأَسْنُ
وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ بَمَدٍّ مَا عَلِقْتُ فِي الرِّزَابِ تَخَيَّلْ هُتَنْ^(٣)
يَنْصُرُنِي حَيْثُ لَا يَكَادُحُمُ بِمَسْحَتِي وَدَهْ وَلَا تَحَقْنُ^(٤)
قَدْ كَانَ غَلِي يُسَوِّدُ النَّاسَ لَوْلَا هُوَ ، وَقَرْدٌ يَحْتَمِي بِهِ الزَّمَنُ
فَهُوَ لَدَى الْمَضَلَاتِ مُسْتَقْدَرٌ وَعِنْدَ قَدْرِ الرَّجَاءِ مُؤْتَمَنُ
لَوْ كَانَتْ بَعْلُوا الْمَاءِ ذُوشَرَفُ لَكَانَ بِالنَّيِّرَاتِ يَتَشَرَفُ^(٥)

وكان البارودي - كما يقول شكيب أرسلان - « من أحب الناس إلى
قلب الشيخ محمد عبده » ، فلم أعلم أنه كان يذكر أحدا من أقرانه بما طفق حب كما
كان يذكر محمود سامي رحمه الله ، وكان يتأوه على غربته ونسكته ما لا يتأوه
على أحد . ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة (١٨٩٠)
فررنا أمام دار فيحاء فوقف ونظر إليها طويلا ثم قال : هذا بيت صاحبنا ،
وتهد عند هذه الكلمة تنهدا عميقا ، فسألته : دار من ؟ فقال : دار محمود سامي .
وكانه تنهد لا على غربة محمود سامي فحسب بل على غربة مصر كلها واحتلال

(١) السنن : الطريقة . (٢) قرن : جدير وخليق به . (٣) الخيلة : الحياة التي
تجسبها ماطرة ؛ المهن جم حائن : الطر المتناجم . (٤) الحنن : كل ما كان من قبل المرأة .
(٥) هذه الأبيات لم يبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان والتبصرة بعنوان « وقال
وهو يستندب يتشوق إلى الوطن ويذكر صديقا له » وعند أبياتها ٢٧ بيتا ؛ المخطوطة (س) ٢٧٦-٢٧٨ ؛
والمخطوطة (ج) ٢٨٢-٢٨٤ .

الأجنبي لها^(١) . ومنذ عاد محمد عبده من مفناه وهو يحاول ما وسعه الجهد لدى أصدقائه من أهل الحكم في عودة البارودى إلى الوطن . ولكن مساهم لم بكلل أول أمره بنجاح .

العودة من المنفى :

وفي عيد القدر من عام ١٣١٤ (١٨٩٧) بث البارودى بتحية مقتضبة في أربعة أبيات إلى الخديو عباس الثانى ، وأعجب ما في الأبيات أنها لم تحمل استعطافاً لتلك الأسر أوجاء للعودة ، وإنما دعا له في بيتين وشكره على عدالته بين الناس في البيتين الآخرين . ولعل البارودى أراد بهذه التحية أن يذكّر الخديو الجديد بالمتقيين من الزعماء . والمقطوعة توحى بأن البارودى قد احتفظ بكل كرامته ، وحسن فعل ، فقد أصم عباس أذنيه ، وقد أصبح بعد الفترة الأولى من حكمه يضارع أباه في رجعيته واستسلامه للاحتلال ، وفي ثقته على المتأمر للصعوبة من الوطنيين . ويصاب البارودى بحمية أمل أخرى فيمتف :

نَشَدْتُ لَلَّتِي عَوْدًا وَقَدْ كُنْتُ بِدَاةٍ مَطَافَ أَنَاسٍ يَنْشُدُونَ الْأَمَانِيَّةَ
فَإِنْ لَمْ أَنْزَلْ مِنْهَا نَصِيبًا فَلَأَنْتَى أَرَى الْيَأْسَ عَنْ بَعْضِ الْمَطَالِبِ كَافِيَا
وَمَا الَّذِي تُجِدِي عَلَى فُضَائِلِي إِذَا كُنْتُ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَسَاوِيَا
فَلَا أَخْضُرُ سَاقُ الْبَقْلِ إِنْ بَثَّ طَاوِيَا وَلَا أَنْهَلُ مَاةَ الزُّنَيْنِ إِنْ مِتَّ صَادِيَا^(٢)
والبيت الأخير يدل على الحالة النفسية العصية التي كان يمر بها البارودى بعد خيبة أمه فنظم على الدنيا جميعها .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤١٠ من نيقة بقلم حكيم . أرسلان من سيرة محمد عبده .
(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان وقصيدتها بعنوان « قال
ذكر الدوق إلى الوطن » وأبياتها ٣٤ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣١٤ .

ويعتمد النفي والاغتراب بالبارودي حتى يبلغ الستين من عمره فيبلغ به اليأس مداه ويلف روحه بأكفانه ويحيط بها من كل جانب إحاطة القبور بالموتى ، وتطفأ شموع الآمال كلها في قلبه وفي عينيه ، ويصاب بشعور « الالمبالاة » ، فيصبح نعيم الحياة عنده وشقاؤها سواء ، ويلفظ مأربه منها بعد أن تمتت عليه ، ثم يرمى عبء ذلك كله على ظلاله فيقول :

أبدي ستين لي حاجٌ فأطلبها ؟ هياتِ ! ما لامرئ بعد الصبا حاجٌ
لا حيلُ الطير إن غنت ، وإن نعتتِ سيان عندي صقارٌ وشحاجٌ^(١)
يستظفون من الحجاجِ صولته وكلُّ قومٍ بهم للظلم حجاجٌ

ومع الستين (١٨٩٩) تهاجم البارودي العلة والمرض ، ويعود الارتشاح إلى قرونيه بقوة تهدد عينيه بالظلام الأبدي ، فيفرغ البارودي ويصيبه الملح من أن يعيش رهين الحبسين ، يحبس النفي والأسر وعبس العمى ، ويضاعف له الملح العذاب حتى ليمتنى الموت خلاصا منه فيقول :

مَتَى يَنْقَضِي عَمْرُ الْحَيَاةِ فَتَنْقَضِ مَأْرَبُ كَانَتْ حَلَّةٌ لِلظَّالِمِ
تَسَاوَتْ نَفُوسُ اتَّخَلَّقُوا فِي الشَّرِّ فَاسْتَعِزَّ رَبُّ الْبِرِّ يَا مَنْ جَهَوْلِي وَعَالَمِ
وَلَوْ عَرَفُوا مَا أُنْكَرُوهُ لِأَقْبُنُوا بَأْنَ نَعِيمِ الْهَمْرِ خُدْعُهُ حَالِمِ
تَأْمَلُ زُويْدًا يَا ابْنَ وَدَى فَوَل تَرَى عَلَى صَفْحَاتِ الْأَرْضِ غَيْرَ مَعَالِمِ ؟
يَطْنُ عَلَيَّ الْقَوْمُ فِي الطَّبِّ بِرَأْهِ وَلَمْ يَذْرَأَنَّ الطَّبَّ لَيْشَ بِالسَّالِمِ
فَإِذَا لَسْمًا ، أَوْ فَاتَخَذَ لَكَ سُلْكَ لَتَرَقَى إِلَى أَبْرَاجِهِ بِالسَّلَامِ
وَكَيْفَ تَذَالُ النَّفْسُ فِي الدَّمْرِ عَيْشَةً تَأْكُلُ بِهَا ، وَالدَّمْرُ غَيْرُ مَسَالِمِ^(٢)

(١) الصفار : الكثير المفير وهو الطيور ؛ والشحاج : الفراخ الكثير التراب .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي مقطوعة من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة

(س) ص ٢٤٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٣ .

وتقرر جمعية الأطباء (القمسيون) بسرنديب - بعد أن اشتدت وطأة المرض على البارودى - ضرورة عودته إلى وطنه لمعالجته فى المناخ الذى ولد وشب فيه ، وأشارت إلى أنه سيصاب بالعمى لا محالة إن ظل بالجزيرة ، وقد يدركه ما أدرك إخواننا له من قبل ، وكان قد توفى من رفاق النفى بالجزيرة عبد المال حلى (١٨٩١) ومحمود فهمى (١٨٩٤) لعدم ملائمة مناخ البلاد الاستوائى لصحتهم .

ويجزع صاحب البارودى وأهله بالقاهرة ويخافون أن يدركه القضاء فى مرضه وهو بسرنديب ، فيلحون عليه أن يتقدم بملتمس إلى الخديو عباس ليسمح له بالعودة إلى مصر للاستشفاء ، ويبقى الشيخ عمده بكل ثقله ومساعيه لينقذ صديقه المانى الغريب وقد دبت إليه نذر الفناء^(١) ، وتتكلل المساعي بالنجاح ويسمح البارودى بالعودة . ورد الله الغريب المذهب إلى وطنه ، وعاد البلبل الصداح إلى روضه ، وفك الله إزار المانى ، وبلى شوقه وصداه بعد طول اغتراب وبعد نفى امتد سبعة عشر عاما !

أقلت السفينة من ميناء كولومبو أول سبتمبر سنة ١٨٩٩ وتقول ابنته فاطمة وكانت وقت العودة فى الثامنة من عمرها :

« وجفا النوم عيني الباشا طوال الرحلة وهجر قرته وصار يتنقل فى أبهاء الباخرة لا يقر له قرار ، وكان شارد الذهن لا يسمعا حين نتحدث إليه وكأنه بعيد عنا ، ولزم الصمت لا يشارك فى حديث ، وكنا صغارا لا نذكر ما هو فيه من اللامانة والشوق . ولم يكن شوقنا - وقد قدنا جميعا فى سيلان - من طبيعة الشوق الذى يكابده « الباشا » ، وكنا قد سمعنا من أبى وأمى

(١) مقلومات الأسره .

الكثير عن وطننا مصر فأحييناها على البعد ، ومن ثم كان شوقنا إليها شوق
للسطام المجهول الجميل الذى يملأ علينا أنكارنا وأسماعنا « . وتصل السفينة
إلى ميناء السويس صباح ١٢ سبتمبر ١٨٩٩ بالأسير المائد وأهله « فقف على
ظهر السفينة مستقبلا مصر وهو قابض على سور السفينة والدموع تنهمر من
مآقيه ، ولا يجرؤ أحد منا أو من مستقبله من أخواتنا وإخوتنا أو الأهل
والاصحاب أن يقترب منه فيقطع عليه لحظة اللقاء مع وطنه الحبيب ^(١) » .

(١) من حديثها لى فى مارس ١٩٦٦ .

الفصل السادس

بعد العودة من المنفى

هذى الجزيرةُ فانظر، هل ترى أحدًا ينأى به الخوف، أو يدنو به الطمُحُ
كانت منازلُ أملاك، إذا صدعوا بالأمر كادت قلوبُ الناس تنصدعُ
عاثوا بها حِقْبَةً، حتى إذا نهضت طيرُ الحواشي من أوكارها وقنوا
زالوا، فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تسطت الأعيادُ والجمعُ

* * *

أَلَا قَاتَلَ اللهُ الحَيَاةَ فَإِنَّهَا إلى اللوتِ أدنى من قمرِ لبنانِ
إِذَا مَا بَسَاكَ الدَّهْرُ ظَلْتَ صرُوفَهُ تَهْدَمُنَا ، وَالدَّهْرُ أَغْدُرُ بَانِ
إِذَا مَا الْأَبُّ الْأَعْلَى مَعَى لِسَبِيلِهِ قَدْ لَبِئْسَ بِالْبَقَاءِ يَدَانِ

البارودي

الزعيم العائد

اللقاء بعد الغيبة :

تواكب للوطنون ومن بقي من رقاء الجهاد إلى دار البارودى لتحية
الزعيم العائد ، وتوافد عليه عشاق الأدب والشعراء وأهل الفكر والعلماء لتهنئته
بالعودة ، وقد كانت أويته إليهم عيداً نشر البشر في محيطهم فتسابقوا إليه ،
يعبد حبل الود من كان على معرفة به قبل النفي ، ويصدق أواصر الصلة معه
أبناء الجيل الجديد ممن سمعوا عنه وعرفوه قبل رؤيته من خلال شعره
وجهاده ، وكلهم لهفة وشوق إلى سماع قيثارة الشعر تعزف « لحن اللقاء » .
وغنى البارودى لوطنه ومواطنيه « أنشودة العودة » وقال قصيدته المشهورة
التي يستهلها بقوله :

أَبَايِلُ رَأَيْتُ الْعَيْنَ أَمْ هَذِهِ مِصْرُ فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عِيُونًا هِيَ السَّحَرُ
ويعفى البارودى فيتغزل في فائنات مصر وهو لا يقصد إلا التغزل في فائنته
الكبرى وعاشقته التي تيمته سبعة عشر عاماً غاب فيها عن ربوعها فيقول :

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِحُبِّكَ عَالِمًا بَأَنَّ جَنُوتِي فِي هَوَاكَ هُوَ الْفَخْرُ
ثم يرجع على العناصر الرجعية التي تتألى للتمتع وتمكن له في احتلال
البلاد وقد شوهوا الثورة بإفتراءاتهم وحللت التشهير التي شنوها على قياداتها ،
ثم أفزعهم عودة زعمائها وملأهم الخوف من أن تتجمع الأمة حولهم من جديد ،
فيطلبون الحبر على ألسنتهم وأقلامهم ، فيقول البارودى فيهم :

إِذَا مَا أُبَيِّتُ الْحَيَّ فَارَتْ بِنِظْمِهَا قُلُوبُ رِجَالٍ حَشَوْ أَمَاقَهَا الْفَلَرُ
يظنون بي شراً ، ولست بأهله وغلن النقي من غير بَيِّنَةٍ وَرَزُرُ

وماذا عليهم إن ترثم شاعر بقافية لا عيب فيها ولا نُكْرُ ؟
أفي الحق أن تبكى الحائمُ شعجوها وَيُنْبِئِي فلا يبكي على نفسه حُرًّا ١٩

وتستقبل المصحف ذات الصبغة الوطنية الزعيم المائد استقبالا حافلا ، فيكتب محرر الميزيد : « عاد محمود سامي باشا البارودي إلى القاهرة عائداً من منفاه ، والله أعلم بمقدار ما خاسر قلوب أهله وأصدقائه من الفرح ، بل وما خاسر قلبه وامتزج بكل حواسه منه عندما وطئت أقدامه تراب النيل بعد أن بلغ به اليأس منهائه . وقصدت داره ، ولم أكن قد درأته من قبل ، فإذا هو رجل ربة يميل إلى الطول قليلا ، نحيف الجسم كأنما هو ناقة من سرس طويل . كثر اللحية أبيض المارضين مختلط شعر الرأس مع صلع خفيف ، وقد وضع على عينيه نظارة سوداء تغطيها لأشعة الضياء . . . وسألته عن صحته فقال : إنه كان قد أصيب قبل ثلاثة أشهر بمرض أشبه بالحمى الخبيثة ، وكاد يقع منه في اليأس حتى من الله عليه بالشفاء ، ولكن الذي يكدر صفوه وينقص عليه طيب الحياة ما ألم بصره ، وعند ذلك رفع النظارة عن عينيه فإذا بمشاورتين بادبتين عليهما . ثم سأله عن رفاقه في جزيرة سيلان وهم عرابي وبه قلوب سامي وعلى فهمي فقال : إن صحتهم جميعا سيئة وتندهور يوما بعد يوم ، فسي الله أن يفك السكرب عنهم ويشملهم بعطفه فيعودوا إلى الديار ، وكان كلما استطرده الحديث عاد إلى ذكرى آلامه التي عاناها في منفاه وخاصة بعد أن أصيبت عيناه فقال : ما أشد ما كنت فيه من الأكدار والأحزان وحيدا لا إنسان تود الحديث إليه ، ولا أنيس تله محاضرتة أو تطيب معاشرته . وكان لي حين مطالعة الكتب والمصحف خير ما يقبلى به للرؤى في وحدته ويأنس إليه مثلي في غربته ، فلما أصاب بصري ما أصابه فقدت كل لذة في الحياة ^(١) . »

(١) على يوسف : الميزيد في ١١ / ٩ / ١٩٦٩ ؛ أنظر أيضاً : الهلال ١٥ سبتمبر ١٩٦٩ السنة ٧ عدد ٧٤٤ .

وتجد الصحف الوطنية وصحابة البارودي إبان العودة حرجا في ذكر رتبة مع اسمه ، وهم يكتبون عنه أو يتحدثون إليه ، في عصر يبعد الألقاب ولما تمد إليه ألقابه وكانت بعض الصحف تكتب جوار اسمه تب « باشا » بين قوسين وبعضها الآخر يكتب اسمه مجردا من كل لقب . ويسخر البارودي من مهزلة الألقاب كلها ويقول :

مِنْحَتَكَ أَلقَابُ الْمَلَا فَأَدْعِي بِاسْمِي فَمَا تَخْفِضُ الْألقَابُ حُرًّا وَلَا تُنْسِي
إِذَا كَانَ عُقْبَانُ الْجَلِيدِ إِلَى يَلِي فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ الْحَدِيثِ إِلَى الرَّسْمِ^(١)
تَفْلَسَ قَوْمٌ فِي الْمَقَالِ وَمَا دَرَوْا جَرِيرَةَ مَا أَقْبَوْا عَلَى الدَّهْرِ مِنْ وَسْمِ
وَنَوْرَاجُوا هَذِهِ النُّفُوسَ لِمَالِجُوا بِتَرْكِ اتِّخَالِطِهَا مُضِلًّا الدَّاءَ بِالْحَنِمِ
بَرَنْتِي تَبَارِيحُ الْحَيَاةِ فَلَمْ تَدْعُ لِي سِوَى رُوحٍ تَرُدُّ فِي جِسْمِ
يَقُولُونَ « مُحَمَّدٌ » ، وَيَا لَيْتَ أَنِّي كَا زَعَمُوا ، أَوْلَيْتَ لِي طَالَمَا كَاسِي^(٢)

وينصح البارودي أطباؤه بسكنى حلوان على هواها الجاف ومياهها للمدينة تبلة من مرضه وترد له ما زاغ من البصر ، فيقيم في دار تجاور دار الشاعر « أحمد شوقي » ويلتقي شباب الشعر بشيخوخته . ويصف شوقي جاره زليل حلوان فيقول : « منكوب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق في البرامكة ، من جاه بطويه ، ونعيم بنويه ، وولد يرديه ، ونور بطنيه ، وحسب وضاح بطنيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه . جاورته بحلوان الشهور العوال يشد بيتينا طنب ، وينتظم دارينا جدار ، فإذا الجار كريم ، وإذا الشاعر عظيم^(٣) » .

(١) عقبان : ماقية ؛ والرسم : ما كان لاحقا بالأرض من آثار الديار .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهي من قصيدة عدد أبياتها ١٤ بيتا وهي من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ٢٤٧ ؛ والمخطوطة (ج) ٢٥٢ . (٣) من رسالة أحمد شوقي إلى الدكتور عبد صبري عام ١٩٢٣ ؛ انظر : الشوقيات المجهولة لمحمد صبري (١٩٦٢) ج ٢ ص ١٧٥ .

وتتوافد على البارودي مواكب الذكريات في حلوان ، فقد كانت سرته
لهوه ومغنى هواه . وتسمفه ربة الشعر فتعترف لذكرى الهوى والشباب عل
صحته وعافيته تمودان إليه ، ويضطرب البارودي وتسكره الذكريات فيجى حلوان
وقائتها بمطولة يستهلها بقوله :

طربتُ ، ولولا الحلمُ أدركنى الجهلُ وعادنى ما كان من شرّنى قبلُ
فرحتُ كأنى خامرتنى سبيئة من الراح من يعلّق بها الدهر لا يسؤلُ
ويمضى البارودي فيصف الخمر وأنواعها وأفاعيها بشاريها ، فيعيد إلى
الأذهان خبرته في الخمرات أيام الصبا والفتوة ، ومن الخمر ينتقل إلى التشبيب
والنزل فيقول :

وما كنتُ أدري والشبابُ مطيةً إلى الجهل أن العشق يعقبه الخبلُ
رمى الله هاتيك العيوبَ بما رمت وحاسبها حُسبان من حُكمه العدلُ
فقد تركتني ساهى العقلِ سادراً إلى التئى لا عقدٌ لى ولا حلُ
ثم يحى فائتات حلوان وكان له مهمه في الشباب شأن أى شأن فيضى
عليهن من الحسن والجل الكثير ، ثم يتحدث عن صاحبة النظرة السكرى التى
تشبه من سلبته قلبه في شبابه ، ولا يجد الشاعر وقد هدمه المرض والشيخوخة
دواعى الفخر أمام فائتاته غير الفخر بقومه وآبائه ، وحين يرد ذكرهم على
لسان البارودي يملكه الزهو بهم، وتركبه جركيته فينسى كل شىء إلا فضل
أجداده على الدنيا ، فيفيض في التفتى بشجاعتهم وأجسادهم ، ثم يصل مجده
بمجدهم وشجاعته بشجاعتهم فيقول :

تلوحُ عليه من أيه وجدّه مخائلُ ساوى بينها القرعُ والأصلُ
إذا صال ربه السيفُ حرّ غليله وإن قال أوزى زندّه المنطقُ الفصلُ

ويطير به طائر الفخر فيذكر فضله فيما مضى والدنيا مقبلة عليه والسلطة تسعى بين يديه ، أما بعد ذهاب الدنيا فله الفضل بالذکر الحسن فيقول :

لنا الفضلُ فيما قد مضى وهو قائمٌ لدينا ، وفيما بعد ذاك لنا الفضلُ

ويسمى معارف البارودي عن لحم صلة بالسراى لدى الخديو كى يعيد إليه أملاكه المصادرة ورتبه المجرد منها ، حتى يقضى مابقى له من أعوام مكرماً موفور الرزق غير مضيق عليه في وطنه . ويتمثل « الخديو الصغير » بأن البارودي جحد فضله عليه فلم يأت ليشكره على عفوه عنه ، وينصح البارودي معارفه وصحبه بأن يفعل ، ولكنه يأبى حتى يُطلب ، ويستدعيه الخديو لمقابلته ، وكانت الظلة قد غشيت عينيه ، فيشترط أن يصطحبه صديقه محمد عبده ولا أحد سواه^(١) ليأخذ بيده في هذا اللقاء . وبعد القابلة يدفع البارودي الجزية ، ويقدم ثمن حريته وعودته من اللقي لباس ، فينظم مقطوعة من ثمانية أبيات « يشكره فيها على ما أولاه من حسن الرضا^(٢) » .

وفي ١٧ مايو ١٩٠٠ يعيد الخديو إلى البارودي ألقابه وأملاكه الموقوفة ، فتقبل الدنيا عليه بعض الإقبال وتهادنه بعد نفورها الطويل ، ويعترف البارودي لباس بالجليل فيشكره ويمدحه في قصيدة أخرى . على أن البارودي لم يستعصم معروف عباس إلى أن يصبح شاعر بلاط يمدحه في التناصيات كما يفعل شعراء العصر من أمثال شوقي وعلى الأبي وغيرهما ، فذلك لم يكن ديدنه ولا طبعه . ولعل للبارودي بعض المذر حين مدح سليل الرجمية والخيانة رداً لجليته ، فقد كان عباس وقتذاك يقف في الصف الوطنى ضد الاستعمار ، وكان يضع يده في يد مصطفى كامل قبل أن يتقلب على عقبيه بعد حادث الجيش عام ١٩٠٦ ويعود

(١) معلومات الأسرة ، وكان بين الخديو والشيخ محمد عبده جفوة أدت إلى القطيعة بينها .

(٢) الديوان (الجارم) ج ١ ص ١٥ .

إلى سيرة أسرته ويصبح العميل الخانع للاستعمار . وفي يقينى أن البارودى لو عاش حتى رأى هذا التحول فى عباس لما حدثته نفسه بملحه . ومع ذلك فقصاصه الثلاث فيه خالية من الروح الشعرية التى امتاز بها البارودى ، وهى من الشعر النادر الذى ظهر فيه التكلف والاقتصار ، ولعل مشاعر الرجل قد عصته حين دعاها للقول سيما وأن ماقله البارودى فيه لم يكن انبعاثا ذاتيا ، بل قياما بالواجب نحو من عفا عنه وورده إلى وطنه الحبيب وأعاد إليه أملاكه وألقابه .

الندوة الأدبية الثانية :

ويعود البارودى من حلوان إلى داره « بنيط المدة » بباب الخلق فى صيف عام ١٩٠١ فتصبح الدار منتدى الأدباء والشعراء وذوى المكانة ، يأتونه فيأتسون إليه ويأتئس بهم ، ويستمتعون بحديثه ويستمع إلى إنشاده وإنشائهم ومناقشاتهم ، ويرى فى مجالستهم ما يأسو جراحه التى أدمت قلبه طوال سنوات التنفى للمعاج . وكان من أشهر رواد ندوته إسماعيل صبرى ، وأحمد شوقي ، وخليل مطران ، وحفنى ناصف ، وحافظ إبراهيم ، ومحمد إبراهيم هلال ^(١) ، وحامد خلوصى ، وحسن حدى ^(٢) ، وعبد المحسن الكاظمى ^(٣) ، ومصطفى صادق الرافعى ^(٤) من الشعراء ، والشيخ محمد عبده ، ومحمد رشيد رضا من العلماء ^(٥) ، وغيرهم من أهل الفن والفكر والعلم وعشاق الأدب والشعر . وفى هذه الندوة أخذت مدرسة النهضة للشعر العربى ترمى قواعدها ، وتعد ينابيعها إلى الأمة العربية كلها ، وتحول الشعر من الوقوف على أبواب البلاط إلى الشعب يعالج قضايا الساعة ويقرأ الجميع . ويلتقى فى الندوة الزعم بالرواد والأستاذ بالحواريين ، وكلهم يرنون إليه ويتقربون

(١) طاهر الطائى : الحلال السنة ٣٨ ج ٤ ١٩٣٠ . (٢) المجلة المصرية فى ١٠/٥/١٩٠٠ .

(٣) الرسالة عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ . (٤) القنطاط جلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .

(٥) ١١١ : ١٠ جزء ٢٠ ديسمبر ١٩٠٤ .

منه ، فقد كان البارودي زعيم النهضة الشعرية التي تحملهم على جناحها فيقرون له بالفضل . مهد لهم الطريق فأخذ الشعر من أدراجه وأوشابه الثمانية ، وأخذ بيده من عثرة الأساليب الركيكة ، وقنح فيه من شاعريته فبعثه من مرقد ورد إليه الروح العربية السامية وبث فيه الحياة : حياة نفسه ، وروح عصره وقومه ، فعال بين الشعر وبين التماهى في السقوط الذي كان يهوى إلى دركه . وقدم للأمة العربية شعراً ملك عليها القلوب والأسماع بمزاجه ونصاعته وبهجة الדיباجة فيه ، تنبث منه الروح العربية الخالدة ، وتظهر فيه الشخصية القومية البارزة والشخصية الفردية المستقلة لحريتها ، وتمثل فيه أحاسيسه ومشاعره ، فيصبح منطلقاً لمواطنه المختلفة ، ومتفصلاً لمشاعر أمته للتباينة في فترات التحول الكبير من الاستبداد إلى الثورة ثم إلى المزعجة والاحتلال .

ويتردد إسماعيل صبرى على ندوة البارودي ، وكان من أقرب الشعراء إلى قلب الشاعر الكبير . ويصطحب معه في زورة له عبيده الحامولى الفخري^(١) ، وكان قد سبقهم إلى الندوة للمجن محمد عثمان ، ويقول البارودي لإسماعيل صبرى : لماذا لم تنظموا دوراً بمناسبة الاحتلال وأحداث وادى النيل ؟ فيقول صبرى : ننظم يا باشا ، فيرد البارودي وأنت قاعد الآن . وينظم في الحال إسماعيل صبرى دور :

شُفْنَا وَعَشْنَا سَعِين وَمِنْ عَاشٍ يُشَوِّفُ الْعَجَبِ
شَرِبْنَا الضَّنَا وَالْأُنَيْن جَمَلْنَا لِرُوحِنَا طَرْبِ
وغيرنا تَمَلَّكَ وَصَال وَاحْنَا نَصِينَا خَيَالِ
كَدَا الْعَدْلُ يَمْنَعِينِ

وسلم الدور لمحمد الحامولي فسلمه بدوره لمحمد عثمان لتلحينه ، وتفننه بعد ذلك عبده وكبار الملحنين ^(١) .

وينتظم أحد شوق في سلك رواد اللدوة ويكتب عن الهارودي في جلساتها فيقول : « ما سمعته من مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته إلا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه . . . سأله مرة إسماعيل صبرى : هل له مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا . قال : وما منعك ؟ قال على بأن المنضب في طباعى وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات فيبقى القلم على الرجال . فقال حامد خلوصى ، وكان ممن ضم المجلس ، صدقت ، ألسن القائل (وتنضب في شروى نقيذ ونشد) ؟ فتبسم رحمه الله ^(٢) . ويسأله آخر فى ذلك فيقول : « إن الكلام فى هذا للوضوع قد يتناول أشخاصا صاروا فى ذمة التاريخ ، وليس من المروءة أن يسكلم عن شخص لا يستطيع الدفاع عن نفسه ^(٣) » .

ويقص علينا خليل مطران قصة اللقاء بينه وبين أستاذه فيقول : « أدركته بمدمودته من اللقى صيف عام ١٩٠٠ ، وزرتة مع صديقه الكاتب الشاعر محمد إبراهيم هلال ، ودخلنا عليه وهو فى صدر مجلده ، فحيانا بذلك اللطف الذى كان لا يفارقه ولا تثبت معه الكلفة . وكان لى معه بمس ذلك ود عهد . وافق أن جثته ذات يوم ، ما بيننا ثالث ، فتطارحنا الشعر ، وتباحثنا فيه ،

(١) الشوقيات المجهولة ج ٢ ص ٤٦ ، وبقية الدور :

تعم الجبل أنجاز وصدق المعاهدة شرف
ومن يقبم الرفق فز حتى بفضل اعترف
سلاى عليك يا زمان زمان هنا والأمان
بفضل الأجابة العزاز

(٢) من رسالة كتبها أحد شوق إلى الدكتور محمد صبرى عام ١٩٢٣ : أنظر : الشوقيات المجهولة ج ٢ ص ١٧٥ .

(٣) طاهر الطناحى : الهلال السنة ٣٨ عدد فبراير ١٩٣٠ .

ثم اقترحت عليه بيتين يرتجلهما ، فاستوى بفكر ، استوى ساكناً ساجياً مسنداً ظهره إلى الحائط . وفكر غير متقبض الحيا ولا مفتت التلاح . متهلة سماحة وجهه اللامع بأنوار الزوال ، بين بلج لحيته البيضاء المستديرة ، وقم الناظرتين السوداويتين اللتين تحجبان عينيه ، مرت بي وبه دقيقة ، وهو متمكن من تأمله ، وأنا مسترسل مع خاطر أخطرت في قلبي رؤية الرجل على هذه الحال ، فخيّل لي أنني لدى تمثال من تلك التماثيل التي أقامها صناع اليونان لبعض للتقدمين من حكمائهم . وتبدلت في ذهني الناظرتان بالظليلين الذين يحيطان باليون المطبقة في تلك التماثيل وعاد إلى وهمي استطرافاً قوة ما أبدعوه في تلك الأنصاب ، حتى أعاروا بإقتانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية .

«وبينا أنا مستغرق الحواس بلك الذكرى ، إذ تحرك الرجل تحرك من يسبح معنى مستصياً ، ففنته تنبه دهشة كآني بالتمثال وقد تحرك . وفي تلك الوهلة تصورت لأول مرة أن الرجل - وذلك رسمه وتلك بشرته البيضاء - ليس بعربي النعمة ، وقضيت عجباً لآية البيان التي تنفي عندها فروق الأصول والفروع والأمكنة والأزمان^(١) .

وتتوطد الصداقة بين الشاعرين ، ويخص البارودي « للجنة المصرية » و « الجوائب المصرية » من بعدها - وهما خليل مطران - بقصائده^(٢) . وزهو مطران بنشر شعر البارودي ويفخر ، ويحتفي بكل قصيدة ينشرها احتفاء خاصاً ، ويقدم لها بما يناسب مقام البارودي الشاعر . وما نشر في « المجلة المصرية » قصيدة عنوانها مطران بقوله « الجليل من القليل » ، ثم قدم لها بقوله : « أعفنا

(١) المجلة المصرية: عدد ١٤ عام ١٩٠٩ .

(٢) أنظر : المجلة المصرية سنة ١٠٠٤ ، أعداد ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ عام ١٩٠٠ .

شعاع الشاعر العظيم العربي اللين محمود باشا ساعى البارودى بهذه الأبيات يصف بها عصفورا على شجرة . وهو موضوع قليل بذاته سابع فكره إلى أعلى طبقات الخيال ، وراق لفظه حتى لارقة بسده فى نظم ولا إبداع فى مقال . وكأن بسادته أراد أن يرى الناس آية من آيات اقتداره فى استخراج مثل هذا القول العظيم من ذلك للوضع العقيم^(١) . وهى القصيدة التى يستلها بقوله :

وَقَبَاةٌ أَطْلَقَتْ عَيْنًا مِنْ سِنَةٍ كَانَتْ حَيَاةً ذَائِبٍ زَارِنٍ سَحَرَا

ويجب خليل مطران بعد أن زادت معرفته بأستاذة ، وبعد أن لازمه واطلع على حياته فى بيته وأصبح من المقربين إلى روحه « من أن هذا الوزير الذى اقتدح زناد تلك الفتنة المستطيرة ، لم يكن مع شجاعته وإقدامه الذين بلغنا به أقصى مبالئها فى مياطين القتال إلا رجل سكنية ووداعة وحلم ، وقلم كان رجل أرق منه قلباً على ذويه ، وأحفظ عهداً لحبيه . ولعل إصابته بكرمته هى التى قلصت من كبده ، وأودت بحسده . ثم لمث العارف بموادث حياته لا يكاد يصدق أنه هو الرجل الذى كان ديدنه فى سنواته الأخيرة أن يجمع أطفاله وهم غلامان وأربع فتيات^(٢) ، فيجعل لهم مسكناً خصيصاً من البيت لتلقى العلوم واللغات بضرئها على أساتذة يخضرون فى مواعيد كأنهم فى مدرسة قانونية ، فيرى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ، ثم يمتحنهم آخر كل شهر ، ويوزع عليهم المكافآت . ويمضى مطران فيقول : « على أن هذا البر إنما كان إحدى شمائله وفضائله ، فإن أريد بعض التعداد فالجودة مع الجود ، والكياسة مع لطف الحس ، والصفح مع القسوة ، والإيناس مع علو

(١) المجلة المصرية السنة الأولى عدد ١٣ عام ١٩٠٠ .

(٢) قرية واطمة وزبب ومشية وعبد أشرف وإبراهيم كمال ، وكلهم من مواليد سيلان .

النفس وشرف الطبع^(١) .

وكان البارودى بينه وبين نفسه يؤثر بالود حافظا على شوقى ولا يظهر ذلك لأى منهما - كما تقول ابنته مشيرة^(٢) - « فكان إذا أتى نأ قدوم شوقى إليه تقضن وجهه لحظات قصيرة فنمرف أنه لا يسر لقائه ، وخاصة فى فترة تهيجه فى الصحف على عرابى والثورة العرابية إبان عودة عرابى من منفاه (١٩٠١/٩/٢٩) » . وكان شوقى كثيرا ما يأتى إلى الهاشما يطلب اللطع لقصائمه . وإذا ما جاء حافظ كانت تنفرج أساريره ويسرع لقائه .

وزارة حافظ ذات يوم من أكتوبر عام ١٩٠٠ ، وكان حافظ فى ذلك الحين سىء الحال بعد عودته من السودان وإحالاته إلى الاستيداع ، فأشد قصيدة دالية نظمها فى البارودى وأشاد فيها بمناقبه ، وبدأها بقوله :

تعمدت قَتلى فى الكوى وتعمدا فما أئمت عيني ولا لحظه اعتدى

كلانا له عذر ، فعمرى شيبتي وعزرك أنى رجت سيفا مجردا

ثم خاطب البارودى بعد أبيات فقال :

أَميرَ القوافى إن لى مُستهاماً بمدح ، ومن لى فيك أن أبلغ لى

أعزنى لمحكىك اليراع الذى به تخط ، وأقرضى القريض للشدا

واستطرد فى مدح البارودى إلى أن قال :

أئيت ولى نفس أطالت جدالها سيقضى عليها كرمها اليوم أو غدا

فإن لم تداركها بفضل فقد أنت تودع مولاهما وتستقبل الردى

(١) الجواب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٥ / ١٢ / ١٩٠٤ .

(٢) من حديثها إلى فى مارس ١٩٦٦ .

(٣) انظر : حقيقى الآراء والمؤيد فى شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٠١ .

قال خليل مطران : « فلما سمع البارودي هذين البيتين بكى بكاء حاراً ، وناشد حافظاً أن يحذفهما من القصيدة . ونهض من مكانه ، ثم عاد ويصده ظرف به أربعمون جنبها ناوله حافظاً ، وهي قيمة ما كان مقرراً للبارودي وقتئذ من معاش . ثم قال لحافظ : إني أبكي ، لأنني عشت إلى زمن يقدم فيه مثلي إلى مثلك هذا المبلغ الضئيل^(١) . وكان البارودي بعد أن خرج حافظ قد استشر اليوم من الصديق الثالث^(٢) لأنه جاد بكل مرتبه دون أن يبقى لنفسه أو لأسرته شيئاً ، ولم تكن أملاكه المصادرة قد ردت إليه فيقول

البارودي :

لا تَعْدَلَنِي عَلَى وَفْرِ سَمْعَتِي بِهِ لِلْعَفَقَيْنِ فَإِنِّي مَا جُدُ الشَّيْءِ^(٣)
 إِنْ لَمْ يَكُنْ لَانْ ، جَوْدٌ يَسُدُّ بِهِ مَقَافِرَ الصَّحْبِ فَالْمُنْرَاةُ كَالْعَدَمِ^(٤)
 فَإِنْ يَكُنْ قَلٌّ مَالِي بَعْدَ وَفَرْتِهِ فَإِنَّ مَالِي لَا يَقْوَى عَلَى الْكِرَمِ^(٥)

وحين أصدر حافظ الجزء الأول من ديوانه عام ١٩٠١^(٦) قرطه البارودي بقصيدة أشاد فيها بفضل في دوحة القصيد واستهلها بقوله :

هيهات ، ليس لحافظ من مُشبهه في القول غيرُ سَمِيَّةِ الشَّيرَازِي

وكان من أصدقائه وعشاق أدبه ورواد ندوته الشاعر الثائر محمد إبراهيم هلال ،

(١) آخر : حياة طمران لطاهر الطناحي (١٩٦٥) ص ١٩٧ — ١٩٨ ، وقد وفي حافظ للبارودي فعذف البيتين من القصيدة ولم ينشرهما في الديوان ولا في الصحف .

(٢) مو خليل مطران : معلومات الأسرة .

(٣) المتنون : طالبو الفضل أو الرزق . (٤) يقال مثرة الحال : بكثرة له .

(٥) هذه الأبيات لم يسبق نشرهما وهي من الجزء المخطوط من الديوان المخطوطة (س) ص ٢٠٨ ؛

والمخطوطة (ج) في ٢٦٤ . (٦) الثائر عجله ٤ ص ٤٧١ عام ١٩٠١ .

وحين أجريت البارودي جراحة في عينيه ولم تفلح في أن ترد إليها النور ، كتب له قصيدة يهون عليه المصاب فيها ومثلها :

بالتجدي ما يك يا «محمود» من ألم . وبالتكأريم ما حُلت من سقم .
تأذا يريدُ زمانُ الشوه من رجلٍ ممنع الجاه بين السيفِ والقلم ؟
فرد عليه البارودي بقوله :

سبقت بالفضل قاسم ما وحاه في فانت أول بهما الأثر من سكي (١)
أبا هلالٍ لقد صادفت متججسا بين الجوارح فأقرله ولا تريم (٢)
إن اللودة إن صحت عدت نسباً بين الأباعد فنفيم عن الرجيم
فتق بذمة عهد فهاك صادقة فليس كل خليل صادق الدميم (٣)
ومن رواد ندوة البارودي الأدبية الشاعر العراقي المهاجر عبد المحسن الكاظمي (٤) .

وكان من مريدي مدرسة البارودي ومن الناهجين على منوالها . اتصل به من قرب ، ووصل البارودي غربته بالود ، فكان الكاظمي يلزمه ملازمة الظل ، ويقول عنه بمد معرفة وتجربة : « عرفت أن اللودة للصبرية تمثلت لعيني في

(١) وحى إليه كلاماً : كلمة سراً أو كلمة بما يخفيه عن غيره . (٢) لا تريم : لا تبرح المكان . (٣) نسر هذه الأبيات الأربعة طاهر الطناحي في الهلال السنة ٣٨ جزء ٤ ، أول فبراير سنة ١٩٣٠ . وفي الديوان غير البارودي بيتاً في المقطوعة وهو البيت الثاني فيجعله « باراند الود قد صادفت ... الخ وزاد عليها ثلاثة أبيات هي :

أوليتك، منك فضلاً قد ملكته به قلبى فهاك يدى فى الود فاحتكم
واعذر إذا لم أجد فى القول مفسماً فالسرء لا يبلغ الأفلاك بالمميم
لا زلت ترقل فى أنواب عافية . موشية بطراز الحميم والنميم
أنظر : المخطوطة (س) ص ٢٥٦ ، والمخطوطة (ج) ص ٢٦٢ والبيت الأخير روى في المخطوطتين « لا زلت ترقل فى الأنواب عافية » .

(٤) هاجر إلى مصر عام ١٨٩٩ وهو فى التاسعة والعشرين من عمره وظل بها حتى توفى عام ١٩٣٥

شخصيتين كريمين : الأولى شخصية الشيخ محمد عبده ، والثانية محمود سامي البارودي . وكان البارودي على السنتنا وألسنة عارفيه يتمتع بلقب الأمير ، وقد كان أميراً في جميع شئانه الثانية ^(١) . ويحكى الكاظمي قصة حادث وقع للبارودي بسببه ، وكان كلما ذكره تألم وتوجع ، فيقول : « كنت أسكن في حارة « قرمز » بحي الجمالية . وكان مسكني بغرفة صغيرة فوق السطح ، والسلم إليها مهدم الدرجات ليس له سور ، وكان البارودي يرى من أدب الإمارة أن يرد الزيارة لكل غريب ، وكنت يومئذ من الغرباء ، فقد كنت حديث العهد بالقدوم من العراق ، وفي إحدى الزيارات تخوف البارودي من ذلك السلم لضعف بصره ، فاعتمد على الحائط فنفذ في كفه سمار ومزقه أشنع تمزيق وآذى يده . وما ذكرت ذلك الحادث إلا تأملت لما كان يمانى الأمير في سبيل الوفاء وللروءة ^(٢) . »

ويحكى الكاظمي لأحد أصدقائه ^(٣) نادرة حدثت للبارودي تفوق الصور الشعرية فيقول : « كان البارودي يعرف مصيره بعد انهزام الجيش المصري وقرار التسليم ، فاستدعى أحد أصدقائه من أعيان الغربية ، وأخبره أن في خزانته كثيراً من الذخائر الذهبية تتوارثها الأسرة جيلاً بعد جيل ، وأنه يخشى أن تصير الذخائر من غنائم المنتصرين ، ثم فوق بصره إلى ذلك الصديق وقال : هذه الذخائر ودعيت عندك فإن مت فهي لك مال جلال ، وإن نجوت أو نقيت وأرادت لي الأقدار أن أرجع إلى مصر حياً فالنصف لي والنصف لك ، وبعد

(١) الرسالة السنة ٩٤٧ عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ .

(٢) ووى الكاظمي هذه القصة لزمكي مبارك : أظن : الرسالة السنة ٩ عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ .

(٣) هو محمود فهمي القزاشي (١٨٨٦ — ١٩٤٨) وكان قبل اشتغاله بالسياسة وتقلده منصب رئيس الوزراء سكرتيراً في وزارة المعارف والأدباء . وقد حكى القصة بدوره لزمكي مبارك عام ١٩٣١ .

سبعة عشر عاماً عاد البارودي من مفاه وطلب نصيبه من الودائع الذهبية ، فأنكرها ذلك الصديق ، وأظهر استغرابه من أن يكون للبارودي عنده ودائع وقد خرج من مصر وهو حبيب سليل ، ومرض الصديق الفادر بعد شهرين بمرض الموت ، فتجشم الشيخ محمد عبده مشقة الانتقال إليه ليعظه بأن الدنيا لا تنفى عن الآخرة ، وأن من واجبه أن يرد الأمانة إلى أهلها ، فاعترف المحتضر بعشرة آلاف جنيه لاغير وهو ينتظر أن يقبلها البارودي بالحمد والثناء وكان في عسرة لم ترد إليه أملاكه بعد . وجاء الشيخ محمد عبده بصرة خفيفة فيها الجنيئات الذهبية وهو يرجو أن يكون في تلك الصرة عزاء للأمر عن بلواه بذلك العقوق وما إن وضع الصرة أمامه حتى نظر إليها الأمير نظرة اليمث الشبان إلى الثمر للمطلوب ، وصاح : لن آخذ درهما من هذه الألف ، ويجب أن ترد حالا إلى سارقها قبل أن يموت ، لتكوى بها جنوبه وجلوده في جهنم ، وله الويل إن وقع بصرى عليه يوم الحساب أمام العادل الديان . ونسى الشيخ محمد عبده تعبته ومشقته ، وطرب لإيمان البارودي وعظمته وإيمانه وقال : إن مصر بخير دائماً ، وستظل أكرم للناث لأحرار الرجال ^(١) .

وشيع البارودي صديقه الفادر وماله المداوب بقصيدة عنوانها « الجواب المصرية » وهي تنشرها ^(٢) بقولها : « وقال طردأني واقصة حال جرت له مع صديق » ، وفيها يقول :

وصاحب رعبت دهرأ ودّه ولم أبكين نهجته وقصده
وطالبا أرغت فيه ضدّه ودّدت عنه ما يعوق وكذّه
حتى إذا ما الدهر أوترى زندّه صرّ لي بعد الصناء خدّه

(١) الرسالة عدد ٤٣٨ السنة التاسعة نوفمبر ١٩٤١ . (٢) لى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

وَجَازَ فِي بَنْضِ الْأُمُورِ حَدَّهُ فَلَمْ أَحَاوِلْ رَدْعَهُ وَرَدَّهُ
وَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْلُ حَدَّهُ لَقَلْتُ فِيهِ مَا يَمْزُ جِلْدَهُ^(١)

ويجىء إلى ندوة البارودى فيمن يجمع من الأدباء الشبان مصطفى صادق الرافى ليطلع بصحبة أمير القوافى وينشده شعره ، ويسمع البارودى من الشاعر الناشئ ، ويبذل له من التشجيع ما يشد من أزره ويأخذ بيده ، ويدفعه إلى أن يجمع شعره فى ديوان يصدره ، ويقرظ البارودى ديوان الرافى عام ١٩٠٢ بأربعة أبيات يحملها صاحبه فى صدره . ومحدثنا الرافى عن مجالسه مع البارودى فيقول : « كنت ذات عشية عنده فرأيت إلى جانبه جزءاً من ديوان مهيار القليل ، فتناولته وجعلت أقرأ قصيدة كان قد علم ما اختاره منها فسألنى أن أعرفه رأيي فيها اختاره ، فلم أذكر له غير بيت واحد فقم الملقى ، ولم تكن القصيدة مما يضىء فيه ذهن مهيار فضحك وأثنى »^(٢).

وفى مجلس آخر مع البارودى سأله الرافى أن يوقفه على شئ من حديث شعره فيقول : « إن عنتره يقول (هل غادر الشعراء من متردم ؟) وهذا عيب علينا ، ولذلك شرعت فى نقض قصيدته ، ثم أنشد أبياتاً مظلماً : (كم غادر للشعراء من متردم) ، وفيها يقول فى وصف مصر :

هِيَ جَنَّةُ الْحَسَنِ أَتَى زَهْرَانُهَا حَوْراً لَهَا وَهَزَارُ أَبْكَتَهَا قَمِي^(٣)

والقصيدة التى أشار إليها الرافى من عيون شعر البارودى ، وأغلب الظن أنه أراد فى آخريات إلمه أن يضع نفسه فى مكانه الصحيح من التاريخ والشعر بهذه القصيدة ، فحملها وصفاً لمفرداته فى الشعر وفى الوطن وفى الحروب وفى

(١) مناسبة القصيدة من مطومات الأسرة .

(٢) المتعلق بمجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ . (٣) المصدر السابق .

المعال والشدائد فهو المتأخر الذى نال للتقدمين ، وعبرى الشعر الذى يأتى على رأس كل عصر ليحيى أنفاس التريض ، والفارس الذى يملو ناصية الملا بشرفه وفضله وشجاعته ، وفيها يقول :

كَمْ غَادَرَ الشَّعْرَاءُ مِنْ مَرْدَمٍ وَلَرَبَّ قَالٍ بَرٌّ شَأْوُ مُقَدَّمٍ^(١)
فِي كُلِّ عَصْرٍ هَبْرَى لَا يَتَى يَفْرَى الْقَرَى بِكُلِّ قَوْلٍ مُحَكَّمٍ^(٢)
وَكَفَاكَ بِي رَجُلًا إِذَا احْتَقَلَ النَّهْيُ بِالصَّمْتِ أَوْ رَعَفَ السَّتَانُ بِسَنَدَمٍ^(٣)
أَحْيَيْتُ أَنْفَاسَ الْقَرِيضِ بِمَنْطِقِي وَصَرَعْتُ فُرْسَانَ الْمَجَاجِ بِهَذَمِي
وَقَرَعْتُ نَاصِيَةَ الْعُلَى بِفَضَائِلِ هُنَّ الْكَوَاكِبُ فِي النَّهَارِ الْمَظْلَمِ^(٤)

ويعنى البارودى فى القصيدة فيطلب — إن كان هناك من يجهل مكانته — أن تُسأل عنه مصر لثمان من شرفه ومجده وعزه الطيد ، وهى ولا شك أعرف للناس به ، وقد نشأ يرشف من غديرها ويطعم من ثبها ، وينشق نسيمها ، وهو جزء منها ، دمه من ثيلها ، وجسمه من ترابها ، وروحها من هوائها ، وبها أهلها وأحبته ، وأعظم أجداده تحت ثراها ، فعلى دار الكرامة عنده وجنة الحسن زهراتها حور لها وهو طائرها الفرد ويلبها الصداح . وينقل البارودى إلى الفخر ببيانها وسيفه فيقول :

وَفَجَرْتُ يَنْبُوعَ الْيَبَاكِ بِمَنْطِقِي عَذِبَ رَوَيْتُ بِهِ غَلِيلَ الْحَوْمِ^(٥)

(١) مَرْدَم : الأصل فيه اللوم الذى يرمى أو الكلام الذى يلقى وهو هنا ترك الشعراء السابقون معاني كثيرة لقول فيها .

(٢) لَا يَتَى : لَا يَزَالُ ؛ يَفْرَى الْقَرَى : معناه هنا يخلق الخلق الجديد .

(٣) احْتَقَلَ النَّهْيُ : حبس العقل ؛ السَّتَانُ : فصل الرمح ؛ والسَنَدَم : السم .

(٤) فَرَع نَاصِيَةَ الْمَلَا : علاها شرفا . (٥) الْحَوْم : العناتى .

ولسك أرتُ غِيَابَةً من قَسَطَلٍ بِمُهَنْدِي وَحَلَّتْ عَقْدَةً مُهْرَمٌ^(١)
أَخْتَالُ طَوْرًا فَوْقَ ذِرْوَةِ مَثَرٍ وَأَكْرُ طَوْرًا فَوْقَ مُهْرٍ شَيْطَمٌ^(٢)
حَتَّى رِبَاتٍ من لَعَالِي هَضْبَةٍ شَاءَ تَزَلُّقُ أَخْمَصِ الْمَسَمِ

ثم يتحدث البارودي عن موهبته الشعرية وملكته الفنية التي نشأت في طبعه أصيلة خلاقة ليست مقلدة لأحد من السابقين ، فكان خلقاً وحده يهفو إلى شعره أبو نواس ويطرب له مسلم بن الوليد . ثم يحدد دوره في الشعر العربي وريادته لهضة جديدة ، فقد قوم الشعر بعد اعوجاج ، وأخذ بيده بعد أن كاد التصاد والصنعة تقضيان عليه ، وضع فيه مجالات لم يكن يعرفها أبناء عصره من الشعراء كما يقول :

ذَلَّتْ مِنْهُ غَوَارِبًا لَا تَنْطَلِي وَخَصَمْتُ مِنْهُ مَوَارِقًا لَمْ تُخْطَمِ

ويعود البارودي إلى الله رب العالمين ويدل على الدنيا بنفسه وآبائه فيقول :

أَدْرَكْتُ نَاصِيَةَ الْحَامِدِ وَالْعَلَا وَشَاوْتُ فِيهَا كُلَّ أَصِيدٍ مُنْغَمٍ^(٣)

فَأَنَا انْ نَفْسِي إِنْ فَخَرْتُ وَإِنْ أَكُنْ لِأَعَزَّ مِنْ سَلَفِ الْكَارِمِ أَنْتَمِي

ثم يخلص البارودي من ذلك كله إلى الطبيعة وجمالها على طريقة العرب القدما حين يريدون الانتقال من معنى إلى معنى آخر فيقول :

هَذَا وَرَبَّتْ لَذَّةٌ بِأَشْرَتِهَا فِي ظِلٍّ أَخْصَرَ بِالرَّارِ مُنْغَمٍ^(٤)

ويستطرد في وصف المظاهر الطبيعية المختلفة من نسيم يحرك الوشي بأنابله ،

(١) غيابة من قسطال : ما استتر من التيار تنيره الحرب .

(٢) في المخطوطة (ج) فوق نهري شيطم والشيظم : الطويل الجسم التقى من الميل .

(٣) في المخطوطة (ج) « ناصية الحامد » : شأوت : أسبقت : الأصيد : الرجل الذي يرفع رأسه كبراء أو الملك لأنه لا يلفت من زموجياً وشملاً : مسم : عظيم مرتفع الشأن .

(٤) الدار : الترجس البرية : منمنم : موسى ومرقس أو مطلق مجتم .

والزمن القياض ، والجداول النساب كالحيات ، والرياض الموشح منها والمؤزر ،
والزهور ما يشبه الدنانير منها وما يشبه الزهرام وقد عبت بالروائح وكأن قدراً من
عبر تركت مفتوحة فيها . وقاد البارودي الخيال إلى دنياه فترة فدم بها وأفاض
فيها فأسمعنا معه ، ثم تنبه إلى واقعه وما قاده الزمان إليه فطمان وانتقل
فجاء من جبال الطبيعة وخيالها ليقول :

ولله طوع يد الزمان يقوده قود الجنيب لفسية لم تعلم^(١)
فلك يسدور وأعجم لا تأتيل تبتدو وتقرب في قضاء مقيم^(٢)
قدع اتلفي وخذ لنفسك حقها بما بدا لك فهو أهنأ منكم
لا يستطيع المرء يباغ ما نأى عنه ولو صد السماء بسلم

وهنا تضطرب عواطف البارودي وتقبل عليه الانفعالات المختلفة ترقى ،
فبينما هو يحدد موقفه من الحياة وإقباله عليها أول أمره واستمتاعه بها في ظل
الحرية إذا بها تتحول إلى غصة وعذاب حين ناخ للظلم على البلاد فيقول :

إن الحياة شبيهة ما لم تكن عرضاً لإمره ظالم لم يرحم
وينفر البارودي من أن يقر في الأذهان أنه يقشهى الدنيا على حساب كرامته ،
فينفى هذا الظن عن نفسه ، ويقوده ذلك إلى الفخر بأيامه وهو يقود الأبطال
في الحرب إلى النصر ، ثم يسود إلى الرضا بالقضاء وكأنه يحكى الأمر القائل :
« لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع » فيقول :

لا أرتقي عيش الجبان ولا أرى فضلاً قدى حسب إذا لم يقدم

(١) الجنيب : كل طامع متعاد . (٢) لا تأتيل : لا تبتطرب ولا تبطر .

ولرب ملحمية سريت قناعها عن وجه نصري بالتبصار ملثم^(١)
لو كان للإنسان علم بالذي في القيب لم يفرح ولم يتقدم
قدح الأمور إلى مدبر شأنها وأرغب عن الدنيا بنفسك تسلم^(٢)

وفي جلسة فائدة للرافعي مع البارودي يسأله عن رأيه في المفاضلة بين أبي تمام
وللتنبّي ، وكان البارودي يقدم أبا تمام على للتنبّي ، فيقول الشاعر الناشء :
« إن الذي ذكره نقاد الكلام أن الماني المحترمة ثلاثة بعد أن عدها بعضهم
ثلاثين ، وللتنبّي وإن كان قد انتفضح في سرقاته إلا أن له ما ليس لأبي تمام ،
وذلك في بعض معانيه ، على أن كليهما قد تدرّ في ألفاظ كثيرة . فيقول
البارودي : ولكن شعر أبي تمام أجزل صنعة وأوضح وأتم »^(٣) .

والبارودي في ندوته لم يكن يفاضل بين شاعر وآخر من شعراء العصر ،
أو يقدم أحدا منهم على غيره ، وذلك اتقاء ما قد يصيب بعضهم من غضاظة وحرص ،
وكان يفرحهم جميعا إليه ، ويسمع منهم ، فإن نصح أو نقد فلي انفراد ،
وكان كل منهم يقن أنه الأثير لديه . وقد حدث أن عزمت الحكومة على أن
تقيم مهرجانا للشعر بمناسبة عيد جلوس عباس ، ودعت إليه كبار الشعراء لإلقاء القصائد
فيه ، وأعدت ميداليات وجوائز للفائزين^(٤) ، واختارت للتحكيم محمود سامي البارودي
والشيخ محمد عبده وإسماعيل صبري والشاعر العراقي عيد الحسن الكاظمي ،
ولكن البارودي اعتذر « بحجة أن الحكم بين الشعراء من أصعب الأمور »^(٥) .

(١) سري : كشف .

(٢) هذه القصيدة لم يسبق نشرها وهي من الجزء المخطوط من الديوان وهي ٥٤ بيتا ؛ المخطوطة (س)
س ٢٥١ — ٢٥٣ ؛ المخطوطة (ج) س ٢٥٧ — ٢٥٩ . والرافعي لم يفتقر منها في المتنظف سوى بيت
واحد بيت ؟ أنظر : المتنظف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .

(٣) المتنظف المجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ . (٤) الهلال مجلد ٣٨ فبراير ١٩٣٠ .

(٥) المصدر السابق . واعتذر الشيخ محمد عبده وإسماعيل صبري عن التحكيم في الحفل عقب اعتذار البارودي .

وتسعد مصر وهي ترى ابنها المائد بملأ جوها الأدبي حياة ونشاطا ، وعند مردييه الشعراء بروح من عنده فتقوم حركة شعرية كبيرة تنقشر من مصر لملأ الآفاق العربية ، ويسير الشعراء على نهجها ويقبسون من ضوئها حتى يعم النور . ويؤم ندوة البارودي الشيخ محمد رشيد رضا — محرر « النار » وتليذ الشيخ محمد عبده — وكان هذا كرمه في شئون الإصلاح فيجده على قس الطريق ، وبواقفه فيما تكتب للنار من رسائل في إصلاح حال المسلمين ^(١) ، ويكتب عنه رشيد رضا فيقول « كان أدبه النفسى أعلى من أدبه اللسانى ، وقد خانته في نكبته كل صلة بالناس ما عدا هذه الصلة الأدبية ، فلم يف بعنده ويرعى حقوق وده من انتقموا بحجابه ويرفده ، ولكن وفى له الأدباء والشعراء وواده الفضلاء والعلماء الذين تجمعهم بهم الصلة الروحية وللشائكة الطيبعية ، فكانوا بكانيتونه في غيبته ، ويفشون ناديه بعد عودته ، وكان أشدهم له وفاء الأستاذ الإمام (محمد عبده) ، ومثله من يقوم بحقوق الصداقة حق القيام ^(٢) . »

ويحضر ندوته من الشباب مصطفى كامل ، ويكتب عنه في جريدة اللواء : ^(٣) « عاد محمود سامى باشا إلى مصر تقدمه رحمة المصريين ، ويعلم القتل أنه أعظم القوم مصابا ، وأكبرهم خسارة ، أصيب في ثروته الواسعة وفى جاهه الرفيع ، وأهله الكرام وأصدقائه القتلاء... وهو وإن فقد كل ذلك فله من نسبه إلى الأدب ، وكونه من آحاد الشعراء في هذا العصر ما يقوم ييمض الحوض ، ويصون قدره . . . ومع هذا كله لم يعلم أحد أنه اشتكى الفقر وهو الذى عرف الفنى ، أو حنَّ إلى ربه ونياشينه وهو الذى بلغ من المعالى ما تشبهى النفس المالية . وكذلك النفوس للكبار تنصب في مرادها الأقدار . »

(١) الجوانب المصرية عدد ٧٢ في ١٠/١٢/١٩٠٤ .

(٢) اللواء في ١٠/١٠/١٩٠٩ .

(٣) المصدر السابق .

ما قبل النهاية

الذكريات :

ويضئ البارودي ويمذبه ما يراه على جسد وطنه الحبيب من جروح الاحتلال وقروحه . وير « بقصر الجزيرة » ، وقد قضى فيه ردها من شبابه يوم أن كان ياورا لإسماعيل ، فيشهد ما فعلت به يد الزمان وما فعلت بقومه ووطنه ، فيؤله الواقع وتمضه الذكرى ويلذرف دموع الرثاء على القصر ، وكأنه يبكي للماضي جيمع والوطن ومصابه فيقول : (١) .

هل بالحسي عن سرير الملك من يرعُ هيات ، قد ذهب المتبوعُ والتابع
هذي « الجزيرة » فانظر ، هل ترى أحداً ينأى به الخوف ، أو يدنو به الطمع ؟
كانت منازل أُملاك ، إذ صدعوا بالأسر كادت قلوبُ الناس تنخلعُ
عائوا بها حقية ، حتى إذا نهضت طيرُ الحوادث من أوكارها وقموا

والقصيدَة من أقوى أشعار البارودي ، ومحور قوتها هو « الذكرى » ، وهي دموع رثاء على الحال التي آلت إليها البلاد ، ورؤيته المحتل جاثما على صدرها . ولا ريب أن الأمل الصامت كان في فؤاده كالجر تحت الرماد ، فلم يصرخ به في شعره ، وأشد الألام ما كان مكتوما ، والقصيدَة تدل على أن البارودي كان ثاقب الفكر لا تصرفه الظواهر عن رؤية المكنون من البواطن ، فلم تغره الرقابة المادية التي غرت بعض العربيين بعد رجوعهم من المنفى ، فتوهوا

(١) نشرت التار القصيدة في عددها ٢١ من المجلد ٧ يناير ١٩٠٥ وقالت : « وير بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر ألام إسماعيل وتلم متعبا ومذكرا وهي من آخر ما نظم » .

أن اغراضهم تحقت ، ولم تفره مظاهر المدل الأجنبي المنظم في الظاهر ، ولكنه
أزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم في الباطن الذي يضؤل بجانبه
كل ظلم .

ونسى الشاعر مجده ونفخه ودنياه حين هاجمه إحساس من وراء حجب الغيب
بأن نجمه قد أوشك على الغروب كما أفلت نجوم قبله ، فاستسلم للقضاء وأذعن
للقدر ، ورثى نفسه فيمن رثى حين قال :

زألوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تمطت الأعياد والجُمعُ

والبيت يصف سنة الدهر ودولاب الأيام وهو يسير لا يبطئه شيء ، يأتي
الناس ويذهبون دون أن يلقى الدهر عليهم نظرة أو لفتة أو يغير من نظامه ،
فالوقت يحصد والمجلة تسير . وفي القصيدة آثار من تأمل من أحس بدنو الأجل
يستعرض فيها الماضي ويكيه بدموع الفناء .

ولا تترك الأقدار معذبها العاني يقضى ما بقى له من أيام هادئاً بأسو جراحه
ويبرىء الآلام التي أضنته سبعة عشر عاماً ، أو يهنا بالسودة إلى وطنه بين أهله
وبنيه وصحب ، بل تأتي إلا التماذى في ملاحظته بنوبها وأرزائها ، فينشب الموت
أظفاره في إحدى بناته ليلة زفاف أخت لها ^(١) ، ويعقد المصاب لسانه وتنزع
النائمة جنباته ، وتتجبر منه المآق وينضب معين الدموع فلا يستطيع بكاء
ابنته . ويكيه له صحبه ومريدوه ، ويواسيه برثائها حافظ وشوق وشكيب أرسلان
وخليل مطران ^(٢) وغيرهم من الشعراء ثم يتلو المصاب مصاب آخر يفقد
فيه ابنة أخرى بين يديه ، « فقلصت المصائب كبده ، وأودت بحجده ، وقضت

(١) جام ١٩٠٢ . (٢) أظفر: دواوين هؤلاء الشعراء؟ والمجلة المصرية سنة ٢ عدد ١٩

على البقية الباقية من نور عينيه ^(١) .

ويعتبر صديقه على رفاة الطمطاوى ^(٢) في يوليو عام ١٩٠٣ فيندبه بمطولة يستهلها بقوله :

نَمَاءَ عَلَيْهِ ^(٣) أَيُّهَا النَّفَّالَانِ قَدْ أَقْصَدْتُهُ أَسْمُهُمُ الْحِذْنَانِ
مَضَى وَأَقْبَا بَدْهُ فِي مَا تَمَّ عَلَى الْفَضْلِ نَبْكِيهِ بِأَحْمَرَ قَانَ

وعن البارودي في رثائه فيذكر فضل « على رفاة على العلوم والعارف ، ومآثره التي أبقت ذكره بين الناس ، والذكر للإنسان عرثان فيقول :

تَخْلَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْقَى مَا تَرَا يُقْرَأُهَا بِالْفَضْلِ كُلُّ لِسَانٍ
فَإِنْ يَكُ أَوْدَى فَمَوْحَى بِفَضْلِهِ وَمَنْ كَانَ مَذْكُورًا فَلَيْسَ بِقَانٍ

ثم ينثنى إلى تعديد الجوانب الخلقية فيه والقيم الإنسانية لديه ومعايير الصداقة عنده ، ويحاول البارودي أن يتمزى عن الفجعة بالسوان ، أو لعله يرى ملامح آخرته قريبة دانية فيسلى نفسه بأن للوت حتم لازب على الإنسان ، وشريمة جرت عليه منذ مضى الأب الأول « آدم » فيقول :

وَأَيُّ أَمْرٍ يَبْقَى ، وَدُونَ بَقَائِهِ نَهَارٌ وَلَيْلٌ بِالرَّدَى يَقْدَانِ
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْحَيَاةَ فَإِنَّهَا إِلَى الْمَوْتِ أَذْنَى مِنْ قَسَمٍ لِيَتَّكَانِ
إِذَا مَا بَنَانَا الدَّهْرُ ظَلَّتْ صُرُوفُهُ نَهْدَمْنَا وَالدَّهْرُ أَغْدَرُ بَانَ
تَحَادَعْنَا الدُّنْيَا فَنَلَهُوْا وَلَمْ تَحُلْ بَانَ الرَّدَى حَتَمٌ عَلَى الْحَيَوَانِ

(١) الجوانب المصرية عدد ٥٧٢ في ١٥/١٢/١٩٠٤ ؛ أنظر أيضا اللواء في ١٣/١٢/١٩٠٤ .

(٢) كان حكرتياً لمجلس النواب على عهد وزارة البارودي ثم وكلاً لوزارة المعارف .

(٣) في المطبوعة (ج) (عليها) ؛ وضاه : اسم قبل أمر مبي على الكسر بمعنى (لأن) أى أظهر وبلغ خبر وضاه .

إذا ما الأبُ الأُمِّي مَضَى لِسَبِيلِهِ فَا لِيَنْبِيهِ بِالْبَقَاءِ بَدَانِ
ثم يشير البارودي إلى اتصال فضل على رفاة وعلمه بفضل أبيه « رفاة
رائع الظمطاوى » وعلمه ، ذلك القى حل مشعل النهضة العلمية والفكرية
والتعليمية في البلاد فيقول :

فَأَنْتَ ابْنُ مَنْ أَحْبَبَ الْبِلَادَ بِنَلِمِهِ وَأَبْقَى لَهُ ذِكْرًا بِكُلِّ مَكَانٍ
أَفَادَ بَنَى الْأَوْطَانَ فَضْلًا سَمَوِيًّا إِلَى هَضْبَاتٍ فِي الْعُصَا وَقِنَانٍ
وَأَنْتَ ابْنُهُ ، وَالْقَرَعُ يَتْبَعُ أَصْلَهُ وَمَا مِنْكُمْ إِلَّا جَسَدٌ وَرَهَانٍ
فَيَا رَحِمَةَ اللَّهِ اسْهَلِي عَلَيْهِمَا بِسَجَلَيْنِ لِلرَّضْوَانِ بِنَهْلَانٍ^(١)

آخر أعمال البارودي :

منذ عاد البارودي إلى الوطن من منفاه وفي يده سفر خلوده . . ديوان شعره ،
أخذ ينقحه ويعدده للطبع^(٢) ، وعلى كل كتابيه — الشيخ ياقوت الرسى والشيخ عطية
حسين — بعد أن كف بصره في أيامه الأخيرة ماشاء من تغيير وتنقيح^(٣) .
وأصول الديوان تشهد بالجهد الكبير الذى بذله البارودي في هذا التنقيح وفى
الإعداد والمعاودة ، فهناك أبيات حذفها من بعض القصائد ، وأبيات أخرى
غيرها كلها أو بعضها ، وإضافات جديدة ألحقها بقصائد قيلت من قبل ، وكليات

(١) السجل : التصيب أو الفلور هذه القصيدة لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان وقد
ذكرها تحت عنوان « وقال برنى المرحوم على بلشا رفاة » وهى ٢٩ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٨٧ -
٢٨٨ ؛ والمخطوطة (ج) ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) لم ينشر الديوان كاملا حتى الآن وكانت أول نسخة له من قن طبع عام ١٩٠٩ - ١٩١٦
ولم ينشرها عمود الإمام حتى آخر ثمانية اللام .
(٣) أنظر : مرآى الشعراء ص ٦ ، ٧٣ .

وقد رأت لم ترقه فاستبدل بها غيرها ، وتفسيرات كثيرة أثبتتها في هامش الديوان لمعاني الكلمات الغامضة أو غير المتداولة : وذلك كله دليل على حبه الكبير لشعره وإيمانه به ، وشهد على صدق عقيدته في أن المعبرة مجبورون متصل في سبيل الكمال . وظل يرتب الديوان حسب قوافيه حتى أكله آية لجلده وتراثا للأجيال من بعده في ٥٣١٣ بيتاً غير قصيدة « كشف للثمة في مدح سيد الأمة » وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتاً ، وغير المقطوعات الشعرية التي جاءت في ثنايا كتاباته النثرية .

وكذلك شغل البارودي نفسه أواخر سني عمره « بمختاراته ^(١) » ، وقد رأى أن يتصف الأدباء من أهل عصره بمجموعة يختارها من شعر فحول الشعراء المولدين لتكون عوناً للناشئين على طبع ملكة البلاغة في النفس ، فاختار ثلاثين ديواناً وانتخب منها مرق لفظه ودق معناه وخلا من الحشو والتمعيد . . . ورتب أسماء الشعراء على حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم ^(٢) . وبدايم « يشار بن برد » رائد الشعر العباسي ، وزعيم المحدثين المجيدين من الشعراء (ت ١٦٧ هـ) وانتهى ج. إلى « ابن عتير » للتوفى في عام ٦٣٠ هـ ، « ووضع البارودي تعليقا لمختاراته يفسر به الألفاظ الغريبة والمعاني المخلقة ^(٣) » .

وكان القضاء كان ينتظر البارودي حتى يفرغ من تنقيح سفر خلده ، وينتهي من إعداد تكمال عبقريته الخالد . . ديوانه ، ثم سلط عليه المرض في منتصف عام ١٩٠٤ ^(٤) ، واستصعب على الطب الشفاء . وبلغت صحبه ومريضه من حوله يودون لو يستطيعون دفع الردي عنه ، وتعمل الضر بدله ، وينصتون

(١) طبعها زوجها أمينه قويسامي بعد وفاته ١٩٠٩ - ١٩١١ في أربعة أجزاء وقام بتصحيحها كاتب يد الملتقى في سفينة الأخيرة الفقير إليه تعالى ياقوت المرسى (مطبعة الجريدة بمصر) البارودي بمصر)

(٢) مرآة الشعراء ص ٢٢

(٣) مرآة الشعراء ص ٢٢

(٤) جريدة اللواء في ١٢/١٢/١٩٠٤ .

وكلهم أذان إلى آخر مايقول ، وقد بدت لهم ملامح النهاية ، وفي صحوة الموت وعلى فراش المرض الأخير يستجمع البارودي مابقى له من قوة ويضم إليه قيثارة الشعر يودعها ويقف عليها « الحزن الأخير ^(١) » فيقول :

أنا مصدر الكليم للنوادي بين الحواضر والبوادي
أنا فارس ، أنا شاعر في كل ملحمة ، وفادي
فإذا ركبْتُ فإني زبدُ الفوارس في الجلاد ^(٢)
وإذا نطقتُ فإنني قسٌ بنُ ساعدة الإيادي ^(٣)
هَذَا ، وذلك دَيْدَنِي في كلِّ مُغْضِلَةٍ نَادٍ ^(٤)

وكأنه بآخر آياته يملن مقدرات نفسه وهو ذاهب إلى الأبدية ، ثم يردف الحديث عن نفسه بحديث عن وطنه فيقول لمؤاده القربين إليه : « هل سمعتُ بإنسان شكر الله على العسى ؟ أنا ذلك الشاكر . فقد جنبني الله رؤية الاحتلال وقد ضرب بجرانه على بلادى ^(٥) » .

نهاية شاعر وزعيم :

وفي أصيل يوم الإثنين الثاني عشر من ديسمبر ١٩٠٤ وقفت ربة الشعر حزينة كثيفة تعزف لحنها الجنازى الأخير ، وحين أسلم البارودي روحه إلى جارتها حطمت قيثارتها وودعته وداعها الأخير بعد رفقة دامت قرابة نصف قرن

(١) ذكر خليل مطران أن هذه الأيات آخر ما قاله البارودي على فراش المرض في رمضان ١٢٢٣ (توفير ١٩٠٤) وقد توفي في ديسمبر ١٩٠٤ أنظر : الجوائب المصرية ١٤/١٢/١٩٠٤ .

(٢) زيد الفوارس: هو ابن حسين بن ضرار القسي ، فارس جاملي مشهور يضرب به المثل في الشجاعة.

(٣) قس بن ساعدة الإيادي : من أشهر خطباء العرب في الجاهلية . (٤) التأد : الداهية .

(٥) اللواء في ١٤/١٠/١٩٠٤ .

رد إليها الشباب والقوة ، ووصلها بالمجد القديم ورفعها إلى مكانة أخواتها اللاتي
هزفن لشراء العربية المجيدن في عصورها الذهبية .

وتهز مصر من الأسى والتجيمة وقد قدت في البارودي ابنا من أعز
أبنائها ، ورائدا لهضة أصيلة في الشعر ، وفنانا بث الروح في الأدب العربي
كله ، ومجاهدا ثائرا حاول أن يخلص وطنه من ظلم الاستبداد ويمنحها الحرية
والاستقلال ، فلما أخفق قدم من شبابه وحرثته وماله ونور عينيه فداء على مذبح
التضحية الوطنية . وتسمى الصحافة^(١) إلى العالم العربي شاعره الكبير ، « وتشارك
مصر في أساما لتفقه الأمة العربية كلها من الشام إلى بغداد ، ومن الجزيرة
إلى تونس^(٢) » . وكان أهل الأدب أكثر الجميع مصابا وألما ، « لأنهم يعرفون
قدره ، وقد نسي مقامه السياسي عند من كان على رأيه ومن كان مخالفا له ،
لأن حلة للنائب عرض بطلاً فيكون له حكمه ، ويؤزل فيمعى رسمه ، ولا يذكره
الإنسان إلا بصقائه وأعماله^(٣) » .

وخرج مشهده في الثانية من بعد ظهر الثلاثاء ١٣ ديسمبر ١٩٠٤ من داره
بباب الخلق ، وأم للصلين عليه الأستاذ الإمام محمد عبده^(٤) ، وجاء الناس من كل
صوب وحذب يودعون البارودي الوداع الأخير ويشيعون جنازه ، يتقدمهم عشاق
فته وشعره ، وعارفو فضله وجهاده الوطني ، وتلاميذه ومريدوه من الشعراء^(٥) .
ويصف خليل مطران هذا للشهد فيقول : « خرجنا نمشي وراء نعشه المخنوق

(١) أنظر الجوائب المصرية ، والقواء ، والنار ، والمؤيد والمقطم والماطرة من ١٣/١٢/١٩٠٤ إلى ٢٠ فبراير ١٩٠٥ . (٢) من رثاء الجوائب المصرية في ١٥/١٢/١٩٠٤ . (٣) من رثاء البارودي ٢٣/١٢/١٩٠٤ . (٤) المقطم والمؤيد ١٤/١٢/١٩٠٤ ؛ والنار ٢٣/١٢/١٩٠٤ . ويقول صاحب النار إنه لم ير الشيخ محمد عبده صلى الله عليه وسلم غير البارودي إلا بأمره . (٥) لم يشج الشاعر أحد شرق وقت البارودي !

بالإجلال ونحن ننظر ذات اليمين وذات الشمال، فلا نرى بين الجمهور إلا كل مهتز
المعطف للشعر، متطلع النفس إلى الحلال من الشعر. والجميع قد نسوا منه الوزير
رب الدولة، والقارس صاحب الصولة وإنما بكوا ذلك الخلق الجليل في ذلك
الخلق الجليل، وذكروا الشاعر^(١).

ويتلفت الخليل حوله فلا يجد بين الشيعة — على كثرتهم — رجال الحكم
وعتري السياسة، ذلك لأن الخوف من الخديو والمستعمر قد أذلهم فامتنعوا
عن الخروج جيناً، وكيف يخرجون لتشجيع رفات رئيس سابق قوزراء علب
كلعته يوماً كلمة صاحب التاج وهدمه بالزل، وقاوم بالسلاح للمستعمر الفاسد؟
ويرثى مطران الأخلاق وهو يرثى البارودي ويودعه فيقول: «خير لئله أن
يمتاض في الشيعة بالكتاب والشعراء والحجيج من وزراء لم يعرفوا الوزارة حرة
كما عرفها، ومحافظين ومدبرين لم يألفوا الأحكام شريفة كما ألفها^(٢)». ثم يصف
مطران اللعظات الأخيرة لموكب البارودي في الحياة الدنيا وجناته يسمى إلى دار
الفناء ويقرب من متواه الأخير فيقول: «فلا أفضينا إلى قراءة الإمام، وقد
أذنت الشمس بالغروب، وكعد الأفق إلى الشعوب، جرتنا مدينة تباب،
مرفوعة التباب، على الوحشة والغراب، فما بنا الطرف إلى السماء وإذا هلا لها
يشرف على أهلة القبور، كأنه توقيع في صحيفة القضاء على سر من أسرار القصور،
بحاتم أخفته الظلمة ودل على طرف منه النور، وسرنا على التأمل سيرنا بين
تلك الحفرة، الجامعة للعبر، للآحية للزمان، للناسفة للكان، حتى أفضينا إلى مستقر
التقيد فالتى به في آخود الأرض، ضئيلاً ما أبقاه الضنى من ذلك الجسم الذى
أصابته الحروب، قليلاً ما تركه اللوت من ذلك الظل للأمول للوهوب... عليه

أثر من آثار الجاه القديم والبأس العظيم والنفق الأليم . ولكن يبدو على عياه شفق تخلف عن ذكاء الفكر ، وتلوح بين ملامحه مواقع الوحي والشعر . كذلك أودعناه في القبر « ١١

وأسله مشيموه إلى مثواه ، وتركوه من خلقهم إلى لقاء قريب ، فقد تواجد الشعراء والأدباء وصحب البارودي ومريدوه على أن يجتمعوا على قبره في ذكرى الأربعين^(١) ، ليرثيه الشعراء ويندبه الأدباء ويودعه عشاق فنّه الوداع الأخير . « وفي صباح هذا اليوم تواجد جمهور كبير من الشعراء والأدباء على اختلاف الطبقات والراتب عربا وإفرنجيا إلى مدفن البارودي بالإمام الشافعي ، والتفوا حول الضريح نائبا بعضهم عن مصر وبعضهم عن الشام^(٢) . وتقدم الشعراء وانططباء تباعا يقدمون إلى الجذث الطاهر تحية الفناء إلى البقاء ، « ونهبوا الأصداء القائمة حوله في هو السكون الخالد بتعديد مآثره وترديد ذكراه ، وقالوا لنسيان تنح قليلا ، وللسوان لاحضت اليوم وإن كنت جميلا ، وكلهم على استيحاء إليه بما سيكون به شعره من الشعر ، وما هم بمتهجين عليه فقد خلدت له أقواله جميل الذكر^(٣) . وأدى الشعراء والأدباء حق الوفاء للرائد الذي ذهب وأحيوا سنة لم تسبق إلا لشاعر للمرة من شعراء العربية .

(١) دعا إلى الاحتفال بهذه الذكرى خليل مطران في مجلة الجوائب المصرية في عدد ١٥/١٢/١٩٠٤ والأعداد التالية . (٢) الجوائب المصرية ١٩٠٥/١/٢٠ .

(٣) المصدر السابق . التماسد والمخاطب التي قبلت في هذه الذكرى في جريدة الجوائب المصرية عدد ١٩٠٥/١/٢٠ وما بعده وقد جمعا خليل مطران في كتاب « مرآة الشعراء » . والشعراء والأدباء الذين تروا البارودي على قبره هم : خليل مطران ، حافظ إبراهيم ، إلياس فياض ، محمد إبراهيم هلال ، إمام العبد ، حفي ناصف ، أخنوخ فانوس ، عبد الفتاح بيوم ، عطية حسنين ، حسن حدى ، يوسف أجد يكن ، حسن وهي نسيب أرسلان ، الشيخ طنطاوى الجوهوى ، ولم يحضر هذه الذكرى أحد شوقي أو إسماعيل صبرى =

وغاد الزائون وللمعزون أدراجهم إلى الحياة وتركوا البارودي لقبره يمنحه
ما لم تمنحه دنياه ، تلك التي صافته قليلا فصافح الثريا ، وغادته كثيراً فأضنته
حتى أكل الشقاء أكثر عمره ، ولم يمنحه الثرى راحة لجسده بمد طول عذاب ، ويحنو
على روحه بمد أن قسمت عليها الآلام « فإن كريماً من قضم الصفائح » ١١

= أو على الأقل ولم ينشر أحد منهم رثاءه في الصحف وقد أشارت الصاعقة في عددها ١٢٣/١/١٩٠٥
إلى أن شوقي نظم قصيدة في رثاء البارودي لكنها لم تنشر سوى مطالعها وهو :
هذا نرى مصر قتم بسلام كم روعتك حوادث الأيام
ولم تنشر هذه القصيدة في ديوان شوقي .

الفصل السابع

إمام التطور في الشعر العربي الحديث

كَمْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ وَلَرَبِّ تَالٍ يَزُّ شَأْوَ مُقَدِّمٍ
 فِي كُلِّ عَصْرِ عِبْرَى لَا يَبْنِي يَفْرِى الْفَرَى بِكُلِّ قَوْلٍ مُحْكَمٍ
 أَحْيَتْ أَنْفَاسَ الْقَرِيضِ بِمَنْطِقِي وَصَرَعَتْ قُرْآنَ الْعَجَاجِ بِلَهْزَمِي
 وَفَجَرَتْ يَتْبُوعَ الْبَيَانِ بِمَنْطِقِي عَنِ رَوَيْتُ بِهِ غَلِيلَ الْحُومِ
 نَشَأَتْ بِطَلْبِي الْقَرِيضُ بِدَائِعِ لَيْسَتْ بِنَحْلَةٍ شَاعِرٍ مُتَقَدِّمِ
 قَوْمُهُ بَعْدَ اغْوَجَاجِ قَنَازِيهِ وَالرَّمْحُ لَيْسَ بِرَوْقٍ غَيْرِ مُقَوِّمِ
 ذَلَلْتُ مِنْهُ غَوَارِبًا لَا تُنْقَطِي وَخَطَمْتُ مِنْهُ مَوَارِفًا لَمْ تُخْطَمِ
 شَعْرٌ جُمْتُ بِهِ ضُرُوبَ حَاسِنِ لَمْ تَجْتَمِعْ قَبْلِي لِحَايَ مُلْهَمِ

البارودي

الفجر الصادق للشعر العربي الحديث

عصر مضى :

كان الشعر العربي يعاني أزمة الضعف والانهيار منذ احتل العثمانيون البلاد العربية ، فقد زحفت مع جيوشهم على البلاد أجناد الجهل وظلمة الفقر الذهني والمادى ، واعتصروا ما تنله من طيبات الرزق ، ونزحوا ما فيها من تراث وعلماء . وكان العثمانيون قد رأوا قوة للصريين في قدرتهم على التكيف مع الأزمات ، وتطلعهم إلى مصادر جديدة للتقافة إذما حرموا من ثقافتهم الأصيلة . والثقافة عدو الاستعمار الأول ، فأراد الأتراك أن تظل مصر خاضعة رابكة ، ومن ثم ضربوا بسور من العزلة على مصر والبلاد العربية ، ومنعوا اتصالها بالعالم ، وقصروا صلتها على القسطنطينية وحتى هذه لم تكن الصلة بها فسيكة ، بل كانت محدودة في خلع الوالى وجباية الضرائب وإرسال الشكايات .

وكانت تركيا بهذه العزلة العسكرية تريد للشعب العربى الجهالة وعماية الفكر حتى يسلن قياده وتلين عريكته ، وتظل بلاده المزروعة التى تنتج المحصول لسلوكها كى توفر له العيش اللترف والاستمتاع بالحياة . وكان يدفعهم إلى ذلك أيضاً « مركب النقص » الذى يحس به الأتراك تجاه العرب ، فلى الرغم من أنهم كانوا السادة وللتحكيم فى مصائر العرب وبلادهم إلا أنهم أحسوا نحوهم وفى قرارة نفوسهم بهية خفية ونقص فى الدرجة الدينية ، فالعرب أهل الدين الذى يعتنقه السادة الأتراك ، وأهل اللغة التى لا بد وأن يشملها المستعمرون ليصلوا بها ويقرأوا بها القرآن ، والعرب بعد كل ذلك أفضل منهم عند الله ، لأنهم « خير أمة أخرجت للناس » ، ويزيد هذا الشعور من حقن التركى وحفله

فيزداد في إذلال العرب ، وسومهم سوء المذاب ، وسلهم باسم الدين حقهم في الحرية السياسية والمعرفة والحياة !

والواقع أن الأتراك الثنائيين كانت فيهم لقعة من الحمجية والوحشية ، ولم يكن لهم اتجاه فكري أو ثقافي ، فقد بنوا دولتهم على القوة الحربية ، وحين استقر بهم المقام في القسطنطينية وجدوا أنفسهم وقد احتلوا عاصمة الثقافة والفكر لعالم العربي كله ، وكان لا بد لهم أن يملأوا الفراغ الذي خلفه حرب التربين من وجههم بثقافتهم وتراثهم . بحثوا في ماضيهم فلم يجدوا علما ولا أدبا ، فأرادوا أن يستبدلوا بثقافتهم البدائية الثقافة الإسلامية والعربية ، لكنهم كانوا غير أصلاء فيها ، ومن ثم فقد استوردوا العلماء واستولوا على التراث الإسلامي والعربي ليحفظوا عاصمتهم منارة ثقافة الإسلامية . وأرادوا أن يثبتوا هذه الثقافة ليتحول مركز الإشعاع الفكري والديني للإسلام - بجانب السيطرة السياسية - إلى الآستانة . وتغلبت طبيعتهم الشوم وغياؤهم القتلى وقرم الثقافى فلم يفلح هذا التبنى ، ولم تتقدم الحركة الفكرية بل تدهورت إلى الضعف والتخلف ، ومن ثم أصابهم من جنون الكراهية والعداء لكل منارة علم في البلاد العربية ، فأطفأوا مصابيح الفكر والثقافة فيها ، ولم يبق منها إلا ذبالة ضئيلة ترتعش من الضعف في الأزهر .

وتحالت الجبهة والعزلة وخود الروح القومية على الأمة العربية ، والصلة أقوى ما تكون بين الحياة العقلية والقومية وبين الأدب والفن ؛ ومن ثم فقد أصيب الأدب بالضعف والركود والانحطاط . وليس معنى ذلك أن الشرقة توقفت قوله أو اندمد ، وإنما الذى انعدم حقيقة هو الخلق الجديد والابتكار فيه ، وأصبحت مواهب الشعراء مقصورة على ترديد بعض القصائد المشهورة والموزونة من العهود العربية ، يحاولون تقليدها أو الوزن على نسقها أو تشطيرها وتحميسها أو معارضتها

فتخرج مسوخا لا روح فيها خالية من الماطقة والجلال . وطبيعى أن يكون هذا التقليد صدى للنفوس التى خرج منها ، فقد كانت مجذبة قاحلة تمش على التناهد من القديم وتجتر ما خلفه لها السابقون . نفوس أصابها العمى ، وأرواح منيت بالجمود ، وعقول جفت كل الينابيع التى تمهد لها بالحياة المتجددة .

وإذا كانت الحملة الفرنسية قد هزيت المصريين إلى الأعماق ، وأيقظتهم من التخدير الذى أصاب عقولهم وأرواحهم من طول ما رزحوا تحت الظلم والاستبداد ، وإذا كانت قد جاءتهم بزيادة لطافتهم الثورية الكامنة فيهم من لحاح من العلوم الحديثة التى طورتها أوروبا ، وإذا كان هذا الزاد قد حل فى طياته ثقة بالنفس ، وآفاقا جديدة تشد خيال الحركة للتغفزة للشعب المصرى ، فإن المأساة الكبرى جاءت على يد «عمد على» حين وجه اليقظة إلى تنفيذ مخطط يحرق له أطماعا فردية ، فجعلها فى اتجاه يؤثر فى عقول الناس ولا يؤثر فى عواطفهم ، وحصرهم فى سجن الاستبداد والقهر وحرمانهم من الحرية الفردية والحرية القومية ، ومن ثم بقي الأدب والفن على صورته السالفة فى المصور الصائفة ينبع من التكلف ويسير فى أخاديد الصنعة ، ويعيش فى سراديب الضعف والتهالك . وظل الشعراء يسلكون نفس الدروب الملتوية الضيقة التى سلكها أسلافهم ومعاصروهم فى البلاد العربية من أمثال الشيخ إسماعيل الخشاب والشيخ حسن البطار والشيخ شهاب الدين والسيد على الدرويش ، ينشدون شعرا قد روحه العربى الخالص ، وغدا جما يغلو من الحياة ، فقد أحواله الصنعة والتكلف حيلة بدعية ، واضطرابا والتواء أشبه بالأحاجى والألتاز ، وظلا مطموسا لصاحبه على أوزان البحور الشعرية ، وأصبح للثل الأعلى للشاعر هو قدرته على تكبيل شعره بأكبر عدد من أغلال الصنعة التى تكتم أنفاس الخصائص الفنية وتذهب بروح الشعر ومحتاه .

ثم خلف من بدم جبل تولى زعامته « محمود صفوت الساعاتى » وقد أخذ
لواء الشعر من السيد على الدرويش ، وانضوى إليه معاصروه من أمثال على
اللبى وعلى أبو النصر وعبد الله النديم وصالح مجدى ومحمد النجارى وعبد الهادى
الإبيارى وغيرهم . « وقصارى ما يكون من أبرعهم شعراً وأبدعهم صنعة إذا
نفض رأسه وزاد فى حركة قلبه وضرب على جبهته بكنتا يديه أن يطمس بيوت
فيه نكتة من البديع أكثر ما تكون من نحو حسن الأخذ والنضمين والاقتياس » (١) .
فالشاعر كما كانوا يفهمونه لم يزد عن أنه نديم فى المحافل يلقى جميع سامعيه ،
ويعاشرهم ويفضحهم بالضحك والأحاديث ، ومن ثم فكل من كان يفهم النكتة فى
الجلس وعمن ردها ، ويحفظ النادرة ويتأق فى سردها ، ويزوى الأخبار ،
وينشد الأشعار فهو شاعر مجيد ، ذلك لأن ذوق المصر الذى عاش فى الظلمة الفكرية
والسياسية قيم الشاعر : على أنها الباقاة وذراية اللسان ، وهى قبل شئ صناعة
كلام وتلميق ألفاظ ، وبراعة فى الساجلة والإنعام (٢) .

وما زالت مساجلات الشعراء ونواذرهم فى ذلك العصر يروىها السمار وتسجلها
كتب الأدب ، ومن ذلك ما حدث لمبداه النديم حين تعامل عليه بمض الأدباء
واقترح أحدهم أن ينشئ قصيدة يعارض بها دالية للتبى للشهيرة ومطلما :
أَقْلُ قَالَى بَلَّةُ أَكْثَرُهُ مَجْدُ وَذَا الْجَدُّ فِيهِ نَلْتُ أَوْ لَمْ أُنَلْ جَدُّ
وزعم أنه لا يأتى لأديب شاعر أن يعارض فى هذه القصيدة قوله :

وَمِنْ تَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بَدُ
فنضرب النديم واتفض وقيل التعلى ، واتنعى جانباً وأنشأ قصيدة دالية
ومطلما :

(١) مصطفى صادق الراعى : المصطفى مجلد ٣٠ مارس ١٩٠٥ . (٢) أظن : عباس العقاد : شعراء
مصر وشائهم فى الجبل للمضى ص ٢٢ .

سيفُ الثَّنا تعدوا ومِقُولِ الفِئْدُ وَمَنْ سارَ في نَصْرِي تَكْفَلُهُ المَجْدُ
إلى أن قال معارفاً ذلك البيت القى ظنه للتحدي ممجراً :
وَمِنْ عَجَبِ الأَيامِ شَهْمٌ لَهَا حَيَا ياراضه غِرٌّ وَيُفْجِئُهُ وَفْدُ
وَمِنْ غُرَرِ الأخلاقِ أنْ تُهْدِرُ الدِّمَاءَ لَتُحْفَظَ أَعْرَاضُ تَكْفَلُهَا المَجْدُ
وفرق كبير بين الثرى والثرى ، وبين شعر عزفته للوهبة النادرة وشعر نظم
ليواجه التحدى ويظهر للهارة والقدرة .

وكان للشيخ على اللبثى في ذلك المصراع طويل في مجال النادرة ، ومن
ذلك نادرته مع « المهردار » ناظر الخاصة بقصر إسماعيل ، فقد أراد ناظر الخاصة
أن يوزع الحجرات على رجال اللية السنية فأختار فيما يضع عنواناً لحجرة شاعرى
الخدويى : الشيخ على اللبثى والشيخ على أبو النصر ، وأخيراً كتب على باب حجرتها
من باب الداعبة : « إنما نطمعكم لوجه الله » . وشاعت للداعبة بين رجال القصر حتى
وصلت إسماعيل ، فأمرها على اللبثى في نفسه ، وبينما هم جميعاً فى مجلس الشراب وكان
طامراً بالترين إلى الخدوي من عليه القوم ستعت القرصة للى اللبثى ، فقال للخدوي :
عندى يا مولاي قصة قصيرة جديدة بأن أحكيها في هذا المقام ، وأذن له فقال :

لنا طاحونة في البلد لكن تَقِيلُهُ ع الحمار
عَلَقْتُ فِيهَا الطُّورَ عَصَى عَلَقْتُ فِيهَا « المهردار »

وافجع المجلس بالضحك وغضب المهردار ولكن إسماعيل قال : ذقة بدقة . وانتم
الشيخ على اللبثى خير انتقام وصارت نادرة « المهردار » نادرة الموسم تروى في المجالس
الخاصة والعامه .

ومن هاتين القصتين وغيرها كثير يمكن أن تدرك الدوافع إلى قول الشعر عند أدباء ذلك العصر ، فالشعر في أغلب الأحيان لم يكن تصويراً لمأظفة أو تمبيراً عن تجربة ، بل كانت غايته إظهار الجدارة وإخفاء الخضم أو سوق النادرة . أما طموح الشعراء فقد تحدد في معارضة القصائد الموروثة المشهورة وتطهيرها أو تقليدها . ولم يكن الشاعر منهم يتصور للشعر إلا أنه نظم لمعان مصادرة معروفة ، وكل ماله من فضل هو حشد ألوان البديع وأغلاله ، وتكديس لصنوف المحسنات من جناس وطباق وازدواج وتورية ، والسيز بأوائل الأبيات على نسق الأبيدية ، أو نظم القصيدة من حروف مبدعة أو مهملات ، أو يستخرج من آخر شعر فيها تاريخاً بحساب الجمل ، إلى غير ذلك من أنواع البديع التي لا تحصى . ولم يكن ذلك إلا القفاد في الشعر وفي القوق ، وإلا الضعف في الترائع والمساكنات ، فقد تحول الشعر إلى طلاس من حسابات وأرقام تصرف القارئ عن الشعر إلى محاولة حلها والخروج من مأزقها ، وتصرف الشاعر عن الانطلاق الطبيعي في التعبير عن المواقف والشعور تمبيراً يحد القارئ فيه الروح التي أصدر عنها الشاعر — إلى إظهار ذكائه ومهارته في عرض كلامه على مقاييس المروض ومحسنات البديع التي تعلمها ليكون شاعراً ، فخرج صناعة خالية من الشعور ونظماً لا روح فيه ، معنى بكل معجز ملفز .

ولم يكن لدى الشاعر منهم معنى مبتكر أو عبارة جميلة تعوض هذا الضعف أو تخفي تلك العيوب ، فذلك أمر لم يكتفوا أنفسهم مشقة البحث عنه ، أو أنه مرتبة لم تستطع عقولهم التارغة وتقاتلهم الضحلة أن تصل إليها في ذلك الحين . ولو أننا أردنا أن نرجع المسببات إلى أسبابها لوجدنا أنهم يمتلئون عصرهم التي ناخت عليه

الجهالة وفساد الذوق ، فكانت العقول التي تعيش في ذلك العصر ترضيها مثل هذه الأشعار وتطمئن إلى هذا النحو من الأدب ، تقبل عليه الخاصة تلك رموزه دون إلقاء بال إلى معنى أو فكرة ، فهو أدب لفظي أولى أن تقاس أطوال جله وزواياه ، وتنصرف عنه العامة إلى أزجالهم ومواويلهم وإلى قصصهم الشعبي .

ويجر جديد:

ويطلع البارودي على أدياء عصره في الستينيات من القرن التاسع عشر طلوع النجم الجديد ، ولم تسكن الدلالات السابقة أو المعاصرة تشير إلى مجيء هذه القمة التي انبثقت شاخحة وكأنها خرجت من أعماق خمسة قرون من التاريخ فريدة ليس معها قمة واحدة تلانيها أو تماهيا . ووقع شعره من النفوس موقع الماء من ذى النلة الصادى ، شريف المعنى ، مشرق الديباجة ، قوى الأسر ، رصين العبارة ، جزل التراكيب . أو كما يقول البارودي نفسه :

فأتى إليسه السمع يفتبك أنه هو الشعر ، لا ما يدعى الملا القمّر
يزيد على الإنشاد حسناً ، كأتى نفث به سحراً ، وليس به سحر

وظهرت في شعر البارودي مييزات واضحة دفعت به إلى الصدارة بين الشعراء ذلك أنه وثب بالمعاصرة الشعرية وثبة قوية عبر قرون طويلة من الركاسة والضمف إلى مصادرها الأولى من صحة التركيب وجزالة اللفظ ومتانة العبارة ، وارتفع بها من خاة الابتذال والإسفاف ، ورجع بها إلى أساليبها الرصينة القديمة ، وخلصها من كلف البديع وألقائه ، وأعاد إليها ديباجتها القوية ، وردّها إلى مجدها التليد ، وخلع عن شعره كل المقد التي كان يجعل فيها الشعراء من قبله ، ونفخ فيه روحاً جديدة من الأصالة^(١) بثت فيه الحياة وجعلت الشعر والشعراء

(١) د. شوقي خيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٩٦٢م ص ٤٦ .

يلقون بأزمتهم بين يديه ، وفي ذلك يقول البارودي :

وبرأحتي قلمٌ ، إذا حركته رَوَيْتَ به الأفهامُ وهي حِرَارُ
غَرْدٍ إذا ما جال فوق صحيفة سجدت لحسن صَرِيرِهِ الأوتارُ
ألقى الكلامُ إلى رَفْيِ عَنَانِهِ وتفاخرت بكلامي الأشعارُ

وكان الإحساس الذي يلح على البارودي أنه جارى الشعراء الفحول فلحق بهم ، وسابقتهم في مضار القصيد فلم يختلف عنهم ، بل سبق بعضهم ، ولو أن الزمان تقدم به لاعترف بفضل مشاهير الشعراء ، ولأقر بنبوغه وعبقريته إمراء القصيد . وليس بضاره أنه بحث في زمن لا يقدر الناس فيه الشعر بل لا يفهمونه ، فقد أقر بفضل العالم العربي كله ، وفي ذلك يقول :

ملكْتُ مقاليدَ الكلامِ ، وحكمةً لها كوكبٌ فغمُ الضياء منيرُ
فلو كنتُ في عصرِ الكلامِ الذي انقضى لباءَ بِفَضْلِ « جِرول » و « جرر »
ولو كنتُ أدركتُ الثَّوَامِي لم يقل (أَجَارَةَ يَتَقِينَا أَبوكِ غيسور)
وما ضُرَّتْني أُنَى تأخرتُ عنهمُ وَفَضَّلِي بينَ المالمينَ شَهِيدُ
فياربَّما أخلى من السبقِ أولُ وبذُ الجيادِ السَّابِقَاتِ أخيرُ

وانفجر النبع الطبيعي من نفس البارودي ، وتدفق من عواطفه شعره وفنه ، وقد أخرجه من حيز الماني المحفوظة للعروقة إلى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف ، وعن العصر وأحسائه ، ملتزما ما وضمته حدوداً للشعر الجيد ، فقد جعل « خير الكلام ما ألتفت ألفاظه ، واثقلت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئا من عشوة التنصيف ، غنيا عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفات الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظا ، وكان كريم الشاغل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ونال مودة

النفوس ، وصار بين قومه كالقوة في الجواد الأديم ، والبدر في الظلام الأديم^(١) . وقد أوتي البارودي من كل ذلك النصيب أثره ، والحظ الوفور .
وفي ذلك يقول :

ترثم بأشعاري ، ودع كل منطقٍ فإ بعد قول منْ بَلَغَ لِفَتَقِ
هو المسلُ للذي طورا ، وتارة يشورُ الشجاء منه مكانَ الخنقِ^(٢)
يقفُ به شاعرٌ ، ويحدو ركابهُ به كلُّ حادٍ بين بيّادِ سَمَلِقِ^(٣)
فطورا تراه زهرةً بين مجلسٍ وطورا تراه لَهْدَمًا بين فَيْلِقِ
وما كلّفني بالشعرِ إلّا لاهُ منارَ لاري ، أو نكالَ لاحِقِ
علقتُ به طفلا ، وشبتُ ولم يزل شديدا بأهداب الكلام تملقِ
بلشتُ بشعري ما أردتُ ، فلم أدعُ بنائس في أكمامها لم تفتقِ
فهذا نميرُ الشعرِ ، فأقصد حياضهُ لثروى ، وهذا مبرقُ الفضل فازتقِ

واعتدى البارودي بفطرته السليمة إلى الطريق الطبيعية التي سلكها من قبله
فعول الشعراء ، وقد كانوا يقرءون ويستظفرون شعر السابحين عن سبقهم
أو عاصرم من الشعراء حتى تتكون سليقتهم ، ثم يحاولون فهم مقاصده وتبين
مواقع الجمال فيه ، ويأخذون أنفسهم برواجه حتى تمتثل ذاكرتهم الألفاظ
والتراكيب ؛ ومن ثم وحين يأتيهم الدفق الشعري يسيل على ألسنتهم القول
دون عناء ، ودون حاجة إلى جهد وإعداد وترتيب ، ففى الذاكرة رصيد ضخم
من الألحان والأنغام والصور والتراكيب . والبارودي شاعر استظفر الكثير
من شعر الأنثمين « وقرأ للشات من قصائد الجاهلين والحضرمين ، وفحول

(٢) الخنق : الخلق . (٣) السلق : السفر .

(١) البارودي من مقدمته لحياته .

المحدثين ... ولانعرف أحداً بين أبناء جيل البارودى أو أبناء الجيل الذى تلاه قرأ أكثر مما قرأ من دواوين العرب ، واستفادت صياغته من هذه القراءة أكثر مما استفاد ^(١) . وتسربت العروبة مما قرأ وحفظ إلى بنابيع نفسه ، وتمثلها تمثلاً عميقاً أعادت فيه للعربية سليقتها القديمة بكل خصائصها اللفظية ومميزات التركيب فيها ، وواتاه الدفق الشعرى كذلك دون عناء ، وسال على لسانه القول دون حاجه إلى جهد وترتيب كما يقول :

نزل الكلامُ إلى من شُرفته وتمت بحديثي الآفاقُ
فاسمع ، فاكلُ الكلامِ بطيبٍ ولكل قولٍ فى الماعِ مَذَاقُ

ويشير حسين المرصنى ^(٢) أستاذ البارودى وقارئ دواوين الشعراء معه إلى ذلك بقوله ^(٣) : « إنه " بلغ سن الثقل وجد من غلبه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها وللنصوبات والختوضات حسب ما تقتضيه اللامنى والتملقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ... ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها فاقداً شريفها من خيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مدركاً ما كان ينبغي وما لا ينبغي وفق مقام الكلام » . ولعل قراءة البارودى بحضرة المرصنى على هذا النسق من الدراسة الأدبية دون التعرض لدراسة قواعد النحو والصرف والمعرض معه من كتاب ، هى التى دعت للمرصنى إلى أن يقول فى كتابه الوسيلة الأدبية :

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٢٦ .

(٢) فى الوسيلة الأدبية ج٢ ص ٤٧٤ . (٣) للتصنيف مارس ١٩٠٥ .

» محمود سامي البارودي لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية ؛ لأن الواقع يثبت غير ذلك ، فقد قرأ البارودي في دراسته الخاصة علوم المرحلة الابتدائية وفي المدرسة للفروزة — كما سبق أن أشرنا — بعض كتب النحو والصرف ، وإن كانت قراءة استظهار لا تنمي السليقة أو تفيد في تقويم اللسان .

ومن شعر البارودي نفسه نستدل على أنه درس العروض وعرفه ليتقن مآخذ الشعر ويتجنب الوقوع في الزلل ، لكنه لم يتعلم العروض أولا ليقول الشعر شأن المروضين في عصره ، بل قال الشعر ثم اتقى العروض ليتقن صنعه . وبذل على دراسته العروض معرفته بمصطلحاته في قوله :

لم تُبْنَ قافيةٌ فيه على خَلَلٍ كلا ولم تختلفْ في رَصْنِهَا الجملُ
فلا سدادٌ ولا حشوٌ ولا قاقُ ولا سقوطٌ ولا سهو ولا عِلَلُ
ولا يعرف هذه المصطلحات العروضية إلا دارس لم العروض .

ونأى البارودي بنفسه عن أن يبدأ ببناء معاصرين ، فقد كانوا يأخذون من الطبقات الدنيا ، فينشأ الشاعر مثلها إذا كان موقفا ، أو يكون أدنى منها بحكم الطبع ، ولكن البارودي كان من صفاء الطبع والقطرة وبقاء الذهن وكال الاستعداد ونصيحة أهل البصر بحيث وجد السبيل فابتدر القافية ، وصوب سهمه إلى النجم ، واتخذ مثله من الشعراء القحول . وفي ذلك يقول (١) :

مَقَى حَسَنٌ فِي حَلْبَةِ الشَّعْرِ سَابِقًا وَأَذْرَكَ لَمْ يُسَبِّحْ وَلَمْ يَأَلْ مُسَلِّمٌ (٢)

(١) هذه الأبيات لم يسبق نعرها في المخطوطة (س) ص ٢٤٤ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٩ .

(٢) حسن : أبو الحسن بن هاني ؛ ومسلم : مسلم بن الوليد الأنصاري (سريح التوائ) .

وَنَارَاهُمَا الطَّائِي فَاعْتَرَفَتْ لَهُ شُهُودُ اللَّعَانِ بِأَلَّتِي هِيَ أَخْصَمُ^(١)
وَأَبْدَعَ فِي الْقَوْلِ الْوَلِيدُ فَشِعْرُهُ عَلَى مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ وَشَيْءٌ مِنْهُمْ^(٢)
وَأَدْرَكَ فِي الْأَمْثَالِ أَحْمَدُ غَايَةَ تَبَرُّهِ الْخَطِيءِ مَا بَعْدَهَا مُقَدِّمُ^(٣)
وَسَرْتُ عَلَى آثَارِهِمْ وَلَرَبَّمَا سَبَقْتُ إِلَى أَشْيَاءَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٤)

ولم يكن سيرة على آثارهم تقليدا لهم بالمعنى السيئ ، بل أراد أن يحاربهم في ميادينهم ليرد إلى الشعر جزالته ونصاعته ورساقته ، أما بعد ذلك فشخصيته في شعره قوية بارزة ، شخصية تستكمل حريتها ، ولا تظهر باهته في ظل الأقدمين .

ولم تتكون قريحة البارودي الشعرية على الطريقة التي كانت سائدة في عصره بين الشعراء العروضيين ، فقد كانوا ينظمون القصائد ويخوضون في الشعر لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقا أو واجبا على كل من تعلم العروض ودرس البيان والبديع وما إليهما من أصول الصناعة ، وهم كانوا يتعلمون هذه الأصول ويطبقون ما تعلموه فيما ينظمونه ، فكانت دواوينهم أشبه شيء بكراسات التطبيق في معاهد التعليم ، بل كانوا يعتبرون الناظم وهو على غير علم بالعروض داخلا فيما لا يعنيه متفعلا على غير فنه^(٥) . وإنما الشعر عند البارودي فيض تنفجر به مشاعره ، وينساب طبيعيا من عواطفه إلى أسلته لسانه فيترجمه تراكيب وصورا ، ويتدفق تدفق ضوء الصباح للشرق يفصل عن ذاته فيدل عليها ويشير إلى ملاحظتها وتنعكس في مرآته صورة من حياته يتجلى فيها طابعه الخاص ،

(١) الطائي : أبو تمام حبيب بن أوس الطائي . (٢) الوليد : أبو تمام . (٣) العبد : أبو الطيب أحمد بن الحسين النخعي .

(٤) والله أعلم : في النص : والله أعلم . (٥) شعراء مصر ويشتاقهم في الجليل الماضي ص ٨ - ٩ .

وتمتزج الرائحة بالصورة امتزاج الروح بالجسد، ويصبح طابع الشخصية ممثلاً للشاعر في شعره . ولعل البارودي أشار إلى ذلك في قوله :

أنا ابنُ قولٍ وحسبي في الفَخَّارِ به وَأَنْ غَدَوْتُ كَرِيمَ الْمِمْ وَالخَالِ
ولى من الشعر آياتٌ مفصلةٌ تلوحُ في دُجْنَةِ الأَيَّامِ كَالخَالِ
فانظرْ لقولي مجدٌ نفسى مصورةٌ في صفحته قَبُولِي خطٌ تمثالي

وشعر البارودي لم يكن من جهد الصناعة أو من مماناة البديع وحده وضروبه وألوانه ، بل كان صادراً عن طبع قى أصيل . وكانت في قرارة نفسه عين كامنة مابث أن وجدت منفذاً حتى تقبعت بالنور والجمال ، وظلت تفيض ولا تنضب وكلما استثارها أسعفته وأقبلت عليه كما يقول :

ويا طالبا رُمتُ القَوافي فَأَقْبَلْتُ سراعاً ، فَلَا رُوى ذَكَرْتُ وَلَا حُرُوى
فَلَا يَحْذَرُ النَّاسُ حَذْوَ بِلَاغَتِي فَأَقْرَبُ مَا شَاوَهَا النَّابَةُ التُّصْوَى

فطبيعة البارودي الأصيلة هي التي حركته لقول الشعر فينزعه من قلبه وعواطفه ويمرّ في نبضه وختقانه ويفصل من دمه وشعوره وأعصابه وأفكاره فيمنعنا نحن والحق والجمال ، وإلى ذلك يشير :

أقولُ بطبعٍ لستُ أحتاجُ بَدءَ إلى النمل للطُرق وللنَّهْجِ الوَغْرِ
إذا جاشَ طبعي فافضْ بِالذَّرِّ مِنطَقِي وَلَا عَجَبٌ قَالَهُ يَنْشَأُ فِي الْبَحْرِ

وهو بذلك يعبر عن جوهر شعره وأساس مجده ، وتمجد طبيعته الشاعرة في الحياة وفي الحرب وفي الدواطف وفي اللذة والألم ما يساعد نموها وينفذها في أطوارها المختلفة ، فيخرج شعره متين اللفظ رقيق الحاشية يتحدث إلى القلب

والروح . وقد أحس البارودي بكل ذلك وعبر عنه تعبيراً واضحاً في قوله :
« إن الشر لمة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى
صحيقة القلب ، فيفيض بلائها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان
من الحكمة يبلج بها الخالك ويهتدى بها السالك ^(١) » ، أو كما يقول :

والشعر ديوان أخلاق يلوح به ما خطه الفكر من بحث وتغيير
كم شاد مجداً ، وكما أودى بمنقبه رقماً وخفصاً بمرجورٍ ومخدورٍ

وينبأى البارودي بشعره عن أن يتخذ سبباً لمرضاة حاكم أو سيلاً إلى
غاية عند أمير ، فلم يمدح به أحداً طلباً لمروفه ، أو يقف به مع شعراء
البلاط ينتظر الإذن بالإشاد ، بل كان يرتفع بنفسه وشعره عن مقام الأمانة
نفسه ، وفيه وراثة من مجد يبلغ به السما كين . وقد كان شعراء عصره يسخرون
أشعارهم لمديح الحكام والأغنياء ، بل لم يكونوا يفهمون الشعر إلا أنه وسيلة
للارتزاق فتادموا به ذوى اليسار والجاه ، ونها السكوا على الأبواب برقمهم
وقضايتهم ، وانحطت مرتبة الشاعر حتى احتسب مع للرتزة الذين يطعمون
لوجه الله . والذين عثروا البارودي من أبناء طبقة لقوله الشعر ، إنما عثروه
لأنه نزل في نظرم إلى هذه الطبقة للتكسبة من الندمان . وكان مبدأ
البارودي واضحاً في ذلك فقد قرر أنه يقول الشعر لا تذرعا إلى وجه
أمر به ، ولا تطلعا إلى غم احتويه ، وإنما هي أغراض حركتي ، وإياه جمع
في ، وغرام سال على قلبي ، فلم أملك أن أقبت ، فحركت به جرسى ،
أو حققت فسريت به عن نفسى ^(٢) .

وكان البارودى يحمل الشعر والشعراء على ضوء هذا للبدأ فريقيين : فريق ارتفع بنفسه وارتفع به شعره ، وفريق نزل بالشعر إلى مواطن الزاوية ، وفي ذلك يقول :

الشمرُ زينُ الرءِ ما لم يكن وسيلةً للـسـدحِ والذامِ
قد طالما عزَّ به مشرُّ وربما أزدَى بأنسوامِ
فاجملهُ ما شئتَ من حكمةٍ أو عظمةٍ أو حسبٍ تامِ
واعتفْ به من قبلِ تسريحه فالتَّهمُ منسوبٌ إلى الراسِ^(١)

لم تكن جزالة العبارة وبهجة الדיباجة ورصانة التراكيب هي كل الجديد الذى جاء به البارودى ، بل من الجديد الذى شد الأسماع لشعره ، ودعا إلى الإعجاب به ميالته الأدب التصويرى ، فملسبة عينيه الالاطة تصور الواقع في بساطة وسلاسة وقوة تحس معها بإرسال النفس على سجيبتها ، لأنه لا يتعمق ولا يعمد إلى التعقيد أو الغموض ولا يكاف الاستعارات أو السير في أخايد البديع ودروب الصنعة ، وإنما يرسل نفسه على سجيبتها لإرسالا فيصور ما هو أمامه ، ويمر عن عواطفه كما يريد أن يعبر الناس فلا يستطيعون . واعتاد البارودى على حواسه في شعره صفة بارزة فيه وخاصة للنظور الذى ظل يزداد وضوحا مع الأيام ، وتزداد فيه الحركة والحياة بدوع خاص ، وهو حين يسجل الصور بألفاظه الموسيقية ، لم يكن يسجلها في صمتها وسكونها على عادة عشاق الطبيعة الصامتة ، بل في نشاطها وتحركها حتى ليخيل لقارئ شعره وسامعه أن الحياة تبض في كل جزء تقع عليه العين وتحيط به الباصرة .

(١) هذه الأبيات لم يبق نفعها وهي من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) من ٢٥٨ : والمخطوطة (ج) من ٢٦٣ - ٢٦٤ .

وخرج شعر البارودي بنى أن ضعف الشعراء وقصورهم على طوال خمسة قرون لم يكن راجعا إلى قصور ذاتي في اللغة ، وإنما يرجع إلى الجمل بها وعدم التزود بأساليبها الناصعة الشفافة التي لا تحجب معنى من المعاني ، فاللغة العربية ليست جامدة ولا محصورة في متاهات البديع ، بل تلك كانت مرحلة عارضة ، تعرضت لها في محنتها وضمها حين تطورت الثقافة العربية في المصور العثمانية إلى ثقافة الشكل والمظهر بعد أن اختفى منها الجوهر من إنتاج العقل والشعور ، ولو رجع للشعراء إلى مصادر الثقافة العربية الأصيلة لوجدوا فيها الحياة والقوة والجمال للعقل والنبي .

البارودي كان على علم بالمسئولية التي ألقيها قدر الأدب العربي على عاتقه ، وكان على بينة من أنه الرائد لهضة ترد إلى الشعر العربي مقدراته وكان على بصيرة كاملة بأنه الملم الذي وكل إليه إحياء التريض من الجود الذي خيم عليه القرون الطوال ، وللهمز الذي عليه أن ينفخ في الصور ليبعث الشعر العربي من مرقدته . وفي ذلك يقول آخر ألامه :

أحييتُ أُنْظاسَ القريضِ بِمَنْطِقِي وصرعتُ فُرْسانَ المَـجَاجِ بِلَهْذِمِي
وَفَجَرْتُ بِنَبْوِ البَيَافِ بِمَنْطِقِي عَذِبِ رَوَيْتُ بِهِ غَلِيلَ اللُحُومِ^(١)
نَشَأْتُ بَطْنِي للقريضِ بِلِئالي لَيْسَتْ بِنَحْلَةٍ شَاعِرٍ مُقَدِّمِ^(٢)
يَصْبُو بِهَا الحُكْمَى صَوْتَهُ عَاشِقٍ وَتَخَفُ مِنْ طَرِبِ عَرِيكَهُ مُسْلِمِ^(٣)
قَوْمَتُهُ بَعْدَ اغْوَاجِ قَنَاتِهِ وَالرَمَحُ لَيْسَ يَرُوقُ غَيْرَ مُقَوِّمِ

(١) النحلة : الدعوى .

(٢) الموم : الطمى .

(٣) الحكى : أبو نواس ، الجس بن هاني بن عبد الله بن صباح (١٤٥ - ١٩٩ هـ)

ومسلم : مسلم بن الوليد الأنصاري (صريح النواي) شاعر عباسي (٧٤٧ - ٨٢٣ م) .

فَقَرَّ يَكَادُ السَّحَرُ يَبْلُغُ بِمَضَى مَا فِي طَيْهَا أَوْ كَانَ غَيْرَ مُحَرَّمٍ
مُتَشَابِهَ الطَّرْفَيْنِ يُبْنِي صَدْرَهُ هَمَّا تَلَاحِقًا، نَهَزَ بِأَدَى التَّمَلُّعِ
أَحْكَمْتُ مَنَظْفَةً بِلَهْجَةٍ مُتَلَقٍ يَقْطُرُ لِلْبَيْهَةِ فِي الْقَرِيضِ مُحْكَمٌ (١)
يَبْتَغِي أَهْبَةً كُلُّ فَارِسٍ بِهَمَةٍ وَرُزْمٌ شَفِيقَةٌ الْفَتِيحِ الْمَقَرَمِ (٢)
ذَلَّتْ مِنْهُ غَوَارِبًا لَا تَمُتْقِي وَخَطَمْتُ مِنْهُ مَوَارِقًا لَمْ تُنْطَمِ (٣)
شَعْرٌ جَمَعْتُ بِهِ شُرُوبَ عَحَاسِنِ لَمْ يَجْتَمِعْ قَبْلِي لِحْيَةٌ مُلَمَمٌ
فَإِذَا نَسَبْتُ فَتَنْتُ كُلَّ مَفْتَعٍ وَإِذَا نَأْتُ دَعَرْتُ كُلَّ مَلْثَمِ (٤)
كَالَرَوْضِ تَسْمَعُ مِنْهُ نَفَمَةً بَلْبَلٍ وَالْفِيلُ تَسْمَعُ مِنْهُ زَاوَةَ ضَيْفَمِ (٥)

منابع الشاعرية عند البارودي:

ظهر البارودي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في عالم الأدب العربي ظهور المعجزة التي لم يسبقها لإرهاص ينفي عنها ، فأثار عجب الناس واستتار إعجابهم ، ومن حقهم أن يعجبوا وأن يستأثروا ، فقد كان الشعر العربي في عصره ونحسة قرون سبقته يتردى — إلا القليل النادر — في حماة الجمود والانعطاط بعد أن أجدهت القرائح وضاعت الآفاق ، وهوت موضوعات الشعر إلى البرك من التأخر النقي ، فلم تعد تتجاوز الشخصى النافه أو للمعانى الضئيلة

-
- (١) اتفاق : المانق . (٢) الشفقة : شئ كالرثة يخرج البعير من فيه إذا حاج ؛
بزم : يضم ؛ والفتيق : الفحل الكرم لا يؤذى ولا يركب لكرامته ؛ القرم : انغم من أهله .
(٣) الغارب : الكامل أو ما بين الظهر والسنام . (٤) نأتم : يقال نأتم الأسد أى صوت .
(٥) القبل : الأجمة أو موضع الأسد أو الشجر الكثيرة اللث .
هذه الأبيات لم يسبق نشرها ، وهى من الجزء المخطوط من ديوان ومن قصيدة عدد أبياتها ٤٠٠
جيتاً ؛ المخطوطة (س) ص : ٢٥١ — ٢٥٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص : ٢٥٧ — ٢٥٩ .

كالتهيئة ببولود ، أو تولى منصب ، أو قطع سد الخليج ، أو رثاء صديق ، وبعد أن فسد الذوق لقوا ذلك كله بأكفان الصناعة ومحنات البديع ، وبعد أن قل نصيب شعراء تلك العصور من الثقافة اجتروا معاني السابقين واعتدوا عليه بالمسخ والتشويه .

وكان شعراء عصر البارودي وشعراء خمسة قرون خلت قبله بين فئتين : « فئة كان حظها من التنقيف ما أفادته من تلميها التقليدى الشكلى ، وما حفظته من الأدب النقل بالزخرف والزينة مما ظهر أثره فى ضآلة المعانى التى كانوا يستعملونها فى نظمهم وفى تكرار بعض الصور المألوفة عند شعراء الصنعة البديعية ، ومن ثم أصبح كثير من النشاط الشعرى فى تلك المراحل نوعا من التسلية الفارغة والنظر والتندر الشخصى ، وإظهار البراعة فى رصف الألفاظ دون كبير طائل ، ومصرف الجهد وإظهار الحذق فى تأليف الأشعار التاريخية التى تمخذه حادثة من الحوادث . وكان من أثر ذلك كله أن طبعت الصناعة الشعرية بطابع من التفاهة والسطحية يبدو فى نفسك بناء القصيدة ، والتجاء الشاعر فى تنقله من غرض لآخر فى قصيدته إلى أنواع من التخلص عديمة القيمة الفنية ، كما يبدو فى عدم الإحكام اللغوى وفى عامية الأسلوب فى كثير من الأحيان^(١) . »

أما الفئة الأخرى فقد اتجهت وجهة القصص والملاحم الشعبية المتوارثة يحفظونها ويزيدون فيها ، أو يبتكرون فى فن الرجل والموال ، يلقونها بأنفسهم أو يلقونها من ينشدونها على مسامع الجمهور فى التهرات والموايد والاحتفالات الشعبية وفى بيوت العمد وأعيان الريف . وكانت العامة تنصرف إلى فن هذه

(١) عند خلفه افة أحد : سنام الطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها (١٩٦١) ج ١ ص ٨٩ .

الفئة لقلّة حظها من الثقافة ومن معرفة الحفصات البدعية التي أثقل بها الشعر
الفصيح .

وفي الوقت الذي نحس فيه بانفصال شعر الفئة الأولى عن المجتمع وعدم
تعبيره عن الحياة العامة في البيئة المصرية ، نجد الفن الأدبي لفئة الثانية نابهاً من
مشكلات الشعب وآلامه ، يعبر في صدق وإحساس عن الحياة المصرية وما فيها
من آلام وقسوة وشكوى من الظلم وأمل في الخلاص من الاستبداد والاستغلال ،
ذلك لأن للهويين من الأدباء الذين لم يحسدوا التقدير والتشجيع في المدن
والمواضع لجهل الأغنياء وأعجمية الحكام زحفوا إلى الأحياء الشعبية والقرى
واضطروا أن ينزلوا إلى المستوى الفنى الذى يفهمه العامة والفلاحون ، وكان
لا بد لمؤلاء الأدباء من أن يعبروا عما يحسه جمهورهم حتى يجدوا لديه الكرم وحسن
الاستماع .

وجاء البارودى إلى هذا المعصر وكان من صفاء الفطرة ونقاء ذهنه وكأله
الاستعداد والثقافة بحيث وجد السبيل فابشر الفاية ، وطلع على عالم الأدباء بشعر
شريف الفرض موفق الروى متلائم النسيج حسن العرض مطروح العبارة إلى
حيث تشير القلوب ، فكان الملم الذى يمتته الماء ليخرج الشعر العربى من
ظلمات الهاوية ، ويبعثه من جديد ، ويرد إليه روحه للتجددة ، ويميد إليه
فطرته السليمة وبهجة الديباجة وصحة التركيب . جاء البارودى وقد رزق الوهبة
الغانية الصالحة للتجوير تعمل في ثناياها القوة والقدرة على الخلق والتفكير ، وأعطى
الملكة التي تمتلك أزمة الشعر بحيث تصرفه كما نشاء له مشاعره وكما يشاء له
خياله . أوتى البارودى هذه الوهبة منه من الله وجزأ من ورثة ، جاءته من

خال له سبته في نظم القريض^(١) ، وظلت هذه اللوحة تفيض عليه طوال حياته ولا تقارقه كما يقول خليل مطران :

« تسامت يوماً بدانة الود فسألته : أية حال من أحوال حيائك كنت فيها أميل إلى الشعر وأكثر اشتغالا به ؟ فأجابني : إن خطرات الشعر صحبتي في أيامى كلها ، ولم تفارقتى إلا في أقلها^(٢) » .

وكانت موهبة البارودى واستعداده لقول الشعر كالعين التى تفجرت ثم أخذت تنفذها ينابيع وروافد تصب فيها ليظل فيضانها لا ينضب ، ولتذكى الشاعرية وتثرى الملكة وتصل الاستعداد ، وتمده برصيد غنى بالمواطف تارة وبالثروة اللغوية أخرى . وكان من أم هذه الروافد والينابيع :

ثقافته : وقد عرفنا في فصل سبق ثقافة البارودى للمدرسية في الرحلة الابتدائية والحربية^(٣) ، وعرفنا رصيده من الثقافة اللغوية والشرعية والمدنية ، وكذلك ولعه بقراءة أمهات الكتب العربية ودواوين فحول الشعراء من السابقين وحفظه المئات من عيون قصائدهم كما يقول شيخه حسين الرصنى « ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها^(٤) » ، ولم يكن البارودى يقتصر على قراءة الدواوين وحفظها بل كان يدرسها دراسة أدبية ، « ناقداً شريف معانيها من خبيثها ، واثقاً على صوابها وخطئها ، ملزماً ما كان ينبغي وفق مقام الكلام

(١) أنظر ص ٦٥ - ٦٦ من الكتاب .

(٢) الجوائب المصرية لخليل مطران عدد ١٩٠٤/١٢/١٥ .

(٣) أنظر ص ٥١ - ٥٨ من الكتاب . (٤) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٧٤ .

ومالا ينبغي^(١) . وبلغ في قراءاته للشعراء العرب درجة لم يبلغها أحد من معاصريه أو ممن جاء بعده ، ومختاراته التي تقرب من أربعين ألف بيت لثلاثين من خيرة الشعراء المعاصرين^(٢) تدل على أنه قارئ استقصى دواوين شعراء العربية ليختار هؤلاء الشعراء من بينهم ، ثم درس دواوينهم وما فيها من أبواب الشعر المشهورة . وقد كان وهو في وزارة الأوقاف — صاحب الدعوة إلى جمع المخطوطات من المساجد والتكايا والزوايا والمدارس ، وجماها في مكان واحد لتضم إلى دار الكتب ، وذلك لشدة شغفه بجمع النادر من المخطوطات وقد أتاح له يساره أن يقنى الكثير منها في فروع المعرفة المختلفة من مصر والآستانه^(٣) .

وكان للتاريخ في نفسه المكانة التالية لدواوين الشعراء ، فقد كان يعيش فيه مع قومه وآبائه ، ويطير بمناح الخيال ليحيي حياتهم ، ويصل بمجده بمجدهم وقد بلغوا السالكين ، ودانت لهم الدنيا ، وكان يضرب في بطونه بحثاً عن نسبه وتحقيقاً لتاريخ آبائه حتى استثبت فقال :

نَافَى إِلَى الْعِلْيَاءِ فِرْعَ تَأْتَلَتْ أُرُومُهُ فِي الْمَجْدِ وَافْقَرَّ سَمْدُهُ

وبذلك تغذت قريحته منذ نضارتها بالثقافة التقليدية ، وبروائع الشعر العربي الكلاسيكي ، وعاش في صحبة العلماء والأدباء والشوامخ من الشعراء ، وغنيت ذخيرة خياله الفنى بكل رائق معجب من الصور والأساليب ، وأصبح جزءاً من ثروته اللغوية والأدبية ، وامتزجت به حتى صارت القسرة على التعبير الأصيل طبيعة فيه .

(١) المصدر السابق . (٢) صدرت تحت عنوان « مختارات البارودي » في ٤ أجزاء .

(٣) سالم التطور الحديث ص ١٠٠ .

وتكاملت سلفيته العربية بنفس الطريقة التي كان يصطنعها الشعراء في المصور القديمة ، وتمزجت العروبة الأصيلة إلى أعماقه فطفت على جركيته ، ولم تترك منها إلا ظلالة باهتة تطفو كلما احتد مزاجه أو راوده هائف !
الفخر والإباء .

ولم تكن الثقافة العربية هي كل ثقافته فقد قرأ الآداب التركية والفارسية ففتحت له بعد أن تعلمها مصاريع أبوابها الثقافية ، ووجد في معرفة هاتين اللغتين متعة لقله وثروة لفكره ، واطلع بهما على عالم أوسع يزيد من خبرات الحياة ومن آفاق المعرفة عنده ، ولنعت ثقافته العربية بهاتين الثقافتين فقائر وتوهجت شاعريته للمستكنة في أعماقه ، وغنيت قريحته بأفكار اللغتين ومعانيهما ، وأصدرت شاعريته عن هذا التأثير فظهرت ملامح من الثقافتين في شعره . وانضم إلى هذه الثقافات ثقافة التجربة والممارسة للحياة ، في شبابه وحروبه ورحلاته إلى تركيا وأوروبا وخارج البلاد ، وفي مجال السياسة وفي غمار الثورة ، ثم وافته الفرصة ليضئ سبمة عشر عاما في المنفى ، قضاهما يقرأ ... يقرأ كل ما وصلت إليه يده من كتب علمية وأدبية ولغوية ودينية ، ويتعلم مبادئ اللغة الإنجليزية ويترجم بعض موضوعاتها .

« الفتوة » من الروايف التي أثرت موهبة البارودي وأورت شاعريته ، وآثار البارودي وتاريخه وخلفه تشهد بأنه كان من أكابر « الفتيان » ، وفتوته فتوة أصيلة تأخذ وقودها من القلب والروح ، فهي التي أشقته بالمجد ودفنته إلى الثورة على الظلم والاستبداد بعد أن شاك مسمعه أنين الجور ، وحل عرى جفنه رؤية وجه القدر ، وهي التي أشقته بالناس والدنيا .

وقد مجلت فتوة البارودي « الفتوة المصرية » حين غنى بالحنين إلى روضه

للقياس ، وشدا بصبوات القلوب على شواطئ النيل ، وصدخ بذلك في عصر
كان النزول فيه فنا لا يليق بمظباء الرجال ، فكان بذلك أول شاعر في العصر
الحديث يحمل لشطآن النيل عند الحيين مكانا في ضمير الوجود ، وليس هناك
أطرب للنفس ولا أشد إسعادا لما من التنف بأوطار الأرواح في مثل معاهد الجيزة
والجزيرة والروضة وشبرا وحلوان ، وهى منان جهل جالما البشراء ، ونذر فيهم
من خرج إليها ليقف على سر الإبداع والطبيعة والجلال .

وفتوة البارودى هى التى جعلته فى حبه قى فأتاك الصبوات فى قدسية
وجلال ، عرف فى الحب شريعة وجدانية فلم يتردد فى اعتناقها ولو كان رئيس
وزراء ، ونظر إليه بعقلية « القى » فوجدته جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود
وترفضه إلى أوج انخلود ، وليس نزوة شباب يطلب منها للتاب . وهى التى
جعلته فى مجالس الشراب فارسا يستمتع بالصحاب والساق والشراب قبل
أن يناديه داعى الحرب فيذهب وقد لا يعود ، وينتهب اللذة مع وفر فى عرضه
وطهارة فى خلقه قبل أن يصبح الطير الأضامير لحد .

وننظر إلى صفحة أخلاق البارودى فنجدها أنصع صفحات « الفتوة » عنده ،
صرامة فى الإرادة والمزعة ، وحب للوفاء ، وبر بالعهد والوعد ، ورفق بالتريب
والبعد ، وعفة نفس ترتفع عن الريب ، وحب للعدل والإخاء ، وبنفس للتنمية
والنقد والمداخلة ، وكل ما يشين النفس ويؤذى بالنضيلة . وننظر إليه رجل سياسة
وثورة فراه « قى » لا يقبل أن يتصل بمن تيمة الثورة فيتهم غيره لينجو
بنفسه ويسلم من الأذى وينتقد أمواله الطائفة وأملأه الواسعة ، وتأتى عليه فتوته
أن يقف هذا الموقف البئيس ، وشارك إخوان الحركة وزلاء الجهاد ضراهم بعد
أن شاركهم سرائهم ، واستسلم لحكم القضاء فى سبيل الوفاء . وتنتظر إليه مقبها

حريداً فتجده « قتي » لا يرضى أن يذل بالاستعطاف وطلب العفو ، ولا تجمعه له نفسه أن يتوب عن النظرسة أو ينزل عن كبريائه ، فيقول وهو في عذاب التنفى وألم الاغتراب .

عفاه على الدنيا إذا لزم لم يمش بها بطلاً يحسى الحقيقة شدة
وإني امرؤ لا أستكين للصولة وإن شدة ساقى دون مسمائ قد

ويصبح البارودى بفتوته العربية الأسطورة المصرية فى القرن التاسع عشر ، والقارس العربى فى العصر الحديث . ويعرف بالأمير عند صحبه ومعارفه ، فقد كانت الأرمينية المصرية ملء برديه ، وكان بطبيعة نفسه من الأمراء ينض النظر من مجده الموروث .

وثالث الينابيع التى صبت فى معين موهبة البارودى ففتتها وأورث شاعريته بلهيبها ، ميراثه من « النصر الشركسى » ، ذلك الذى جعله حاد المزاج سريع الثورة والنضب متطرفا فى الحب والكراهة ، فتورى موهبته كلما طارت به فورة شركسيته ، وهى التى مدت له فى آفاق الأمل فجعلته يربط بمجده بأعجاف السائقين من آباءه فيصوب سهمه إلى الثريا ، ويرنو إلى الطلب الصعب ويهنو إلى مكان الجود من خديوية مصر ، وهى التى ملأت عطفيه شعورا بذاته حتى لتكاد ترى ضمير « الأنا » فى كل قصيدة به فى كل بيت من شعره . وارتقى فى التعبير عن الشخصية حتى أبرز لنا متاهات نفسه وأخرج لنا مكنون القدرات المستورة فى أعماقه من حس ، ولذة ، وغضب ، وبغض ، وحب ، وثورة ، وعذاب ، وألم .

فخر البارودى على الأقران بنار النصر الذى أحرزته فروسيته ، وتاه بما حدثته نفسه من شبح نبيلة تأبى الدنيا ، وعزمة ترد لها الم جيش وهو عجز ، وخلق كريم يزنه الوار ، وحلم كريم يكظم به غيظه إلا عن الدنيا ، وهمة صعدت به إلى الآفاق العلاء . ومن الأتنام التى شدا بها وقد جمع فيها بواعث نفخه قوله :

وَأَنَّى أَمْرُو لَوْلَا الْمَوَى مَا وَجَدْتَنِي أَدِينُ لَدِينِ اللَّهِ أَوْ أَرْهَبُ الدُّدُو (١)
بَعِيدُ مَنَاطِ الْمَهْمُ تُرْهَبُ صَوْلَتِي إِذَا مَا دَعَى نَعْلَبُ ، وَبَادِرَتْنِي تُرْوِي (٢)
إِسَانِي خُلُوبٌ فِي الْجِدَالِ ، وَصَارِي رَسُوبٌ ، وَرَأَيْتُ فِي سَمَاءِ الضُّحَى أَضْوَى (٣)
وَعَنْدِي إِذَا مَا الْحَرْبُ أَلَقَتْ قِنَاعَهَا عَزِيمَةُ لَيْثٍ مَا نَهَرُ ، وَمَا تُعْوَى (٤)
وَحِلْمٌ كَكَرِيمٍ يَمِلُّ النِّيْظُ قَلْبَهُ فَيَكْظُمُهُ ، وَالْحِلْمُ أَقْرَبُ لِلتُّعْوَى
وَعَفَا نَفْسٍ لَا تُزْنُ بِرَبِّهِ وَجُودٌ بِهِ ظَلَّتْ عَفَاةُ النَّدَى تُرْوِي (٥)
وَلِيْ هِمَّةٌ لَوْلَا الْمَوَانِقُ مَهَّدَتْ يَدُ الْمَجْدِ فِي أَثْنِ السَّاءِ لَهَا مَتَوَى
بَلَنْتُ بِهَا بَعْضَ النَّفْسِ غَيْرَ أَتْنِي جَدِيرٌ بِأَنْ أَحْوِي بِهَا كَلِمَةً أُنْعَوِي (٦)
فَإِنْ سَادَ غَيْرِي بِالْعُدُودِ فَأَتْنِي بِهِمْ وَفَضْلِي رِشْتُ سَهِي فَأُشْوِي (٧)
وَلَيْسَ عَلَوُ النَّفْسِ بِالْجَدِّ وَحْدَهُ وَلَيْسَ كَالْلَرِّ فِي شَرَفِ التَّأْوَى
إِذَا حَرَكْتَنِي نَحْوَ أَرْضٍ وَتَسِيرَةٍ رَكِبْتُ لَهَا عَزَى وَإِنْ بَعْدَ الْمَهْوَى (٨)
فَإِنْ كَانَ سَوَى الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَرَى مِنْ بَنِيهِ فِي الْحُطُوطِ فَمَا سَوَى (٩)
وَأَنَّى إِذَا مَا انْطَلَبُ أَمَقَرُ طَعْنُهُ نَبَذْتُ بِهِ رَأْيَا أَلَدَّ مِنَ السَّلْوَى (١٠)
أَصَبْتُ كُلِّي الْأَحْدَادِ حَتَّى تَرَكَتُهَا عَلَى جَبَرَاتِ النِّيْظِ تَأْمُورُهَا يُشْوَى (١١)
وَصُفْتُ مِنَ السَّحْرِ الْخَلَالَ قَصَائِلًا تَنْظُلُ (١٢) بِهَا نَفْسُ الْمُعِيدِ لَهَا تَشْوَى

(١) الددوى : الظلم . (٢) البادرة : المدة ؟ تروى : تتناقل (٣) السان الملوب :
الذى يفتن بلطف السلام ؛ والصارم الرسوب : الذى ييب فى الضريبة . (٤) ما نهر وما نوى :
ما استعصف . (٥) لا تزن بربة : لانهم بك عفاة الندى : طالبوا الفضل أو الرزق .
(٦) أحوى : أملك وأحرزنى استعطف وجندار . (٧) واتى سبه : ألقى عليه الرش
استعمادا لرى : فأأشوى : فأخطأ . (٨) الرتبة : الانظام .
(٩) فى المخطوطة (ج) المحفوظ . (١٠) أمقرطه : سار مرا ؛ السوى : السمل .
(١١) تأمورها : وعافها . (١٢) فى المخطوطة (ج) ينزل .

فَمَا قِيدَتْني لَفْظَةٌ دُونَ حِكْمَةٍ وَلَا عَزَى قَوْلٌ فَلْتُ إِلَى الدَّعْوَى
وَبِأَمَلَانَا رَمْتُ التَّوَانِي فَأَقْبَلْتُ سَرَاعًا، فَلَا أَرَوِي ذَكْرَتْ وَلَا حَزُونِي^(١)
فَلَا يَحْذُونُ النَّاسُ حَذَوَ بِلَافَتِي فَأَقْرَبُ مَا نِي شَاوَهَا الْغَايَةَ الْقَصْوَى^(٢)
ويفتن البارودي عنصر الشركسية فيه بالمجد والفخر أعنف الفتون ، حتى « تصبح
أماله أوسع من رحاب مصر »^(٣) ، وحتى يصبح محمود الجلال كأنه على كل نفس في
الزمان أمير ، ويمتزج الفخر بروحه أو يصير خلاصة روحه المالية الوثابة . وليس
بغريب أن يلازم الفخر شاعرنا البارودي طوال حياته ، في قوتها وفي ضعفها ،
في مجدها وبوم أن وقع به طائرته ، فقد كان الفارس الشاعر :

يَمْتَلُ طَوْرًا فَوْقَ ذِرْوَةِ مَنَبَرٍ وَيَكُرُ طَوْرًا فَوْقَ مُهْرِ شَيْطَلِمٍ
فَإِنْ فَارَقَهُ سَيْفُهُ فِي نَازِلِهِ حَيَاتِهِ ، فَقَدْ ظَلَّتْ قَيْثَارَةُ الشَّعْرِ تَصَادِقُهُ وَتَعْرِفُ لَهُ
حَقِي بِقَسَمِ الذَّرْوَةِ بَيْنَ الشَّعْرَاءِ فَيَقُولُ :

أَحْكَمْتُ مَطْعَتَهُ بِلَهْجَةٍ مُنْطَلِقِي يَقْظِ الْبَدِيهَةِ فِي الْقَرِيضِ مُعْجَلِمٍ
شَمْرٌ جَعْتُ بِهِ ضَرْوبَ مُحَاسِنٍ كَلَّمُ تَجْتَمِعُ قَبْلِي لِحْيَةٌ مُلْتَمِمْ
وغیر آخر من الفخر والتيه يأتيه من تبحر الرواية ، فقد كان آماؤه غرأ
ميامين ، حکموا مصر ودانت لم سوريا ، وكانت تنفزع الأفلاك حين يستل
منهم سيد غرب سيفه ، والبارودي منهم والعود يتبع أصله ، ويصله بطليانهم
فرح تأملت أرومته في المجد وبذلك يدركه من أطرافه فيقول :

(١) أروى : قرية بمجرى أوام بطريق مكة ، وحزوى : موضع
(٢) هذه الأبيات لم يسبق لتفترها وهي من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدم أبياتها
٣٦ يتاعنون لها بقوله وسأله بنو أمية أن يوازن قصيدة البحتري التي أولها :
لنا أبداً بثّ ثمانيه في أروى وحزوى ، وكل أدتلك من لوعة حزوى

المخطوطة (س) ص ٣٠١ - ٣٠٢ : والمخطوطة (ب) ص ٣٠٧ - ٣٠٨
(٣) المصطلح ١/٢/١٩٠٥ .

أدركتُ ناصيةَ العَائدِ والعَلاَّ وشأوتُ فيها كلَّ أصيدٍ مُضَمِّمٍ^(١)
فأنا ابنُ نَفْسٍ إنْ غُفِرْتُ وإنْ كُنْ لِأَعَزِّ مِنْ سَلَفِ الأَكْرامِ أَنتَمِ^(٢)
ولا تَجْنِي على الحَقِيقَةِ إذا قلنا إنْ أَكْثَرَ شَعْرِ البَارودَى كانَ فُغْراً ،
وإنْ الفُغْرَ كانَ أَبْرَزَ غُرْضٍ في شِعْره وخَيْرَه إِجَادَةً ، وكانت تَسوقُه في أَحيانٍ
كَثيرةٍ رِيحَ التَّيْهِ حَتَّى تَصِلَ بِهِ إلى حَدِّ التَّرُودِ وَذَلِكَ في مِثْلِ قَوْلِهِ :

بَلَنْتُ عَلاً لَا يَبْلُغُ النُّجُومُ شَأْوَهَا إِذَا هُوَ لَمْ يَنْهَضْ لَهَا بِقَوَادِمِ
قَائِمَةُ أَرْضٍ لَمْ تَجْبُهَا سِوَايَ وَغَمْرَةٍ تَأْسٍ لَمْ تَخْضُهَا سِوَايَ
وَمَا اللَّيْلُ إِلَّا هَيَؤَةٌ مِنْ كَتَائِبِي وَلَا الشَّهْبُ إِلَّا لَمْعَةٌ مِنْ لَهَازِي^(٣)
وَمِنْ جَيْدِ نَفَرِهِ بِنَفْسِهِ وَجُدُودِهِ الَّذِينَ خَاضُوا الْحَرْبَ وَتَسَدُّوا ذُرُوءَ الْجَدِّ
وَحَمُوا بَسِيْفَهُمُ الْإِسْلَامَ وَبِلَادَ الْمَدِينِ قَوْلُهُ :

فِي قَائِمِ السَّيْفِ إِنْ عَزَّ الرَّضَى^(٤) حَكَمَ فَالْحَكَمُ لِلْسَيْفِ إِنْ لَمْ تَصْدَعْ^(٥) السَّكَلِمُ
تَأْبَى لِي الضَّمِيمُ نَفْسَ حَرَّةٍ وَيدُ أَطَاعَهَا الرَّهْفَانُ السَّيْفُ وَالْقَلَمُ
وَعَزَمَةٌ بِمِثْلِهَا هَمَّةٌ شَهَرَتْ بِهَا عَلَى الدَّهْرِ عَضْبًا^(٦) لَيْسَ يَنْثَلِمُ
وَفَتِيَّةٌ كَأَسْوَدِ الْغَابِ لَيْسَ لَهَا إِلَّا الرَّمَاحُ إِذَا احْمَرَّ الْوَعْيُ أَجْمُ
كَالْبَرْقِ إِنْ عَزَمُوا ، وَالرَّعْدِ إِنْ صَدَمُوا وَالنَّيْثِ إِنْ رَحَمُوا ، وَالسَّيْلِ إِنْ هَجَمُوا

(١) ناصية : في المخطوطة (ج) ناصية ؛ الأسيد : الذي يرفع رأسه كثيراً .

(٢) هذه الأبيات المحقة لم يبق نصهما . المخطوطة (س) ص ٢٥٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٨ .

(٣) هذه الأبيات لم يبق نصهما وهي من نصبة منواتها وقال يخضر « وعدد أبياتها ١٢ بيتاً ،

المخطوطة (س) ص ٢٤١ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٧ .

(٤) في المخطوطة (ج) الرضا . (٥) « لم » . غير موجودة في المخطوطة (ج) .

(٦) « عضبا » . غير موجودة في المخطوطة (ج) ولكنها فراغ .

إِنْ حَارَبُوا مُشْتَرَاً^(١) فِي جَحْفَلٍ غَلَبُوا أَوْ خَاصِمُوا نَفَةً فِي جَحْفَلٍ خَصَمُوا^(٢)
لَا يَرْهَبُونَ النَّيَا أَنْ تَلُمَ بِهِمْ كَانَتْ لَنَايَا عَنْهُمْ حَرَمٌ
مُرْتَهُونٌ حَسْبُكَ فِي مَجَالِسِهِمْ فِي الْحُرُوبِ إِذَا لَاقَيْتَهُمْ بِهِمْ^(٣)
مِنْ كُلِّ أَزْهَرٍ كَالَّذِينَ نَارُ غُرَّتِهِ يَنْتَلُو الْكَرْيَةَ مِنْهُ كَوَكْبٌ ضَرِمٌ^(٤)
مَاتُوا كِرَامًا ، وَأَبْقَوْا لَعْلًا أَرَا نَالَتْ بِهِ شَرَفَ الْحَرِيَةِ الْأَمَمِ^(٥)

ورائد رابع انساب في موهبته فأغناها بالصور والمواطف والانتقال ، ذلك هو « الحرب » . فامتثاقه الحسام ليخوض للمارك في كريت ، أو ليواجه الجيوش في فجاح الأراضي البغارية والروسية ، أو ليلقي العدو منفرداً في معركة القصاصين قد أذكى شاعريته فأمدتنا بلدوره الخالدة . « وحائية »^(٦) « البارودي » « وداليتاه »^(٧) في وصف الحرب الروسية ، « ودالية » أخرى^(٨) « ونونية » في وصف الحرب بمجزرة كريت^(٩) ما زالت كل قصيدة منها أعجوبة من عجائب الشعر العربي في ، ولوسمها أبو فراس لسجد لها سجدة الإجلال والإعجاب . وقصائده الأخرى في الحرب تدلنا على أن روحه وشاعريته كانتا تتجاوبان معه في المارك فتمنحه الأقباس التي لا تصدر إلا عن الفرسان الصناديد ، وتظهر فروسيته حتى في الهزيمة فلا يكون إلا آخر للفاسحين حين يكون الثبات أمام العدو تهوراً وجنوناً^(١٠) .

-
- (١) في المخطوطة (ج) معمر .
(٢) خصمه : غلبه في المصومة . (٣) جمع بهمة : الشجاع الذي يستبهم مأناه على أقرانه .
(٤) الأزهر : المشرق الوجه ؛ كوكب ضرم : متوهج كالنار .
(٥) هذه الأبيات لم يبق في نسخة من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة تحت عنوان « وقال يفتخر » وعدد أبياتها ١٨ بيتاً ؛ المخطوطة (س) مر ٢٥٨-٢٥٩ ؛ والمخطوطة (ج) س ٢٦٤-٢٦٥ .
(٦) الديوان (البارم) ج ١ س ١٠٦-١١٥ . (٧) الديوان (البارم) ج ١ س ١٦١-١٧٦ .
(٨) المصدر السابق س ١٥٦-١٦١ . (٩) الرسالة الأدبية س ٤٩٦ .
(١٠) انظر : س ٢٤٧ من الكتاب .

وكانت الحرب عند البارودي سبيل للمآلى وطريق الجد ، ومن ثم هام بها واشتاق إليها ، فهو المولع بالمجد والمفتون بالمآلى ، واستمذب في سبيلها مذاق الموت وهو كربه ، وتلذذ بالآلام القتال وهى مهلكة كما يقول :

وإنَّ الذى يَشْتاقُ القلبُ غادَةً لها الرمحُ قدَّ والمهْندُ مِغْصَمُ
إِذَا راسَلَتْ كانت رسالةُ حبا بضربِ الطُّبَّاءِ توحى وبالطَّعنِ تُنْجِمُ
لها مِن دماءِ الصَّيْدِ فى حَوْمَةِ الوعى شرابٌ ، ومن هامِ القوارسِ مَطْعَمُ
عَلِقَتْ بها ، وهى المَسالى ، وَقَلْنَا يهيمُ بها إلَّا الشَّجاعُ المَصْمُ
هوَى ليس فيه للآلامِ مَسَلَكٌ ولا لاسرىءِ نالِجى به النَّفسُ مائِمُ
تلذُّ به الآلامُ وهى مُبيرةٌ ويَحُلُو به طعمُ الرَّذَى وهو عَقَمُ
فَنَ يَكُ بالبَيضِ الكواعبُ مُغرَما فائىَّ بالبَيضِ القَوَاضِ مَغْرَمُ
أنا المرء لا يَنْفِيدُ عما يرومُه نهىَّ العدا ، والشرُّ عريانُ أَشْأَمُ
أَغِيرُ على الأبطالِ والصَّيْحُ أَشْبَهُ وآوى إلى الصَّيفانِ والليلُ أَذْهَمُ
ويَصْحَبُنِ فى كلِّ روعٍ ثلاثةُ خَاصِّمٍ وطرفُ أعوجى وَلَهْذَمُ
ويَنْصَرُنِ فى كلِّ جَمعٍ ثلاثةُ لسانٍ وِرهانٍ ورأى مُحْكَمُ
فما أنا بالمغمورِ إنَّ عَنِّ حادِثٌ ولا بالذى إنَّ أَشْكَلَ الأَسْرِ يُفْجَمُ^(١)

وهو فى مواقفه ومعاركه لا ينسى مواقع هواء ومقانى صباه ، من ملاعب
الجيزة والروضة والمقياس وحلوان ، ويتشوق لمصر بروح ندر أن يحدث بقلها

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٣١ بيتاً . المخطوطة (س) من ٢٢٢ ؛ والمخطوطة (ج) من ٢٦٦ .

أحد من الشعراء الذين سبقوه إلى الحديث عن البهيمد من معاهد وجددم وملعب
صباهم ومغاني أوطانهم .

وخامس الروافد الذي أمد شاعريته بفيض لا ينفد من النور هو « مصر »
تلك التي فتنته بجها طوال حياته فدلها فيها حتى أصبحت « فانتة الكبرى »
وكانت له كما يقول :

بلد^(١) نشأت مع الثبات بأرضها ولتشتت نثر غديرها المتبسم
قسيمها روحى ، ومعدن تزيها جنسى ، وكوثر نيلها نحيبا دى
هى جنة الحسن التي زهرتها حور الميا ، وهزار أبكتها نحي^(٢)

وقليلا مانجد شاعرا حرييا تنفى بوطنه وغنى له كما فعل الهارودى . كان
يشتااق إلى مصر وهو منها قريب ، يستمتع بكل ما فيها ولا يمل التمتع ، ويصف
جمالها وجنتها اتديعاء ورياضها الزاهرة ، وقطعها للوز وللنور ونيلها الخالد
فلا يمل الوصف ، ويتغنى بمعاهد الهوى على ضفاف النيل ولا يكف عن الفناء ،
فيقول فى روضة للقياس على النيل :

ألا حتى بالقياس ربا للمالم وقل لها متاعية قادم^(٣)
أحاطت بها لليل من كل جانب جداول تقيه سلاف النمام
تدور مدار الطوق من حيث تلتقى مسيرا وتسل أنسلال الأراقم
إذا صاحكتها الشمس رقت متوئها رفيف الثنايا خلف حمر اللباسم
ولن سلسلتها الريح أبنت سبائكا مقدرة كالوشم فوق العاصم

(١) فى المخطوطة (ج) به . (٢) هذه الأبيات لم يسبق نعرها ؛ المخطوطة (س) ص ٢٥١ ؛
والمخطوطة (ج) ص ٢٥٧ . (٣) قل الأمر من قل قلا : اجل .

نجوسٌ خلالَ التباساتٍ وتنتفي ^(١) إلى ساعدهِ في غمرة النيل ساجمٌ
تَرى حَوْطًا الأشجارَ ولغى سُكَبَةً ^(٢) عَلَى النَّاءِ فِدْلَ الصَّادِيَةِ العَوَّامِ
وَمَتَبِعَاتٍ فِي التَّهَوَّاءِ كَانَهَا ^(٣) يَسَارِقُ لَعَبُورُكَزَّتْ فِي التَّوَامِ
مِنْ اللَّاءِ قَدْ آلَتَيْنِ بِشَرِينِ ، أَوْ تَلِي ^(٤) مَنَابِئُهَا غَوْرَ الْيَحْسَارِ الْخَفَّارِ
إِذَا لَاعَبَتْ أَعْرَاقَهَا الرِّيحُ خِلْفَهَا ^(٥) قَوَارِسُ تَعَصُّو بِالْثَيُوفِ الْوَارِمِ
بِلَوْحٍ بِهَا طَلَعٌ نَفْسِيْدٌ كَانَهُ ^(٦) فَرَائِدُ سَاوِي يَنْهَا كَهْ نَائِلِ
إِذَا مَا أُنِي مِيقَاتُهَا وَتَضَرَّجَتْ ^(٧) حَسِبَتْ حَقِيقًا فِي صَحَابِ الْكَمَامِ
تَسَارَحُ لَمْ يُولَوْ رَأَى الشَّبُّ حُسْنَهَا ^(٨) تَسْضُ عَلَى مَا فَانَهُ بِبَاهِمِ

فإذا ما نأى عن «مصر» إلى حرب حن إليها والتاع لفراقها ، وبدت له خيالات
معالمها ومفانيها بين لمان الأُسنة وضرب اللهازم ، وذكره بها كل برق يبدو
من ناحيتها ، وحلت إليه عقب شميمها الخالد كل شمالية رخاء تسمى إليه
من جهتها .

كانت فاتنة البارودي الكعبي في شبابه حيث عاش بين رحابها أجل أيام عمره ،
وكان فنى فائك الصبوات وابن كأس ولادة ، شغف بها وبأبحارها القديمة القرية التي
تتصل به بسبب قريب ، وقد كان لأهلها فيها سهم موفور حين رفنوا رايات
النصر المصرية على الشام والأناضول ، ويوم صدوا هجيات التشار والقوا

(١) ساجم : سائل منصوب . (٢) الصاديات الموائم : السطاح .

(٣) غور البحار : فاعها ؛ والبحر المحضرم : كثير الماء ؛ آين بشرين : لا يشرين .
(٤) تصو بالثيوف : تضرب بها . (٥) الكمام : الأفعلة التي تحيط بالنصر أو الطمع
تلتقه ثم تنشق منه . (٦) هذه الأيات لم يسبق لصرها وهي من قصيدة عنوانها « وقال
صف روضة القباس ووعده آياتها ٢٨ بيتا . (الخطوط) (س) ص ٢٢٣ ؛ والخطوط (ج) ص ٢٢٤ .
والمراد بالقب هنا حسب بوان . وهو موضع كثير الشجر والمياه في بلاد الحجيم يد من جان الدنيا .

بالصليبيين في البحر المتوسط . وشنف بمجدها للوغل في القدم ، فأشد للفراعين
وشاد بمجدهم ، وتغنى بآثارهم الخالدة وعلومهم التي بقيت شاهدة على حضارتهم ،
فكان أول من تصدى لتيار الكراهية التي غرسها فينا الوم الديني والتفسير
الخطأ لقصص الرسل ، حيث أخذ القراءة جميعاً على صر المصور بجزيرة فرعون
واحد لم يؤمن بموسى ! كان البارودي أول من حول تيار الكراهية عنهم ،
واستبدل به تيار التقدير والإجلال لعلومهم ومآثرهم على الإنسانية ، ومن قوله فيهم :

فَانْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ الْمَائِلَيْنِ تَجِدُ غَرَائِبًا لَا تَرَاهَا النَّفْسُ فِي الْحُلُمِ
صَرَاحًا مَا دَارَتْ الْأَفْلَاكُ مَفْدُجَتْ عَلَى تَنْظِيرِهَا فِي الشُّكْلِ وَالْعِظَمِ
نَفْسُنَا حِكْمًا بَادَتْ مَصَادِرُهَا لَكِنَّهَا بَقِيَتْ نَفْسًا عَلَى وَثَمٍ ^(١)
فَكَمْ بِهَا صُورٌ كَادَتْ تُخَاطِبُنَا جَهْرًا بِفِيهِ لِسَانٌ تَاطِقٌ وَفَمٌ
تَقُولُ « لِهَرَمَيْنِ » آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِ حَمِيمٍ وَمَجْدٍ بِادِخِ الْقَدَمِ ^(٢)
آيَاتٌ فَعَرَّ تَجَلَّى نَوْرُهَا ، فَفَدَتْ مَذْكُورَةً بِلسَانِ الشُّرْبِ وَالْمَجْمَرِ
وَلَا حَ يَنْهَمَسَا « يَلِيْمٌ » مُقْبَهَا لَشَرْقٍ يَلْعَفُ مَجْرَى النَّيْلِ مِنْ أَسَمِ ^(٣)
كَأَنَّهُ رَابِضٌ لِلوُثْبِ مُنْتَظِرٌ قَرِيبَةً ، قَهْوَرِهَاهَا وَلَمْ يَكُنْ
رَمْزٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُلُومَ إِذَا حَمَتْ بِعَصْرِ نَزَّتْ مِنْ وَهْدَةِ الْقَدَمِ ^(٤)

تغنى البارودي بذلك كله فأصبح شعره صورة للبيئة المصرية
في عصره ، تلك التي عاش فيها ونعم بها فأحبها وأغرم بهاها .

(١) الرزم : خشية الجزاء يطغى عليها اللطم . (٢) هرمس : الاسم اليوناني لاله المصري
« نطوت » . (٣) بليبي : أبو الهول . (٤) هذه الآيات لم يسبق لشعرها وهي من
قصيدة عدد آياتها ٣٧ بيتاً - المخطوطة (س) ٢٢٤ - ٢٢٥ ، والمخطوطة (ج) ٢٢٩ - ٢٣٠ .

وكانت « مصر » فانتته الكبرى في رجولته يوم ثار من أجلها وهي تروح تحت نير الظلم وعبودية الاستبداد، فنادى بالثورة يها من الإرهاب والفساد. ثم كانت فانتته الكبرى يوم انضم إلى الثورة في زحفها للقدس، ويوم رفع راية العصيان في وجه الرجعية وطلّاع الاستعمار، وخاض من أجلها غمار الحرب. وذاق المزيمة وظلمة السجن والموان، فكان الرائد للشعر السياسي في العصر الحديث، والروح الناطقة بكل أحداث مصر في الزمن الذي عاش فيه. وكانت فانتته الكبرى هي سبب نكبته يوم قدم نفسه وماله وأهله قرباناً في سبيل الدفاع عنها. وحيث تنقل مصيرها من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ولقتها أبواب الحداد على حريتها وضحاياها، انتقل حظها من السعد إلى النقص معها، وطوحت به الأقدار بعيداً عنها يعيش في جحيم النفي والأغراب سبعة عشر عاماً، بتفطر قلبه أسى ولوعة لبعده عنها، وتذوب مشاعره حينئذ إلى مصر فيبكي فراقها بدموع الألم. ويتخطف الموت أهل وولده ومحبه على البعد، ويموت على مرأى منه من لا تتحمل صحته الطنن الاستوائى من زملاء النفي ورققاء الشتاء والفرجة، ويهجمه المرض في النفي فيخشى أن تكون النهاية قبل التلاقي، وأن يموت غريب المدار والوطن فيتمنى القرب من وطنه، ويكثر في النفي ولكن الأقدار تمن في الصد عنه، ويظل يساوم في تمنيه حتى يبلغ به الشوق إلى قطرة من ماء مصر وضجة فوق ترابها، فيقول :

يا حَيْدًا جَسْرَةً من مَآءٍ مَحْنِيَةٍ وضجةٌ فوقَ بَرَدِ الرملِ بالقَافِ

ويصعب ذلك المذاب والمائة والألم العبرى في معين موهبته فتضطرم بالأنغام الحزينة تعزفها له ربة الشر، فتخرج أقباساً تظلل خالته على ضمير الزمن شاهدة على حب البارودي لمصر، ومن عذب مناجاته لوطنه قوله :

وَأَعْلَوْ شَوْقِي إِلَيْكَ يَا وَطَنُ وَإِنْ عَرَقَتْ بِمَجْهَكِ اللَّحْنُ
أَنْتَ الَّذِي، وَالْحَدِيثُ إِنَّ أَقْبَلَ الصَّبْحُ ، وَهَمِّي لِمَنْ رَنَى الْوَسْنُ^(١)
فَكَيْفَ أَنْتَ بِالْفَيْبِ، وَلِي فَيْكَ فَوَادُّ بِالْوَدِّ مُسْتَهَنُ
لَسْتُ أَبَالِي إِنْ سَلَتْ عَلَى اللَّهِ سِرٌّ إِذَا مَا أَصَابَنِي الْحَزَنُ^(٢)

والرافد السادس اقوى استتار شاعرية البارودى ونجى لها نميراً من الصور
والأحاسيس ففتت وعلقت الحمام الأغاني هو « الحب » . فقد صاغ تجاربه
الماطفية صوراً يصف فيها الجمال الذى يستمتع به ، الشهور الذى يخامر قلبه
من سعادة وعذاب وهجر ووصال ، ويشدو بها على قيثارة شعره ويخرجها إلى
الحياة فتبقى .

وقد تنقل قلب البارودى في هوى الفيد الحسان وكابد للفرام الحقيقى مع
أكثر من حبيبة ، سنوات شبابه ، فكانت هناك « ظبية القياس »
و « مهاة شبرا » و « غزالة الجزيرة » و « ليلي حلوان » ، تعلمه واحدة
فيطرب ، وتعلمه أخرى فيتمذب ، وتعرض فائلة فيفنديها بنفسه ، وترحل رابعة
فيحيل رحيلها حلاوة الحب ألماً والتياحاً . وإذا ما نغم بحلاوة الحب سال نقماً
يتدفق سلاسة وجمالاً ، وإذا عذبه الصمد صاغ الألم في عواطف لازمة تظهر
لوعته وأساءه . ونقرأ غزليات البارودى الحقيقية فتنفذ إلى قلوبنا ، وتصل إلى
أعماقنا ، وتتجاوب معها مشاعرنا ، ونشركنا في آلام نفسه وملذات قلبه لأنه
يصور واقعاً تنبض به أحاسيسه ويذوب لها قلبه^(٣) .

(١) رنَى النوم في عبيته : غيبيها ، والوسن : قلة النوم .
(٢) هذه الأبيات لم يسبق تفسيرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة تحت عنوان
« وهال وهو يسرقني يمشق إلى الوطن ويذكر صديقه » وهى ٢٧ بيتاً . المخطوطة (س) . ص ٢٧٦
— ٢٧٧ : والمخطوطة (ج) ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .
(٣) لمزيد من التفصيل من حب البارودى وغزلياته أنظر ص ١٠١ — ١١٣ من الكتاب .

البارودي في الميزان

مذهب البارودي في الشعر :

كانت دواوين الفحول من الشعراء القدامى معين الثقافة الفنية التي نهل منها البارودي واغترف ، وكان شعره للثل الذي احتذاه ، والنمط الذي نسج على منواله . ومن الطبيعي وقد سلك البارودي الطريقة للثل للثقافة الفنية في الشعر — فقرأ الكثير ، وحفظ المثلثات من القصائد ، واستقصى لنفسه الجزل من تراكيبها ، والشهير من موضوعاتها ، والناصع من عباراتها وصورها ، والبديع من معانيها ، وما جرى على ألسنة شعرائها من خواطر وتشبيهات — أن يهود بالشعر العربي إلى فطرته السليمة ، ويخلصه من آفات الصناعة التي قتلت الروح والفنية فيه ، ويرد إليه تعبيره الصحيح ، وينسج خيوطه من خير ما لديه من رصيد . ومن الطبيعي أيضاً أن نجد العناصر القديمة في اللفظ وللمنى تسرى في شعر البارودي بقوة ، وكأنه يريد أن يردنا إلى الوراء أكثر من خمسة قرون ، أو ييسث القدامى من مراقدهم بشعره ليعيشوا في بداوتهم بين الآرام والنياق والمين والظباء ، فتكون قصائده كما يقول :

حضرية الأنساب إلا أنها بدوية في الطبع والتركيب

ومن الطبيعي والأمر كذلك أن يكون البارودي في شعره محافظاً — دون قصد — على التقى الموروث في الشعر العربي ، ومن ثم يكون بما أوتي من موهبة عاتية ، وتمثل للتقديم واحتذائه ، وظهره منفرداً كالكلمة بين شعراء عصره — إماماً « لمدسة المحافظين » أو التقليديين في الشعر العربي الحديث . وهي مدرسة تحافظ على عمود الشعر كما عرفه قواد العرب حين « يحاولون شرف

المنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف ، ومن اجتماع هذه الأساليب الثلاثة كثرت سواثر الأمثال وشوارد الأبيات ، وللقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتأما ، على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المتعارف منه للمستعار له ، ومشاكل اللفظ بالمنى ، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هي حود الشعر^(١) . وكذلك تتبع المدرسة خطى السابقين في نسق القصيدة والسير فيها ، والانتقال من غرض إلى غرض ، بحيث يفتتحون القصائد بالنسب ، ويذكرون ما قطع الشاعر من مفاوز ، وما أنضى من ركائب ، وما تجشم من هول ، ثم يخرج إلى المقصود^(٢) . وتسير المدرسة على نهج الأولين من حيث أفراد كل بيت بإفادته في تركيبه ، حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده ، وتستطرد الخروج من فن إلى فن ، ومن مقصود إلى مقصود بأن توافى الأول ومعانيه إلى أن يقاسم المقصود الثاني ، ويبعد الكلام عن التناثر^(٣) . وهي أيضاً تفتى بالأسلوب عنابة فائقة ، فالكلام في رأيها لا يكون بليغاً عند العرب حتى يتضمن الجزالة ومقانة النسيج والسهولة بحيث لا يفتلق معناه^(٤) . وهي تجعل الأسلوب مناط البلاغة كما يقرر عبد القاهر ، فليست البلاغة عنده في اللفظ أو المنى ولكنها في الأسلوب ، وتقيم من الأسلوب أنه يجري الكلام وسياقه . وليس بغريب بعد ذلك كله أن يكون فهم البارودي للشعر قريباً من فهم النقاد القدامى له ، فغير الكلام عنده « ما اختلفت ألفاظه ، واختلفت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد الرمي ، سليماً من وصمة التكلف ،

(١) ديوان الحماسة شرح للرزوى ج ١ ص ٩ .

(٢) البصيرة في سناعة الشعر لابن رعيص ج ١ ص ١٥٠ (القاهرة ١٩٠٧) .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٦ (القاهرة ١٩٢٢) .

(٤) كتاب الصانعين لأبي حلال العسكري ص ٤٣ (طبعة ١٩٥٢) .

زبناً من عشوة التصف ، غنياً عن مراجعة الفكرة . فهذه صفة الشعر الجيد ^(١) .

مذهب البارودي في الشعر إذن هو مذهب الذي يتميز بروعة الأسلوب وجلال الصياغة الشعرية ويعتمد لما سبق والأولية ، وذلك لأنه تخير أرق أساليب العربية وجارها وصار على نمطها ، وفي بعض أحيانه وفي سبيل انتقاء اللفظ المؤتلف والبراءة من عشوة التصف يضحى بالمعنى الجيد للمؤتلف الذي قد يصيب الحز فيكون من معجزة البيان . ومن ثم فقد أخذ عليه بعض نقاد عصره أنه لم يتسكّر معاني جديدة ، ولم يتخذ أساليب خاصة في شعره ، وأنه كلف بالنقمة ، وانصرف إلى صناعة الشعر ، ولذلك كان صائداً قواف وصانع قريض ، مع اعترافهم بحسن صنفته الشعرية وتألقه في بهجة الדיباجة وجمال السبك ، فيقول عنه خليل مطران : « وإنه [البارودي] لشاعر وناهيك به من شاعر ، لا أبالغ فيه ، إنه نسيج وحده ، ونادرة الزمان . على أن أحسن ما في شعره الصياغة ، دنها سما إلى منتهى الإجابة ، وبرز على المتقدمين فضلاً عن المتأخرين ، ولو بحث عن ديوان تجده كله عقوداً وحلى من أرق ما أملى الطبع ، وأدق ما طرز البراع لما وجدته جملة وتفصيلاً كديوانه .

» ومن هذا الكلف الشديد باللفظ والأسلوب التركيبي نشأ عنده أحياناً فتور عن الإغراب في المعاني ، وحرص على التألف من طريقة للنظم ، ولكنهما لا ينتقصان شيئاً من مزية قريضه . وسيجد الأدباء في ديوانه وفي الكتاب الذي جمع فيه مختارات جماعة من أكابر الشعراء المتقدمين ، أنه أهمل كل ما لم يقع لفظه موقعاً حسناً من نفسه ، وإن جلّ معناه وسما مراده ، وبهذا كان نظمه غاية الغايات في التصوير إتقاناً وإحكاماً ، وآية من الآيات في التعبير رقة وانجاساً ^(٢) .

(١) البارودي في مقدمة الديوان (الجارم) ج ١ ص ٣ .

(٢) الجرائد المصرية عدد ٥٧٢ في ١٥/٢/١٩٠٤ .

ويقول مطران بعد خمس سنوات من تقدمه السابق: « أما شعر البارودى فهو بجلته صناعة لا تنافس بقديم أو حديث مع ابتكار قليل وإحساس فياض . اختار له أحسن أساليب العرب ، وأفصح ألقاظهم ، وتنفى بها على وحى نفسه — ونفسه جارية النعمة وعاشقة الإيقاع — فأقن حتى أنسى الفن ، وجوّد حتى أذهل عن المعنى .

« فمثل قارئه مثل سامع للنشد البارع ، لا يبتس حين يلتبس عليه فهم الألقاظ إذا استمر النظم فى نظامه وإتقانه ، بل يستمر فى طريقه ، ويترقى فيه ، إلى أن يخلق لنفسه شجوناً حيث تقوته شجون الأقوال المنشدة . كان ذلك مذهباً فى الشعر ، وتلك غاية .

« ولا نسى له فضلاً جديراً بالذكرك الخاص ، وهو أنه أول شعراء البعثة الحديثة ، بمعنى أنه أول من ردد الديباجة إلى جهاشها وصفائها القديمين ، وما أبرز قرينة لقرين جيله ، فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صملاً إلى عهد أرق أزمنة العرب ، فهى كالجلال الشاذة وحوها الفصائد الأخر كأنك لكان للقامة من حجارة أطلال بلا اختيار ولا نسق ولا هندام .

« وانظر لاهمة أن اللوح البارودى كان فى الطبقة الأولى بين الشعراء العرب ، وكان قلبه كلفاً بالنعمة وذهبه منصرفاً إلى الصناعة ، كما يدل على ذلك منظومه ، وكما يشير إليه اختياره من أقوال المتفوقين ، فإنه لم يفتق منها إلا كل ما حسن لفظاً ومعنى ، أو حسن لفظاً ، وأعمل ما حسن معناه دون مبناه — فشمزه إنما هو شعر الصناعة والإيقاع ^(١) . »

ويرى مصطفى صادق الرافعى أن الله لو أعطى البارودى خيال حكيم مثل للتنبى لكان أشعر من سمعت أذن ، ثم يضى فيقول :

« لم يكن شاعرنا كامل التصرف فى فنون اللسان وإن كان أشعر من جميع معاصريه

بلا مرأى ، غير أنه أتم ذلك النقص بما أثنى من جمال الصنعة وبديع الرواء ، فلو أنك جردت أكثر معانيه من ألفاظها ، وما أحاطها به من الصياغة لرأيت مالا يتفرد به ، بل ما ربما انفرد بغيره سواء ...

« أما نعت البارودى فى النظم فهو غاية ما دارت له الألسنة : عذوبة تكاد ترشف ، وجزالة تلذّب بالنفس ، وسلاسة يستريح فى ظلها القلب وتستشفق نسيها التكبد ، فهو القدير أعذب ما يسكن ، والمرأة أصفى ما تكون ، ولشدة رغبته فى ذلك النمط ، وانصرافه إليه بمحلىته جعله المرجع فى اختيار ما اختاره من شعر الشعراء فى مجرعاته التى سماها باسمه » (١).

والذين حكموا على البارودى بأنه مقلد واستمد معانيه وصوره من القديم ، فى حكمهم كثير من الإجمال والعمومية التى تمنح الحقيقة وتلك مسالك التبعى على البارودى ، ذلك أن البارودى لم يستمد كل صوره ومعانيه من القديم ، وحين فعل كان يراه الذاية التى هنا إليها فحول الشعراء القدامى فابدرها ، وقد قال عنتره من قبله « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » . وإذا كذا نرى العناصر القديمة فى اللفظ والمعنى تسرى فى كثير من شعر البارودى بقوة فذلك أمر طبيعى وهو يصدر عن الثقافة الشعرية القديمة التى اكتسبها فى فترة تكوينه ، وتمثلها حتى أصبحت جزءاً من نفسه ومن ذاكرته وتكوينه الفنى وبالتالي أصبحت ملكاً له ، ولكن البارودى حين عرضها لم يمرضها — فى الأكثر الأعم — خالية من روحه وروح عصره ، بل صبغها صبغته وظهرت فيها شخصيته حتى ليخيل للمرء أنها نبته وخلقته .

ومن غير للمقول أن نطلب إلى البارودى أن يفصل ذاته عن الثقافة التى

غذت معين مومته أو عن المصر الذي يعيش فيه ، أو أن نطلب إليه قطع الصلة بالآدميين والمعاصرين وأن يبدأ من فراغ ، أو يشور فيكتسح القديم دفعة واحدة ويبدأ بشئ جديد لا رصيد له منه ، ولكننا نستطيع أن نطالبه بالتجديد والتوليد والابتكار ، وأن نرى شخصيته وتجاربه في شعره ، وأن نرى أيضاً الخيط الذي يربطه بالقديم وبمصره وراثته وثقافته . وليس استمداده من القديم إلا ذلك الخيط الذي نطالبه به ، وليس التجديد إلا ما نراه من شعره السياسي ووصف الآثار المصرية والبيئة المصرية والطبيعة المصرية ، وليس الابتكار إلا مثل الفناء بصبوات القلوب على شواطئ النيل فيجعل لصفاته ولمنائه من الجيزة والجزيرة والروضة وشبرا وحلوان مكاناً في ضمير الوجود وهي مكان جهل جامها الشعراء ، فإن استثمار لها الألوان والظلال من القديم فذلك طبعي بل هو صدق في لأنه جزء من نفسه بعد أن أصبح التراث القديم جزءاً منه ، وليس التوليد إلا مثل ذلك المعنى الذي ولده من نحر الشريف الرضي بأبيه :

وقالوا عجيبٌ عجب مثلي بنفسه وابن علي الأيام مثل أبي أب

ويأتي البارودي فيبرزه في معناه حين يقول :

إذا أنا لم أعطِ السكارمَ حقها فلا عزني خال ولا ضمني أب

أو المعنى الذي ولده من قول النابغة في وصف المتجردة زوج النعمان :

سَقَطَ النَصِيفُ ولم تُردِ إسقاطه فتناولته واتقنا باليدِ

بمخضب رخصي كأن بناءه عَمَّ يكاد من اللطافة يُمقدِ

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه اللودِ

فيقول البارودي :

يَحْتَضِنُ مِنْ أَبْصَارِهِمْ تَحَنُّلاً للنفس، فَلَ الْفَاتَاتِ الْعَبْدِ
فَإِذَا أَصْبَحَ أَخَا الشَّبَابِ سَلْبَةً ورمينَ مَهْجَتَهُ بِطَرْفِ أَصْبَدِ
وإِذَا لَحَنَ أَخَا الشَّيْبِ قَلْبَةً وَسَقَرْنَ ضَاحِيَةَ الْحَاسَنِ بِالْيَدِ

وليس الخيط الذي يربطه بالماضي وراثته إلا مثل الرمز بالقديم عن عواطفه
وشعوره وأحاسيسه، وكأنه يكشف به عن الوروث المجهول السكامن في حنايا
نفس أبناء عصره فيقول :

بَا حَيِّدًا جُرْعَةً مِنْ مَاءِ تَحْنِيَةٍ وَضَعْتُهُ فَوْقَ بَرْدِ الرَّمْلِ بِالْقَافِ (١)
وَنَسْمَةً كَشَمِيمِ الْخَلْدِ قَدْ حَلَّتْ رَبِياً الْأَزَاهِيرَ مِنْ مَيْثَرٍ وَأَجْرَافِ (٢)
بِأَقْلٍ أَرَانِي بِذَلِكَ الْحَيِّ مَجْتَمِعاً بِأَهْلِ وَدْدِي مِنْ قَوْمِي وَأَشْيَاقِي؟
وَهَلْ أَسوقُ جَوَادِي لِلطَّرَادِ إِلَى صَنِيدِ الْجَانِّ فِي خُضْرَاءِ مِيزَافِ؟ (٣)

وغنى عن البيان أن البارودي قال ذلك في النفي، لكنه غير عن شوقه لوطنه
بصور موهلة في البداوة، والبارودي لم يستخدم هذه الصور لذات نفسها،
ولمّا اتخذها رمزاً لمشاعره نحو الوطن فجاءت آية من الآيات تقرب الماضي الحبيب
من النفوس المعاصرة وهي تهواه، فبدت الصور أجمل من استعمالها أصالة لذاتها،
فقد استمدت من التقديم جلاله وجماله الروحي الذي يأخذ بلب النفس العربية
سواء في عصرها القديم أو المتحضر أو في المدنية، لأنه يصادف هوى في شعورنا
الستتر في أعماق كيانتنا نحو « الروح العربية الخالدة » .

(١) عينة الواصي : متعلّقه .

(٢) شميم الخلد : المراد به هنا نسيم الجنة ؛ الميث : جم ميثاء وهي الأرض العذبة والراية العلية ؛
والأجراع جمع جريح : الأرض الرملية بها ينس الثبات .

(٣) الطراد : سيد الوحوش ؛ الجانن : أولاد البقر الوحش ؛ ميزاف : ذات اعتاب .

والبارودي استمد بعض معانيه وأخيلته وأتقانه من القدماء لكنه أضاع بها في أكثر الأحيان جوانب حياته الحاضرة ، وصاغ بعضاً من تجاربه الخاصة وتجارب عصره صياغة شعرية قوية لا تقل روعة عن صياغة القدماء . « وهذا للشاعر العظيم وإن يكن قد تخير لشعره الثوب التقليدي ، إلا أنه قد نسج خيوطه من خير ما وصلت إليه لغة الشعر العربي من قوة وجمال ، واستطاع أن يخضع تلك اللفة التقليدية للتعبير عن أحاسيسه أو لوصف مشاهداته أو قص أحداث عصره بحيث يمكن القول أن هذه الدنان القديمة لم تزد شعره إلا قوة وجلالا » ^(١) .

ومع ذلك فلتست من الذين يرون أن البارودي كان في كل صوره ومعانيه القديمة مبتكراً أو مولداً أو راجعاً ، فقد أتى لنا بقصائد بدوية الروح والمبنى ، وحاكي فيها شعر البداوة وأفراط في الخفاكة حتى ذكر الرسوم والأطلال والعيان والتبائل ، وأتى بشعر جاهلي القنط والمعنى والوجه والثرى لا يمت إلى المصر بصلة ، ولا يحمل بين طياته رمزاً يكون كالخيط بيننا وبين الماضي فنجد صدهاء في قلوبنا ، وذلك مثل قصيدته التي عنون لها بقوله : « وقال على طريقة العرب » ، واستهلها بقوله :

الأحى من أسماء رسم المنازل وإن هي لم ترجع بيانا لسائلي
خلاء تفنن الروامس ، والتفت عليها أهاضيب النجوم الخواقل
إلى آخر القصيدة التي تتلى على الألباء والإبل ورعاتها ، والبهم والجمال السائمة .
والبارودي حين أنشد مثل هذه القصيدة لم ينشدناها وهو مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه أو النهج الذي عليه أن يسلكه أو أن ذلك هو الغاية في قول القصيدة ، ولكنه أنشده امتعانا لشاعريته ، واختباراً لمقدرته في محاكاة القدماء ، حتى في وقوفهم

على الأطلال والدمن وليس أمامه أطلال ولا دمن تهيج عواطفه أو تثير شاعريته ، فإذا نجح في الحكاية كان في زعم نفسه شاعراً مثلهم وفلا على مستواهم . وذلك هو التقليد الخالي من الروح ومن العاطفة ، وأولى أن نسميه نظماً وصناعة .

وما كان البارودي يستطيع — ولو أراد — أن يتكبد عصره وهو ابنه ، أو يقطع كل خيط يصله بأدبه وشعرائه وهو يعيش بينهم ، ومن ثم نجده قد سلك سبيلهم في « المعارضات » ، وقد كانوا يأتون بقصائد من سبقهم من الشعراء للتأخرين فينسجون على منوالها ، وتأتي قرائعهم الجديدة وذوقهم الفاسد وتقاعسهم السطحية بمسح يماثلها في الروى والوزن ويقفى على ما فيها من معنى . ولكن البارودي حين سلك هذا السبيل اتخذ طريقاً غير طريق معاصريه انفردت به شخصيته ، فقد تخير قصائد فحول الشعراء القدماء وحاكها في الوزن والروى ، ولكنه سار بمعاني القصيدة وأغراضها إلى حيث يريد ، ودون قيد بمعاني القصيدة المعارضة ، فإذا ما بدا له أن يعارض بعض معاني القصيدة — وذلك قليل — صاغها صياغة جديدة أو تناولها تناولاً مختلفاً وولد في المعنى ، وكان يسمو به فنه فيتفوق على المعنى الأصيل تارة ، وتارة أخرى لا يدرك الشأو ولكنه اجتهد .

ويدافع شكيب أرسلان عن معارضات البارودي^(١) — وقد هاجمه من أجلها بعض النقاد — ويرى « أنه إنما اختار للمعارضة في بعض اللطائف ليعلم للناس شأوه مع من تقدمه . وليست للمعارضة بشأن جديد ، بل كانت عند الماضين ، وقد استحسنتوها ، ولم يحسبوا تقليداً ولا علوها نسخة مجردة ، ولا صورة مطبقة ، وإنما كان ينظم الواحد منهم قصيدة فترن في الآفاق فيعارضه شاعر آخر برنانة

(١) قامت معركة أدبية حول معارضات البارودي وحول أشعر شعراء مصر في « مجلة سركيس » في سنتها الثانية عام ١٩٠٦ ، وكان الرأي الآخر يزعم أن البارودي مكلف معارضاته لا مزية ولا فضل له ، وهيئات أن يلحق واحداً عن عارضهم . أنظر: الأعداد ١٠ ، ١١ ، ١٢ من المجلة عام ١٩٠٦ .

أخرى من البحر والقفية كما يجارى النارس فارساً في مضمار... ومحمود ساهى قد
بارض وفاق من تقبده ، وقال في غير معارضة فأثنى بالشعر الفحل الذى يعي
على الأوائل فضلاً عن الأواخر ، وكل ذى مسكة يقدر أن يميز بين التقليد
والتوليد ^(١) .

والثارودى لم يمتون هذه القصائد بالمعارضات ، وإنما ذكر في بعضها أنها على
وزن وروى القصائد الأخرى ، ولم يشر في بعضها الآخر إلى القصيدة التى نظم على
منوالها ، ومن ثم قسميننا لقصائده « بالمعارضات » إنما هو تجوز وتوسع في
الاصطلاح نفسه . وقد عارض البارودى من الشعراء : اللقي ^(٢) ، وابن النبية ^(٣) ،
وأبا نواس ^(٤) ، والثابتة القيساني ^(٥) ، والشريف الرضى ^(٦) ، وأبا فراس ^(٧) ،
والبحتري ^(٨) ، وعنترة بن شداد ^(٩) .

وقد سار البارودى في أكثر شعره — كما سبق — على النمط القديم في تنوع
الأغراض في القصيدة الواحدة فلم يلتزم بوحدة الموضوع ، وكذلك نهج النهج
القديم في الاستهلال بالديار حيناً وبالتشبيب والحجر في أكثر الأحيان ، حتى لقد
بدا له أن يثور على الاستهلال بالديار والأطلال — كما ثار أبو نواس من قبله —
ليستهل بالحجر فقال :

تألى وللدار من ليلى أحبيها وقد خلت من غوانها مغانها

(١) مجلة سركيس عدد ١١ سنة ١٩٠٦ أكتوبر .

(٢) أنظر: الديوان (الجزء) ج ١ ص ١١ .

(٣) أنظر: الديوان (الجزء) ج ١ ص ١١٥ .

(٤) أنظر: الديوان (الجزء) ج ٢ ص ١٨ ، والوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٢٧٧ - ٤٨١ .

(٥) أنظر: الديوان (الجزء) ج ١ ص ١٤٨ .

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣٨ . (٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠ .

(٨) لى المخطوطة (س) ص ٣٠٠ - ٣٠٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٦ - ٣٠٨ .

(٩) المخطوطة (س) ص ٢٥١ - ٢٥٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٧ - ٢٥٩ .

دَجَّ الدَّيَّارَ لِقَوْمٍ يَكْلَنُونَ بِهَا وَاعْكُفْ عَلَى حَاثَةٍ كَالْبَدْرِ سَاقِبَهَا
كَمْ بَيْنَ دَائِرَةِ أَقْوَتِ مَمَالِهَا وَبَيْنَ عِلْمَةِ تَزَهُوْ بِمَنْ فِيهَا^(١)
هِيَاتَ مَا الْهَارُ تُشْجِي بِسَاحَتِهَا وَإِنَّمَا الْهَارُ تُشْجِي بِمَنْ فِيهَا
فَعَلَّ هَذَا، وَخَذَى وَصَفَ ثَانِيَةً سَرَتْ بِطُلُوفٍ فِي قَلْبِي سَوَارِيهَا^(٢)

وقد يكون هذا النمط التقليدي في نظم القصيدة عيباً في شعر الجاهلين الذين اطلعوا على الآداب الغربية وعرفوا وحدة للوضع وتماثله ، بحيث تكون القصيدة بناء متكامل لا يستقل البيت فيها عما قبله وما بعده ؛ ولكن البارودي كان من عصر آخر ، لم يعرف ذلك الانحياز الغربي ، وكان من مدرسة أخرى هي « مدرسة المحافظين » التي ترى الناية في القدرة على الانتقال من موضوع إلى آخر مع حسن التخلص بتوطئه الأول ومعانيه بحيث يناسب القصود الثاني ، وفي افتتاح القصائد قبل الخروج إلى الموضوع ، ولافراد كل بيت حتى كأنه مستقل عما قبله وما بعده .

والبارودي بصيرته واستبداده وتكوينه التقى وجد — وهو ينهل من متاهل الشعراء للتقدمين — أن الشاعر العربي القديم كان ينتقل من معنى إلى معنى مما يشغله في حياته من الناقة والسحب والنازل والأحبة والرحلة وعمرار الصحراء ونباتها ، ثم خلف من بعده خلف فكسبوا بالشعر واتخذوه مهنة فلم ينزعوا من النسق القديم ، بل ساروا على النمط وزاوجوا بين التقليد القديم والترضض الطاريء ، وكذلك تكونت مناهج النظم في القصيدة العربية ، وتأصلت حتى أصبحت ظاهرة تقليدية ثابتة في الشعر بمفهوم العرب ، ولم يستطع شعراء الثورة الفنية في العصر العباسي أن يتخلصوا منها ، أو

(١) الدائرة : الآية للمهالكة : أقوت : خلت .

(٢) هذه الأبيات تألم ينشر من العراق ؛ المخطوطة (س) من ٢٩٦ ؛ والمخطوطة (ب) من ٣٠٢ .

بالأحرى لم يثوروا عليها ، ولم يشدوا قصداً إلى الغرض دون استهلال ، أو يحملوا القصيدة وحدة متماسكة دون انتقال من غرض إلى آخر ، مع أنهم ثاروا على محاكاة الأقدمين في أغراضهم ومعاينهم ، وكل ما فصلوه أنهم استبدلوا مطلقاً بمطلع ، وهو تغيير اقتضاه العصر بمحضارته وتطوره ، فاستبدلوا بالدمن القصور وبالناقة الحجر ، واعتقد البارودي أن ذلك هو للثل وتلك هي الغاية والمنهج في نظم القصيد العربي . وفيه البارودي الصادقة جملة يصدر عن اللعين الذي لديه والمنهج الذي تعلمه من ثقافته الفنية ووقر في إحساسه أنه السيل .

وإذا أردنا أن ننحس على البارودي الحكم الصحيح فلا بد من أن نحدد مكانته في عصره ، وفي عالم الشعر العربي ، وفي محيط الأدب العالي .

والبارودي بمقياس عصره الذي تردى فيه الشعر العربي إلى حمأة الضعف والانعطاط هو دون ريب أو خلاف إمام مجدد ، « صاحب النضال الأول في تجديد أسلوب الشعر وإيقاعه من الصناعة والتكلف المقيم ورده إلى صدق النطرة وسلامة التعبير »^(١) . وهو أيضاً قمة عالية لم يبلغ شأوها مثيل لها في عصره ولحمة قرون سبقت ، فقد خرج على الناس بثقافة أدبية لم يألفوها من شعرائهم ، وبأغراض لم يعرفوها عنهم ، وديباجة لم يسموها في إنشادهم ، ورصانة انقطع عهدهم بها من أمد بعيد ، وبلاغة تأخذ بالنفس وتمتلك الأفتدة « فكان شعره في عصره جديداً كله : كانت محاكاة الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته إلام جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالم جديدة »^(٢) . وأقر له عصره بما أقدم له من تجديد فوضعه في المقام الأول بين الأدباء وجعله

(١) شعراء مصر ويثامهم ص ١٢ . (٢) د. محمد حنين هيك : تقديم ديوان البارودي ، (الجزء) ١ ص ٣٠ .

« أشعر الشعراء » ، فيقول الشاعر شكيب أرسلان : « أشعر الشعراء عندي هو عمود سامي البارودي ثم شوقي ثم حافظ ، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر ، القاتقون في إجادته ؛ بل هم أشبه بالثلاثة للآصين : أبي تمام الشعر ، ومتنبيه ، وأبي عبادته ، بل هم اليوم لات الشعر وعزاه ومناته ، والذي رجحت لهم على غيرهم ينفاته ، وأحب أن أشبه البارودي بأبي تمام في علو نفسه وقوة ملكته ومقانة أسلوبه » ^(١) .

والبارودي بالنسبة لشعر العربي عبر التاريخ باعث للقديم من مرقده ، مرق عنه أكفائه التي احتوته مئات السنين ، وأزاح عنه ذبول النسيان ، ونفاه بأنفاه القديمة الخالدة في الأذهان وللورثة مع الزمن ، فسمع منه أبناء عصره وكأنهم يسمعون للمتنبى والبحترى أو الشريف والنافذة أو عنقرة بن شداد ، فطربوا لنشيدته وأخذتهم النشوة من سماع قصيده ، ووصلهم بالمجد الذي ظنوا أنهم فقدوه ، ونقلهم إلى حال يتوهمون معها أنهم قاب قوسين من المكانة التي وصل إليها جـددهم السابقون . وعادت إليهم الثقة في أنفسهم — لنسة القرآن — وأيقنوا أن قوتها باقية على الزمن ، وأن العيب لم يكن فيها حين ظنوها قد احتضرت ، واكتشفوا أن العيب كامن فيهم ، وفي ثقافتهم التي قصرها على أساليب للتأخير ، وفي أذواقهم التي أفسدت الصنعة والتكلف ، وفي قرائعهم التي أجدها فقد الشعوب بالكرامة القومية والإنسانية في عصور الظلم والاستبداد التركي . وما وفق له البارودي من هذا البعث لا يزال حتى اليوم يذكر له على أنه أعظم تطور حدث في حياة الشعر العربي في عصرنا الحديث .

وإذا نظرنا إلى البارودي من زاوية الأدب في محيطه العالى وجدناه قائد حركة تقليدية محافظة تقع بالقديم في أكثر أحاينها وتميش فيه ، وتسور نفسها بسور من الإقليمية حفاظاً على ما يسمى بالتقليد الموروث والتراث الخالد وخشية من أن يتناوله الزمن بالتغيير ؛ تمشى القهقري لتبحث في الماضي عن الدر الذي ازدادت به مفارق الشعراء في القديم لتعلى به قصيدها ، بينا الأدب العالى يسابق الزمن ، يشعر بالإنسان ومشكلاته وآلامه ويقنول أغوار النفس البشرية وأسرار الطبيعة ويبعث عن مواقع الجمال ومثيرات الشجون ويستكشف حجب المستقبل باحثاً فيه عن الأمل للفرد وللإنسانية فيتنقى به وبذلك يسبق التجديد .

البارودي بين الكلاسيكية القديمة والجديدة :

ويعتبر البارودي إماماً للمدرسة الإنباعية (الكلاسيكية) في الشعر الحديث ، وهى المدرسة التى من أبرز سماتها الصياغة المتقنة ، ومجاعة القدماء ومحاكاتهم ، والتى تتمثل خصائصها في الاعتراف بالقدماء على أنهم أنبياء الشعر ومن ثم لا بد من متابعتهم والاستمداد من مناهلهم ، وفي احترام القيود القديمة من القواعد النحوية والبلاغية والألفاظ والوزن ، وفي عدم التقييد في الأسلوب ، وفي تمثيل أفكار القدماء وصورهم وعواطفهم أيضاً ، لأن العاطفة في نظرم منشؤها الطبيعة ، والطبيعة ثابتة لا تتغير ، ومن ثم لا مجال لتغيير العواطف ، فالأدب الكلاسيكي السليم هو ما التزم عواطف الأقدمين .

ومدرسة البارودي الكلاسيكية ظلت تسيطر على القوق والماطنة في الشرق العربي قرابة قرن من الزمان ، ومازالت هناك جبهة من عشاق الأدب حتى الستينيات في القرن العشرين يسجدون لها سجدة الإجلال . والذي لاشك فيه أن سيطرة هذه المدرسة طوال هذه الفترة لم يكن مصدرها جوهر الكلاسيكية

نفسه بقدر ما كان أترأ من رواسيب العنق الباطن التي لا يمكن التخلص منها إلا بجهد نفسى عنيف ، ذلك لأن كلاسيكية البارودى استمدت من القديم جلاله وفطرته التي تأخذ بلب النفوس العربية سواء في عصورها القديمة أو في عصرها الحديث ، ولأنها صادقت هوى في جانبنا المستتر في أعماق كيانتنا وهو « الروح العربية الخالدة » ، ولأنها أعادت إلى خيال أبناء العصر مجدهم القديم الذى ظنوا أنهم قدوه إلى الأبد ، وقتلهم إلى حال أشبه بأحلام اليقظة تأخذهم بعيداً عن حاضرهم للروحش للوغل في الظلام ، وتسليمهم ما يقاسونه من عذاب ، وأمدت لهم في الوهم فتخيّلوا أن الجلد السابق قاب قوسين أو أدنى منهم .

وفى شعر البارودى نجد الكلاسيكية بنوعها : قديماً ، وهى التي جارت القدماء لفظاً ومعنى ، وجديداً ، وهى التي اتخذت قوالب القدماء في الصياغة للثقة واعتمدت على اللفظ وقوة رنينه الموسيقى ، ثم انبثقت معانيها من قلب الشاعر وعواطفه ومن تجاربه الذاتية وأحداث عصره . والكلاسيكية القديمة قليلة في شعر البارودى ، وهى أكثر ما تكون وضوحاً في شعر المرحلة الأولى من شبابه قبل أن يدخل غمار التجارب في الحياة ، وقد كان أكثره محاكاة لقصائد الأقدمين من الشعراء ، ومن ذلك قصائده التي نشرت في « الوسيلة الأدبية » يمارض بها قصائد أبى نواس ، والنايفة ، والشريف الرضى ، وأبى فراس ، وقصائد أخرى في الديوان نظمها على غرار قصائد المتنبي وابن التيبه للمعري ، وكذلك القصائد التي « يروض فيها القول » ، أو « يقول فيها على طريقة العرب » ، أو « يروض القول في بعض الأساليب » ، أو التي ينظمها دون أن تتصل به أو بعصره صراحة أو رمزاً .

ولا يقبّاد إلى الذهن أن كل قصائد البارودى التي عارض فيها الشعراء القدماء

على هذا النمط من الكلاسيكية الضيقة ، فقد خرج عن هذا المقوم قصائد ثلاث :
قصيدته التي طارض فيها قصيدة « المتنبى » :

أودُّ من الأيام مالا تودُّه وأشكو إليها بيننا وهي جندهُ
والتي يستهلها البارودي بقوله :

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا لَا أُوَدُّهُ وَأَيُّ أَمْرٍ يَفْوَى عَلَى الدَّهْرِ زَنْدُهُ؟^(١)

فقد قلنا وهو بسرديب « وعرض فيها بذكر للظالم على عهد الحكومة
الاستبدادية في مصر^(٢) » . وقصيدته التي طارض فيها قصيدة البحتري :

لنا أبداً بثّ نغانيه في أروى وحزوى، وكأدتك من لوعة حزوى
واستهلها بقوله :

أَفْلا مَلَأَ فِي هَوَايَ نَادِي الْأُخَى قَفْلِي عَلَى حَمْلِ الْمَلَامَةِ لَا يَفْوَى^(٣)

كُنِيَ بِالْهَوَى شُغْلًا عَنِ الْأَوْجِ بِأَمْرِي بَرَاءُ الصَّنَى وَاسْتَمَطَرَتْ عَيْنُهُ الْبَلْوَى^(٤)

فقد قلنا في شبابه وهو يعمل باوراً لإسماعيل ورأى الفساد قد استشرى في
دمت الحكم وبين حاشية الخديو ، فجهاد وبعام ثم قارن نفسه بإسماعيل في قوله :

فَإِنْ سَادَ غَيْرِي بِالْجُدُودِ فَلَمَقَى بِهِمْ وَيَفْضُلِي رَشَتْ سَهْمِي فَمَا أَشْوَى^(٥)

وَلَيْسَ عَاوُ النَّفْسِ بِالْجَدِّ وَحْدَهُ وَلَيْسَ كَاللرِّ فِي شَرَفِ الْمَاوَى

(١) القصيدة كاملة في الديوان (المجارد) ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق والديوان المخطوط .

(٣) النادى : ولد الطفلة ؛ الأخوى : الأمر إلى سواد أو المالك القلب من جدارة وحق .

(٤) هذه القصيدة من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٠ - ٣٠٢ ؛ والمخطوطة

(ج) ص ٣٠٦ - ٣٠٨ .

(٥) رأتني سبه : لثق عليه الرض ليصيب الرى ؛ ما أشوى : ما أخطأ .

واستفكر أن يساويه الزمن بالحاشية الفاسدة في قوله :
 فَإِنْ كَانَ سَوَى الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَرَى مِنْ بَيْنِهِ فِي الْحُطُوفِ فَاسْوَى
 بَرْتٍ مِنَ الْغُلِّ الَّذِي أَصْبَحْتُ بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ شَرِّ مَا حَمَلَتْ تَدْوَى
 نَصَعْتُ وَغَشَوُا، وَاسْتَفَمْتُ وَرَاوَعُوا فَمَنْ هَدَى بَيْنَ الْأَنَامِ كَنْ أَغْوَى؟^(١)

والقصيدة الثالثة التي يمارض فيها البارودي معلقة عنبرة بن شداد :
 هل غادر الشعراء من مـتردِّمٍ أم هل عرفت الدار بعد توم^(٢)
 قالما في أواخر حياته واستهلها بقوله :
 كَمْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مَرْتَدِّمٍ وَلَرَبِّ تَالِيٍّ بَرٌّ شَاوٍ مُقَدِّمٍ^(٣)

وفيها يؤكد علاقته بوطنه ويشرح حبه لمصر في مناجاته الجيلة من قوله :
 بِلَدٍّ نَشَأْتُ مَعَ النَّبَاتِ بِأَرْضِهَا وَلَنَشْتُ فُفْرَ غَدِيرِهَا التَّجَسُّمِ
 فَنَسِيمُهَا زَوْجِي ، وَمَعْدُنُ تُوْرِيهَا جَسْمِي ، وَكُوْرُ نَيْلِهَا مَخِيَا دَمِي
 هِيَ جَنَّةُ الْحُسْنِ إِلَى زَهْرَانِهَا حُوْرُ النَّهْأِ ، وَهَزَارُ أَبْكَائِهَا قَمِي
 ويضع مقدرات نفسه ومكانته في عصره شاعراً وقارساً ، بث الشعر وأحياه
 وكانت له اليد الطولى في منازلة الأقران فيقول :

(١) هذه الأبيات لم تنشر والقصيدة كاملة في المخطوطة (س) م. ٣٠٠ - ٣٠٢ ؛ والمخطوطة (ج) م. ٣٠٦ - ٣٠٨ . وهي ٣٦ بيتاً تحت عنوان « وسأله بعض أسدقائه أن يوازن قصيدة الجعفي التي أولها «لنا أبداً بيت ضايحه في أروى» .

(٢) تردم الرجل نوبه : رقه وهي كناية من أن الأواكل لم يتركوا للأواخر شيئاً .

(٣) يريد أن يتفنن قول عنبرة السابق ويقول : كثيراً ما تركه الأول للأخير وبعض الأواخر سبقوا المتقدمين .

في كلِّ عصرٍ مبرِّئٌ لابيِّ بفرى القرى بكلِّ قولٍ مُحْكَمٍ^(١)
 أحييتُ أنفاسَ التَّريضِ بمنطقي وصرعتُ فوسانَ العَجاجِ بلَهْذِي
 نَشأتُ بطبى التَّريضِ بدائعُ لَيْسَتْ بِحِلَّةِ شاعرٍ مُتَقَدِّمٍ
 قَوْمَتُهُ بَعْدَ اغْرِجَاجِ قَنَاتِهِ والرمحُ ليس يروقُ غيرَ مَقُومٍ

ثم يذكر البارودي حاله وما فعلت به الأقدار في أسلوب الوصايا والحكم فيقول :
 قدَحَ الخَفَى ، وَخَذْلَنَفِكَ خَقْمًا مِمَّا بَدَأَ لَكَ فَهَوَ أَهْنَا مَقْنَمٍ
 لَا يَسْتَطِيعُ لِلرَّهْ بِبِلَاحٍ مَا نَأَى عَنْهُ ، وَلَوْ صَعَدَ السَّمَاءَ بِسَلَمٍ
 بَيْنَا يَشَقُّ بِهِ الْجَوَاهِرُ تَرْفَعًا أَهْوَى بِهِ فِي سِرِّ بَيْتٍ مُظْلِمٍ^(٢)
 إِنَّ الْحَيَاةَ شَبِيهَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ غَرَضًا لِإِمْرَةٍ ظَالِمٍ لَمْ يَرْجَمْ^(٣)

ولست من الذين يذافون عن البارودي في شعره الذي تمتثل فيسه
 الكلاسيكية بمناها الضيق ، وهو الذى أوغل في تقليد القدماء لفظاً ومعنى ،
 وخلا من كل ما يشير إلى تجارب الشاعر أو عاطفته وشعوره أو كل ما يربطه
 بمصره أو ينير جوانب حياته الحاضرة . ومثل ذلك قصيدته الدالية « ظَنُّ الظُّنُونِ »
 فبات غير مَوْسَدٍ ، وقد عنون لها بقوله « وقال على روى قصيدة النابغة
 الذبياني التي أولها :

أَمِنْ آلِ مِيَّةٍ رَائِحٌ أَوْ مُتَدِّ عَجَلَانٌ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوِّدٍ

(١) بفرى القرى : يأتي بالخير الحبيب .

(٢) الجواهير جم لجو : وهو ما بين الأرض والسماء أو هو الوادى الواسع .

(٣) لم يسبق نشر هذه الايات والقصيدة ٥٤ بيتاً ؛ لمخطوطة (س) ٢٠١٩ - ٢٠٢٣ ؛

والمخطوطة ٢٠١٩ - ٢٠٢٣ .

وقد سلك فيها مسالك العرب فيما كانت تمتدح به من مباشرة الحروب ، وإرتياد الثغارات ، وركوب الخيل ، وشرب الخمر ، والتشييب بالنساء^(١) . ومثله كذلك قصيدته لللايتان : « ألا حى من أسماء رسم للنازل » وقد عنون لها بقوله « وقال على طريقة العرب^(٢) » ، والأخرى « ردّ الصبي بعد شيب اللثة الفزل » وعنون لها بقوله^(٣) « وقال يروض القول في بعض الأساليب » ، ففي هذه القصائد أغرق البارودى نفسه في البداوة حتى انصهر فيها وصار من أهلها ، وغدا يصف الرأى ، والسيف ، والقرس ، والسحاب ، والصيد ، والحرب ، والشراب دون هدف إلا المجارة ، ودون أن يصلها بنفسه أو عصره ، ثم يوزع وصاياه ويمنع حكمه بأسلوب يدوى الروح والوجه والذى حتى لتنسب القصائد بالضرورة إلى المصور الأول إذا لم يعرف قائلها . وكأن البارودى أراد أن يردنا إلى هذه البداوة قسبح ما بها وما نحن بقادرين .

وليس استخدام البارودى لثل هذه العناصر البدوية القديمة شيهاً باستخدام العباسيين لها كما يقول بعض النقاد^(٤) ، فقد كان العباسيون قريبى عهد بالبداوة ، وكانوا على صلة قوية بها ، ومازالت ظلالتها وصورها في حياتهم ، وعلى مشارف بغداد والبصرة والكوفة تقع البداوة على حالها الأولى ، وأكثر من ذلك فقد كان اطفاء العباسيون يطلبون لأبنائهم النصاحة في البداية ، فيترددون من عناصرها ، ويسكنون ممانها . وكذلك كان أكثر الشعراء يفتنون في البداية ثم يشدون الرحال إلى المواقم ، فالبداوة في قلوبهم وعواظهم وأحاسيسهم ، فإذا غنوا بها فإنما يمثلون معنى يعرفونها ويألفونها كما يعرفها

(١) البهوان (المجزم) ج ١ ص ١٤٨ - ١٥٦ .

(٢) ديوان البارودى (الإمام) ج ٢ ص ٤٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٧ .

(٤) د . شوق خبب : البارودى ص ١٤٣ ويرى أن استخدام البارودى لها استخدام العباسيين

فهي رمز قصير من مشاعرهم وأحاسيسهم وليست مقصورة قتلها .

ويألقها جهورهم ، وإذا أنشدوها هزت أعطافهم وكان لها في نفوسهم وقلوبهم سامعهم دلالاتها فطربوا لها جميعا .

والذين تعلموا البارودي فخلوا عما كانه التقدماء في كلاسيكية ضيقة خافتا وتجديداً ، فاتهم أن هذا اللون من الشعر غير خالد ولا يعيش إلا في جيله وبين المجيبين به ، فهو يؤدي غرضاً مؤقتاً ثم يستنفد . وكذلك كانت قصائد البارودي المشار إليها ، فقد أدت دورها للوقت في مطلع العصر الحديث لأنها ردت إلى المعاصرين يقين القدرة على مجازاة المباسمين والمخضرمين والجاهليين في ميدان اللغة والتركيب بما أقرن الشاعر من معارضتهم في اللذاهب والأساليب كما يقول شكيب أرسلان : « فلما قرأنا شعر محمود سامي ... علمنا أن في المعاصرين من قد سر أن يضارع الأولين ، وأن يسامى بنفسه أنصاحهم . وكنا من قبل محمود سامي نظن الأولين غاية لا ندرك ... وبقي هذا الاعتقاد إلى أن ظفروا بشعر محمود سامي ^(١) . » وأرضت محاكاة البارودي التقدماء مواطني القوم في وقته وهم ينظرون إلى كل ما هو آت من العهد العظيم القديم نظرة الإجلال والتقدير نظروهم من رواسب عقلمهم الباطن ، أولواقع حياتهم وثقافتهم للأولم ، أو لأنه قد شاع الأسف بين العرب على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد القوة والسيادة ، ثم شاع بينهم اليقين بأن لا موئل لهم ولا أمل في تجديد سلطانهم ومنتصمهم إلا بالرجوع إلى الإسلام في أولمه الأولى ، أيام الجدة والفتنة والنظرة السليمة ، « وأصبح كل قديم قريب من الإسلام في صدره الأول عنواناً للصحة والثبات وعصمة من الضعف والركاكة ... ويفترون بين سلامة لغة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة حتى رأينا من غلاة هذا الذهب في الجيل الماضي

(١) حوفي أو سفاقة أربعين عاماً ١٩٠٩ — ١٩١٤ .

من كان يسخر بالمرى وأبناء عصره ، ويرجع بالجنة النقية والنصاحة الشعرية إلى ما قبل ذلك بمصور ^(١) .

ولعل الرأي الذى أراد أن يمتنر لتضاد البارودى فى هذا السبيل ويمتدحها لمحاكتها وإيتالها فى البداوة حتى صارت أعرق فى البداوة من البداوة نفسها قد أساء إلى البارودى فجعله ظلا لا حقيقة ، ومثلا لا خالقا فى قوله « وكأنما البارودى هنا مثل قدير لبس دور الشاعر البدوى قوفا لنة وشعورا وزيا وحركة ، فخلقه خلقا جديدا ، وجعل له تمثلا من نفسه وحياته ^(٢) » .

والكثرة الغالبة من شعر البارودى تتمثل فيه « الكلاسيكية الجديدة » بصياغته المفقدة ولقطه النخم ، ورنين موسيقاه ، ونسق التصيد ، ومراعاة قواعد الأقدمين ، يعبر بذلك كله عن نفسه وتجاربه ، أو يتخذ رمزا لمواقفه ومشاعره أو أسلوبا لأحداث عصره . فشعره فى متعته بالشراب وفى مجالس لموه وتجارب حبه ، وفى حديثه عن صحابه وأعدائه وفى وصفه للحروب وهو يخوض عمارها ، وهجائه السياسى والشخصى والاجتماعى ، وفى الدعوة إلى الثورة تارة والشورى تارة أخرى ، وفى وصف هزيمة القوى الوطنية والاستسلام للرجعية والاستعمار ، ووصف شعوره فى السجن ، وساعة وداع الأهل والوطن ، ثم للماناة وعذاب النفي والنشريد ، والألم لفقد المحب والأهل والرفق ثم زحف الشيخوخة والمرض عليه ، ثم فرحة اللقاء بالوطن واستكشاف ما فعله الاستعمار ببلاده ونهبها والنواح عليها ، ذلك كله كلاسيكية جديدة : تعبير صادق عن نفسه وعصره فى إطار قديم ^١ وصياغة متقنة . وقد كان شعر البارودى كذلك فى أكثر أطوار حياته بحيث يمكن ترتيب قصائده لا بحسب الأبواب من مدح وغزل وهجاء

(١) شعراء مصر ويبتاهم من ٤٢ — ٤٤ .

(٢) عباس محمود العقاد : المصدر السابق ١٣١ — ١٣٢ .

وفخر ولا بحسب الترتيب الأبعدى للتوافق بل بحسب تاريخ الشاعر وأطوار حياته ، وذلك يدل على مبلغ ارتباط شعر البارودي بحياته وعصره .

وهذا اللون من شعر البارودي هو الذى خلده بين الشعراء ، وارتبأ به الذروة فى عصره ، وجعله يذكر بالتقدير والإجلال بعد عصره . رد به إلى الشعر العربى فتوته وشبابه وحيويته ، ومس به عواطف الناس لأنه وصله بمحاضرم وبمنفسه وعصره فسر الألباب وأخذ بمجامع القلوب . سحرنا لأنه متصل بماضينا وحاضرنا ، غير متحرر هذا التحرر الكلى الذى يقطع الصلة بين الماضى والحاضر ، وغير مستغرق فى الماضى بحيث ينقلنا كلية إليه فنضل بين دمنه وبراييه ، وذلك هو مجال التجديد الحقيقى فى شعر البارودي ، وهو تجديد يقوم على التعبير الصريح أو بالرمز عن شخصيته وبيئته وأحداث عصره . واستطاع البارودي بهذا الشعر أن يحول الإطار الأسلوبى القديم إلى أداة تعبر عن ذات نفسه تمييزاً لا يخطئه النقص ، تمييزاً نرى فيه شخصيته وحياته وحتى نوازع نفسه فى شبابيه وفى رجولته ثم فى كهولته وشيخوخته . وذلك هو موضع التفوق البارز فى شعر البارودي ، فقد ارتقى فى التعبير عن الشخصية والمصر مرتقى رفيماً ، واستطاع أن يجمع بين شرف العبارة وصدق الإبانة عن كل سريرة من سرائره وكل لون من ألوان طبعه فى غير سخف ولا استرخاء ولا تكلف ، وذلك هو عنوان الحياة فى تلك الشخصية وعنوان القوة للأضحية فى تلك الشاعرية .

الزعيم والرواد فى مدرسة المحافظين :

فى الحق أن البارودي ظهر فى عالم الشعر العربى كالتجر الصادق تسمية أحلك فترات الظلام ، قشر عليه من موهبته وشاعريته نوراً ، وبدد حلقة الانعطاف والركاكة التى كان يتردى فيها وإلى غشيتها أكثر من خمسة قرون ،

وكان نبيه الذى نشخ فيه من روحه العربية فبمنه من جديد ، ورائد نهضة
الذى تنفض عنه أدرانها وأوشابه العثمانية ، وقدم إلى الأمة العربية شعراً تزعم
به مدرسة المحافظين وحل شعراء المصر بعده على جناحه ، واستند تأثيره إلى
الأمة العربية كلها . والتف التلاميذ والمحوريون من الشعراء حوله ينهلون من
شعره ومنبعه الأصيل ، ثم تنفرد بهم شخصياتهم الأدبية فيسلك كل منهم السبيل
الذى تدفعه إليه موهبته واستعداده ، وتهديه إليه فنيته وثقافته ، فظهر سماته
وميزانه ويصبح شاعراً يأخذ طريقه في ملكة الشعر وحده .

كانوا جميعاً يلتقون عند المصدر والنبع في « مدرسة المحافظين » تلك التى حافظت
على تقاليد الشعر العربى فى النعى والأسلوب ، وتملقت بكل ما يحصل
بشخصية الشعر العربى ومقوماته . ومع أنها اتجهت إلى الوراء لتتخذ من المصور
الذهبية للشعر العربى للثل والأمل ، إلا أنها لم تحجر على الفنية أن تلسع آفاقها لما
يسير ذوق المصر ويبش معه ، ثم تمزجه بقديمها الأصيل فيعصمه من الإسفاف
ومن الاندفاع وراء موجة التجديد اندفاعاً يرى أتباع المدرسة فيه خروجاً بالشعر
عن الروح العربية الأصيلة . واستطاعت المدرسة بذلك أن توائم بين القديم
والجديد ، وبين الأسلوب العربى وثقافة المصر وروحه .

وظاهرة التخالف التى كانت بين نثر ذلك المصر وشعره جذيرة بالدراسة
والبحث ، فبينما نجد النثر يندفع بقوة إلى الأمام يرحب بعناصر التجديد ويسعى
إليها ويعطى نفسه بالأفكار والإطار الأجنبى ليلاحق الزمن ، نجد الشعر مشغولاً
بالبحث فى تاريخه وماضيه يلتقط الدر منه وينظم على منواله ، ويرغب فى أن
يحافظ على للضمون والشكل القديم ، ويتردد كثيراً قبل أن يخطو خطوة إلى
تجديد أو تغيير . ولعل السبب فى ذلك أن النهضة الصحفية والطبية والترجمة ، إلى

جانب الثورة الوطنية قد هيأت الأذواق إلى تطور النثر ؛ أما الشعر فلم يكن قد سبقه تمهيد يهيء الأذواق لتطور فيه . وقد استطاع الكتاب أن يمددوا في النثر الغربي ضالهم ففتح لهم آفاقاً جديدة واسعة ؛ أما الشعراء فلم يمددوا في الشعر الغربي حين أرادوا الاستفادة منه ما يرضى الأذواق العربية في ذلك الوقت ، فقد كان بعيداً بشكله ونظمه ونسقه وموسيقاه ، غريباً عنهم في تقاليده وأوزانه ، فاضطروا أن يبحثوا عن عوامل التفاعل والتطور في ذات الشعر العربي ومحيطه الأقليمي .

وطبيعى أن يقرأ الشاعر أول إحساسه بالوهبة ليستوى على عوده وينسى ثروته اللغوية ، ولتتحرك ربة الشعر في نفسه . وبدأت « مدرسة المحافظين » بالبارودى تهجر شعر المصـور العثمانية ، وتوجه إلى المصور العباسية وما قبلها ، تقرأ لشعرائها التحول حتى إذا ما اقتادت لم توافى الشعر وبحوره أحسوا بحاجة ملحة إلى التبحر في اللغة العربية وفي التعرف على شعرها ، ليجدوا حاجتهم من غناء متصل لموسيقى النظم في نفوسهم ، وعبارات تصلح لقوافي قصائدهم ، ولا سبيل إلى ذلك في الشعر الغربي . فإذا ما اندفعوا في القراءة والبحث والحفظ لم تقف بهم الحاجة إلى طلب النضج في اللغة أو إلى تمثل الأوزان أو اقتناء ثروة القوافي ؛ بل يجدون أنفسهم وقد تأثروا دون قصد بالشعر القديم وينهلون منه ويصدرون عنه ، وهم يظنون أنه كله غناؤهم ومن خلقهم ، وتطرب أذواق العصر لهذا الغناء وهي في مرحلة تهوئ فيها إلى العزة العربية وإلى الجدل القديم ، فتسعد بكل ما يذكرها به أو ينقل لها صوراً منه ، ويقتف الشعراء من رواد المدرسة عند هذا الحد وهم يظنون أنهم بلغوا الناية . وليس التأثير بالتقديم ومجاراته دليل ضعف أو انحطاط ، اللهم إلا إذا كان مجازاة جامدة تمنع كل جديد يتسرب إليه ، وتعجز عليه أن يساير العصر في

فكره وعواطفه ، وتحتم أن يعيش في عصر غير عصره . ولكننا إذا نظرنا بذوق موضوعي إلى التأثير والمجاعة في مدرسة المحافظين نجد أنها دليل الحياة والقدرة على البقاء ، وبينت على أن هذا الأدب العربي فيه الخصب والنفاء وفيه النماء ، وفيه قدرة على مسايرة الحياة ، وطاقته تميز عن هذه الحياة في معنورها المختلفة عبر التاريخ .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فإخال للرحلة التي عاصرتها « مدرسة المحافظين » ، منذ أرمى قواعدها زعيمها البارودي ، إلا شبيهة بمبتدأ العصر العباسي حين أخذت يتابع جديدة من الثقافة الفارسية والهندية واليونانية تصب في معين الثقافة العربية فتأثر عقول الشعراء ولا تتأثر عواطفهم ، فتفى أفكارهم في إطار عواطفهم وفنهم ، وتتجدد للماني ولكن الإطار يظل عربياً خالصاً ، وكانت نهضة وكان مبتدأ العصر الذهبي للشعر . وكأنما تمود الدورة فيبدأ البارودي زعيم النهضة بالتجربة الأولى ، فيتمثل اللغة التركية والفارسية حتى يبرع فيها ، ويتقن شوق ومطران اللغة الفرنسية حتى يتملكا ناصيتها ، ويعرفها حافظ حتى يترجم إلى العربية من أفكارها ؛ ولكن عقول الشعراء هي التي تتأثر بهذه اللغات دون أن تتغير عواطفهم ، فيظلون محافظين على الوزن والنسق والموسيقى العربية . وديوان البارودي فيه عناصر تركية وفارسية من الفتيات اللاتي يلبسن القُرطُف التركي ومن جشيد وكسرى أنوشروان وسابور وشاهنشاه من الفرس ، ونلاحظ كذلك تأثير البارودي بفلسفة عمر الخيام في انتهاب الذة في الحاضر دون انتظار لمستقبل ، وبمذهب النرس في المحرمات ، وبمخاظ الشيرازي في التمييز عن لواعج الحب ولوعات المدي والبعث فيه عن المذاب . وذلك كله فكر تأثر به البارودي من قراءاته لكنه أخرجه إلينا عربي الشكل والضمون ، نقرأ فلا نحس فيه شيئاً غريباً عن الذوق العربي أو جديداً عليه ، وتلك هي الأصالة الفنية وذلك هو التجديد .

وكذلك رواد للدرسة اتجه كل منهم إلى واد تستظل به فينته وتنفرد فيه شخصيته ، فيتجه خليل مطران إلى رومانسته ووجدانياته الشاكية الباكية ، وتدفعه الأصالة الفنية وغناء الرصيد إلى التجديد فينزع إلى القصص والدراما على نحو ما قرأه في الأدب الغربي ، ويعكس عواطفه على ما حوله من الطبيعة فيجعلها بكلياتها وجزئياتها صدى لأحاسيسه ، ويخرج لنا ذلك كله حريياً خالفاً نغم العبارة جزل التركيب حتى لصحيه عربى الأصل . وللتبت . وشوق تلم من الأستاذ فنه ، وأخذ عن الرائد طريقته ، وتبع خطاه فقرأ له وتأثر واخترن ، وعكس على المنبع الأصل حفظ وتمثل ، وقلد البارودى فى معارضة الفحول من شعرائه معارضة لا تضعف فيها شخصيته ، فإذا به كرائده يتصرف فى زمام اللغة ويلقى إليه التعبير بنواحيه ، ويقرأ للأدباء الفرنسيين ويحاول أن يترجم لهم ، ويقدم فى النظم على لغة الحيوان ويحاكيهم فى الحديث عن الآثار ، وتدفعه الثقة والأصالة والرصيد الواسع إلى التجديد فيكتب الشعر التمثيلى ، ويوجه إلى الشعر الوطنى ويقوى ما بدأه أستاذه من النزعة الفرعونية ثم يفتى للمواطف الإسلامية والعربية جميعاً ، بقناول كل ذلك ثم يخرج به لنا عريياً خالفاً . وإسماعيل صبرى آلف تلاميذ للدرسة إلى قلب أستاذه ، ومع أنه قريب من الرميل الأول - ولد عام ١٨٦٨ - الذى ينتهى إلى البارودى إلا أنه كان يعتبر البارودى أستاذه ، وهو وإن لم يبلغ مبلغ زملائه رواد للدرسة فى غزارة النبع وقوة الصنع والتمسك فى الشعر العربى ، إلا أنه استطاع أن يفك قيد شعره - وهو من السابقين - من إسار الأغلال العثمانية ، واضرد بحس مرهف وذوق جمالى دقيق ، واندفع بضد لنفسه طريقاً جديداً على المستوى الشعبى فى رقائق غزاة قصيرة ومقطعات غنائية عذبة ، ثم مضى يستغنى هذا الفن فى التهمك على رجل السياسة وفى شكوى الزمان والتبرم بالناس . أما حافظ وعبد المحسن السكاكلى

وشكيب أرسلان فيكاد كل منهم يكون صورة لأستاذه في متانة الأسلوب وجزالة العبارة وقوة الأسر وفي للنحى القديم . وكان حافظ الامتداد الطبيعى للبارودى ، وشابهه في جوانب كثيرة ، فقد التحق بالدرسة الحربية وعاداه الزمان قبضل من الجيش ، وقد مصدر رزقه وعاش فترات من حياته يتجرع البؤس ويقتاب الشغل ، ولم يتجه حافظ إلى منابع خارجية وقصر أنجاهه على احتذاء شعر البارودى والشعر العربى القديم . ولم يعمده هذا الاتجاه عن روح عصره ، فقد كان أكثر الجميع قرباً من الشعب وهو من طبقة التوسطة ، عاش معه وخلطه ومزج يؤسه بيؤس أمته فصار صوتها الشعرى ، يهتف بخواطرها وآلامها وآمالها فى نواحي حياتها المختلفة حتى لقب « بشاعر النيل » .

البارودى وحركة التطور فى الشعر العربى :

بقى السؤال الكبير الذى قد يراود النفس عند دراسة حركة التطور العامة فى الشعر العربى الحديث : هل كانت البداية القوية التى بدأها البارودى وحتمتها عليه ثقافته الأدبية وتكوينه الفنى - من حيث نمته القديم وإصداره عنه فى وقت يهتف الناس فيه إلى التغيير - سبباً فى وقوف الشعر عند القديم وبطء سيره فى موكب التطور الذى من كل مراحل الحياة الواقعية والتفكيرية فى عصره ؟ وهل جاء البارودى بشعر من الماضى الذى يقده جمهور عصره ، وهو ماضى رضيت عنه عواطفهم ونظروا إليه نظرة إجلال لظروف من رواسب عقلم الباطن فطربوا له ، واستمسكوا به ، ولم يسيروا وقتئذ تطوراً فى هذا الشعر الذى يرضيهم فوقت ، ثم تخلف عن مواكبة الحياة المتجددة وأبطأ فى ملاحضة النهضة العامة فتأخر ؟

وهل كان من الممكن أن يصبح وجه الشعر مختلفاً عما كان عليه أول

حركة التنوير والتطور في العصر الحديث ، أو يكون أسرع في تطوره ، لو أن البارودى بموهبته الباقية وثقافته العربية الأصيلة وثروته القوية قد اطلع على الآداب العالمية الحديثة ، أو خرج مع من خرج في سنة إلى أوروبا فقرأ آدابها ، واتصل عن طريقها بآلات التعبير عن النفس البشرية وأسرار الطبيعة ومواضع الجلال ومثيرات الشجون ، وعرف فيها الألم والأمل على مستوى الإنسانية كلها ، إلى جانب أسرار الصياغة الشعرية ووسائل التصوير والإيحاء ، فيتأثر بذلك كله ويصنع مثل ما يصنعون ، وينظم على القوالب التي فيها ينظمون ، ويسلك الدروب التي سلكوها في الموضوعات والأغراض فيخرج من محيط الإقليمية العربية إلى مستوى الشاعر العالمي ؟

في تقديري أن البارودى لو سار به القدر هذه السيرة لوفر على عالم الشعر العربي أكثر من نصف قرن ظل القريض فيه يوزح تحت سحر المدرسة التقليدية ، وينفث في عقدها بعده شعراء ذوو مواهب شعرية فذة وجهتهم أذواق الجماهير للفتونة بالشعر التقليدي الذي جاء به البارودى أشد الفنون إلى الانطواء تحت رايتها من مثل شوق وحافظ وعبد الحمن السكاكلى وشكيب أرسلان و خليل مطران حين يماود نفسه ، فتطلق بهم كقوة عارمة من قوى الطبيعة تأخذ أبواب الجماهير بجلال صياغتها الشعرية ، وقوة رنينها الموسيقي ، وتظل مشدودة إليها مسحورة بها حتى تأتي قوة أخرى ممثلة « للمدرسة الحديثة » مؤززة بالنقطة ومسلحة بثقافة غربية أدبية وفلسفية واسعة ، فيخرج دعائها الشعر والنثن والشعور من آفاقها الضيقة إلى الآفاق الواسعة ، ويهزون عرش المدرسة التقليدية هزاً عنيفاً ، ويوجهون الشعر العربي وجهات جديدة أكثر خصباً وعمقاً في إنسانيته وطاليتها .

وفي يقين أن بحث الشعر العربي وبذاته انطلاقاً تطوره في عصر النهضة على يد شاعر كالبارودي أولى للوهبة الخلاقة ، ووجهته ثقافته وتخصسه في شعر الأقدمين إلى التطلع نحو الماضي يبحث عن مثله فيه ، وكونت ذوقه الأدبي قراءاته الكثيرة في هذا القديم ، وتحدثت من كل ذلك مفاهيمه عن الشعر وماحيته وعوامل الضعف والقوة فيه والجهد منه والردى — كان عاملاً من عوامل بقاء الشعر في مسيرة التجديد والتطور . ولست بذلك أوجه النقد إلى البارودي ، فلم يكن شاعرنا يستطيع أن يقول غير ما قال ، لأن قوله وليد الثقافة والتكوين الفكري ، وقد كان مصدرهما عنده — كما قلنا — التقديم من الشعر العربي وبعض المعرفة والتذوق في الأدب التركي والفارسي وقديم العربية بفضلها فكراً وذوقاً ، فظل البارودي محصوراً في الإقليمية العربية ، وقد أعطانا خير ما عنده وأفضل ما فيها . ولو أن البارودي بموهبته الشعرية الخلاقة ، وقوة عارضته وثروته اللغوية ، وفنيته الأصيلة ، واستمداده القريب من العبقرية خرج بأفائه الثقافية إلى الآداب العالمية الحديثة ، وتذوق أسرار التعبير والصياغة فيها ، ووقف على وسائل التصوير والإيحاء ، وتبين الأغراض للنوعية والموضوعات المختلفة التي يرتادها الشعر ، لبدا حركة التغيير بشكل آخر ، واختصر الزمن الذي قطعه الشعر في تطوره ، ولأصبح للشعر العربي وجهاً يختلف في قليل أو كثير عما نراه اليوم .

ولكن البارودي خرج إلى العالم العربي في وقت يش فيه ويرزح تحت وطأة الظلم والاستبداد والاستغلال ، ويعيش في حافة الفقر المادي والثقافي ، وفي الدرك الأسفل من التأخر العلمي ومن فساد القوق الأدبي والفني ، وكان قد نفذت إليه بالأمس القريب طاقة من النور والمعرفة والزاد الجديد ، ولغات من العلوم الحديثة التي طورت الحضارات خارج أسوار العزلة القروية على

العالم العربي ، جاءه ذلك الشعاع مع الحملة الفرنسية وفي الصحافة الأجنبية ومع الوافدين من الأجانب والبعوثين للصربين ، فاستيقظ الإحساس عنده بما هو فيه من جهل ، وانتابته الحسرة والألم لما هو عليه من تأخر وفساد ، وقارن بين يومه الكئيب الدليل وأمه البعيد الشرق الضارب في سماوات الجحيم والهمزة ، فطلع الناس إلى الله . أى تغيير . تغيير يشمل جميع نواحي حياتهم حتى الذوق الفني وحتى الشعر ، ورغبوا في أن يلقوا شعر عصرهم عن كاهلهم بأنفازه وصنفته وضيق أفقه وفقره في الفن والذوق ، وتطلّعوا إلى غناء جديد . وطلع عليهم البارودي بشعر يختلف عما ألقوه في عصرهم ، ووجدوا له صدى في نفوسهم فكان التغيير الذي يطلبون .

وأغلب الظن أن البارودي لو كان لديه رصيد من الثقافة المالية وآدابها ، وعرف الشعر كما يعرف الأدب في محيطه المالي لبدا حركة التطور والبحث من حيث بدأت للدراسة الحديثة أو ما نسمي بمدرسة المجددين في مطلع القرن العشرين ، ولقبل عصره تغييره وقد كان يرنو إلى أى تغيير ينقذه من الشعر التمهالك الذي نزل بذوقه إلى الخضم ، ولكن البارودي جاء — وهو ابن ثقافته وتكوينه الفني — يصدر عن القديم ويسير في الشعر على نسق السابقين ، وصادف مجيئه مرحلة يقظة الإحساس بواقع العالم العربي المرير ، والمقارنة بين الحاضر الظلم والماضي الجيد ، وفرة الأمان والأحلام في عودة المجد العربي التليد ، فتنام البارودي بقديمه أمانيهم وما يشتهون ، وقوى في قلوبهم الأمل في غد يتصل بماضيهم ، وأعاد إلى نفوسهم الثقة بأن أدبهم العربي القديم فيه القدرة على الحياة ومثالب المعسور ، وفيه قوة على أن يعيش ويعبر بأساليبه وأعماله القديمة ليعبر جوانب حياة جديدة بينه وبينها قرون طوال . وأرضى التغيير الذي أحدثه البارودي المحافظة الكبرى للورثة وللمستكنة

في أعماق النفوس منذ أمد بعيد وهي عاطفة « المروبة الخالدة » ، فاحتفوا بشعره ووقعوا تحت تأثير إنشاده ، واستمسكوا به وأعرضوا عن سواه ، حتى لم يستطع أحد ممن جاء بعده من الشعراء قرابة نصف قرن أن ينزع إلى الخروج على مدرسة البارودي المحافظة ، ومن كانت تغلبه فطرته من الشعراء إلى الخروج عنها كان يأخذ نفسه بالحساب السير ، ويماد شعره ليخفق فيه تيارات التمرد على مدرسة المحافظين^(١) ، فقد كانت مواجهة الجماهير بالتغيير عقبة كبرى تكسرت عليها كثير من المحاولات وفشلت عندها مواهب الشعراء ، ولم ينتج منها سوى محاولات لشوقي ومطران .

والحقيقة التي لا ريب فيها أن البارودي بكلأسكيته وإمامته للمدرسة المحافظين قد بث الشعر العربي من مرقده ، وبث فيه حياة قوية متعددة بمد أن تسربت إليه عناصر الفناء قروناً متعاقبة ، وتزعج حركة التطور التي نهضت بالشعر في العالم العربي الحديث ، وهو من أجل ذلك جذير بأن ينسجم غارب المجد الأدبي ، وأن يذكر في تاريخ الأدب العربي بين الخالفين .

(١) كامل خليل مطران في كثير من قصائده .

مؤلفات البارودي

الديوان :

إن أروع ما خلفه البارودي أثراً له وذكرى هو « ديوان شعره » ، فقد نسيه الناس قائلاً عسكرياً وزعيماً سياسياً ورئيس وزراء ، ولكنهم ذكروه شاعراً ، خلفه ديوانه في ضمير الزمن . وكان البارودي يسجل ما يهتف به منذ بلغ أمه العشرين ، ثم كتب شعره في صفحات كبيرة كانت نسي في ذلك الوقت « نثر » ، وكان يفرد لشكل قصيدة « نثر »^(١) ، وكتب على هوامش هذه « النثر » تعليقاته من شرح لفردات غريبة أو تفسير لإشارات أرادها^(٢) . لقد عاد البارودي من منفاه بأكثر ديوانه مخطوطاً بيده ، ولم يزد عليه بعد لنفي في الأعوام التي قضاها بمصر — ١٩٠٠ — ١٩٠٤ — من شعره إلا القليل .

وبعد أن استقر بالبارودي اللقائم في مصر عقب العودة من المنفى أخذ في المعاودة والتنقيح لديوانه^(٣) ، ثم أملاه على كاتبه ياقوت الرسي^(٤) — الذي اتخذ البارودي بعد أن ضعف بصره ليكتب ما يلقى عليه ويقرأ له — مرتباً حسب القوافي ، جامعاً في كل قافية ما أسكن من الأغراض والنسبات للشبهة ، فكتبه في صورته النهائية .

(١) معلومات الأسرة وأكدها إثبات أرقام هذه « النثر » في المخطوطة (ج) في أول كل قصيدة وقم نثرتها ، وقد نسخ النسخ ذلك من الأصل الذي تطلبه ياقوت الرسي عن هذه « النثر » بإشراف البارودي .
(٢) أنظر هوامش المخطوطة (ج) فقد امتلأت بطبقات النظم اللقائم من الأصل المقروء عليه ، وأثبت ذلك محمود الإمام في هوامش نشرته للديوان في كثير من المواضع وذكر أنه اطلع عليها في الأصل .
(٣) مقسمة مرآة الشعراء ص ٢٣ .

(٤) كان شاعراً وأحد علماء الأزهر . أنظر : مقدمة مرآة الشعراء ص ٦ ؛ وختارات البارودي ج ١ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ .

ورأت « أمينة يعقوب سامي » زوجة البارودي وفاة زوجها بعد وفاته أن تشر ديوانه ، فهدت إلى « محمود الإمام » — مديق البارودي . وجلبه في أيامه الأخيرة^(١) — بشرح الديوان والإشراف على طبعه . غير أنها رأته حفاظاً على أصل الديوان من الضياع ألا يخرج من حوزتها ، فاستأجرت كاتباً ينسخه^(٢) ، وكان عشاق الأدب ومحبو شعر البارودي يتوقون إلى قراءة الديوان كاملاً بصير نافذ ، واستطاع أحد عاشقي شعر البارودي — وكان له ثوذ مرموق^(٣) — أن يتخذ إلى محمود الإمام وإلى الناسخ قنسخ له الكاتب نسخة أخرى^(٤) .

ومن ثم يمكن حصر مخطوطات الديوان على الوجه التالي :

(١) « النثر » أو الصفحات الكبيرة التي كتبها البارودي بخط يده وعليها تفسيراته وتعليقاته ، وشعر البارودي فيها بعد أن كف يصره بخط كاتبة ، وما زالت هذه « النثر » في حوزة كريمي الشاعر فاطمة ومشيخة ضمن مذكرات البارودي وأوراقه التي تملأ عدة صناديق كبيرة لم تصل إليها بعد يد الباحثين .

(٢) مخطوطة كاملة للديوان كتبها ياقوت الرمي بعد التفتيح والمعاودة التي أجراها البارودي على شعره عقب عودته إلى مصر ، مرتبة ترتيباً أبجدياً حسب قوافيها ، ونقل إليها الكاتب تعليقات الناظم على « النثر » ، ثم قرأها في صورتها النهائية على البارودي في أخريات أيامه^(٥) .

وبغير هذه المخطوطة مصير سابقها من « النثر » مقضى عليها بالسجن في

(١) من علماء الأزهر وكان يلقى درس النصوص الأدبية في جامع المؤيد على تلاميذ عام ١٩١٩ حسب رواية تليذه الأستاذ محمد شفيق معروف . (٢) معلومات الأسرة . واسم الناسخ مصطفى عبد الخالق؛ أنظر : المخطوطة (ج) من ٣١٤ . (٣) والد حائز المخطوطة (س) أنظر صفحة ٤٣٠ من الكتاب . (٤) قال حائز المخطوطة للأستاذ المرحوم طاهر العشماوي إن والده أعطى الناسخ عصرة جنبها ذهبية وكانت تروى في تلك الأيام . (٥) معلومات الأسرة .

ظلمة الصناديق حتى يفك الله أسرارها وتأذن لها أسرة البارودي بأن تجد الطريق إلى أيدي الدارسين .

(٣) مخطوطة ثالثة نسخها مصطفى عبد الخالق^(١) ، وانتهى من نسخها في ١٠ سبتمبر ١٩٠٨ ، وقع في ٣١٤ صفحة .

(٤) مخطوطة رابعة من الديوان ، وأرجح أن كاتبها هو مصطفى عبد الخالق ، كاتب المخطوطة السابقة وقد تمت كتابتها كما يقول ناسخها في ١٧ أكتوبر ١٩٠٨ ، وهي ٣٠٧ صفحات .

أما « النمر » أو الصفحات المتفرقة ، وكذلك المخطوطة التي كتبها ياقوت للرسي فلم أتمكن من الاطلاع عليهما ، وهما كما تقول كريمتا الشاعر بين الأوراق الخاصة بوالدهما والتي تملأ صناديق كثيرة لم تفتح للدارسين بعد .

« المخطوطة الثالثة » يحوزها محمد شفيق معروف ،^(٢) وقد وصلت إليه من « على الجارم » منذ أشركه الجارم معه في شرح الديوان (١٩٤٠ — ١٩٤٢) . وجاءتهما هذه المخطوطة عن طريق جعفر والي ، وقد حصل عليها من محمد أشرف بن الشاعر^(٣) . وقد تمكنت من دراسة هذه المخطوطة دراسة مستفيضة ، وأعطيت الفرصة لبعضها ومقارنتها بصورة من المخطوطة الرابعة . وقد تأكد لي أنها النسخة التي طبع منها محمود الإمام نشرته للديوان ، فعلى هوامشها كلمات بخطه ، وقد شكل أبياتها حتى قافية اللام وهو القدر الذي طبع في نشرته . وقد نقل الناسخ إليها من النسخة (٢) التي كتبها ياقوت للرسي تعليقات

(١) أنظر : المخطوطة (ج) ص ٣١٤ فقد كتب اسمه في آخرها .

(٢) مفتش سابق لقنة الريية بوزارة التربية والتعليم .

(٣) معلومات الأسرة ٤ ؛ وأنظر أيضا مقدمة الديوان (الجارم) ج ١ ص ٣٨ .

الناظم تفسيراً لكلمات غريبة أو توضيحاً لمعاد ، ومن هذه التعليقات كلمات صرافة لكلمات في بيت صلب القصيدة على وزنها أو رويها ، وفي بعض الصفحات وجدت بيتاً رمته أو شطراً من بيت^(١) بالهامش يؤدي نفس للمنى للبديل الذي في بناء للقصيدة ، وكان الشاعر وضعه ليقارن أيهما أفضل في أداء للمنى المراد^(٢) . وقد اعتدت على هذه النسخة يد الحذف والتشويه حتى قافية اللام ، فحُزب بالقلم على بعض القصائد ، وطُس بالخير أجزاء من قصائد أخرى^(٣) ، وكذلك شطب أجزاء من عناوين بعض القصائد وكانت توضح مناسباتها وتواريخها . وكتب محمود الإمام على بعض هذه القصائد « لا تطبع » ثم وقع باسمه « الإمام » على هذا الحظر الذي أصدره ! والذي أكد لي أن محمود الإمام هو الذي شطب وطُس كتاباته على هامش بعض القصائد « لا تطبع » ، وكذلك وجدت انشطوبات ولطاموسات حتى قافية اللام فقط ، مع أن ما بعد اللام وهو الجزء الباقي المخطوط فيه هجاء على شاكلة الهجاء الذي طُس في الجزء السابق ، بل أُنْفِذ منه ونفس الأشخاص : توفيق ورياض والحاشية ، ومع ذلك لم تشطب هذه القصائد أو تطُس ، ولم يكتب عليها « لا تطبع » لأن الإمام لم يكن قد وصل إليها ، واستندت منه حين توفت الطبع الذي يشرف عليه عند آخر قافية اللام . وقد استطعت قراءة القصائد والأبيات المشطوبة وعددها (١١٩) بيتاً^(٤) بالجمهر تارة ، وبالعمود عليها في المخطوطة الرابعة

(١) أنظر : المخطوطة (ج) س ٤٩ ، ٤٢ .

(٢) في قصيدة « أديراكثوس الراح قد لم البحر » التي كتبها البارودي إلى صديقه عبد الله فكري وجدت في هامشها بالمخطوطة (ج) البيت التالي وليس من صلب القصيدة :
إذا لا عبتا الريح ما جت كأنما بأهل الزند منها ملائكة خضر

(٣) المحذوف والمطُوس في الصفحات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٢ ، ١٢٥ من المخطوطة (ج) .

(٤) نشر منها في طبعة الجارلاند بوان قصيدة واحدة وهي التي يمرض فيها البارودي يرؤساء الجنود الذين تخافوا في الثورة الرامية وأبياتها ٣١ بيتاً ، أنظر : الديوان (البارود) ج ٢ ص ٣٣٤ .

(س) تارة أخرى ، ولم يتنظر على سوى ستة أبيات^(١) من قصيدة يهجو البارودي فيها إسماعيل صديق المفقش^(٢) ، فقد كان طبعها شديداً بحيث فشلت جميع المحاولات في قراءتها . وقد أشرت في البحث إلى هذه النسخة برمز (ج) أول اسم « الجارم » .

« والمخطوطة الرابعة » يحوزها عزيز كريم يعيش رهين الحبسين : الظلمة والشلل وقد قيل لى إن حساسية الأعصاب عنده وعدم الرؤية جعلناه يضيّق بالناس ويكره أن يراه غريب ، ومن ثم فهو يعيش مع مرضه وشيخوخته فى عزلة عن العالم ، ولم أره شخصياً ولكنى عرفتة بالواسطة عن طريق أديب كريم لحق بالرفيق الأعلى منذ أمد قصير^(٣) . استمار لى هذه المخطوطة ، ولم يشأ أن يكشف عن اسم حائزها حتى لا يتوافد عليه الباحثون والدارسون فيضايقونه فى مرضه وينفصون عليه ما بقى له من أيام فى الحياة^(٤) . وقد قيل لى إن والده هو الذى حصل على هذه النسخة^(٥) وكان من هواة الأدب وجمع دواوين الشعراء .

وبعد دراسة المخطوطة واستقصاء ما فيها تبين أن النسخ لم يكتب اسمه فى آخر صفحاتها شأن ناسخى المخطوطات وكما فعل ناسخ المخطوطة (ج) ، وإنما أثبت تاريخ الانتهاء من نسخها وهو ١٧ أكتوبر ١٩٠٨ ، ولعله لم يرد أن يستدل آل البارودي على أنه كتبها بغير إذنه ، ولكن الخط هو نفس الخط المكتوب به النسخة (ج) ، ومعنى ذلك أن الذى كتب النسخة رقم (٤) هو مصطفى عيد الخالق . وقد اتضح لى أن هذه النسخة غير كاملة ، فقد أسقط الناسخ

(١) المخطوطة (ج) ص ٣٦ . (٢) أنظر : ص ١٣٥ من الكتاب .

(٣) المرحوم طاهر الطناح . (٤) نفس كلمته .

(٥) دفعه عشره جنبيات ذهبية لناسخ الذى كتب النسخة الخامسة بطبع الديوان عام ١٩٠٨ .

منها القصائد وأجزاء القصائد للشطوبة والضروب عليها بالقلم والطموسة والتي كتب عليها الإمام « لا تطبع »^(١) في النسخة (ج) ، ولم يتج من ذلك غير ستة أبيات من قصيدة يهجو فيها البارودي الأسرة المالكة^(٢) ، ومقطوعة من ثمانية أبيات يمزى بها خليل مطران في وفاة عم له^(٣) . وعدد صفحات هذه المخطوطة ٣٠٧ صفحات .

وقد أذن لي حائز هذه المخطوطة في أن أنقل منها ما شئت ، فنقلت بإذنه الجزء الذي لم ينشر من ديوان البارودي وهو من أول قافية الميم حتى نهاية الديوان^(٤) ، ثم راجعت ما نقلته على المخطوطة (ج) فوجدت الخلاف طفيفاً في بعض الكلمات ، وقد نوّهت به في مظارنه أثناء تحقيق الأبيات التي جاءت في هذا الكتاب . ويطلب على الظن أنها أخطاء كتابية وقعت من الناسخ أثناء الكتابة . وهذه النسخة رمزت لها بالحرف (س) كما أشار بذلك الأدب الواسطة لأنه — كما قال — أول حرف من اسم حائزها .

وظهر من ديوان البارودي حتى الآن نشرتان : أولاً قام بها محمود الإمام المنصوري بعد أن عهدت إليه أمينة يعقوب سامي زوجة البارودي شرح الديوان والإشراف على طبعه^(٥) ، وقد بدى في طبعه أوائل الحرب العالمية

(١) الذي سقط من القصائد في هذه النسخة : قصيدة في هجاء رياض بيد الحكم على الزعماء بالنفي (٣١ بيتاً) ، وقصيدة يمرض فيها يرؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العراقية (٣١ بيتاً) ، وقصيدة في مدح الحديوي عباس عنانبة عيذابلوس (٢٩ بيتاً) ، وجزء من قصيدة في هجاء إسماعيل الفتح (١٤ بيتاً) .
(٢) المضروب عليها في المخطوطة (ج) من ٧٧ ، والمذكورة في المخطوطة (س) من ٧٠ - ٧١ .
(٣) حبيب مطران وقد توفي بطلبه عام ١٩٠٠ . وهي المضروب عليها بالقلم في المخطوطة (ج) من ٣٨ ، والمذكورة في المخطوطة (س) من ٣٧ .
(٤) بحث إلى حائز المخطوطة بالازحاح حول مبرها بعد أن يهضي الكتاب أجله وقد وعد بتنفيذه ، وهو أن يكتب في وصيته أن تكون هذه المخطوطة من نصيب دار الكتب العربية ، وما أخاله إلا فعلاً .
(٥) مقدمة الديوان (الإمام) .

الأولى^(١) ، وطبع منه جزآن الأول إلى آخر قافية الفاء ، والثاني إلى نهاية قافية اللام . ولما غلا سعر الورق عام ١٩١٥ أوقف طبعه لاستنفاده قدراً كبيراً من المال^(٢) . وقد أسقط الإمام من نشرته للشطوبات التي أشرنا إليها من قبل ، ولم يلتزم في ترتيب قصائده كل قافية ترتيب المخطوطة التي نقل منها .

وإن الدكتور محمد صبرى على هذه النشرة بقوله : « إن شارح الديوان لم يمين على شعر البارودى بشرحه الطويل الثخيب ، بل تمدى ذلك إلى عدم العناية بنشر الشعر في صورته الأصلية ، فسح بعض القصائد الرائعة التي جارى بها البارودى لقول للتقدمين ، وكان من السهل على الشارح أن ينتبه إلى هذا الخطأ الذي وقع فيه عتواً لو أنه تفهم شعر البارودى واهتمامه بحسن السبك ، أو أنه أمعن النظر في القصائد التي نشرها له صاحب الوسيلة . ومن العجيب حقاً أن ينشر المصنف للبارودى وهو حى في ريمان الشباب نصاً لقصائده أصبح بكثير من النص الذي نشر بعد وفاته^(٣) » . وفي رأى أن نقد الدكتور صبرى حق في شطر ويحمل شطره الآخر عناصر التجنى ، أما عن الشرح فن الواضح أن التوفيق قد جانب الشارح فيه ، وأما قضية مسح القصائد وعدم نشرها في صورتها « بالوسيلة الأدبية » فذلك ما يمكن الاختلاف فيه مع الناقد ، لأن الشارح نشر القصائد نصاً كما وردت في الديوان بصورته النهائية للقروءة على البارودى بعد للمادة والتنقيح والتفسير والحذف والإثبات التي أخذ بها ديوانه في أخريات أيامه ، والأمانة تلزم للمشرع على الطبع أن ينشر الديوان كما وصل إليه في صورته النهائية للقروءة على صاحبه ، وليس منها أن يستبدل

(١) طاهر الطناحى : الهلال السنة ٣٨ جزء ٤ فبراير ١٩٣٥ . (٢) المصدر السابق .

(٣) محمد صبرى : عمود سالى البارودى ص ٢٤ .

بالقصيدة التي جاءت في الديوان صورة أخرى لما وردت في مكان آخر ، وقد يكون من زيادة الفضل أن يشير الناشر إلى هذه الصورة الأخرى . أما البحث عن الصور التي اختلفت عما جاء بالديوان في مظاهرها التي نشرت فيها والمقارنة بينهما وبين ما جاء في الديوان فهي مهمة المحقق ؛ والحكم على الشاعر من زوايا الاختلاف مهمة الباحثين والنقاد .

ثم ظهر الديوان في نشرة ثانية قام بها علي الجارم ومحمد شفيق معروف ، وقد عمدت إليها بذلك « وزارة للآراف » ، فأصدرامنه جزين^(١) حتى آخر قافية الكاف ، وقد سلكا فيه مسلك النشرة الأولى من حذف للشطوبات وللطموسات من القصائد وأجزاء القصائد وما كتب عليها « لا تطيع » خلا القصيدة التي « يمرض فيها برؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العراقية » . وقد أشارا إلى القصائد التي ذكرت في الوسيلة الأدبية من التوافي التي نشرها ، وأثبتا منها ما اشتد اختلافه عما جاء بالخطوطة (ج) مصدر نشرهما . ونأمل أن ينشر بقية الديوان وفاء لحق البارودي المناضل على مصرنا الحديثة ، وتقديراً لفضل الشاعر الرائد على نهضتنا الأدبية .

وطبع للبارودي عام ١٩٠٩ قصيدة تحت عنوان « كشف القصة في مدح سيد الأمة » وهي ملحمة شعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ضمنها سيرته من مولده إلى وفاته وسار فيها متتبهاً « سيرة ابن هشام »^(٢) . وقد نظمها في اللقي على وزن « نهج البردة » للبوصيري ، وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتاً وتقع في ٤٨ صفحة . وقد أشرف على طبعها ، وصحها وفسر بعض غريبها كاتب يد الناظم في سنه الأخيرة ياقوت الرضى^(٣) .

(١) صدر الجزء الأول عام ١٩٤٠ والثاني عام ١٩٤٢ .

(٢) أغلر س ٣١٠ — ٣١٢ من الكتاب .

(٣) كشف القصة ، مطبعة الجريدة سنة ١٣٢٧ هـ س ٤٨ .

قيد الأوباد :

وللبارودى كتاب يسمى « قيد الأوباد » وهو كتاب نثرى ألزم فيه أسلوب السجع ، وراعى الصناعة البديعة ومحسناتها ، وجمع فيه بعض اللطائف السامعة والرسائل التى كتبها خلاصته أو التى نقت فيها مكنون صدره فخفف عن قلبه ثم استبقاها لنفسه^(١) . ومن ثم فهو ككتاب يصور لنا جوانب خفية من حياة البارودى ، ويوفر لنا مقالات شخصيته ومنازع نفسه ، ويكتب عن الأحداث والظروف التى مرت به . وإذا كان ديوانه هو الكتاب الخالد لصورة نفسه العاطفية فكذلك « قيد الأوباد » فى ظنى هو صورة البارودى التاريخية .

ومن الجزء الذى ظهرحتى الآن يمكن الحكم بأنه كتاب يصور جوانب من صورة البارودى النفسية ، ولعله كان يشبه مكنونات صدره وخفايا نفسه وأسراره ، ويحلل فيه الأحداث من زواياه الخاصة فى صراحة . ويبدو أن « قيدا الأوباد » كتاب فيه مفاتيح للفتق من جوانب شخصية البارودى ، وأنه لو نشر لألقى أضواء جديدة على حياته الشخصية والسياسية والأدبية .

وأغلب الظن أن البارودى كتب قيد الأوباد فى النفى ، فقد كان لديه من الوقت والفراغ ما يسمح له بأن يكتب بهذا الأسلوب الأدبى المصنوع للنسق ويعنى به كل هذه العناية ، فيختار الكلمات وكأنه يقيس أطوالها وزواياها ويتأنق فى المحسنات فيجسد أنواعها المختلفة . والتى لاشك فيه أن البارودى وهو يكتب هذا الكتاب لم يرسل نفسه على سجيته ليمر فى تدفق وسلاسة ، بل كان يلازم بين الكلمة والكلمة والفقرة ومثلها ، ويطلب الكمال فى التناسق

بين صيغ التعبير؛ ومع ذلك، فالقارىء وهو يقر بعض فقرات الكتاب يشعر بالحس الدقيق والشعور للرصف بكلمات اللغة الجزلة والريضة، والعبارات الرصينة والمستحكة كل فيما وضع له . ولعل خير وصف للأسلوب القفى فى هذا الكتاب هو ما قيل فيه : « وكأن البارودى فى نثره شاعر فهو يطلب إرضاء الأذن ، ولذلك يلتزم السجع ، ويحكمه إحكاماً دقيقاً ، وما يزال يطلب الكمال القفى حتى يروع سامعيه ، ومن ثم كان نثره قريباً من الشعر وكأنه لا يسطرد دائماً ولا يكتب إلا شعراً بأسر به القلوب ويغلب الألباب »^(١).

ويقول من اطالع على هذا الكتاب : « إنه آية من آيات النثر ومعجزة من معجزات البلاغة »^(٢).

وكتاب قيد الأوابد لم ينشر حتى الآن ، ولا يدرى أحد أين مستقره ، وقد أورد الأستاذان على الجارم وعبد شفيق معروف فى مطلع نشرتهما لديوان البارودى صورة لفصل مخطوط من هذا الكتاب « نموذجاً من خط المرحوم محمود سامى البارودى باشا وفنه الكتابى »^(٣) . وقد أمدحها بهذا الجزء — كما يقولان — ابن الشاعر محمد أشرف البارودى^(٤).

ويبدأ البارودى هذا الفصل بموقف الوداع، ولحظة مفارقة الأهل والوطن إلى اللقى، ثم يصف طريق البحر الذى سلكه إلى سردينيا، وما واجهته السفينة من أنواء وأمواج ورعد وبرق جعل الباشرة بين صعود وهبوط ، والناس

(١) د. هوشى خيف : البارودى ص ٢٢٠.

(٢) محمد الإمام فى مقدمة نشرته لديوان .

(٣) مقدمة الديوان (الجارم) ص ٤٣.

(٤) وعدتي كرىتنا الشاعر فاطمة ومثيرة بالبحث عن هذا الكتاب بين أوراق أبيها وتديعها لنشر.

من هول الموقف بين رجاء وقنوط ، وقد شخصت منهم الأبصار ، وشغل كل نفسه بعيداً عن الأنصار ، وبنفت للبنارودي هجومه وأحزانه ولواعج القلب وعذابات الوجدان في كلمات يسطربها أحاسيسه ساعة وصوله إلى سرديب وحيدا حريداً غريب الأهل والدار فيقول :

«إني لما أنصت بي^(١) غوائل الزمن ، إلى مفارقة الأهل والوطن ،
وحقت كلمة الوداع ، وأنصت كل عجيب وداع ، سارت بأشباحنا النلك ،
بتقدير من له الللك . فلما توسطنا لجثة اليم ، وغشيتنا ضيابة المم ، أخذ البحر
يهدر ويهوج ، والريح تعصف وتزوج^(٢) ، والدجن يبرق ويرعد^(٣) ، وللوت
يقرب ويبعد ، والنلك بين صعود وهبوط ، والناس بين رجاء وقنوط ، فشخصت
الأبصار^(٤) ، وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع ، واستولى الجزع ، وشغلت الدموع
الحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر . هنالك دعا ربهم النافلون ، وكفت^(٥) أذيالهم
الرافلون ، فلا ترى إلا ناكس الطرف ، لا ينس بحرف ، وكأنما أظلمتهم الرجفة ،
أو غشيتهم الوجفة^(٦) ، فهم لفرط الخيرة خمود ، تحسبهم أيقاظا وهم رقود ، فلم يزل
بتخبطنا اليم ، وبأخذ بأكظامنا القم ، حتى كادت الأنفس تزهق ، وأظفار
للنية تزهق^(٧) ، ونحن في وعاء^(٨) ، ولأنك غير الدعاء ، وليئسنا على ذلك
ثلاثا ، لا نجد فيها غيانا^(٩) ، وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص . فبعد

(١) أنصت بي : خلصت لي . (٢) تزوج الريح : تضطرب .

(٣) الدجن : السحاب المطير . (٤) شخص البصر : إذا فتمت العين ولم تطرف .

(٥) كفت ذيله : ضمه وضممه وهي هنا كناية عن التضاؤل .

(٦) الرجفة : رجفة الحشر ، والوجفة : الهم . (٧) تزهق : تدرك وتناحق .

(٨) وعاء : يقصد السفينة . (٩) هذه الجملة من «لئسنا إلى غيانا» أشبهت بين السطور -

لأَيِّ مَاسَكَنَت قَوْرَةَ الرِّيحِ ، وَهَذَاتُ ثَوْرَةِ ابْنِ بَرَجٍ ^(١) ، وَتَجَلَّتْ بِنَوْرِهَا
السَّمَاءَ ، وَاصْطَلَحَ لِلَّاءُ وَالْمَوَاءُ ، فَقَرَّتِ الْأَنْفُسُ فِي الصَّدُورِ ، وَتَبَقَّسَ كُلُّ مَصْدُورٍ ،
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَوْقُ الْحَدِيثِ ، مِنْ قَدِيمِ وَحْدِيثٍ ، وَالشُّغْلُكَ يَمُغِرُ الْبَحْرَ بِجُودِهِ ،
وَنُحْنَمِنْ مِنَ الشَّهْرِ فِي دُودُوهِ ^(٢) ، حَتَّى انْتَهَى بَنَى الدِّيْبِ ، وَلَا حَتَّ لِأَعْيُنِنَا
سِرِّ نَدِيبٍ :

مَنَازِلُ لَمْ تَأْتَفْ بِهَا النَّفْسُ مَأْتِكَا عَلَى أَنْ فِيهَا كُلُّ مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ
وَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ أَنْ لَيْسَ لِي بِهَا أُنَيْسٌ ، وَقَدَّ الْخِلُّ فِي غُرْبَةٍ حَسْبُ
وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ فِي ظِلِّ بَلَدَةٍ خِلَاهُ مِنَ الْأَلْفِ لَيْسَ بِهَا أُنْسُ
فَلِخَلَّتْهَا مَشُوبُ الْأَنْهَى ، عَلَى الْأَهْلِ وَالْبَتِينِ ، لَا اسْتَطِيعَ لَهَا عِرَانِي دَفْعًا ، وَلَا
تَأْمِكُ لِنَفْسِي ضَرْعًا وَلَا نَفْعًا ، وَمَا ظَنَنْتُ بِنِ غَابَ عَنْهُ السَّمِيرُ ، وَالتَّاعُ بِالْفَرْقَةِ مِنْهُ
الضَّمِيرُ ، فَهُوَ بَيْنَ هَوْمٍ نَاصِبَةٍ ، وَأَحْزَانٍ وَاصِبَةٍ ^(٣) ، وَأَشْجَانٍ يَهْلِكُ لَهَا الصَّبْرُ ،
وَمِرَارَةٍ يَحْمِلُو عَنْدهَا الصَّبْرُ ^(٤) ، إِنْ نَطَقَ فَيَصُوتُ لَا يَدْرِكُهُ السَّمْعُ ، أَوْ نَظَرَ فَيَعْيِنُ
قَدْ مَلَأَهَا الدَّمْعُ :

غَرِيبٌ تَحْتَظَاهُ الْأَسَاءَةُ فَهَلْ سَوَى عِبْرَاتٍ لِلْفَلَسْفِينِ طَلِيبِ ^(٥)
وَمَا أَسْنَى آتَى غَرِيبٌ عَنِ الْحَيِّ وَلَسَكُنِّي بَيْنَ الْأَنَامِ غَرِيبٌ
قَالَتْهُ يَمِينًا ، فَلَمْ أَصِْبْ مُعِينًا ، وَانْطَقْتُ شِمَالًا ، فَلَمْ أَجِدْ ثِمَالًا ^(٦) ، فَدَارَتْ
بِحِمَايِ الْأَرْضِ ، وَاشْتَبَهَ حُلِّي الطُّولُ وَالْعَرَضُ ، فَبِتُّ وَحِيدًا ، لَا أَجِدُ مُجِيدًا ،

(١) ابن بَرَج : التَّرابُ كِتَابَةً عَنْ نَابِ الرِّيحِ لِلزَّجِجَةِ . (٢) الْجُودُ : الصَّدْرُ ؛ وَالدُّودُ : الْآخِرُ .

(٣) وَاصِبَةٌ : مُؤَلَّةٌ .

(٤) الصَّبْرُ الثَّانِي : مَا يَبْعَثُ عِنْدَ الطَّارِ أَوْ السَّرِّ .

(٥) الْأَسَاءَةُ : الْمُرَاسُونَ وَالْأَطْبَاءُ . (٦) الثَّمَالُ : مَنْ يَبُولُ عَلَيْهِ .

وكانت الليلة شاتية ، والريح مصرصاً غانية ، والسماء بامرة كاسفة^(١) ، ليس لها من دون
الله كاشفة ، قد كَلَجَ وجهها فاكهراً ، ولحج بزقها فازمهر^(٢) ، واصطلك ركامها فأنهال ،
وصتق رعداً فهاه^(٣) ، لو كابدتها النابغة لما شعر ، ولو سلسكها سُلَيْكُ لا تشعر^(٤) ،
فلم أزل أمارس هولها حتى ترّ ، وأرقب فجرها حتى أفتر^(٥) . فلما رقت أنفاس
النسيم ، وحسّر الصبح عن بحياه الوسيم ، وتنفّم المصنور في سماء عذبانته ، وتبتم
اليمفور في مسارح شذبانته^(٦) ، صحت بفلامي كافور ، فأقبل يرف كالصيفور^(٧) ،
يكاد يخرج من جلده ، ويذفن كأبناء جلده^(٨) ، فقلت له : ما هذا الطرب ، وقد
أودى الأرب . فقال : أنظريامولاي إلى السماء ، والنبت والساء ، تجد مغسراً
وسياً ، ومسرّحاً قياً . أزهاراً ترّف ، وغدران تشف ، ومريح يفتن العقول
بروانه ، ونسيم يشفي الأسقام بدوانه ، فقم لملك تستريح ، فقد سكن القطر والريح ،
فلم بضحك لقوله سيّ ، وعلت أنه ليس مني ، وأين يذهب اللهو بقلب قد عنى
رسمه ، ولم يبق في الشفاف إلا وثمه^(٩) . بل كيف يطرب الفسريب ، أو يخف إلى
الصنوبة الخريب^(١٠) ؟ هيات ! ما كل شامة خلا ، ولا كل حلقة خلخالاً ، وأين
النضار من الصفر ، والجنة من التلال العفر^(١١) . تالله ما بعد الوطن دار ، ولا في

(١) بامرة : طايه ؛ وكاسفة : شديدة العيوس .

(٢) كالج : عيس ؛ واكهر : اشتد عيوس وجهها وتراكبت السحاب فيها ؛ لمج : لم ، ازمهر :

أضاء وتوقد . (٣) هال : من البول .

(٤) النابغة : هو النابغة الذبياني ؛ سليك : هو ابن السليكة أحد صالحي العرب المدائني في الجاهية .

(٥) تر : انقطع ؛ واقت : ظهر .

(٦) تبتم : صاح ؛ اليمفور : الظبي ؛ الشذبات : السكّاء . (٧) الصيفور : طائر .

(٨) يذفن : يرقص ؛ وجلده الثانية : جفنه . (٩) الرسم : الأثر ؛ والوسم : العلامة .

(١٠) الخريب : الملوّب المال والأهل . (١١) التضاد : المذهب الخالص ؛ والصفر : النعاس .

غير الكعبة مدار ، ولكن من لم يجد حراكاً سكن ، ومن أعجزته الحيلة ركن ، وما كانت لتعلم نفس جَلداً ، ولكن مُكَلِّ أرامها ولداً^(١) .

ويعنى البارودى فيسطر أحاسيسه في اللحن ومحتته في سرتديب هذا الأسلوب للصنوع ، وقد بلغ به غاية التأني ، والتزم فيه السجع المنق ، يلائم بين الكلمة والكلمة ، ويحكم اختيار كل قكرة كي تطابق قريبتها في الأسلوب . وفي بقية الفصل يصف البارودى ما عاناه في كولومبو — أول عهده بالثني — من لواعج الحنين إلى الوطن والشوق إلى الأهل والمشرة . وكيف سقط فريسة الملة وأخطأته التعلد ، فيشير عليه الطبيب بالانتقال إلى « كاندي » عل جمالها وطيب هوائها يطبان جسمه ، وبحققان ما يقبله من عذاب ولوعة ، ولكن جمال « كاندي » لا يبريء الملة بل يزيد الطين بلة ، ويتكأ جراح البارودى فيذكره بحمال وطنه وصريح صباه . ولا يجد للمذهب الماني منجى له من هذه الأوصاب إلا بالتوجه إلى الله فيرفع طرفه إلى السماء ويخار إلى الله بهذا الدعاء :

« اللهم ياهدني الضلال في الليل المظلم ، وناصر الهلاك في غرة اليوم للسلام^(٢) ، ويا جابر العثرات ، وكاشف الحشرات ، ألهمني بفضلك صبراً بمعصي من الجزع ، وألبسني جلباب أمن يقيني صولة الفرع ، وقني بعطفتك شر نفسي ، واجعل يومي خيراً من أمسي ، وصن ليحسانك ديباجتي ، ولا تجعل إلا إليك حاجتي ، فقد أنخت بيابك مطية الرجاء ، وتمسكت من حمايتك بأطناب الانتجاء^(٣) فلا تهرقني من دعائك خائباً ، فقد جئت من ذنوبي تائباً ، ثم قهت قيمته

(١) الشكل : فقد الحبيب أو الولد ؛ أرامها ولداً : جعلها عن لي ولدها وبذلك يشير إلى فقد أولاده وزوجه بمصر .
(٢) المظلم : التعبد الظلمة ؛ والمسلم : الأخير للتصير لونه .
(٣) الأطناب : الأسباب .

للقرور ، وثقت نفثة المحرور^(١) ، وأخذت أقلب الآراء ، وأسأل زندي
الإبراء^(٢) ، ، حتى قامت إلى نفسي ، وراجعتي بعد لأي حدى ، وعلمت أن
لكل محنة روعة ، ولكل مصيبة لوعة ، وأن الإنسان ، رهن الحدثنان^(٣) ،
ورأيت أن الصبر على الضر ، أجدر بشيمة الحر . وأى امرئ عاهده الدهر
ولم ينفد ، أو صفاله ثم لم يكدر ؟ وكيف لا يتقلب الحال والزمان قلب ، أم كيف
تصاير^(٤) بلبته وهو خلب ؟ ... والعاقل من تأمى بغيره ، وميز بين نعمه وضره ،
فلا يحزن على ما ذهب ، إذا استرد الدهر ما وهب . . . أخفب الجاهل أن
الأمر بيده ، نفسى أن يأخذ من يومه لنده ؟ هيهات لادراكك بعد القوت ،
ولا حيلة بعد الموت ، فتمسكوا من أعمالكم بالسبب الأقوى ، وتزودوا فإن خير
الزاد التقوى .

مختارات البارودى :

وقد رأى البارودى « أن يصنف الأدباء من أهل عصره بمجموعة مختارة
من شعر غول الشعراء المولدين ، لتكون عوناً للناشئين على طبع ملكة للبلاغة^(١)
والتكوين القى للشعراء وتنفيذة الموهبة والخيال ، واختار البارودى ثلاثين ديواناً
لثلاثين من الشعراء العباسيين يبدعون برائد الشعر العباسى بشار بن برد (ت ١٦٧هـ) ،
وينتمون بشرف الدين أبى العباس ابن عيين (ت ١٦٣٠هـ) . وانتخب البارودى
من هذه الدواوين « مارق لفظه ، ودق معناه ، وخلا من الحشو والتعقيد ،
مرتباً ذلك على سبعة أبواب : الأدب ، والمدح ، والزائد ، والصفات ،

(١) القرور : الذى يحس بشدة البرد ، والمحرور : من أسابه التيقظ والحر .

(٢) إبراء الزند هنا : إعمال الفكر .

(٣) الحدثنان : مصائب الدهر .

(٤) مقسة مرآتى الشعراء ص ٢٢ .

والنسيب ، والمجاء ، والزهد^(١) . وقد رتب البارودي الشعراء في مختاراته على حسب أزمنتهم لا على مكائهم^(٢) . « ووضع تعليقاً لهذه المجموعة ينسر به الألفاظ الغريبة والمعاني المثلثة ، فجاءت بعون الله مجموعة ما سمح بثلاثها الزمان ، يستغنى بها صناع القريض عن مطالعة أي ديوان^(٣) » . وقد بدأ البارودي انتقاء هذه المختارات في مايو ١٩٠٠ وانتهى منها في أبريل ١٩٠٣^(٤) .

ولم يستكمل البارودي كل خطوات مشروعه ، فقد « كان في عزمه أن يذكر حسب حصره لمنتخباته في الأبواب السبعة المتقدمة وتقديمه الأدب على المديح والمدح على الرثاء... وهكذا ، وأن يبين ما اصطلاح عليه فيه ، ولكن حال بينه وبين عزمه القدر المحتوم^(٥) » . ومذهب البارودي فيما اختاره — كما عرفه منه كاتب يده انخلاص وكانت المختارات لبارودي وقارؤها عليه^(٦) — « أنه لم ينتخب إلا الجيد لفظاً ومعنى ، وربما يأخذ البيت غير الجيد لتعلق الجيد به ، وأنه لم يراع في بعض الأبيات ترتيبها الأصلي بل قد يقدم المؤخر ويؤخر المقدم ، وقد يكرر بعض ما اختاره في بابي الأدب والمديح في أبواب آخر ، وقد يبذل الفاء بالواو والواو بالفاء أو يلام القسم إذا اقتضى السياق ذلك ، وقد يزيد ما أو يحذفها إذا وقعا في أول المنتخب واستقام الوزن^(٧) » . غير أن هذه الطريقة — مع ما فيها من النفع الأدبي بحصر الشعر الجيد في مجموعة خاصة يرجع إليها الناشئة — فيها تشويه وبتر لقصائد الشعراء ، خاصة إذا علمنا أن القصيدة تتجلى فيها نفس الشاعر وروحه بما فيها من محاسن ومساوئ ، فحذف بعض أبياتها هو بمثابة بتر قاص لروح صاحبها ، وأشبه

-
- (١) مقدمة مرآة الشعراء ص ٢٢ .
 (٢) مرآة الشعراء ص ٢٣ .
 (٣) انظر : مختارات البارودي ج ٤ ص ٤٨٤ .
 (٤) المصدر السابق .
 (٥) يائز المرسى ، وقد أشرف على طبع المختارات وصححها وكتب لها المقدمة .
 (٦) مختارات البارودي ج ٤ ص ٤٨٤ .

ما يكون بجريد الشجرة من أوراقها والاكتفاء فيها بالأزهار ، وفي ذلك ضياع
لجمالها الطبيعي .

والبارودي مفتون بجمال الصياغة في شعره سماها إلى النائية من الإجابة «ورز»
على المتقدمين فضلاً عن المتأخرين ، ولو بحثت عن ديوان تجده كله عقوداً وحلى
من أرق ما أملى الطبع وأدق ما طرز اليراع لما وجدته جملة وتفصيلاً كديوانه^(١) .
وكان لابد لهذا الفتون بالجمال التركيبي والكلف الشديد بالأسلوب والصياغة من
أن تؤثر في انتقائه اختارات من شعر كبار الشعراء المولدين فيهم كل مالم
يقع لفظه موقفاً حسناً من نفسه وإن جل معناه وسما مراده .

وقد نشرت للتخنيات قبل الديوان^(٢) فظهرت ما بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١١ ،
وخرجت في أجزاء أربعة حوت من الشعر المباسى ٣٩٥٩٣ بيتاً .

وبعد ، فقد أدى عمود سامي البارودي رسالته الوطنية والأدبية كاملة غير منقوصة .
أعلن الثورة على الظلم والرجعية وطلّاع الاستعمار ، وقاد الأمة مع رفقاء
الجهاد إلى الحرب المقدسة ضد الاحتلال ، وقدم على مذهب الوطنية فداء من
حمره ، وعذاباً في اغترابه ، وتضحية من ماله وأهله ونور عينيه ؛ ونشر على
الشعر العربي نورا من موهبته وشاعريته ، ونفخ فيه من الروح العربية مارد
إليه أصالته وبعث فيه الحياة ، وغنى للأمة العربية شعراً اهتزت له أعطافها
وملك عليها السمع والوجدان ، ومن أجل ذلك فهو جدير بأن ينسج غارب
الجد الوطني والأدبي ، وأن يرد له الجيل العربي المعاصر دين الوفاء والتقدير ،
وأن يذكر في تاريخنا السياسي والأدبي مع الخالدين .

تم بحمد الله وعونه في ١٢/٣٠/١٩٦٩ .

(١) خليل مطران : مرآة الشعراء ص ٢٥ .

(٢) عهدت زوجة البارودي إلى ياقوت المرسى بالإشراف على تصحيحها .

مصادر البحث ومراجعته

المصادر والمراجع الأدبية :

مخطوطة (ج) كاملة وبها بعض الشطب	محمود سامي البارودي
مخطوطة (س) بها بعض النقص .	» » »
ديوان البارودي ج ١، ٢، شرح محمود الإمام (١٩١٤-١٩١٥).	» » »
» » ج ١، ٢، شرح علي الجارم ومعروف .	» » »
(١٩٤٠-١٩٤٢).	
كشف الغمة في مدح سيد الأمة (١٩٠٩).	» » »
مختارات البارودي ج ١، ٢، ٣، ٤ (١٩٠٩-١٩١١).	» » »
مذكرات الأسرة (أوراق متناثرة) وشجرة النسب، ومعلومات الأسرة .	أسرة محمود سامي البارودي
الشوقيات : أربعة أجزاء (١٩١١ - ١٩٤٦) .	(وبنتاه فاطمة ومشيرة)
ديوان حافظ إبراهيم (١٩٣٧ - ١٩٤٨) .	أحمد شوقي
ديوان الخليل (١٩٠٨) .	حافظ إبراهيم
مراثي الشعراء (١٩٠٥) .	خليل مطران
ديوان إسماعيل صبري (١٩٣٨) .	» »
ديوان الساعاتي (١٩١٢) .	إسماعيل صبري
ديوان علي أبو النصر (١٩٣٠) .	محمود صفوت الساعاتي
ديوانه : الإشعار بحميد الأشعار (١٢٨٤هـ) .	علي أبو النصر
ديوان الحامسة شرح للرزوقي (١٩٠١) .	علي الدرويش
	أبو تمام

- حسين الرصافي الوسيطة الأدبية للعلوم العربية ج ٢ (١٢٩٢ — ١٢٩٦ هـ).
- محمد صبري محمود سامي البارودي (١٩٢٣).
- » » الشوقيات المجلدات ج ١ ، ٢ (١٩٦١ — ١٩٦٢).
- محمد خلف الله أحمد معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها (١٩٦١).
- شوقي ضيف البارودي رائد الشعر الحديث (١٩٦٤).
- » » في النقد الأدبي (١٩٦٢).
- » » الأدب العربي المعاصر في مصر (١٩٦١).
- » » شوقي شاعر العصر الحديث (١٩٦٣).
- » » الفن ومذاهبه في الشعر العربي (١٩٦٥).
- حله حسين حافظ وشوقي حافظ الشعر والنثر (١٩٣٦).
- » » حديث الأرباء ج ٢ ، ٣ (١٩٢٦ — ١٩٤٥).
- » » في الأدب الحديث ج ١ ، ٢ (١٩٤٨ — ١٩٥٠).
- محمد سامي البارودي (سلسلة نوايغ العرب) (١٩٥٨).
- عبد الرحمن الرافعي شعراء الوطنية (١٩٥٤).
- جورجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ (١٩٥٧).
- محمد حسين هيكل ثورة الأدب (؟)

- | | |
|--|---------------------|
| مقدمة ديوان البارودي « الجارم » (١٩٤٠) . | محمد حسين هيكل |
| تراجم معصرية وغربية . (٢) | » » » |
| الإنجازات الأدبية في العالم العربي الحديث (بيروت ١٩٦٣) . | أيمن القدس |
| العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث (بيروت ١٩٦١) . | » » |
| سلافة النديم ج ١ ، ٢ (١٩١١ — ١٩١٤) . | عبد الله النديم |
| الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ١ ، ٢ (١٩٠٨ — ١٩١٠) . | سليم منجوري |
| أسرار البلاغة (١٩٤٧) . | عبد القاهر الجرجاني |
| الأعلام ج ١ — ١٠ (١٩٥٤) . | خير الدين الزركلي |
| شعراء مصر ويثاقهم في الجيل للأسي (١٩٦٥) . | عباس محمود العقاد |
| محمد عبده (أعلام العرب) . (١٩٦٢) . | » » » |
| الديوان (١٩٢١) . | » » » وللازني |
| حافظ إبراهيم شاعر النيل (١٩٥٩) . | عبد الحميد الجندى |
| تطور الشعر العربي للعاصر (١٩٥٨) . | ماهر حسن فهمي |
| حركة البعث في الشعر العربي الحديث (١٩٦١) . | » » » |
| عبد الله النديم خطيب الوطنية (١٩٦٢) . | علي الخديدي |
| الشعر للصري بعد شوقي ج ١ (١٩٥٥) . | محمد مندور |
| إسماعيل صبري (١٩٥٦) . | » » |
| خليل مطران (١٩٥٤) . | » » |
| الأدب ومذاهبه (١٩٥٥) . | » » |

- | | |
|-------------------------|---|
| أحمد الشرباصي | أمير البيان شكيب أرسلان ج ١-٢ (١٩٦٣) |
| نفوسة زكريا سعيد | البارودي حياته وشعره (مخطوطة) (١٩٥٣) |
| محمد عبد الفتاح إبراهيم | شعراؤنا الضباط (٩) |
| طاهر أحمد الطناحي | حياة مطران (٩) |
| أحمد أمين | زعماء الإصلاح في العصر الحديث (١٩٦٥) |
| أحمد أمين | فيض الخاطر (١٩٤٠) |
| محمد محمد حسين | الإنجازات الوطنية في الأدب المعاصر (١٩٥٤) |
| زكي مبارك | للاوزنة بين الشعراء (١٩٣٦) |
| عبد الرحمن بن خلدون | مقدمة ابن خلدون (١٣٢٢ هـ) |
| مصطفى عبد اللطيف السعدي | الشعر للمعاصر على ضوء النقد الحديث (١٩٤٨) |
| أحمد الإسكندري | الوسيط في الأدب العربي (١٩٢٧) |
| بطرس البستاني | أدباء العرب ج ٣ (١٩٤٤) |
| ابن رشيق الأزدي | العمدة في صناعة الشعر (١٩٠٧) |
| شكيب أرسلان | شوقي أو صداقة أربعين عاما (١٩٣٦) |
| » | ديوان الأمير شكيب أرسلان (١٩٤٧) |
| إبراهيم المريض | الشعر والفنون الجميلة (١٩٥٢) |
| محمد عبد الفتاح | أشهر مشاهير أدباء الشرق ج ١، ٢ (٩) |
| إحسان عباس | فن الشعر (١٩٥٩) |
| أبو هلال العسكري | كتاب الصناعتين (١٩٥٢) |
| تشارلتون | فنون الأدب « مترجم » (١٩٥٤) |
| روى كاون | الأديب وصناعته « مترجم » (بيروت ١٩٦٢) |
| اليزابيث درو | الشعر كيف نفهمه « مترجم » (بيروت ١٩٦١) |
| هربرت جريسون | الكلاسيكية والرومانسية « بالإنجليزية » (١٩٢٣) |

- لوجان سميث
نيكلسون
كليمنت هورت
جيب
- أربع كلمات « بالانجليزية » (١٩٢٤)
تاريخ أدب العرب « بالانجليزية » (١٩٥٣)
تاريخ الأدب العربي « بالانجليزية » (١٩٥٣)
مقدمة لتاريخ الأدب العربي
« بالانجليزية » (١٩٢٦)
دراسات في الأدب العربي للعاصر (مجلة)
مدرسة الدراسات الشرقية بلندن
بالانجليزية مجلد ٤ ، ٥

المصادر والمراجع التاريخية :

- سلم خليل النقاش
محمد رشيد رضا
محمد أحمد خلف الله
أحمد عرابي
- مصر للمصريين ج ٤ - ٩ (١٨٨٤)
تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ، ٢ (١٩٣١)
عبد الله النديم ومذكراته السياسية (١٩٥٦)
كشف الستار عن سر الأسرار ج ١ (٩)
دار المحفوظات .
دار المحفوظات .
الصحف التاريخية .
مذكرات عرابي « كتاب الهلال
ج ١ ، ٢ » (١٩٥٣)
تاريخ الحركة القومية ج ١ ، ٢ (١٩٥٥ - ١٩٥٨)
عصر محمد علي (١٩٥١)
عصر إسماعيل ج ١ ، ٢ (١٩٤٨)
الثورة المراتبية والاحتلال الإنجليزي (١٩٤٩)
- مجموعة القوانين والقرارات
مجموعة الأوامر والقيودات
مجموعة الوثائق التاريخية
أحمد عرابي
عبد الرحمن الرافعي
»
»
»
»

- محمود الخفيف
 أحمد شفيق
 محمد مختار
 أحمد مرابي الزعيم للفتى عليه (١٩٤٧) -
 مذكرة رأى في نصف قرن ج ١ (١٩٣٤) -
 كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة
 التواريخ المصرية بالسنين الأفرونية
 والقبطية . (١٩٣١) -
 أمين -
 علي مبارك
 محمود فهمي
 عبد الرحمن الجبرتي
 محمد الخزومي
 محمد رفعت
 أحمد عزت عبد الكريم
 جورجى زيدان
 أحمد قيمور
 محمد جمال الشيال
 جاك تاجر
 تقويم النيل ج ٢، ٣ (١٩٢٨) -
 الخطوط التوفيقية ج ١ - ١٨ (١٣٠٥/١٣٠٦) -
 البحر الزاخر في تاريخ الأوائيل
 والأواخر ج ١ (١٨٩٤) -
 عجائب الآثار في التراجم والأخبار
 ج ١ - ٥ تحقيق حسن محمد جوهر (١٩٥٨/١٩٦٥) -
 خاطرات جمال الدين الأفغانى (بيروت ١٩٣١) -
 تاريخ مصر السياسى (١٩٤٧) -
 تاريخ التعليم في عصر محمد علي (١٩٣٨) -
 تاريخ التعليم في مصر ج ١ (١٩٤٥) -
 تاريخ مصر الحديث ج ٢ (١٩٢٥) -
 تاريخ مشاهير الشرق في القرن ١٩ ج ٢ (١٩٢٢) -
 تراجم أعيان القرن ١٣ وأوائيل
 القرن ١٤ هـ (١٩٤٠) -
 تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في
 عصر محمد علي (١٩٥١) -
 حركة الترجمة بمصر خلال القرن ١٩ (١٩٤٥) -

- محمد فريد وجدي دائرة معارف القرن العشرين (١٩٢٤) .
- محمد شفيق غريال وآخرون الموسوعة العربية للبصرة (١٩٦٥) .
- حسين فوزي التجار وقاعة الطمطاوى « أعلام العرب » (١٩٦٦) .
- حسين مؤنس الشرق الإسلامى فى العصر الحديث (١٩٣٨) .
- إسماعيل سرهنك حقائق الأخبار عن دول البعارة ٢ (١٩٣٢) .
- إبراهيم على طرخان مصر فى عصر دولة المماليك الجراكمة (١٩٦٠) .
- تشارلز ادمز الإسلام والتجديد « مترجم » (١٩٤٥) .
- لوثروب ستودارت حاضر العالم الإسلامى « مترجم »
- ج ١ — ٤ (١٩٣٣)
- ماك كون مصر تحت إسماعيل « بالانجليزية » (١٨٨٩) .
- تيودور روتشنيك السألة للصربية « مترجم » (١٩٣٦) .
- ألفريد سكاون بلنت التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا
- مصر « مترجم » (١٩٢٨)
- دافيدس لاندز بنوك وباشوات « مترجم » (١٩٦٦) .
- جون نينه عرابى باشا « مترجم » (١٨٣٤) .
- إدوارد ديسى إنجلترا فى مصر « بالانجليزية » (١٨٨١) .
- ماك كنزى والاس مصر والسألة للصربية « بالانجليزية » (١٨٨٣) .
- لورد كرومر مصر الحديثة « بالانجليزية » (١٩٠٨) .
- برودلى كيف دافعا عن عرابى وصعبه
- « بالانجليزية » (١٨٨٤)
- أحمد عبد الرحيم مصطفى أحداث مصر الداخلية والخارجية (١٩٥٥) .
- من عام ١٨٦٧ — ١٨٨٢ رسالة

- دكتوراه « مخطوطة بالانجليزية » . (١٩٥٥) .
وزارة الخارجية البريطانية الكتب الزرقاء « بالانجليزية » (١٨٧٩-١٨٨٢) .
جورج يانج تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية
حكم إسماعيل « مترجم » (١٩٢٥) .
شارلوت ينج مذكرات سائح في مصر « بالانجليزية » (١٨٨٤) .
كوشري للركز الدولي لمصر والسودان « بالفرنسية » (١٩٠٣) .

الدوريات

- النار - الهلال - للتقطف - للتكيت والتبكيت - الطائف - مصر - التجارة
- المحروسة - الفصح الجديد - الوقائع المصرية - للمفيد - الأهرام - المقطم -
الجوائب المصرية - المجلة المصرية - مجلة المجلات المالية - الزهور - مجلة سركيس
- للزيد - اللواء - الرسالة - السياسة الأسبوعية - البلاغ الأسبوعي - التيمس
البريطانية - الاستاندارد - البال مال جازيت - مجلة القرن التاسع عشر البريطانية .

محتويات الكتاب

الصفحة

مقدمة	٣
شكر وتقدير	٢٣

الفصل الأول

للولد والنسب والنشأة

(أ) أصل البارودي	٢٧ — ٣٦
الولد والنسب : ٢٧ — نسب البارودي : ٣٣	
(ب) مصريين الأطماع والنكسة	٣٧ — ٤٨
مذبحة القلعة : ٣٧ — فرمان النكسة : ٣٩ — بين التجنى والحقيقة : ٤٢ — وبين النهضة والتمبئة : ٤٥ .	
(ج) النشأة ، والتعليم ، والتكوين النفسى	٤٩ — ٧٠
اليتيم الصغير فى مرحلة الطفولة : ٤٩ — البارودى فى للمدرسة الحربية : ٥٣ — التمبئة النفسية : ٦٠ .	

الفصل الثانى

البارودى ومرحلة الشباب

(أ) التكوين الأدبى والثقافى	٧١ — ٧٤
مولد الشاعر : ٧١ — النهج والطريقة : ٧٤ — آفاق	

المنحة

ثقافية جديدة في الآستانة : ٧٧ — بين الحاشية وطريق

الأمل : ٨٤ .

(ب) القائد والمحارب ٨٨ — ٩٨

في بعثة عسكرية إلى أوروبا : ٨٨ — في حرب

كريد : ٩٠ .

(ج) البارودي بين غواية القصر ومفاتيح الحياة ٩٩ — ١٢٠

في تصور إسماعيل : ٩٩ — البارودي والفضل :

١٠١ — البارودي والمحرر : ١١٣ — ندوة البارودي

الأدبية : ١١٨ .

الفصل الثالث

البارودي على طريق الثورة

(١) مولد البارودي التأثر ١٢٢ — ١٥١

التحول الكبير : ١٢٢ — الثورة المبكرة : ١٢٨ —

على الطريق مع الأحرار : ١٣٧ — نيزون يهد للاحتلال :

١٤٣ — فيض للمركة : ١٤٦ .

(ب) مقدمات الثورة الوطنية ١٥٢ — ١٧٧

واستيقظ للارد : ١٥٢ — نداء الثورة : ١٥٧ — أسلوب

الرجية : ١٦٢ — تنظيم الضباط بالجيش : ١٦٩ .

الفصل الرابع

دور البارودى فى الثورة

الصفحة

(١) حتمية الثورة : ١٧٨ — ٢٣٢

الأسباب المباشرة للثورة : ١٧٨ — استقالة البارودى من
الجهادية : ١٨٥ — الزحف للقدس : ١٩٣ — التمهيد للتدخل :
١٩٧ — قمة المجذ السياسى : ١٩٩ — اللوائح الساخنة بين
البارودى وتوفيق : ٢٠٦ — الوزارة الوطنية تستقيل :
٢١٩ — الاستعمار يخلق الماذير للاحتلال : ٢٢٦ .

(ب) بين الحرب والمزينة والسجن : ٢٣٣ — ٢٦٧

ضرب الإسكندرية وإعلان الحرب : ٢٣٣ — قائد الصالحية :
٢٤١ — اللجنة الكبرى : ٢٤٧ — أمل كاسراب : ٢٥٧ .

الفصل الخامس

البارودى فى المنفى

(١) فى كولومبو بسرنديب : ٢٦٩ — ٢٩٨

رحلة التفراق الحزينة : ٢٦٩ — من ظلمة المنفى والألم تفجر
نور الشعر : ٢٧٤ — حملة التشهير : ٢٧٩ — الوحيد المانى
ومواكب الأحزان : ٢٨٧ .

(ب) فى كاندى بسرنديب : ٢٩٩ — ٣٢٧

بعد ثمانى سنوات فى المنفى : ٢٩٩ — تيار الزهد فى حياة

الصفحة

البارودي : ٣٠٥ — مراسلات البارودي في المتن : ٣١٦
— العودة من المتن : ٣٢٤ .

القسم السادس

بعد العودة من المتن

(أ) الزعيم المأثد ٣٢٩ — ٣٤٩
اللقاء بعد النوبة : ٣٢٩ — الندوة الأدبية الثانية :
٣٣٤ .

(ب) ما قبل النهاية ٣٥٠ — ٣٥٩
الكربات : ٣٥٠ — آخر أعمال البارودي : ٣٥٣ —
نهاية شاعر وزعيم : ٣٥٥ .

القسم السابع

إمام التطور في الشعر العربي الحديث

(أ) القجر الصادق للشعر العربي الحديث ٣٦١ — ٣٩٤
عصر مضى : ٣٦١ — وفجر جديد : ٣٦٧ — مناسيع
الشاعرية عند البارودي : ٣٧٧ .

(ب) البارودي في الميزان ٣٩٥ — ٤٢٥
مذهب البارودي في الشعر : ٣٩٥ — البارودي بين

المنحة

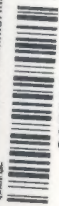
الكلاسيكية القديمة والجديدة : ٤٠٨ — الزعيم والرداد
في مدرسة المحافظين : ٤١٦ — البارودي وحركة التطور
في الشعر العربي : ٤٢١ .

(ج) مؤلفات البارودي ٤٢٦ — ٤٤٣
الديوان : ٤٢٦ — قيد الأوابد : ٤٣٤ — مختارات
البارودي : ٤٤٠ .

مصادر البحث ومراجعته

(أ) للصادر والمراجع الأدبية ٤٤٤
(ب) للصادر والمراجع التاريخية ٤٤٧
النهرس ٤٥١

Bibliotheca Alexandrina



0650651